

الأبله

فيودور دوستويفسكي

- ♦ المؤلف: فيودور دوستويفسكي
- ♦ Author : Fyodor Dostoevsky
- ♦ العنوان: الأبله
- ♦ Title: The Idiot
- ♦ ترجمة: حسين محمد القباني
- ♦ Translated by: Husein Al Kabany
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2017
- ♦ Afaq's first edition: 2017
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ Cover Design by: Amr El Kafrawy
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ Publishing Consultant: Sawsan Bashir
- ♦ المحرر: طارق هاشم
- ♦ Editor: Tarek Hashim



رقم الإيداع:

٢٠١٦ / ٢٢٤١٢

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977-765 - 073 - 1

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

فيودور دوستويفسكي

الأبله

ترجمة

حسين محمد القباني

مراجعة

علي أدهم

الجزء الثاني

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

دوستويفسكي، فيودور.

فيودور دوستويفسكي : الأبله - ترجمة: حسين محمد القباني

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2017

520 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 22412 / 2016

الترقيم الدولي 1 - 073 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء

2 - دوستويفسكي، فيودور

هذه ترجمة الجزء الثاني من كتاب :

The Idiot

By

Fyodor Dostoevsky

القسم الثالث

الفصل الأول

يشكو الناس دائماً من أنه لا يوجد بيننا رجال عمليون، ومن أن لدينا- مثلاً- مئات من السياسيين، ومئات من الجنرالات، وأن الإنسان قد يجد ما يشاء من أعداد رجال الأعمال والمديرين في الوقت الحاضر، ولكنه لن يجد لدينا رجالاً عمليين. أو أن كل واحد على الأقل يشكو لأنه لا يجد رجالاً من هؤلاء العمليين في أي مكان. بل لقد ثبت أيضاً أنه لا يوجد بيننا رجال أكفء للعمل في إدارة خطوط سككنا الحديدية، ويقال إنه من المستحيل أن تجد هيئة على شيء قليل أو كثير من الكفاءة لإدارة شركة ملاحية. فأنت تسمع عن حوادث اصطدام القطارات، أو انهيار قنطرة تحت قطار عند افتتاح خط جديد للسكك الحديدية. وأنت تقرأ عن قطار عاقته في الطريق أمطار جليدية، فتأخر خمسة أيام وكان من المفروض أن يصل في بضع ساعات. وإنك لتجد في مكان ما مئات من أطنان السلع والبضائع مُعرّضة للفساد والعطن وهي ملقاة لمدة شهرين أو ثلاثة قبل أن يتم تصريفها؛ وتأتي الأنباء من مكان آخر «وإن كان من العسير تصديقها» أن أحد مديري السكة الحديدية- أو على الأصح أحد مفتشيها- قد لَكم أحد الكتب عند بعض التجار في أنفه لأنه ضايقه بالحاحه لاستلام البضاعة، ثم يحاول هذا المفتش أن يعتذر عن فعلته «الإدارية» بأنه كان «معتكر المزاج» بعض الشيء. ويلوح

أنه يوجد الكثير من المصالح والإدارات الحكومية التي يرتبك لها خيال المرء عند مجرد التفكير فيها. فكل إنسان كان موظفًا حكوميًّا، وكل إنسان لا يزال موظفًا حكوميًّا، وكل إنسان ينوي أن يكون موظفًا حكوميًّا. وما دام هذا هو الحال، فكيف يمكن أن تنشأ هيئة إدارية من عناصر ممتازة لإدارة شركة ملاحية؟!

إن الإجابة أحيانًا عن هذا السؤال تكون بسيطة جدًا - بل إنها تبلغ من البساطة في الواقع حدًّا يجعل من العسير على الإنسان أن يصدق مثل هذا التفسير. وإنه لحق، كما قيل لنا، أن كل إنسان في هذه البلاد كان - ولا يزال - موظفًا حكوميًّا، وأن هذه الحال ظلت سائدة - طبقًا لأحسن النظم الألمانية - لمدة مائتي سنة، من الجذود إلى الحفدة؛ ولكن المشكلة هي أن موظفينا الحكوميين غير عمليين إطلاقًا، ومن ثم وصلت الأمور إلى ذلك الحد الذي أصبحت فيه المسائل النظرية ونقص الخبرة العملية تعتبران أخيرًا من أعظم المؤهلات، حتى في نظر الموظفين الحكوميين أنفسهم. ولكننا على أية حال لا نريد أن نناقش موضوع الموظفين الحكوميين وإنما قصدنا فقط أن نتحدث عن الرجال العمليين. وإنه لا يكاد يكون ثمة شك في أن التواكل والحرمان من موهبة الابتكار كانا يعتبران دائمًا في بلادنا من أفضل وأهم مميزات الرجل العملي، ولا يزال الأمر كذلك حتى الآن. ولكن إذا نظرنا إلى هذا الأمر على أنه نقيصة، فإن اللوم يقع على كاهلنا نحن. ذلك أن عدم القدرة على الابتكار كان يعتبر منذ قديم الزمان، وفي العالم كله، من أهم وأفضل الأدلة على أن الرجل منا متزن وعملي وواقعي. وأن تسعين في المائة من الناس «وهذه أقل نسبة ممكنة» يؤمنون بهذا الرأي، وأن رجلًا واحدًا فقط في كل مائة رجل هو الذي يخالفه.

إن المخترعين والعباقرة كان يُنظر إليهم في أول الأمر، ودائمًا تقريبًا، على أنهم أغبياء وحمقى. وقد تستمر هذه النظرة إليهم طوال أعمارهم، وهذا الاتجاه معروف لكل إنسان. وإذا حدث مثلاً أن كل شخص وضع أمواله - مدة عشرات السنين - في مصرف قروض البلديات واستثمر آلاف الملايين فيه بفائدة أربعة في المائة، فلا حاجة بنا إلى القول - عندما يفلس البنك ويضطر كل إنسان من المودعين إلى أن يعتمد على نفسه - بأن الجانب الأكبر من هذه الملايين سوف يضيع في التهافت الجنوني على بورصة الأوراق المالية، وفي أيدي المحتالين والغشاشين. ومع هذا فإنهم يعتبرون مثل هذا الحدث مطابقاً تماماً لأصول اللياقة والاحتشام. نعم، والاحتشام بصفة خاصة. ذلك لأننا ما دمنا حتى الآن نعتبر الإحجام المحتشم، والحرمان اللائق من الأصالة من أهم مميزات الرجل العاقل المحترم، فإنه من غير المنتظر، ومن غير اللائق أبداً أن نقبل أي تغيير مفاجئ، وأين هي الأم المحبة المخلصة - مثلاً - التي لا تستاء أو لا يستبد بها الخوف من أن ينحرف ابنها أو ابنتها قيد أنملة عن التقاليد المعروفة. وإن كل أم تقريباً لتقول وهي تحرك مهد طفلها لينام: «لا خير له أن يعيش راضياً سعيداً بلا أصالة». وإن مربيات أطفالنا، منذ قديم الزمن، ليغنين للأطفال وهن يحركن مهودهم مثل هذه الأغنية: «سوف تكون سعيداً يا حبيبي، وممراحاً؛ لأنك ستكون ذات يوم جنراً!» وهكذا نرى أنه - حتى المربيات - كن يعتقدن أن رتبة الجنرال هي ذروة السعادة الروسية. وهكذا ظلت هذه الرتبة دائماً رمزاً قوياً للحياة السعيدة المستقرة المباركة. وإنه لمن المؤكد - بعد أن يظفر الإنسان بشهادته الدراسية وبعد أن يخدم الحكومة خمسة وثلاثين عاماً، ألا يعجز عن الوصول إلى رتبة الجنرال، وعن ادخار مبلغ ضخم في مصرف قروض البلديات. وعلى هذا

النحو يتمكن الروسي - بلا مجهود تقريباً - من أن يصبح رجلاً عملياً فطناً. وإذا شئت الحقيقة، فهي أن الرجل الموهوب فقط، أو بمعنى آخر، الرجل القلق الطموح دائماً هو الذي لا يمكن أن يصبح جنراً ذات يوم. وربما كان هذا في جملته غير صحيح - ولكنه يبدو - كقاعدة - صحيحاً، وأن مجتمعنا معيب تماماً في تحديده لصفات الرجل العملي. وعلى أية حال فإننا قد انحرفنا كثيراً عن سياق القصة، ولكننا قصدنا فقط أن نقدم عبارات قليلة نشرح بها الظروف المحيطة بأصحابنا آل إيبانشين.

إن أسرة إيبانشين، أو على الأقل، الأعضاء الجادين فيها، كانوا أحياناً يحزنون لأنهم - كما يبدو - ليسوا إلى حد كبير كغيرهم من الناس. إنهم ليسوا متأكدين تماماً، ولكن لديهم شك قوي بأن الأمور لا تحدث لهم كما تحدث لغيرهم من الناس. إن غيرهم يعيشون عيشة هادئة، بينما هم معرضون لتقلبات عنيفة مستمرة. إن غيرهم يحافظون على خط سيرهم بسهولة، أما هم فإنهم ينزلقون مع أبسط عقبة. إن منازل غيرهم تُدار بطريقة خالية من الجراة، أما منزلهم فإنه يُدار بطريقة مختلفة. وربما كانت المسز إيبانشين هي الوحيدة التي تشعر بهذه الملاحظات المثيرة للقلق. ورغم أن البنات لا ينقصهن الذكاء، فقد كنَّ ما زلن صغيرات. وكذلك كان الجنرال ذكياً، إلا أنه ضيق التفكير، وكان يكتفي في كل مشكلة بالهمهمة، تاركاً الأمر لزوجته. فتكون النتيجة أن يقع عليها التبعة. وليس الأمر أنهم يميزون أنفسهم عن غيرهم كأسرة ذات أصالة خاصة، أو أن تنكبهم الطريق السوي يؤدي بهم إلى الخروج عن حدود اللياقة والأصول، ليس ثمة شيء مقصود كهذا، بل ليس ثمة غرض يخامرهم في هذا الأمر؛ ومع ذلك ورغم كل شيء فإن هذه الأسرة، مع تمتعها بالاحترام الكامل لم تكن تماماً كما ينبغي أن تكون الأسر

المحترمة جدًا. وقد ظلت المسز إيبانشين لمدة طويلة، يخامرها الشعور بأن المشكلة ترجع إلى «شخصيتها السيئة الحظ» وقد زاد هذا من حزنها. كانت دائماً تنحي باللوم على تقلبات مزاجها الحمقاء الشاذة. وبسبب شعورها الدائم بعدم الاستقرار، وبرغبتها الدائمة في الاندفاع، كان يبدو عليها أنها دائماً تفضل طريقها، وتنغمس في مشكلات تتعلق بأبسط وأيسر أمور الحياة.

وقد ذكرنا في بدء قصتنا أن آل إيبانشين موضع حب وتقدير جيرانهم، فالجنرال إيبانشين، كان يُستقبل - رغم أصله المتواضع، بالاحترام في كل مكان. وقد كان جديراً بهذا، لثرائه ومكانته من ناحية ؛ ولأنه - إلى حد ما - رجل لطيف جداً، من ناحية أخرى. ولكن نوعاً معيناً من الغباء يبدو من الصفات اللازمة، إن لم يكن لجميع الشخصيات العامة، فعلى الأقل لرجال المال والأعمال الجادين. يضاف إلى هذا أنه غير متكلف أو متغطرس في سلوكه. فهو يعرف متى يجب أن يصمت دون أن يسمح لأحد أبداً أن يمتنه. وعدا هذا - وذلك أهم من كل شيء - كان يتمتع برعاية سامية.

أما المسز إيبانشين، فإنها كانت تنتمي - كما يعرف القارئ - إلى أسرة أرستقراطية. وإذا كان الروسيون، حقاً، يهتمون بالأصدقاء ذوي النفوذ، أكثر من اهتمامهم بذوي الأصول العريقة. فإنها كانت تجمع بين الصفتين. فقد كانت موضع التقدير، بل والحب، من ذوي المكانة الرفيعة في المجتمع، الذين كان غيرهم ينهجون سبيلهم في تقديرها واحترامها. ويلوح أننا لا نكاد نكون في حاجة إلى أن نشير إلى أنه ليس لمتاعبها ومشاغلها الأسرية أساس، أو أن خيالها يزيد منها إلى حد غريب، ولكن إذا كان ثمة ثؤلول على جبينك أو أنفك، فإنك تتصور أن الدنيا كلها تنظر إليك، وأن الناس سيجعلونك موضع السخرية لهذا السبب حتى لو أنك كنت مُكتشف أمريكا. وليس

من شك في أن المسز إيبانشين كانت تُعتبر «غريبة الأطوار» في الوسط الاجتماعي، ولكن تقدير الناس لها، رغم هذا، لم يقل. ولكن المؤسف له أنها أخذت تكف عن الاعتقاد في هذا التقدير. فهي عندما تفكر في بناتها تقول لنفسها إنها عائق - أكثر مما تكون عوناً - في مستقبلهن، وأن أخلاقها ومزاجها يتسمان بالغرابة والشذوذ بحيث لا يُحتملان. وكانت بطبيعة الحال تلقي اللوم على الظروف المحيطة بها. وهكذا كانت تتشاجر ليل نهار مع زوجها وبناتها اللاتي كانت في الواقع تحبهن إلى حد التضحية بالنفس، بل يمكن القول، إلى حد الوله.

وكانت فوق هذا كله تشعر بالحزن كلما فكرت في أن بناتها قد يكبرن «غريبات الأطوار» مثلها. وفي اعتقادها أنه لم يكن في المجتمع بنات مثلهن. وكثيراً ما رددت لنفسها القول: «إنهن سيصبحن من معتنقي المذهب العدمي». وقد ظلت تعذب نفسها أعواماً بهذه الفكرة، وبهذا السؤال: «لماذا لم يتزوجن؟».

«لكي يزعجن أمهن، هذا هو هدفهن الوحيد في الحياة، ولا يمكن أن يكون ثمة شيء غير هذا». والواقع أن هذا كله جزء من هذه الآراء الحديثة، من هذه المشكلة التعسة، مشكلة المرأة! فم منذ ستة أشهر خلت، تراءى لأجلاليا أن تقص شعرها الفاخر. فيا للعجب! فحتى أنا، عندما كنت في شبابي، لم يكن لي شعر مثله! وكان المقص في يدها، وقد اضطرت للركوع أمامها لأتوسل إليها.. ولكنها قصته حباً في الإساءة، ولمجرد إغاضة أمها؛ لأنها فتاة مشاغبة، هوائية، وطفلة مدللة حقاً!.. عنيدة وشريرة إلى حد مزعج! ثم ألكسندرا التي أرادت أن تحلق رأسها؛ لا لأنها هوائية أو شريرة، وإنما لأنها حمقاء صغيرة، إذ إن أجلاليا أقنعتها بأن نومها سوف يتحسن إذا

أزالت شعرها، كما أنها لن تعاني من الصداق بعد ذلك! ثم كم عدد الذين تقدموا للزواج منهن خلال الأعوام الخمسة الأخيرة! وما أفخم ما عرضوا عليهن أيضًا! فأى شيء يردن أكثر من هذا؟ فلماذا لا يتزوجن؟ لا شيء إلا لتكدير أمهن.. وليس ثمة سبب آخر!«.

ولكن المسز إيبانشين أحست ببعض العزاء لأنه أصبح في مقدورها أن تقول إن إحدى بناتها أدليدا، قد استقرت أخيرًا «لسوف نفرغ من همها» هكذا أعلنت بصوت مرتفع، رغم أنها كانت، حين تتحدث إلى نفسها، تعرب عن آرائها بأسلوب أكثر حنانًا. وكانت الخطبة ملائمة، سعيدة، وموضع رضا المجتمع من ثم. فالأمير «س» كان رجلًا مرموقًا، موفور المال، وكانت زوجته في المستقبل متفانية في الإخلاص له. فماذا يُراد أكثر من هذا. إن المسز إيبانشين تحس نحو هذه الفتاة بقلق أقل، رغم أنها تعتبر ميولها الفنية موضع شبهة دائمًا! ولكنها تعوض هذه الميول - على حد تعبير أمها - بالطبيعة المرحية، وبالكثير من الفطنة والتعقل. أما الذي كان يؤرقها أكثر من غيرهن فهو مستقبل أجلايا. أما بشأن ابنتها الكبرى، ألكسندرا، فإن الأم لم تعرف قط هل ثمة سبب للقلق أم لا. ففي بعض الأحيان كانت تشعر بأنه لم يعد هناك ما يُنتظر لها بعد. فهي الآن في الخامسة والعشرين، ولا بد أنه قد قُدِّرَ عليها أن تعيش عانسًا. «وبمثل هذا الجمال أيضًا؟» لقد أمضت الأم ليلة كاملة تبكي وتندب، بينما كانت سبب كل هذا الحزن، نائمة في سلام وهدوء. وكانت الأم تتساءل «ما شأن هذه الفتاة؟ أهي عدمية المذهب أم مجرد غبية حمقاء!«.

ولكن المسز إيبانشين كانت تعلم تمامًا كيف أنه ليس ثمة ما يدعو أبدًا إلى هذا السؤال الأخير. فقد كانت تقدر إلى حد كبير حكمة ألكسندرا،

وكثيرًا ما كانت تستشيرها في المشكلات. ولكنها لم تشك لحظة واحدة في أنها «إوزة حمقاء». «فهي دائمًا هادئة، لا يثيرها شيء، رغم أن الإوزة الأحق ليس هادئًا دائمًا، أوه إنني لا أستطيع أن أفهم معنى لهذا» إن الابنة الكبرى توحى لأُمها دائمًا لونها من العاطفة المحيرة، وهذا ما لا تشعر به في حالة أجلايا وذلك رغم أن هذه تعتبر حبيبته الأثيرة. ومن الممكن القول إن مثل هذه السّورات والتعبيرات المماثلة «للإوزة الحمقاء» لم تكن تثير في ألكسندرا غير الضحك. «وهي التعبيرات التي كانت تكشف عادة عن اهتمام الأمومة». وفي بعض الأحيان كانت أبسط الأشياء تثير ضيق المسز إيبانشين وتدفعها إلى الثورة المجنونة. فمثلاً كانت ألكسندرا إيفانوفنا تحب النوم في ساعة متأخرة، ودائمًا تحلم، وإن كانت أحلامها تتميز بالبراءة والسذاجة كأحلام طفلة في السابعة من عمرها. وكانت براءة هذه الأحلام بالذات هي التي تسخط أمها. وقد حدث ذات مرة أنها حلمت بتسع دجاجات، وتسبب هذا الحلم في مشاجرة جدية دون أن يعرف أحد لماذا. وفي مرة أخرى رأت في المنام - وكان هذا أغرب شيء - حلمًا فيه لمحة من الأصاله. لقد حلمت براهب في غرفة مظلمة كانت في خوف شديد جدًا من دخولها. واندفعت أدليدا وأجلايا وهما تضحجان بالضحك لتقصا هذا الحلم على أمهما، ولكنها غضبت أشد الغضب وقالت إنهما حمقاوتان؛ وقالت لنفسها:

«هيه! إنها غبية كآية حمقاء وإوزة مأفونة لا حيلة فيها. وليس ثمة شيء يثيرها. ومع ذلك فهي غير سعيدة، وإن الإنسان ليشعر في بعض الأيام بالتعاسة لمجرد النظر إليها! وإنني لأعجب، لماذا هي غير سعيدة». وكانت المسز إيبانشين في بعض الأحيان تلقي هذا السؤال على زوجها بنفس اللهجة التهديدية المعتادة التي يستعملها الإنسان في طلب الرد السريع.

وكان الجنرال إيبانشين يقطب جبينه، ويهز كتفيه، ثم يدلي أخيرًا برأيه فيقول: «إنها في حاجة إلى زوج».

فترد عليه زوجته قائلة بحدة:

«حاشا لله أن يكون له مثل آرائك يا إيفان فيدروفيتش، أو أن يكون غليظًا وفظًا مثلك».

وهنا يبادر الجنرال بالهرب، ثم لا تلبث المسز إيبانشين أن تهدأ مرة أخرى. وفي نفس الليلة تكون كالمعتاد طبعًا، شديدة الاهتمام بأمره، والتلطف معه، والاحترام لزوجها هذا «الفظ الغليظ»، زوجها «العزیز إيفان فيدروفيتش» لأنها لم تكن قد كفت عن حبه، بل إنها لا تزال «مغرمة» به. وهو يعرف هذا تمامًا، ويكن لها من ناحيته أعظم التقدير والاحترام.

إلا أن أكبر ما يُقلق الأم، دائمًا، هي أجلايا. إذ كانت تقول لنفسها: «إنها تمامًا مثلي، صورة طبق الأصل مني في كل شيء - طاعية، وشيطانة حقيقية صغيرة، وعدمية المذهب، غريبة الأطوار، حمقاء شريرة، يا أله! ما أتعس ما سوف تكون!».

ولكن، كما سبق القول، كان زواج أدليدا الغريب بمثابة بلسم لمشاعر أمها، ومن ثم فقد نسيت، لمدة شهر كامل، كل مخاوفها ومنغصاتهما..

لقد تقرر مصير أدليدا. وإن اسمها - مقترنًا باسم أجلايا - أصبح موضع أحاديث المجتمع. فالناس كانوا يتهايمسون بأن أجلايا أيضًا أصبحت «في حكم المخطوبة». وكانت أجلايا «خلال هذه الفترة» تبدو حلوة، حسنة السلوك حتى امتلأ قلب أمها بالبهجة. وطبعًا كان ينبغي دراسة إيفيني بافلوفيتش بعناية أولًا وقبل أن تتخذ الخطوة الأخيرة. ولكن حقًا لشد ما

غدت أجلايا بارعة الجمال. بل إنها في الواقع كانت تزداد جمالاً كل يوم! ثم.. نعم، ثم يطل هذا الأمير البغيض بوجهه مرة أخرى، وإذا كل شيء ينقلب في الحال رأساً على عقب، وإذا كل شيء يصبح مجنوناً كأرانب مارس!

فماذا حدث في الحقيقة؟

لو كان الأمر يتعلق بأسرة أخرى غير أسرة إيبانشين، لما حدث شيء معين بالذات. ولكن الذي جعل المسز إيبانشين تختلف عن غيرها، هو إسرافها في الشعور بالقلق والجزع، ومن ثم استطاعت أن تكتشف في أبسط المشكلات والاشتبكات العادية التي تحدث كل يوم، أموراً كانت في بعض الأحيان تزعجها حتى تسقمها وتدفع بها إلى توقع أسوأ النتائج.

كيفية يكون ولا شك حالها إذن وهي ترى - بين هواجسها ومخاوفها الخيالية - أمامها سبباً حقيقياً للجزع والكدر؟ - سبباً من المحتمل حقاً أن يثير شكوكها وريبته.

وكانت تقول لنفسها وهي تجر الأمير معها إلى بيتها، ثم عندما أجلسته إلى المائدة المستديرة التي كانت الأسرة قد اجتمعت حولها فعلاً:

«كيف جرؤوا.. كيف جرؤوا أن يكتبوا هذا الخطاب الغفل من الإمضاء الذي يخبرونني فيه بأن لأجلايا صلة بناستاسيا فيليبوفنا؟ كيف جرؤوا على مجرد التفكير في شيء كهذا؟ لينبغي أن أموت خجلاً إذا كان في هذا ذرة من حقيقة أو إذا اضطررت لأن أطلع أجلايا نفسها على هذا الخطاب. من ذا الذي جرؤ على القيام بهذه الدعابة الثقيلة معنا، نحن آل إيبانشين! لماذا لم تذهب إلى إيلاجين بدلاً من المجيء هنا، لقد قلت لك يا إيفان فيدروفيتش إنه كان يحسن بنا أن نمضي إلى إيلاجين هذا الصيف. هذه كلها غلطتك.

ويمكنني القول إن فاريبا هي التي أرسلت هذا الخطاب. إن تلك المرأة تفعل هذا من أجله، وأنا أعرف هذا، لكي تبين أن في مقدورها أن تجعل منه الآن مغفلاً عندما تعود أن يهديها اللآلئ.

ولكن بعد كل ما يُقال، فنحن منغمسون في هذا الأمر.. بناتك منغمسات فيه يا إيفان فيدروفيتش، بناتك فتيات المجتمع.. فتيات كريمات في سن الزواج. لقد كن موجودات، وسمعن كل شيء دار. ولقد انغمسن أيضًا في ذلك المنظر مع أولئك الشبان الفظيعين. ولا شك أنك تبتهج حين تذكر أنهم سمعن كل شيء. وأنا لن أستطيع أن أغفر لذلك الأمير التعس. ولن أغفر له أبدًا! ثم لماذا، إذا سمحت، أصيبت أجلايا بنوبة اضطراب عصبي خلال الأيام الثلاثة الماضية؟ لماذا تشاجرت مع جميع أخواتها حتى مع ألكسندرا التي طالما احترمتها، وطالما قبلت يديها و كأنها أمها؟ ما كل هذه الألغاز التي في حياتها، والتي علينا أن نستنتجها! وما شأن جافريلا أورداليونوفيتش بالموضوع؟ لماذا أخذت على عاتقها الدفاع عنه في هذا الصباح، ثم انفجرت باكية لهذا السبب؟ لماذا أشير إلى ذلك «الفارس المسكين» اللعين في الخطاب الغفل من الإمضاء؟ ولماذا اندفعت أنا إليه الآن كالمجنونة لأجره إلى هنا؟ أعتقد أنني قد جُننت في النهاية! ماذا قد فعلت الآن بحق السماء؟ أأتحدث إلى شاب عن أسرار بناتي، وعن أسرار تخصه هو أيضًا؟ حمدًا لله إنه أبله، وصديق للأسرة أيضًا! يقينًا لم تقع أجلايا في الحب مع أبله كهذا! يا للعجب! لينبغي أن نوضع جميعًا في خزانات زجاجية، وأنا أول الجميع - ثم نعرض على الناس كغرائب وعجائب مقابل عشر كوبيكات للفرجة! إنني لن أغفر لك أبدًا لكل هذا يا إيفان فيدروفيتش.. أبدًا! انظر إليها الآن، لماذا لم تسخر منه؟ لقد قالت إنها سوف تفعل، ولكنها لا تفعل.. انظر هناك؟ إنها

تحملق فيه بكل عينيها ولا تتحرك، ومع ذلك فقد طلبت منه ألا يأتي. إنه يبدو شاحباً إلى حد كبير. وذلك الثرثار البغيض إيفيني بافلوفيتش، إنه يتفرد بالمحادثة كلها، فلا يستطيع أحد غيره أن يدلي بكلمة. إن في مقدوري أن أعرف حقيقة كل شيء بسرعة لو أنني استطعت فقط تغيير الموضوع».

وكان الأمير في الواقع شديد الامتناع، وفيما هو جالس إلى المائدة كان يحس، كما يلوح، بمشاعر متناوبة من الجزع والابتهاج.

أوه، لشد ما كان يحس بالفرع حين يلتفت إلى جانب معين - إلى ركن خاص معين - حيث كان يعلم عن يقين أن عيين سوداوين كانتا ترمقانه بإمعان، ثم لشد ما كان يحس بالسعادة وهو يفكر في أنه يجلس مرة أخرى بينهم، وأنه بين الحين والآخر يسمع ذلك الصوت المألوف تمامًا، رغم أنها كتبت إليه وحرمت عليه العودة مرة أخرى!

وقال لنفسه:

«ترى ماذا سوف تقول لي بحق السماء؟ إنني لأتساءل؟».

إنه لم يكن قد تفوه بكلمة بعد، وإنما جلس في صمت ينصت إلى تدفق إيفيني بافلوفيتش في الحديث، وكان هذا لم يبد في يوم ما أكثر سعادة وانفعلاً كما بدا في هذا المساء! وأنصت الأمير إليه، ولكنه لم يستوعب، لمدة طويلة كلمة واحدة مما قال.

وكانت الأسرة كلها مجتمعة فيما عدا الجنرال إيبانشين الذي لم يكن قد عاد بعد من المدينة. وكان الأمير «س» موجوداً، وكان الجميع ينوون أن يخرجوا بعد قليل ليسمعوا عزف الفرقة الموسيقية بالحديقة العامة.

ولم يلبث كوليا أن جاء وانضم إليهم. وقال الأمير لنفسه: «هكذا

يستقبلونه كالمعتاد، رغم كل شيء».

وكان بيت آل إيبانشين الريفي بناءً جذاباً مشيداً على طراز الشاليهات السويسرية، ومكسواً بالنباتات المتسلقة. وكان مُحاطاً من جميع الجوانب بحديقة زهراء، وكالمعتاد جلست الأسرة في الشرفة الواسعة المؤدية إلى هذه الحديقة كما هو الحال في بيت الأمير.

وكان الواضح أن موضوع الحديث على غير ما يهوى المجتمعون، وكان بعضهم يشعر بالبهجة لو تغير هذا الموضوع، ولكن إيفيني ما كان ليتوقف عن الحديث، بل إن وصول الأمير قد حفزه، كما بدا، إلى بذل المزيد من جهوده البلاغية.

وقطبت المسز إيبانشين جبينها، ولكنها لم تكن قد أدركت بعد لب الموضوع الذي انبثق من مناقشة حامية. وجلست أجلايا بمفردها، تكاد تكون منعزلة في ركن، تنصت في صمت عنيد.

واستطرد إيفيني بافلوفيتش في المناقشة بحرارة قائلاً:

- معذرة، إنني لم أقل كلمة واحدة ضد مذهب الأحرار.. فليس هذا المذهب خطيئة، بل إنه جزء ضروري للكل الشامل. وبدونه فإن هذا الكل الشامل لينهار ويتحطم وإن لمذهب الأحرار نفس حق البقاء الذي لمذهب المحافظة المسرفة. ولكنني أهاجم مذهب التحرر الروسي، وأنا أهاجمه لسبب بسيط، وهو أن المتحرر الروسي، ليس متحرراً روسياً، وإنما متحرر غير روسي. عرّفني بمتحرر روسي حقيقي وأنا أقبله أمام الجميع بكل سرور. فقالت ألكسندرا وقد اضطربت وجتثاها بالانفعال والتوفز العصبي:

- هذا إذا اهتم هو بأن يقبلك!

وقالت الأم لنفسها:

«هكذا هو الحال دائماً... إنها لا تفعل شيئاً غير أن تنام وتأكل طيلة العام، ثم إذا بها تتحمس فجأة بطريقة غير مفهومة إطلاقاً».

ولاحظ الأمير أن ألكسندرا كانت تبدو غاضبة من إيفيني بافلوفيتش لأنه كان يتحدث عن موضوع خطير بطريقة خفيفة سطحية، متظاهراً بالحماسة، ولكن في تهكم خفي.

وقد استطرد يقول:

- كنت أقول الآن، قبل أن تأتي بقليل، أيها الأمير، إنه لا يوجد شيء قومي حتى الآن، فيما يتعلق بالتححرر. وليس ثمة شيء يقوم به الأحرار، أو قاموا به، على أية درجة من القومية. إنهم ينحدرون من طبقتين: من طبقة ملاك الأراضي القدامى، ومن الأسرات الكهنوتية..

وسأله الأمير «س» قائلاً:

- كيف يمكن ألا يكون فيما قاموا به شيء روسي؟

- قد يكون روسياً، ولكنه ليس قومياً. إن أحرارنا ليسوا روسيين، وكذلك المحافظون فينا، ويمكنك أن تتأكد أن الأمة لا تعترف بأي شيء يقوم به السادة ملاك الأراضي، أو الطبقة المتوسطة، أو ما سوف يقومون به أيضاً.

فهتف الأمير «س» بحرارة:

- ها! هذا حسن! كيف يمكن أن تقرر مبدأ كهذا! وذلك إن كنت جاداً. فأنا لا أستطيع أن أقبل هذا القول عن ملاك الأراضي دون أن أعارضه. عجباً إنك نفسك من ملاك الأراضي!

وقالت ألكسندرا:

- أعتقد أنك ستقول إنه ليس ثمة طابع قومي في آدابنا أيضًا!

- آه، إنني لست حجة كبيرة في الشؤون الأدبية. ولكنني أعتقد عن يقين أن الأدب الروسي ليس روسيًا، فيما عدا إنتاج لومونوسوف وبوشكين وجوجل.

- إن هذا من ناحية أولى، اعتراف ضخم، ومن ناحية ثانية فإن أحد هؤلاء المذكورين فلاح، والاثنين الآخرين من ملاك الأراضي.

- تمامًا، ولكن لا تتعجل الأمر هكذا! لأنه منذ أن كان على هؤلاء الثلاثة، وهؤلاء الثلاثة فقط، أن ينتجوا شيئًا من صميم ذواتهم، أي ليس مستعارًا، فإنهم على هذا الأساس قد أصبحوا قوميين حقًا. وإن أي روسي سيقول أو يقوم بشيء كامل الأصالة حقًا، ممكن أن أن يُسمى قوميًا منذ تلك اللحظة وذلك رغم أنه قد لا يكون قادرًا على الحديث باللغة الروسية. وهذا في رأيي مبدأ أو أمر بديهي. ولكننا لا نتحدث الآن عن الأدب، لقد بدأنا الحديث عن الاشتراكيين. جميل إذن، إنني أصر على أنه لا يوجد اشتراكي روسي واحد. لا يوجد، ولم يوجد قط من قبل واحد كهذا؛ لأن الاشتراكيين جميعًا ينحدرون من هاتين الطبقتين: طبقة ملاك الأراضي، والطبقة المتوسطة. وأن جميع اشتراكيينا البارزين ليسوا إلا من ملاك الأراضي الأحرار القدامى، إنهم كانوا رجالًا أحرارًا في عهد السخرة، لماذا تضحكون! أعطوني كتبهم، أعطوني دراساتهم ومذكراتهم، ورغم أنني لست ناقدًا أدبيًا، إلا أنني أستطيع أن أثبت بوضوح، كوضوح النهار، أن كل فصل وكل كلمة في كتاباتهم كانت من أعمال ملاك الأراضي السابقين من أصحاب المدرسة القديمة. لسوف تجدون أن كل مباهجهم، وكل مظاهر كرمهم نابعة من روح التملك،

وأن كل آلامهم ودموعهم منبعثة من نفس هذا النبع، إنكم جميعاً تضحكون مرة أخرى، وأنت أيها الأمير، تضحك أيضاً! ألا تتفق معي؟

وكان الجميع في الواقع، يضحكون، والأمير بينهم. وقد توقف هذا الضحك فجأة بعد أن جفل كتلميذ ضُبط متلبساً في حالة شغب.

ثم قال الأمير:

- إنني لا أستطيع أن أقول لك في الحال ما إذا كنت أتفق معك أم لا. ولكنني أؤكد لك أنني أنصت إليك بكل استمتاع.

وقال هذا وهو يكاد يلهث بالانفعال، وقد تفصد العرق البارد على جبينه. وكانت تلك أولى كلماته منذ دخل البيت؛ وقد حاول أن يرفع عينيه، ويتلفت حوله، فلم يجرؤ. ولاحظ إيفيني بافلوفيتش ارتبأكه، فابتسم واستطرد يقول في جد ظاهر، بل وبطريقة تنم عن النشوى، ولكن لمحات من «السخرية» كانت تبدو وراء كل كلمة، وكأنما كان يضحك في سره من الهراء الذي يتحدث به:

- لسوف أذكر لكم الآن حقيقة واحدة أيها السادة والسيدات، هذه الحقيقة التي يمكن القول إنني أنا الذي اكتشفتها بنفسني، وعلى أية حال من الحالات فإن أحداً من قبل لم يكتب أو يقل عنها شيئاً. وفي هذه الحقيقة تتركز الروح التحررية الروسية من النوع الذي كنت أشير إليه الآن.

فمن ناحية أولى، ما هو مذهب التحريرين! إنه، بوجه عام، ليس إلا هجوماً «وكون هذا الهجوم خطأ أم صواباً فهذه مسألة أخرى» على وجود النظم السائدة، أليس كذلك؟ نعم جميل جداً! إذن فإن (حقيقتي) تتكون في هذا الرأي، وهو أن مذهب الأحرار الروسي ليس هجوماً على وجود النظم

السائدة، وإنما على روح هذه النظم في ذاتها، بل في الواقع ضد صاحبة هذه النظم، أي ليس هجوماً على نظم الأشياء السائدة في روسيا، وإنما على روسيا نفسها. إن صاحبنا المتحرر الروسي يتمادي فينكر روسيا، أو بمعنى آخر يكره ويلطم أمه! فكل مصيبة أو كارثة تحيق ببلاده، الأم، تفعم نفسه بالبهجة، بل وبالنشوة. إنه يكره التقاليد القومية، والتاريخ الروسي، وكل شيء. فإذا كان لديه أي مبرر، فهو أنه لا يعرف ماذا هو يفعل، ثم يؤمن بأن كراهيته لروسيا هي أعظم نوع مثمر من النزعة التحررية «إنكم كثيراً ما ترون متحرراً هو موضع الهتاف والتقدير من زملائه، بينما هو، في الحقيقة، أشد المحافظين تعصباً وحماقة وتزمتاً دون أن يدرك هذا». إن بعض أصحابنا «الروسيين الأحرار» يخطئون الرأي في الكراهية لروسيا، ويحبونها أخلص الحب لبلادهم، ويفخرون بأنهم أدرى من غيرهم بإدراك ما ينبغي أن يكون عليه حب الوطن. ولكنهم في العهد الأخير أصبحوا أكثر تحفظاً، وغدوا يخبجلون من عبارة «حب الوطن» وراحوا يعدمون روح هذه الكلمات باعتبارها خاطئة، وحقيرة، وغير لائقة. هذه هي الحقيقة التي أؤمن بها، وهي في الوقت نفسه ظاهرة لم تتكرر في أي زمان أو مكان، ومن ثم، فرغم أنني مؤمن بهذه الحقيقة، إلا أنني أدرك أنها ظاهرة عارضة، ومن المحتمل جداً أن تزول. فليس من الممكن أن يكون هناك شيء، في أي مكان آخر، مثل المتحرر الذي يكره وطنه حقاً، وكيف يمكن شرح هذه الحقيقة بيننا؟ عن طريق تقديرنا الأول بأن المتحرر الروسي، ليس متحرراً روسياً. هذا هو التفسير الوحيد في رأيي.

وهنا قال الأمير «س» جاداً:

- إنني أعتبر كل ما قلته فكاكة.

وقالت ألكسندرا:

- إنني لم أر كل طوائف المتحررين، ولهذا لا أستطيع أن أجعل من نفسي حكمًا! ولكنني سمعت - باستنكار - كل ما قلته. لقد تناولت بعض الحالات العرضية، وصغت منها قانونًا عامًا، جائرًا.

فقال إيفيني بافلوفيتش:

- حالات عرضية! أيعتبر هذا الأمير حالات عرضية!

فقال الأمير:

- يجب أن أعترف أيضًا إنني لم أر الكثير في هذا الموضوع أو أتمادى في بحثه، إلا أنه لا يسعني إلا أن أقول إنك في قليل أو كثير على صواب، وأن التحررية الروسية - أو على الأقل، الجانب الذي تراه منها - هي في الواقع شيء يتجه إلى كراهية روسيا نفسها، وليس فقط كراهية النظم السائدة فيها بوجه عام. وبطبيعة الحال ليس هذا إلا جانب من الحقيقة؛ لأنك لا تستطيع أن تضع قانونًا عامًا لجميع..

واضطرم وجه الأمير، وقطع حديثه دون أن يتم ما كان ينوي أن يقول. وكان، برغم حيائه، واضطرابه، لا يملك نفسه من الاهتمام الشديد بالمحادثة. فمن بين مميزاته الخاصة، ذلك السمت الساذج الذي ينصت به دائمًا إلى المناقشات المهمة المثيرة، والذي يجيب به عن أية أسئلة توجه إليه بشأن الموضوع المعروض للبحث. وكانت نفس تعبيرات وجهه تنم بوضوح تام عن هذه البساطة أو السذاجة، وعن الإيمان بإخلاص الغير، وعن اليقين بأن حديثهم لا يحمل في طياته أي لون من السخرية أو التهكم.

ولكن رغم أن إيفيني بافلوفيتش قد وجه هذا السؤال إلى الأمير لا شيء

إلا للضحك من عقليته البسيطة الجادة، إلا أنه الآن قد دهش حين وجد نفسه، بعد هذه الإجابة قد بدا جاداً، فراح يوجه إلى الأمير ميشكين نظرات جدية كأنما لم يكن يتوقع هذا النوع من الإجابة إطلاقاً. وقد هتف قائلاً:

- عجباً! ما أغرب هذا؟ إنك لم تجب عليّ في جد، بالتأكيد! أليس كذلك؟

فسأله الأمير قائلاً في دهشة:

- ألم تكن جاداً في توجيه سؤالك إليّ؟

وضحك الجميع.

وقالت أديليدا:

- ثقفوا من هذه الحقيقة، وهي أن في مقدور إيفيني بافلوفيتش أن يجعل كل شيء أو كل شخص يقع في يده شيئاً غريباً مضحكاً. وليتكم تسمعون الأشياء التي يقولها أحياناً في جد تام.

وقالت ألكسندرا:

- إن هذه المناقشة، في رأيي، كانت مؤلمة من أولها إلى آخرها وما كان ينبغي أن نخوض فيها.. إننا في الطريق إلى نزهة على الأقدام..

فقال إيفيني:

- هلم إذن. فإنه لمساء رائع. ولكن، لكي أثبت هذه المرة أنني أتكلم جاداً، جدّاً، ولا سيما لكي أثبت هذا للأمير، «لأنك، أيها الأمير، قد اكتسبت اهتمامي إلى حد كبير، وأقسم لك أنني لست جحشاً كما قد أبدو في بعض الأحيان»، «وذلك رغم اعترافي بأنني جحش فعلاً» و، حسنًا، أيها السادة

والسيدات، هل تسمحون لي أن أوجه سؤالاً آخر، واحداً فقط، إلى الأمير، بدافع من الفضول الخالص؟ ولسوف يكون السؤال الأخير. وقد خطر هذا السؤال ببالي منذ ساعتين «وها أنت ترى أيها الأمير أنني جاد التفكير في بعض الأحيان» وأني قد أصدرت قراراً الخاص بشأنه، وأحب الآن أن أسمع ما سوف يقوله الأمير عنه.

لقد استخدمنا في المناقشة منذ قليل عبارة «الحالة العارضة» وهي عبارة لها دلالتها، وكثيراً ما نسمعها، حسناً. إن كل شخص كان، منذ عهد غير بعيد، يقرأ أو يتحدث عن تلك الجريمة الرهيبة التي قتل فيها ستة أشخاص بيد شاب، وعن الدفاع العجيب الذي أدلى به المحامي الموكل عنه، والذي أشار فيه إلى أن حالة الفقر المدقع التي كان عليها الجاني، قد أثارت تفكيره بطبيعة الحال لكي يقتل هؤلاء الأشخاص الستة. وأنا لا أردد هنا نفس كلماته ولكنني أذكر معناها أو ما يقرب جداً من هذا المعنى. وفي رأيي الآن، أن هذا المحامي الذي قدم مثل هذا الدفاع العجيب، كان - على الأرجح - مقتنعاً تمام الاقتناع، بأنه يقرر وجهة نظر من أشد وجهات النظر التحررية، والإنسانية، أو الفكرية التي يمكن تقديرها في الوقت الحاضر. والآن هذا الانحراف، وهذه القدرة على تحريف وجهات النظر إلى الأشياء، تعتبر حالة خاصة أم عارضة أم مبدأ عاماً!

وضحك الجميع..

وهتفت ألكسندرا وأدليدا في وقت واحد:

- حالة خاصة.. عارضة، طبعاً!

وقال الأمير «س»:

- دعني أذكر مرة أخرى يا إيفيني بأن فكاهاتك أصبحت مهلهلة بعض الشيء.

فقال إيفيني وهو يحدق في وجه الأمير ميشكين بنظرات جادة، ودون أن يحفل بالملاحظة الأخيرة:

- ما رأيك في هذا أيها الأمير؟ ما رأيك؟ هل تراها حالة خاصة أم عادية؟
أهي مبدأ أم استثناء؟ وأنا أعترف أنني وضعت هذا السؤال لك بصفة خاصة.

فقال الأمير بهدوء، ولكن بحزم:

- لا، لا أعتقد أنها حالة خاصة.

وصاح الأمير «س» في شيء من الاستياء:

- يا عزيزي الأمير، ألا ترى أنه يلعب بك؟ إنه يسخر منك ببساطة،
ويريد أن يتخذ منك مادة للفكاهة.

فقال الأمير وقد اضطرم وجهه وأغضى بعينه:

- لقد ظننت إيفيني جادًا في حديثه.

فاستطرد الأمير «س» قائلاً:

- يا عزيزي الأمير، تذكر ما كنا نقوله، أنت وأنا، منذ شهرين أو ثلاثة.
فقد تحدثنا عن هذه الحقيقة، وهي أن في مقدور الإنسان، في محاكمنا
العلمية الجديدة، أن يتعرف على كثير من المحامين الشبان الموهوبين
الناهين. فكم كنت مسرورًا بهذه الأوضاع كما وجدناها. وكم كنت سعيدًا
وأنا أرى بهجتك وقد قلنا معًا إنه وضع يدعو إلى الفخر به. ولكن هذا الدفاع
السمح الذي أشار إليه إيفيني، هذا الدفاع العجيب يمكن أن يكون طبعًا حالة

عارضة، حالة تعتبر واحدة في الألف.

ففكر الأمير قليلاً، ولكنه سرعان ما أجابه بصوت كله اليقين، رغم أنه استمر يتحدث في شيء من الخجل والتردد:

- لقد أردت فقط أن أقول إن تشويه الأفكار والمفاهيم الذي عبر عنه إيفيني بافلوفيتش، موجود بكثرة، وهو أقرب جدًّا لأن يكون مبدأ عامًا منه إلى استثناء، وذلك هنا في روسيا لسوء الحظ. وعلى هذا الأساس، لو لم يكن هذا التشويه هو المبدأ العام، فربما كانت هذه الجرائم الرهيبة لا تقع بهذه الكثرة.

فقال الأمير «س»:

- جرائم رهيبة! ولكنني أستطيع أن أؤكد لك أن جرائم فظيعة كهذه، وربما أشد فظاعة قد حدثت قبل وقتنا هذا، وفي جميع الأوقات، وليس في روسيا وحدها ولكن في كل مكان أيضًا. وفي رأيي أن مثل هذه الجرائم الفظيعة لن تتوقف عن الحدوث لمدة طويلة مقبلة. والفرق الوحيد هو أنه لم يكن في العهود الماضية وسائل نشر على نطاق واسع كما هو الحال الآن. هذا بينما كل شخص الآن يتحدث ويكتب عن مثل هذه الأشياء بحرية، وهذا مما أثار الاعتقاد بأن مثل هذه الجرائم لم تقفز إلى مسرح الوجود إلا الآن. وها هنا يكمن خطأك - وهو خطأ طبيعي جدًّا كما أؤكد لك يا صديقي العزيز.

فقال الأمير:

- أنا أعرف أنه كان هناك جرائم بمثل هذه الفظاعة، وبمثل هذه الكثرة في العهود الماضية. وقد قمت منذ عهد غير بعيد، بزيارة أحد السجون

وتعرفت فيه ببعض المجرمين. وقد وجدت هناك بعضاً منهم أشد وأعنف من المجرم الذي نتحدث عنه، وجدت رجالاً قتلوا العشرات من إخوانهم الآدميين دون أن يشعروا بأي أسف أو ندم. ولكن الذي لاحظته بصفة خاصة هو القاتل الذي لا تعرف الرحمة أو الندم إلى قلبه سبيلاً، القاتل الذي أيّا كان تحجر قلبه، فهو يعرف تماماً أنه مجرم، أي أنه يشعر بأنه ارتكب عملاً ضئيلاً شريراً رغم أنه ربما لا يخامرهُ أي إحساس بالندم. وقد كانوا جميعاً على هذه الشاكلة. أما الذين تحدث عنهم إيفيني بافلوفيتش، فإنهم لا يعترفون أبداً بأنهم مجرمون. إنهم يعتقدون أن لهم الحق في أن يفعلوا ما فعلوا بل ربما رأوا أنهم قد أحسنوا صنعاً. وأنا أرى أن هناك أكبر الاختلاف بين الحالتين. ثم تذكروا.. لقد كان المجرم شاباً، في سن معينة، أي السن المعدة للأسف لتقبل الآراء المنحرفة.

ولم يعد الأمير «س» الذي يتسم كما كان من قبل. وإنما راح يحملق في وجه الأمير ميشكين في حيرة وذهول.

وجلست ألكسندرا- التي بدا أنها أرادت أن تقول كلمة قبل أن يبدأ الأمير حديثه- صامته الآن، وكأنما حفزها خاطر مفاجئ إلى تغيير رأيها في أمر التحدث.

ونظر إيفيني بافلوفيتش في دهشة صادقة ولم يبد عليه أنه يسخر أو يستهزئ.

وقالت المسز إيبانشين فجأة لإيفيني:

- لماذا تبدو مدهوشاً هكذا يا صديقي؟ أكنت تظن أنه أشد غباء منك، وأنه عاجز عن أن يكون آراءه الخاصة، أم ماذا!

فقال إيفيني:

- أوه، لا، لا. أبداً. ولكن كيف حدث أيها الأمير «ومعذرة لهذا السؤال»
إنه إذا كانت لك هذه القدرة على الملاحظة ورؤية حقائق الأشياء، كما يبدو
أنك تفعل بوضوح. فكيف لم تر شيئاً منحرفاً أو شاذاً في ذلك الادعاء الذي
ادعاه عليك ابن بافليشيف منذ يومين أو ثلاثة والذي كان حافلاً بمناقشات
مؤسسة على أشد الآراء انحرافاً عن مبدأ الحق والباطل؟

فهتفت المسز إيبانشين فجأة:

- سوف أخبرك بالسبب يا صديقي. فها هنا نحن جميعاً جالسون،
ومتخيلون أننا أذكىء جدّاً، وبعضنا يضحك سخرية من الأمير، بينما قد تلقى
هو في هذا اليوم بالذات خطاباً من المدعي يتنازل فيه عن ادعائه ويلتمس منه
الصفح والمغفرة. ها، إننا قلما نتلقى رسائل من هذا النوع، ومع ذلك نسير
أمامه على الأرض شامخي الأنوف.

وقال كوليا:

- وقد جاء إيوليت هنا ليقى.

فقال الأمير ناهضاً:

- ماذا؟ هل وصل؟

- نعم. لقد جئت به من المدينة بعد خروجك من المنزل مباشرة.

وصاحت المسز إيبانشين وقد ثارت مرة أخرى، ونسيت تماماً أنها
كانت منذ لحظة في وصف الأمير:

- آه، هكذا هو دائماً! ويمكنني أن أقسم أنك ذهبت إلى المدينة أمس

بقصد إقناع هذا البائس الصغير ليسبغ عليك أكبر الشرف في الحضور والبقاء بمنزلك. لقد ذهبت إلى المدينة - وأنت تعرف أنك ذهبت - لقد قلت هذا بنفسك! والآن. قل لنا، هل ركعت أمامه أم لا وابتهلت إليه لكي يحضر. اعترف.

فقال كوليا:

- لا، إنه لم يفعل؛ لأنني رأيت كل شيء بنفسي. بل على العكس، لقد قبل إيبوليت يده مرتين، وشكر له. وكل ما قاله الأمير إنه يرى أن إيبوليت قد يتحسن إذا أقام هنا، في الريف.

فصاح الأمير وهو ينهض ويتناول قبعته:

- لا لا يا كوليا، ما جدوى أن تقول هذا كله!

وقالت المسز إيبانشين هاتفة:

- إلى أين أنت ذاهب الآن؟

وقال كوليا:

- دعك من أمره الآن أيها الأمير. إنه في حالة طيبة، وقد أخذته سنة من النوم بعد الرحلة. وهو جد سعيد لوجوده هنا. ولكنني أرى أنه من الأفضل أن تدعه وشأنه هذا اليوم. فهو مرهف الإحساس جدًا لأنه في حالة شديدة من السقم. وربما يشعر بالحرج إذا أنت أوليته الكثير من الاهتمام في أول الأمر. وهو اليوم أحسن حالًا قطعًا، ويقول إنه لم يشعر بمثل هذا التحسن منذ ستة أشهر، كما أن سعاله غدا أقل مما كان أيضًا.

ولاحظ الأمير أن أجلايا تركت ركنها واقتربت من المائدة عند هذه النقطة.

ولم يجرؤ على النظر إليها، ولكنه كان شاعرًا، بكل كيانه، إنها تحدد
النظر إليه، وربما في غضب، وإنها من المحتمل أن تكون مضطربة الوجه،
تطل من عينيها السوداوين نظرات تقدر بشر السخط والاستياء.

وقال إيفيني بافلوفيتش:

- يخيل لي يا مستر كوليا أنك ارتكبت حماقة كبرى بإحضار صديقك
الشاب هنا.. إذا كان هو نفس الغلام المصدور الذي أسرف في البكاء ودعانا
جميعًا لشهود جنازته. لقد تحدث ببلاغة عن الجدار الأصم خارج نافذة
غرفة نومه بحيث أعتقد عن يقين أنه لن يحتمل الحياة هنا بدونه.

وقالت المسز إيبانشين:

- وهذا رأيي أيضًا. لسوف يتشاجر معك ويرحل.
وجذبت صندوق أشغال الإبرة نحوها في جد، ناسية تمامًا بأن الأسرة
كانت على وشك الخروج للنزهة في الحديقة العامة.

واستطرد إيفيني يقول:

- نعم، إنني أتذكر أنه كان يتحدث بفخر عن الجدار الأصم بطريقة
عجيبة وأنا أشعر أنه بدون هذا الجدار الأصم فلن يموت ببلاغة، وهو أشد ما
يكون شوقًا إلى أن يموت ببلاغة.

فقال الأمير بهدوء:

- أوه. يجب أن تغفروا له مسألة الجدار الأصم. لقد جاء إلى هنا ليرى
بعض الأشجار الآن.. يا للمسكين!

فضحك الأمير «س» قائلًا:

- أوه؟ إنني أغفر له بكل قلبي. ويمكنك أن تقول له هذا إذا شئت.

فقال الأمير بهدوء أيضًا ودون أن يرفع عينيه عن السجادة:

- لا أعتقد أنه ينبغي أن تأخذ الأمور على هذا النحو. فأنا أرى الأمر أقرب إلى أن يغفر لك هو!

- يغفر لي؟ لماذا؟ ماذا فعلت حتى أحتاج إلى مغفرته؟

- إذا كنت لا تفهم. حسنًا، إذن.. بل إنك تفهم فعلاً. إنه قد أراد.. أن يبارككم جميعًا، وأن ينال بركتكم جميعًا، قبل أن يموت، هذا هو كل شيء. فبدأ الأمير «س» القول متعجلًا وهو يتبادل النظرات مع بعض الحاضرين:

- يا عزيزي الأمير.. إنك لن تجد السماء بسهولة فوق الأرض. ومع ذلك يبدو أنك تتوقع هذا؟ إنه من العسير أن تجد السماء في أي مكان أيها الأمير، أعسر جدًا مما قد يبدو لقلبك الطاهر. ويحسن وقف هذه المناقشة، وإلا فإننا سنشعر تدريجيًا بالاضطراب الفكري...

وهنا قالت المسز إيبانشين بغضب وهي تنهض من مكانها:

- هلم إذن نسمع الفرقة الموسيقية.

وحذا بقية الحاضرين حذوها..



الفصل الثاني

واقترب الأمير فجأةً من إيفيني بافلوفيتش، وقال له في انفعال عجيب وهو يمسك بيده:

- إيفيني بافلوفيتش. كن واثقاً بأنني أقدرك كرجل كريم شريف، رغم كل شيء، ثق من هذا.

وتراجع إيفيني بافلوفيتش خطوة في دهشة لمدة لحظة. وكان هذا، كل ما يستطيع أن يفعله ليمنع نفسه من الانفجار في الضحك. ولكن عندما أمعن النظر، لاحظ أن الأمير في غير حالته الطبيعية، بل كان، على أي وضع من الأوضاع - حالة غريبة حقاً - وأخيراً هتف قائلاً:

- إنني مستعد للمراهنة بأنك لم تكن تعني، إطلاقاً، أن تقول هذا، وأنتك على الأرجح، كنت تقصد أن توجه هذا الحديث إلى شخص آخر، ما هذا؟ هل تشعر بتعب أو بشيء ما؟

وقال الأمير:

- من المحتمل، من المحتمل جداً؛ ولا شك أنك قوي الملاحظة جداً إذ أدركت أنني ربما لم أقصد أن آتي إليك على الإطلاق.

قال هذا وهو يتسم بغرابة، ولكنه بدأ يقول في انفعال فجائي:

- لا تذكرني بما أقول أو أفعل. لا تفعل هذا. فإنني جد خجلان من نفسي.

- لماذا، ماذا فعلت؟ إنني لم أفهمك؟

- إنني أرى أنك خجلان مني، يا إيفيني بافلوفيتش، لقد احمر وجهك من أجلي. وهذا دليل على طيبة القلب. لا تخف. لسوف أمضي فوراً.

وقالت المسز إيبانشين في حالة قلق شديد موجهة الحديث إلى كوليا:

- ماذا جرى له؟ هل تبدأ نوباته على هذا النحو؟

فقال الأمير:

- لا، لا يا مسز إيبانشين. لا تحفلي بأمرى، فأنا لا أوشك على الوقوع في نوبة أخرى. ولسوف أمضي فوراً، ولكنني أعلم أنني رجل مريض. إنني، كما ترين، أعاني من المرض منذ أربعة وعشرين عامًا، وهي الأربعة والعشرون عامًا الأولى من حياتي. ومن ثم يمكنك أن تعتبري أقوالي وتصرفاتي كأنها أقوال وتصرفات إنسان مريض. إنني سأنصرف حالاً، أجل، حالاً. لا تقلقي. وإن وجهي لا يحمر خجلاً؛ لأنه ليس ثمة ما يدعو إلى هذا. أليس كذلك؟ ولكنني أرى أنه لا مجال لي في المجتمع، ولا شك أن هذا المجتمع يكون أفضل حالاً بدوني. وأؤكد لك أنني لا أقول هذا بدافع من الغرور أو الغطرسة، وإنما فكرت في هذا كله خلال الأيام الثلاثة الماضية، وقد عقدت النية على أن أصارحك بذات نفسي في أول فرصة سانحة. وأن هناك أشياء ما، وأفكاراً ما عظيمة، لا ينبغي أن أتناولها من قريب أو من بعيد كما ذكرني الأمير «س» الآن، وإلا فسوف أجعلكم تضحكون جميعاً. وأنا أعرف أنني محروم من موهبة القدرة على تناسق الحديث والحركة، ولهذا فإن كلماتي

وحركاتي لا تعبر عن أفكاري، إنها تهين هذه الأفكار وتحط من شأنها. ومن ثم فلا يحق لي.. وإنني لمرهف الإحساس جدًا. ومع ذلك فأنا ما زلت أعتقد أنني محبوب من أفراد هذه الأسرة، وأنهم يسبغون عليّ من التقدير أكثر جدًا مما أستحق. ولكن لا يسعني إلا الاعتراف بأنه لا مفر من بقاء بعض آثار المرض الذي استمر أربعة وعشرين عامًا، ومن ثم فمن المستحيل أن يمنع الناس أنفسهم من الضحك عليّ أحيانًا. ألا ترين هذا؟

ولاح أنه أمسك عن الحديث انتظارًا للإجابة، أو ربما لصدور الحكم، وقد راح يتلفت حوله في وداعة.

وتسمر جميع الحاضرين في أماكنهم متعجبين لهذه السورة التي بدا أنه لم يتوقعها أو يطلبها أحد منهم. ولكن هذا الحديث المضطرب المؤلم الذي تفوه به الأمير المسكين أدى إلى حديث عجيب، وإذا أجلايا تصيح فجأة:

- لماذا تقول هذا كله هنا؟ لماذا تتحدث هكذا معهم؟

وكان يبدو عليها أنها في أقصى درجات الانفعال والغضب، إذ كانت عيناها تقدحان بالشرر. ووقف الأمير أمامها لا يكاد يرى أو يحس بشيء وقد شحب وجهه فجأة.

واستطردت أجلايا تقول:

- ليس بين هؤلاء جميعًا من هو جدير بكلماتك هذه. ليس بينهم من يساوي أصبعك الصغير، ليس لواحد منهم العقل أو القلب الذي يمكن مقارنته بعقلك أو قلبك! إنك أشرف منهم جميعًا، وأفضل، وأنبّل، وأشفق وأحكم منهم جميعًا. إن بعض الموجودين هنا غير جديرين بأن ينحنوا ويلتقطوا منديلك الذي سقط منك الآن. فلماذا تذل نفسك هكذا، ولماذا

تجعل مكانتك دون مكانة هؤلاء الناس؟ لماذا تحط من شأنك أمامهم؟
لماذا لا تكون لك كبرياؤك؟

وصاحت المسز إيبانشين وهي تضرب كفاً بكف:

- يا إلهي؟ من كان يصدق هذا أبداً؟

وهتف كوليا قائلاً:

- مرحى بالفارس المسكين!

وقالت أجلايا وهي تستدير بحدة إلى أمها، وكانت لم تنزل في تلك
الحالة الذهنية العصبية التي لا تهتم بكل عقبة أمامها أو تحفل بأية قواعد
للأدب واللياقة:

- سكوتاً! كيف يجرون على السخرية مني في بيتك؟ لماذا يزعجنني
ويعذبني كل شخص - كل شخص هنا! لماذا يفترون عليّ طيلة الأيام الثلاثة
الماضية بسببك أيها الأمير؟ إنني لن أتزوج بك، أبداً، وأياً كانت الأحوال!
اعلم هذا الآن وإلى الأبد؛ لأنه لا يمكن لأية إنسانة أن تتزوج مخلوقاً غريب
الأطوار مثلك. انظر فقط إلى المرأة وتأمل كيف تبدو الآن، في هذه اللحظة!
لماذا، لماذا يعذبونني ويقولون إنني سأتزوج بك؟ لا شك أنك تعرف هذا،
إنك مشترك في هذه المؤامرة معهم.

فتمتت أدليدا مأخوذة النفس:

- لم يعذبك أحد قط بسبب هذا الموضوع!

وصاحت ألكسندرا قائلة:

- لم يخطر ألبتة ببال أحد شيء كهذا. إن أحداً لم يلفظ إطلاقاً بكلمة

عن هذا الموضوع!

وهتفت المسز إيبانشين قائلة للجميع بصفة عامة وهي ترتعد غضبًا:

- من كان يزعجها؟ من كان يعذب هذه الطفلة؟ من كان في مقدوره أن يقول لها شيئًا كهذا؟ أهي تهذي؟

- كل واحد منهم كان يقول هذا.. كل واحد منهم، طيلة الأيام الثلاثة الماضية. وأنا لن.. لن أتزوج به.

قالت أجلايا هذا وانفجرت في بكاء مر، ثم تهالكت جالسة وهي تخفي وجهها بين يديها:

- ولكنه لم يحاول قط أن..

وقاطعها الأمير قائلاً على حين غرة:

- أجل، إنني لم أطلب منك أبدًا أن تتزوجيني يا أجلايا إيفانوفنا!

فصاحت المسز إيبانشين وقد رفعت يديها بفزع وهي لا تصدق أذنيها:

- ماذا؟! ما معنى هذا؟!

فقال الأمير متلعثمًا:

- لقد أردت أن أقول، أعني كنت أريد فقط أن أشرح لأجلايا إيفانوفنا..

أن يكون لي الشرف بأن أشرح لها أنه لم يخطر بباله قط أن أتشرف وأطلب يدها. وأؤكد لك يا أجلايا إيفانوفنا أنني غير مذنب في هذا الأمر. نعم، بكل تأكيد. إنني لم أرغب قط.. لم أنكر قط، ولن أنكر أبدًا- وسوف ترين هذا بنفسك. ويمكنك أن تثقي تمامًا من هذا، إن شخصًا ما شريرًا كان يسيء العلاقة بيني وبينك. ولكن كل شيء أصبح كما ينبغي - اطمئني.

واقترب الأمير من أجلايا وهو يقول هذا.

ورفعت أجلايا المنديل عن وجهها، ونظرت إليه بإمعان، واستوعبت في ذهنها ما قاله، ثم انفجرت ضاحكة - وكانت ضحكة فيها من المرح والانطلاق والبهجة ما جعل أدليدا لا تتمالك نفسها، فإذا هي تلقي نظرة على وجه الأمير المدعور، ثم اندفعت إلى أختها، وألقت بذراعيها حول عنقها، وانغمرت في نوبة من الضحك المرح العريض كما فعلت أجلايا. وأخذتا تضحكان معاً كتلميذتين صديقتين، أما الأمير، فعندما رأى هذا وسمعه، ابتسم في سعادة، ثم هتف بصوت ينم عن البهجة والاطمئنان:

- حسناً! شكرًا لله، شكرًا لله!

وانضمت ألكسندرا إلى أختها، وبدا كأن الأخوات الثلاث سيستطردن في الضحك إلى ما لا نهاية.

وغمغمت المسز إيبانشين قائلة:

- إنهن مجنونات! إنهن إما أن يفزعن شخصًا ما إلى حد إخراجه عن صوابه، أو...

ولكن الأمير «س» كان في تلك اللحظة يضحك أيضًا. وكذلك كان الأمر مع إيفيني بافلوفيتش وكوليا، بل والأمير نفسه الذي أصابته العدوى فراح يتلفت نحو الآخرين في ابتهاج وبشر.

وصاحت أدليدا قائلة:

- هلم نمض إلى نزهة في الخارج! لسوف نمضي إليها جميعًا، ويجب أن يمضي الأمير حتمًا معنا. لا حاجة بك إلى أن تنصرف، يا صديقي العزيز. أليس هو عزيزًا يا أجلايا؟ أليس كذلك يا أماء؟! يجب، في الواقع، أن أقبله

بسبب ما قاله لأجلالها الآن. أماء، يا عزيزتي، يمكنني أن أقبله؟ أليس كذلك؟
أجلالها، هل يمكنني أن أقبل أميرك..

صاحت الشقية الصغيرة بهذا، وتواثبت نحو الأمير وقبّلت جبينه.
وأمسك هو يديها، وضغط عليها بقوة جعلت أدليدا تكاد أن تصرخ،
ثم أمعن النظر بابتهاج إلى عينيها، ورفع يدها اليمنى إلى شفتيه بحرارة،
وقبّلها ثلاث مرات.

وقالت أجلايا:

- هلم أيها الأمير. يجب أن تمشي معي. أسمحين يا أماء؟ إنه الفارس
الشاب الذي يرفض الزواج بي! لقد قلت إنك لن تتزوجني أبداً، أليس
كذلك أيها الأمير؟ لا - لا، ليس هكذا، ليست هذه هي الطريقة التي تقدم بها
ذراعك. ألم تعرف بعد كيف تقدم ذراعك لسيدة؟ إليك - هكذا. والآن هلم
نمض، أنت وأنا في المقدمة. أتحب أن نسير معاً في المقدمة جنباً إلى جنب!
واستمرت في الحديث والثرثرة بلا توقف، وكانت بين الحين والآخر
تنطلق ضاحكة.

وقالت المسز إيبانشين لنفسها وهي لا تدري لماذا شعرت بالاطمئنان
البالغ:

- حمداً لله.

وقال الأمير «س» لنفسه ربما للمرة المائة منذ أن توطدت علاقته
بالأسرة:

- ما أعجب هؤلاء الناس!

ولكنه كان يحب «هؤلاء الناس العجيبين» رغم كل شيء. أما الأمير ليو نيكولايفيتش نفسه، فلم يكن يبدو على الأمير «س» أنه يميل إليه على نحو ما.

وكان على وجه اليقين مشغول الفكر، مضطرباً بعض الشيء وهم يخرجون جميعاً إلى النزهة.

وبدا على إيفيني بافلوفيتش أنه في حالة طيبة من المرح والنشاط، وقد جعل أدليدا وألكسندرا تضحكان طيلة الطريق إلى فوكسهول. ولكن كلتا الاثنتين كانتا على استعداد للضحك لأتفه سبب مما جعل إيفيني يدرك أنهما لا تنصتان إليه ألبتة.

ولما خطر له هذا، انفجر من فوره ضاحكاً ضحكاً عريضاً صادراً من القلب دون أن يشرح السبب.

وكانت الأختان- وقد بدا أنهما في حالة معنوية عالية- لا تسأمان قط من النظر إلى أجلايا والأمير اللذين كانا يسيران في المقدمة. وقد بدا بوضوح أن أختهما الصغرى كانت في نظرهما، لغزاً غامضاً.

وحاول الأمير «س» جهده أن يدير محادثة بينه وبين المسز إيناشين عن موضوعات أخرى، ولعله أراد بهذا- عن نية حسنة- أن يرفه عنها ويسليها. ولكن كان في الواقع، يضجرها أشد الضجر. وكانت إلى حد ما شاردة الذهن، وأحياناً تجيب إجابات لا تمت إلى الأسئلة بسبب، وأحياناً لا تجيب ألبتة.

ولكن ما أحاط بأجلايا من غموض وسرية لم ينقشع في تلك الليلة. وكان «العرض» الأخير من نصيب الأمير وحده. ذلك أن أجلايا لم تلبث

بعد أن ابتعدوا عن المنزل بنحو مائة خطوة - أن قالت بصوت خافس سريع
للفارس الذي كان ملتزمًا الصمت في عناد:

- انظر إلى يمينك!

ولما التفت الأمير إلى الاتجاه الأيمن، استطردت أجلايا تقول:

- حدد النظر، هل ترى ذلك المقعد المستطيل، هناك في الحديقة
العامة؟ المجاورة تمامًا لتلك الأشجار الثلاث؟ ذلك المقعد المستطيل
الأخضر.

وأجاب الأمير قائلاً إنه قد رآه. وعادت هي تقول:

- أيعجبك موقعه هذا؟ إنني في بعض الأحيان أجيء للجلوس عليه في
الصباح الباكر، أي في نحو الساعة السابعة، عندما يكون الباكون لا يزالون
نائمين.

وغمغم الأمير قائلاً: إن الموقع جميل فعلاً. وهنا قالت هي:

- عليك الآن أن تبتعد عني، فإنني لم أعد في حاجة إلى ذراعك، أو
لعل من الأفضل أن تستمر في تقديم ذراعك لي، والسير بجانبني، ولكن لا
تحدثني بكلمة، فإنني أريد أن أفكر في أمر ما.

ولم يكن هذا التحذير، بالتأكيد ضروريًا، ذلك لأن الأمير لم يكن ينوي
أن يقول شيئًا طيلة الوقت سواء أمر بعدم الحديث أو لم يؤمر. وقد نبض
قلبه بقوة بلغت حد الألم عندما تحدثت أجلايا عن المقعد المستطيل. فهل
يمكن أن تعني!... ولكن لا! لقد طرد هذا الخاطر من ذهنه بعد برهة تأمل
وتفكير.

وفي أيام الأسبوع العادية، كان رواد أوبافلوفسك من النخبة المتميزة

عادة، عن جمهرة الرواد في يومي السبت والأحد من كل أسبوع، عندما يقبل الكثيرون من سكان المدن للاستمتاع بالنزهة في الحديقة العامة.

وفي هذه الأيام كانت السيدات يتأنقن في ارتداء ملابسهن، ويجتمعن طبقاً لتقاليد المجتمع الحديث - حول جوسق الفرقة الموسيقية التي يمكن القول إنها أفضل الفرق الموسيقية في الحدائق العامة، وكانت هذه الفرقة تعزف أحدث المقطوعات. وتصرفات الرواد بوجه عام، كانت سليمة مهذبة، وكان ثمة ظاهرة واضحة من الصداقة والألفة تربط بين الذين تعودوا ارتياد الحديقة، وكثير منهم كانوا لا يذهبون إليها إلا لمقابلة معارفهم، ولكن كان ثمة آخرون يذهبون للاستمتاع بالموسيقى. وقلما كان يحدث أي شيء يفسد هذا الجو الهادئ الريب، هذا وإن كانت الأحداث تقع، بطبيعة الحال في كل مكان.

وفي هذه الليلة بالذات كان الطقس جميلاً مما أغرى عدداً كبيراً من الناس بالذهاب إلى الحديقة. وهكذا كانت جميع المقاعد القريبة من الفرقة الموسيقية مشغولة.

واتخذ أصحابنا أماكن جلوسهم بالقرب من الباب الجانبي. ولم تلبث الأنغام الموسيقية وزحمة الرواد أن رفعت قليلاً عن المسز إيبانشين كما أبهجت البنات. وكن قد انحنين وصافحن بعض الصديقات، وأومان برؤوسهن من بعيد إلى غيرهن. وكذلك فحصن ملابس السيدات بنظراتهن، ولاحظن الكثير من التصرفات الطريفة والشاذة للرواد، وضحكن وتحدثن فيما بينهن كثيراً. وقد وجد إيفيني بأفلوفيتش أيضاً الكثير من الأصدقاء الذين انحنى لهم بالتحية. وقد لاحظ كثير من الناس الأمير وأجلايا اللذين كانا لا يزالان معاً.

وقبل أن تنصرم فترة طويلة، انضم إليهم اثنان أو ثلاثة من الشبان. وقد تخلف معهم واحد أو اثنان لتبادل الحديث؛ وكان هؤلاء الشبان جميعاً، كما يبدو، على علاقة وطيدة بإيفيني بافلوفيتش، وكان بينهم ضابط شاب، بالغ الوسامة، طيب القلب جداً، وثرثار كبير، وقد حاول أن يدير الحديث مع أجلايا، بذل كل جهده ليجذب انتباهها. وقد تصرفت أجلايا معه بكل رفق ولباقة، وثرثرت معه كثيراً وضحكت بابتهاج، والتمس إيفيني بافلوفيتش من الأمير الإذن بتقديم هذا الصديق إليه. وكان الأمير لا يكاد يعرف ماذا يُراد منه، ولكن عملية التعارف لم تلبث أن تمت، وأحنى كل من الرجلين رأسه للآخر وتصافحا.

ووجه صديق إيفيني بافلوفيتش إلى الأمير بعض الأسئلة، ولكن هذا الأخير لم يجب وإذا كان قد أجاب، فلا شك أنه غمغم ببعض كلمات بلغت من الغموض أن أحداً لم يفهمها. وحملق الضابط إليه بإمعان، ثم نظر إلى إيفيني كأنما يسأله لماذا قدمه إلى الأمير، ثم عاد وركز اهتمامه بأجلايا. ولم يلحظ أحد غير إيفيني بافلوفيتش أن وجه أجلايا اضطرم برهة خاطفة بسبب هذا الاهتمام.

ولم يلحظ الأمير أن الآخرين جميعاً كانوا يتحدثون ويتلطفون مع أجلايا، بل لقد كاد في الواقع أن ينسى عندئذ أنه نفسه كان جالساً بجانبها. وفي بعض الأوقات كان يشعر بالحنين للانصراف إلى مكان ما لينفرد بنفسه وبأفكاره، وليشعر أنه لا يوجد أحد يعرف من هو.

وإذا كان هذا مستحيلاً، فإنه يتوق إلى الانفراد بنفسه في الشرفة، بالبيت، وبدون لبيديف، أو أبنائه، أو أي شخص آخر معه. إنه يتوق لأن يضجع هناك ويفكر، يوماً وليلة، ثم يوماً آخر! وتذكر الجبال - بقعة خاصة اعتاد أن يرتادها

ليطل منها على الأودية البعيدة والحقول، وليشاهد، من بعيد جدًا، مساقط المياه وقد بدت كخيوط من الفضة. ويرى أيضًا القلعة الأثرية عند الأفق، أوه، لشد ما يدفعه الحنين ليكون، هناك الآن، بمفرده مع أفكاره، وليفكر في شيء واحد مدى الحياة! شيء واحد. إن ألف سنة لا تعتبر بالوقت الكثير للتفكير في هذا الشيء. وكم يود لو أن كل إنسان هنا ينساه! ينساه تمامًا. وكم كان من الأفضل لو أنهم هنا لم يعرفوه قط. لشد ما يتمنى لو أن هذا كله مجرد حلم! ومن يدري فلعله أن يكون حلمًا!

وكان بين الحين والآخر ينظر إلى أجلايا لمدة خمس دقائق في كل مرة دون أن يرفع عينيه عن وجهها. ولكن تعبيرات وجهه كانت جد غريبة! ذلك أنه كان يرنو إليها وكأنها شيء بعيد عنه بمسافة ميلين، أو كأنما يتطلع إلى صورة لها وليس إليها هي نفسها.

وقد قالت له فجأة بعد أن قطعت حديثها المرح وضحكاتها مع من حولها:

- لماذا تنظر إليّ هكذا أيها الأمير؟ إنني خائفة منك! فأنت تبدو كأنما توشك أن تمد يدك وتلمس وجهي لترى هل هو وجه حقيقي؟ ألا تراه كذلك يا إيفيني بافلوفيتش! ألا تراه ينظر إليّ هكذا!؟

ولاح على الأمير أنه دهش لمجرد توجيه الحديث إليه، وفكر برهة، ولكن بدا أنه لم يستوعب تمامًا ما قيل له. وأيًا كان الأمر، فإنه لم يجب. إلا أنه حين لاحظ أن أجلايا والآخرين قد بدأوا في الضحك، فتح هو أيضًا فمه وراح يضحك معهم.

وشاع الضحك بينهم جميعًا، وقد اهتزت به جوانب الضابط الشاب

الذي كان يبدو على جانب كبير من الحيوية والمرح.

وفجأة همست أجلايا لنفسها بهذه الكلمة:

- «أبله».

وغمغمت المسز إيبانشين لنفسها في توجع قائلة:

- «يا إلهي! من المؤكد أنها لا تحب شخصًا كهذا.. إنها ليست مجنونة بالتأكيد!».

فهمست ألكسندرا في أذنها قائلة:

- إن الأمر كله دعاية يا أماه! مجرد دعاية مثل موضوع «الفارس المسكين». ولا شيء غير هذا؟ أؤكد لك! أنها تعبت به، وتتخذ منه أداة للسخرية بطريقتها الخاصة، هذا كل ما في الأمر. ولكنها تمادت في العبث بعض الشيء. وهي كما نعرف تجيد التمثيل. ولكن لشد ما تخيفنا الآن! أليس كذلك! وكل هذا لمجرد المزاح!

وهمست المسز إيبانشين التي اطمأنت، على ما يبدو، بملاحظة ابتها:

- حسنًا! من حسن الحظ أنها اتخذت من «أبله» أداة للسخرية. وهذا كل ما يمكن أن أقوله في هذا الشأن.

وسمع الأمير كلمة «الأبله» وهي تُقال عنه، وسرت في جسمه الرعدة في تلك اللحظة. ولكن حدث أن الرعدة لم تكن بسبب هذه الكلمة. ذلك لأنه مرت بناظريه رؤيا وجه شخص جالس بين الجمهور غير بعيد منه، وكان وجهًا مألوفًا شاحب اللون، له شعر أسود متجعد، وترتسم عليه نفس التعبيرات والابتسامة المعروفة لديه تمامًا. لقد مرت رؤيا هذا الوجه بناظريه لحظة ثم اختفت. وشعر أن من المحتمل جدًا أن يكون ما رأى مجرد وهم،

ولكن التأثير ظل باقياً يؤكد له أنه رأى هذه الابتسامة العجيبة، وهاتين العينين، وهذه العناقة «ربطة العنق» الخضراء الزاهية، ولم يستطع الأمير أن يعرف هل اختفى الرجل بين الجمهور، أم انعطف في اتجاه الحداثق ..

ولكنه بعد ذلك بلحظة أو اثنتين بدأ يمعن النظر فيما حوله، فمن يدري، فلعل الرؤيا الأولى قد تكون مجرد تمهيد لرؤيا ثانية، بل يكاد أن يكون الأمر هكذا على وجه اليقين. وأنه بالتأكيد لم يغفل احتمال أن يقع مثل هذا اللقاء عندما جاء إلى حداثق الفوكسهول. حقاً إنه لم يكن يدرك إلى أين سيمضي عندما خرج مع أجلايا، ذلك لأنه كان في حالة لا تسمح له بإدراك شيء ما.

ولو أنه حرص على ملاحظة الذين معه، لاستطاع أن يرى خلال ريع الساعة الأخير، أن أجلايا كانت أيضاً تلفت حولها في قلق واضح، وكأنما تتوقع أن ترى شخصاً ما، أو شيئاً معيناً بين جمهرة الناس. وأخيراً، عندما ابتداءً قلقه هو يغدو واضحاً تماماً، ازداد قلقها هي أيضاً وضوحاً، حتى إنها كانت، إذا تلفت حوله، تلفت أيضاً مثله.

ولم يلبث السبب في شعورهما بالقلق أن ظهر. ذلك أن جمعاً من الناس لا يقل عددهم عن اثني عشر شخصاً أقبلوا فجأة من الباب الجانبي نفسه الذي كان الأمير يجلس بالقرب منه مع المسز إيبانشين وجماعتها.

وكان يسير في مقدمة هذا الجمع ثلاث سيدات، منهن اثنتان على جانب كبير من الجمال جعل الناظرين لا يندهشون وهم يرون هذا العدد الكبير من المعجبين يسرون وراءهما.

ولكن كان ثمة شيء في مظهر كل من السيدتين والمعجبين بهما يلفت النظر، شيء يختلف تماماً عن مظهر الجمهور المجتمع حول جوسق الموسيقى.

ورغم أن كل واحد تقريباً قد لاحظ هذه المجموعة الصغيرة وهي تتقدم، إلا أنهم جميعاً تظاهروا بأنهم لم يروا أو يلحظوا شيئاً فيما عدا عدد قليل من الشبان الذين راحوا يتبادلون النظرات والبسمات ويتحدثون فيما بينهم همساً.

وفي الواقع كان من المستحيل أن يتجنب الإنسان رؤية هذه الجماعة؛ لأن أفرادها كانوا يعلنون عن وجودهم بالضحك وبالحديث بأصوات مرتفعة. وقد بدا أن عدداً منهم قد أسرفوا في شرب الخمر رغم أنهم كانوا يرتدون ملابس أنيقة حديثة الطراز. إلا أنه كان بينهم مع هذا، واحد أو اثنان غريباً المظهر، لهما وجهان متوهجان، ويرتديان ملابس غير مألوفة. وكان بعضهم من العسكريين، ولم يكونوا جميعاً شباناً، وإنما كان بينهم واحد أو اثنان في منتصف العمر، لهما مظهر مُنفّر يجعل الناس يتجنبونهما كما يتجنب الإنسان وباء الطاعون. وكانا يتزينان بأزرار كبيرة ماسية وخواتم ذهبية، ويبدوان بوجه عام في مظهر «الغطرسة والثراء».

إن في الضواحي عدداً من البنايات تمتاز بشهرة عريضة من الاحترام والرقى. ولكن أشد المقيمين بها حرصاً لا يستطيع أن يضمن تماماً عدم التعرض لسقوط قالب من الآجر فجأة على رأسه من سقف بيت جاره.

مثل هذا القالب من الآجر كان على وشك السقوط على رؤوس هذه الجموع الأنيقة المهذبة المحتشدة لسماع الموسيقى.

والمعروف أن على الزائر الذي يريد أن يمضي من حدائق الفوكسهول إلى جوسق الموسيقى، أن يهبط درجتين أو ثلاثاً. وعند هذه الدرجات توقفت الجماعة كأنما يخشى أفرادها أن يسيروا إلى أبعد من هذا. ولكن سرعان ما هبطت هذه الدرجات إحدى السيدات الثلاث، يتبعها اثنان من

حاشيتها، وكان أحدهما رجل في منتصف العمر، محترم السميت إلى حد كبير، ولكن طابع «حدائة النعمة» كان واضحاً عليه. وعلى الجملة كان رجلاً لا يعرفه أحد، ولا يعرف هو أحداً. أما الآخر فانه أصغر سنًا، وأقل كثيرًا في مجال السميت المحترم.

ولم يتبع أحد غيرهما السيدة الشاذة. إلا أنها لم تحاول أن تلتفت وراءها وهي تهبط الدرجات، كأنما سواء لديها أن يتبعها أو لا يتبعها أحد. وكانت على أية حال تضحك وتحدث بصوت مرتفع كما كانت تفعل من قبل. وكانت ملابسها تنم عن ذوق رفيع، إلا أنها ربما كانت أكثر فخامة مما تقتضيه المناسبة.

وتجاوزت في مسيرها جوسق الموسيقى إلى المركبة المفتوحة التي كانت في انتظارها بالقرب من الطريق.

ولم يكن الأمير قد رآها منذ أكثر من ثلاثة أشهر. وكان طيلة الأيام التي أمضاها منذ وصوله من بطرسبرج ينوي أن يقوم بزيارتها، ولكن إحساسًا غامضًا بتوقع الشر كان يمنعه. ولم يكن يستطيع أن يصور لنفسه مدى التأثير الذي ستتركه هذه الزيارة في نفسه، وذلك رغم أنه حاول أن يصور هذا كثيرًا لنفسه وهو يرتعد خوفًا. ولكن حقيقة واحدة كانت مؤكدة، وهي أن هذا اللقاء سيكون مثيرًا للألم.

إنه خلال الأشهر الستة الأخيرة كان كثيرًا ما يستعيد في ذاكرته الأثر الذي تركته في أعماق نفسه نظرتة الأولى إلى ذلك الوجه، عندما شاهد صورتها. وإنه ليتذكر جيدًا أنه حتى ذلك الوجه المصوّر قد ترك في نفسه أثرًا مؤلمًا جدًا.

إن ذلك الشهر الذي أمضاه بالريف، والذي كان يرى فيه هذه السيدة كل يوم تقريباً، قد ترك في نفسه أثراً بلغ من العمق أنه لم يعد يستطيع أن يتذكره بنفس هادئة. لقد كان في أعماق نظرات هذه السيدة شيء يعذبه. وكان يرجع هذا الشعور في اثناء حديثه مع روجوجين، إلى الرثاء لها أشد الرثاء. وكانت تلك هي الحقيقة. إن النظر فقط إلى وجهها المصوّر قد أفعم قلبه بألم الرثاء الأصيل لها وإن ذلك الإحساس بالرثاء لها، لا، بل ذلك الألم العميق من أجلها لم يترك قلبه منذ تلك اللحظة، ولم تخف حدته ألبتة، بل إنه ازداد حدة وقوة منذ ذلك الحين.

ولكن الأمير لم يكن قانعاً بما قاله لروجوجين. وإنما أدرك تماماً في هذه اللحظة فقط، عندما ظهرت أمامه فجأة، حقيقة المشاعر التي تثيرها هي في نفسه، والتي لم يعرف كيف يصفها لروجوجين وصفاً صحيحاً.

والواقع لم يكن ثمة كلمات يستطيع أن يعبر بها عن فزعه، أجل، فزعه، ذلك لأنه أصبح الآن موقناً كل اليقين من معلوماته الخاصة عنها، أن هذه السيدة.. مجنونة.

ويمكن للمرء أن يدرك شيئاً من شعور الأمير المسكين، إذا هو تخيل شعوره الذاتي عندما يحب سيدة ما حباً لا يدانيه شيء في العالم! ثم إذا به فجأة يرى حبيبته مقيدة بالسلاسل وراء القضبان، وتحت رحمة سجان! وهمست أجلايا له وهي تجذب كم سترته قليلاً:

– ماذا بك؟

فالتفت إليها، ونظر في عينيها السوداوين اللتين كانتا «لسبب ما» تتوهجان، ثم حاول أن يتسم، ولكنه لم يلبث، كما بدا، أن نسي أمرها تماماً،

وعاد يلتفت يمينا، ليستأنف التطلع إلى تلك الرؤيا التي ظهرت أمامه فجأة. وكانت ناستاسيا فيليوفنا في تلك اللحظة تمر أمام مقاعد الفتيات الثلاث. ورغم هذا فقد استمر إيفيني بافلوفيتش في إلقائه لإحدى الفكاهات المضحكة الطريفة - كما يبدو - على ألكسندرا، وبصوت ينم عن الابتهاج البالغ. وإن الأمير ليتذكر في تلك اللحظة أن أجلايا أسرت إليه في صوت خافت قائلة:

- يا لها من...

ولكنها لم تتم العبارة، وإنما تمالكت نفسها؛ غير أن ما أرادت أن تقوله أصبح مفهوماً.

أما ناستاسيا فيليوفنا، التي كانت حتى هذه اللحظة تسير في طريقها وكأنما لم تلاحظ جماعة المسز إيبانشين، فإنها استدارت برأسها نحوهم فجأة وكأنما لمحت عندئذ فقط أن إيفيني بافلوفيتش كان جالسا بينهم لأول مرة.

وتوقفت فجأة وهي تهتف:

- عجباً! أرى أنه هنا! إن الرجل الذي حاولت العثور عليه بكل وسيلة، أجده فجأة أمامي جالسا حيث لم أكن أتوقع أبداً. لقد ظننت أنك، بلا شك، موجود في بيت عمك الآن.

واضطرم وجه إيفيني بافلوفيتش، ونظر غاضباً إلى ناستاسيا فيليوفنا، ثم أدار لها ظهره. أما هي، فقد استطردت تقول:

- عجباً! ألم تعرف ما حدث بعد؟ إنه لا يدري! تصوروا هذا؟ لقد أطلق عمك الرصاص على نفسه في هذا الصباح بالذات. وقد علمت بالنبأ

في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم، ولا شك أن نصف سكان المدينة قد عرفوا الخبر الآن. ويقال إن ثلاثمائة وخمسين ألف روبل من أموال الحكومة قد اختفت، ويقال إن المبلغ المختلس خمسمائة ألف. ومع هذا كنت أعتقد أنه سترك لك ثروة ضخمة! لقد طيرها مع الريح، إنه لسيد عجوز غويّ بلا شك. حسنًا، حسنًا، وإنها لفرصة طيبة! إنك تنوي أن تذهب إلى بيته، أليس كذلك؟ ها، ها! لقد اعتزلت خدمة الجيش في الوقت المناسب كما أرى. حسنًا فعلت أيها الماكر الخبيث! ولكن ما هذا اللغو؟ إنك ولا شك تعرف كل شيء من قبل، وأستطيع القول إنك تعرف كل ما حدث أمس..

ورغم أن هذا الهجوم البذيء، أو هذا الادعاء العلني بقوة الرابطة بينها وبينه، كان معدًا ولا شك من قبل لتحقيق هدف معين، إلا أن إيفيني بافلوفيتش قرر، كما يبدو، في أول الأمر أن يتجاهل تمامًا معذبتة وحديثها. ولكن الأنباء التي ساقتها إليه نزلت على رأسه كهزيم الرعد. فما إن سمع بموت عمه حتى اشتد امتقاع وجهه، واستدار نحو السيدة.

وفي تلك اللحظة نهضت المسز إيبانشين بسرعة من مقعدها، وأشارت إلى الذين معها، وغادرت المكان وهي تكاد تجري.

ولم يتخلف عن جماعتها غير الأمير الذي وقف برهة كأنما لا يدري ماذا يفعل، وغير إيفيني بافلوفيتش الذي تلكأ أيضًا؛ لأنه لم يكن قد جمع شتات ذهنه المبعثر. ولكن آل إيبانشين ما كادوا يتعدون عشرين خطوة فقط حتى وقع حادث مخز. ذلك أن الضابط الشاب صديق إيفيني بافلوفيتش، الذي كان يتحدث مع أجلايا، صاح بصوت مرتفع، وفي حالة استنكار بالغ: - يجب أن تُجلد هذه المرأة! فهذه هي الطريقة الوحيدة للتعامل مع مثل هذه المخلوقات، أجل، يجب أن تُجلد.

وكان ذلك السيد موضع ثقة إيفيني، وكان بلا شك قد سمع بحادث المركبة. واستدارت ناستاسيا إليه وقد تطاير الشرر من عينيها، ثم اندفعت إلى شاب كان واقفًا عن كذب؛ ورغم أنها لم تكن تعرفه، إلا أنه حدث أن كان يحمل في يده عصا رفيعة، وبعد أن انتزعتها منه، أهوت بها، بكل قواها، على وجه الضابط الشاب الذي أهانها.

وقد حدث هذا كله، بطبيعة الحال، في لحظة من الزمن.

ونسي الضابط الشاب نفسه، ووثب نحوها، ولم يكن أتباع ناستاسيا بالقرب منها عندئذ (إذ كان الرجل الكهل قد اختفى تمامًا، بينما وقف الآخر جانبًا وراح يضحك بالضحك).

وكان من المنتظر، بعد لحظة، أن يحضر رجال الشرطة إلى المكان، وأن يغدو موقف ناستاسيا فيليبونا شديد الحرج، لولا أن جاءها العون في اللحظة الأخيرة.

ذلك أن الأمير ميشكين، الذي كان واقفًا على مسافة خطوتين، وثب إلى الأمام وأمسك بذراعي الضابط الشاب من الخلف.

وانتزع الشاب نفسه من قبضة الأمير، ودفع به إلى الخلف بقوة جعلته يترنح بضع خطوات ثم يتهالك جالسًا على أحد المقاعد.

وفي خلال هذا، كان عدد من المدافعين عن ناستاسيا قد خَفُّوا إليها، ولم يلبث ذلك السيد المسمى «بالملاك» أن وقف في مواجهة الضابط الغاضب.

وقال الملاكم بصوت مرتفع جدًّا:

- إن اسمي كيللر يا سيدي، ضابط سابق. فإذا تقبلت وضعي كمُدافع

عن الجنس اللطيف، فإني أضع نفسي تحت إمرتك. إنني خبير بالملاكمة الإنجليزية وإني لأشاركك الأسف لما نالك من إهانة، ولكنني لا أسمح لك برفع يدك على سيدة في مكان عام. فإذا رأيت أن تدور المعركة بيننا - حسب ما تقتضيه رتبك - بطريقة أخرى - حسنًا! إنك تدرك ما أعني طبعًا يا كابتن.

ولكن الضابط الشاب كان قد تمالك نفسه عندئذ، ولم يعد ينصت إلى الرجل. وفي تلك اللحظة ظهر روجوجين وهو يشق طريقه بين المتجمهرين، ثم تناول يد ناستاسيا، ووضعها تحت ذراعه، وانطلق بها مسرعًا وقد بدا على جانب كبير من الانفعال، إذ كان يرتعد بشدة وقد اكتسى وجهه بشحوب الموت.

وفيما هو ينطلق بناستاسيا، استدار بوجهه نحو الضابط الشاب، وابتسم ابتسامة رهيبة، ثم غمغم بصوت خافت كله الشر:

- ها ها، انظروا ماذا نال هذا الشاب؟ انظروا إلى الدماء على وجهه! ها، ها.

ولكن الضابط الشاب، وقد جمع نفسه أخيرًا، أدرك من نظرة خاطفة نوع الناس الذين سيواجهونه، ومن ثم استدار بظهره إليهم، ثم تقدم باحترام وهو يخفي جانب وجهه بمنديله، نحو الأمير الذي كان ينهض عندئذ واقفًا وقال له:

- إنك الأمير ميشكين على ما أعتقد؟ السيد الذي كان لي شرف التعرف به منذ لحظات!

فقال الأمير بصوت مرتعد النبرات وهو يبسط يديه بطريقة آلية نحوه:

- إنها مجنونة، فاقدة العقل. أؤكد لك هذا. إنها مجنونة.

- أعتقد أنك أكثر دراية بهذا الأمر مني، طبعًا. ولكنني أردت فقط أن أعرف اسمك.

ثم انحنى باحترام، وتراجع دون أن ينتظر جوابًا من الأمير.

وبعد خمس ثوان من اختفاء الشخصية الأخيرة عن المسرح، وصل رجال الشرطة. وكان الحدث كله لم يستغرق غير دقيقتين. وكان بعض المتفرجين قد نهضوا من أماكنهم وانصرفوا تمامًا، واكتفى بعضهم بأن استبدلوا بمقاعدهم القريبة، مقاعد أبعد قليلًا، وابتهج غير هؤلاء وهؤلاء بالحادث وراحوا يتحدثون ويضحكون منه فترة طويلة.

وعلى الجملة فقد انتهى ذلك الحادث كما تنتهي عادة الأحداث المماثلة، وبدأت الفرقة الموسيقية في العزف مرة أخرى. وانصرف الأمير وراء جماعة إيبانشين، ولو أنه فكر في أن يلتفت نحو اليسار حيث كان قد دُفع بلا توقير إلى المقعد، لرأى أجلايا واقفة على مسافة عشرين ياردة. وذلك أنها كانت قد وقفت لترقب المنظر الفاضح رغم هتاف أمها وأخواتها عليها للانصراف معهن.

وهرع الأمير «س» إليها، واستطاع أخيرًا أن يقنعها بالمضي معهم إلى البيت.

ولاحظت المسز إيبانشين أن أجلايا عادت في حالة من الانفعال والاهتياج جعلتها تشك فيما إذا كانت قد سمعت هتافهن عليها. ولكن ما إن مضت دقيقتان أي عندما وصلوا إلى الحديقة العامة، حتى فاجأتهم أجلايا قائلة بصوتها العادي الهادئ الفاتر:

- كنت أريد أن أرى كيف ستنتهي تلك المهزلة!

الفصل الثالث

لقد أفعم الحادث الذي وقع في حديقة الفوكسهول نفوس كل من البنات وأمهن بإحساس غريب من الفزع، وقد بلغ من احتياج مشاعرهن أن عُدن إلى البيت وكل منهن تكاد تجري.

وارتأت المسز إيبانشين أن ذلك الحادث قد كشف عن الشيء الكثير بحيث شعرت أن في مقدورها، في قليل أو كثير، ورغم حالتها الذهنية المضطربة عندئذ، أن تجعل رأيها يستقر بشأن بعض النقاط التي كانت، حتى ذلك الحين، مغلفة بالغموض.

وعلى أية حال، فقد أدرك الجميع أن شيئاً مهماً قد حدث. وأن بعض الأمور، التي كانت غامضة وموضع التخمين والاستنتاج فقط، قد خرجت، ربما لحسن الحظ، من عالم الغموض قليلاً. فعلى الرغم من تأكيدات الأمير «س» وإيضاحاته فقد أخذت الحقيقة عن أخلاق إيفيني بافلوفيتش ومكانته تظهر للعيان. وكذلك انكشف أمام الجميع أمر علاقاته الخاصة «بتلك المخلوقة». وهذا ما خطر ببال المسز إيبانشين وابتيتها الكبيرتين.

ولكن أهم ما في هذا كله، هو أن عدد الأحجيات التي لا بد من الكشف عنها قد زاد. فبرغم شعور الفتاتين بالضيق والتوفز من إسراف أمهما في الجزع، ومن إسراعها في الابتعاد عن مسرح الحادث، فقد أبت كل منهما

أن تثقل عليها في أول الأمر بالأسئلة.

وعدا هذا، فقد خطر ببالهما أن أختهما أجلايا ربما تعلم عن الأمر أكثر مما تعلمان هما وأمهما معاً.

وبدأ الأمير «س» أربد الوجه، صامتاً، مكتئب السمات. ولم توجه المسز إيبانشين إليه كلمة واحدة أثناء مسيرهم جميعاً إلى البيت، ويلحظ هو، كما يبدو، هذه الحقيقة. وقد حاولت أدليدا أن تستخرج منه بعض المعلومات أو تحصل منه على بعض المعلومات، فسألته قائلة:

- من هو ذلك العم الذي تحدثوا عنه، وما هذا الذي حدث في بطرسبرج؟

ولكنه لم يجب بأكثر من عبارات متقطعة قالها في غمغمة عن «القيام بالتحريات» وعن كون هذا كله «كلاماً فارغاً طبعاً». وقد قالت أدليدا مؤكدة:

- آه، طبعاً، كلام فارغ.

ثم توقفت عن إلقاء المزيد من الأسئلة، وكانت أجلايا أيضاً هادئة جداً، وكانت العبارة الوحيدة التي نطقت بها طيلة مسيرهم هي قولها:

«إن المسير بهذه السرعة لا يشعر الإنسان بالمتعة».

وقد التفتت وراءها ذات مرة ولاحظت أن الأمير يسرع للحاق بهم. ولما لاحظت اهتمامه بالوصول إليهم، ابتسمت في تهكم، ثم كفت عن التلفت وراءها. وأخيراً، عندما أوشكوا على الوصول إلى البيت، أقبل الجنرال إيبانشين للقائهم وكان قد عاد لتوه من المدينة.

وكانت أول عبارة له هي السؤال عن إيفيني بافلوفيتش، ولكن المسز

إيبانشين تجاوزته دون أن تلتفت إليه أو تجيب عن سؤاله.

وسرعان ما أدرك من وجوه بناته والأمير «س» أن ثمة عاصفة توشك أن تنفجر به وكان وجهه هو ينم عن قلق فكري غير عادي.

وبادر من فوره إلى الانفراد بالأمير «س» حيث وقف معه أمام باب البيت وراح يتبادل معه الحديث همساً. وقد وضح من اضطراب وجهيهما عندما دخلا البيت وأقبلا على المسز إيبانشين، أنهما كانا يناقشان أنباء مزعجة جداً.

وأخذ أفراد الأسرة يتجمعون شيئاً فشيئاً في غرفة جلوس المسز إيبانشين بالطابق العلوي، ومن ثم وجد الأمير ميشكين نفسه وحيداً في الشرفة عندما وصل أخيراً. وبعد أن اتخذ لنفسه مكاناً في أحد الأركان، جلس في سمت الذي ينتظر شيئاً وإن كان لا يكاد يعرف ما هو. والعجيب أنه لم يخطر بباله أبداً أن من الأفضل له أن ينصرف بسبب ما كان يشيع في المنزل من اضطراب. لقد بدا عليه في جلسته أنه نسي العالم كله، وأنه على استعداد لأن يظل جالساً هكذا سنوات وسنوات. وكان بين الحين والآخر يلتقط أصواتاً صادرة من الطابق العلوي تنم عن الانفعال والتوتر العصبي.

ولم يستطع أن يعرف كم مضى عليه من الوقت في جلسته هذه، ولكن المساء لم يلبث أن أقبل، ثم أعقبه الليل.

ودخلت أجلايا الشرفة على حين غرة، وكانت تبدو هادئة السمات برغم ما كان يكسو وجهها من شحوب.

ولما لاحظت وجود الأمير بمفرده في ركن من الشرفة حيث كانت لا تتوقع أن تراه، ابتسمت وقالت له وهي تقترب منه:

- ماذا تفعل هنا؟

وغمغم الأمير بكلمات مدغمة، واحمر وجهه، ووثب واقفًا، ولكن أجلايا بادرت بالجلوس بجانبه، ومن ثم عاد وجلس في مكانه. ونظرت إلى وجهه فجأة، وبإمعان، ثم استدارت بعينها إلى النافذة كأنما تفكر في شيء آخر، ثم عادت تنظر إليه. وعندئذ قال الأمير لنفسه:

- لعلها تريد أن تضحك مني، ولكن لا، لأنها إذا أرادت أن تفعل، لما منعه شيء.

وبعد برهة وجيزة من الصمت، قالت له:

- أتحب أن تشرب قديمًا من الشاي؟ لسوف أطلبه لك.

- لا.. شكرًا.. إنني لا أدري..

- لا تدري؟ كيف يمكن ألا تدري! وبهذه المناسبة اسمع ما سأقوله لك. إذا استفزك أحد للمبارزة، فماذا تفعل! لقد أردت أن أسألك عن هذا.. منذ بعض الوقت.

- عجبًا! ليس هناك أبدًا من سيستفزني للمبارزة.

- ولكن إذا حدث هذا، فهل تكون خائفًا أشد الخوف؟

- يمكنني أن أقول إنني.. سأنزِعُ جدًّا.

- هل أنت جاد فيما تقول! إذن فأنت جبان!

- لا، لا أظن هذا! إن الجبان هو الرجل الذي يفزع، ويهرب. أما الرجل الذي يفزع ولا يهرب، فهو ليس جبانًا تمامًا.

قال الأمير هذا وهو يتسم، بعد برهة من التفكير.

- وأنت، ألن تهرب؟

وقال الأمير وهو يضحك أخيراً لأستلة أجلايا:

- لا، لا أظن أنني سأهرب.

فقالت أجلايا في صوت ينم عن بعض الألم:

- إنني بالتأكيد ما كنت لأهرب من شيء رغم أنني امرأة. وعلى أية حال فإنني أراك تضحك مني، وتحاول أن تعبّر بوجهك، كالمعتاد، عن اهتمامك بالأمر. والآن أخبرني، إنهم يجعلون مسافة إطلاق النار عشرين خطوة، أليس كذلك؟ وأحياناً عشرة؟ وأعتقد أن المسافة إذا كانت عشر خطوات فإن المتبارزين إما أن يصابوا بجراح أو أن يُقتلوا، أليس كذلك؟

- إنني لا أظن أنهم يقتلون بعضهم بعضاً في المبارزات عادة.

- لقد قتلوا بوشكين بهذه الطريقة.

- ربما كان هذا حادثاً عارضاً.

- لا، أبداً. لقد كانت مبارزة حتى الموت. وقد قتلوه فيها.

- لقد أصابت الرصاصة مكاناً سفلياً من جسمه مما يجعل من المحتمل أن غريمه لم يكن يقصد إصابته فيه إطلاقاً؛ لأن المتبارزين عادة لا يطلقون الرصاص إلى أسفل هكذا. وإنما على الأرجح يصوبون إلى الرأس أو الصدر. ولهذا فمن المحتمل أن تكون الرصاصة قد أصابته عرضاً. لقد قال هذا لي خبراء في هذا الموضوع.

- حسناً، ولكن جندياً قال لي ذات مرة إن التعليمات تحتم عليهم التصويب إلى منتصف الجسم. ومن هذا ترى أنهم لا يصوبون إلى الرأس

أو الصدر. وإنما يصبون إلى مواضع أدنى من هذين الموضعين عن قصد. وقد سألت أحد الضباط عن هذا بعد ذلك، فأكد لي صحة هذه المعلومات.

- ربما يصح هذا عندما يطلقون النار من مسافات بعيدة.

- هل تستطيع إطلاق النار؟

- لا. إنني لم أطلق النار في حياتي.

- ألا تستطيع حتى أن تحشو غدارة بالرصاص؟

- لا، ولكنني طبعاً أعرف كيف يحشونها، إلا أنني لم أفعل هذا في حياتي.

- إذن فأنت لا تعرف كيف يحشونها؛ لأن هذه العملية تستلزم التدريب. والآن، اسمع، وافهم. عليك أولاً أن تشتري مسحوق البارود، واحرص على أن يكون جافاً؛ لأنهم يقولون: «إنه لا يجب أن يكون المسحوق رطباً، وإنما شديد الجفاف» وليكن أيضاً من نوع جيد، كما ينبغي أن يكون من النوع الخاص بالغدارات، وليس الآخر الخاص بحشو المدافع. وهم يقولون إن في مقدور الإنسان أن يصنع الرصاص بنفسه بطريقة ما. فهل لديك غدارة؟ فقال الأمير ضاحكاً:

- لا، ليست لدي الرغبة في اقتناء واحدة.

- أوه، ما هذا الهراء! يجب أن تشتري واحدة، ويقال إن النوع الفرنسي أو الإنجليزي هو الأفضل، ثم تناول من مسحوق البارود مقدار قمع خياطة أو قمعين، واسكبه في الفوهة، ويحسن أن تكون الكمية أكبر قليلاً، ثم ادفع وراءه قطعة من اللباد، ولا بد أن يكون لباداً لهذا السبب أو ذاك، ويمكنك أن تحصل عليه من بعض الحشاييا القديمة أو من أحد الأبواب، وهو يستعمل

لإحكام إغلاقه ضد البرد. حسنًا، وعندما تدفع باللباد إلى أسفل الفوهة، ضع الرصاصة. أسمع ما أقول الآن؟ إن الرصاصة هي التي توضع في النهاية، ومسحوق البارود هو الذي يوضع في الأول، وليس العكس بالعكس، وإلا فلن تنطلق الغدادة، من أي شيء تضحك الآن؟ إنني أريد منك أن تشتري غدادة، وأن تتمرن عليها كل يوم. يجب أن تعلم كيف تصيب هدفًا معينًا. هل تفعل؟

ظل الأمير يضحك، فضربت أجلايا الأرض بقدمها في استياء. ولكن مظاهر الجد التي كانت بادية على وجهها أثناء الحديث، أدهشته على كل حال إلى حد كبير. ومن ثم خامره الشعور بأنه يجب أن يسألها عن شيء. فهناك شيء يريد أن يعرفه، أهم كثيرًا جدًا من معرفة كيف يحشو الغدادة. ولكن أفكاره كانت قد تشتت جميعها، ولم يعد يشعر إلا أنها فقط جالسة بجانبه، تتحدث إليه، وأنه ينظر إليها. أما ماذا حدث فيما كانت تقوله له، فإنه لم يُعره أي اهتمام.

وكان الجنرال قد ظهر عندئذ في الشرفة هابطًا إليها من الطابق العلوي في طريقه إلى الخارج وقد نم وجهه عن الحزم، وعن القلق وانشغال الذهن أيضًا.

ولما رأى الأمير، قال له غير مهتم بأنه، أي الأمير، لم يبد أية رغبة للانصراف:

- أوه، أهذا أنت يا ليو نيكولايفيتش إلى أين أنت ذاهب الآن؟ تعال معي، فإني أريد أن أهمس لك بكلمة أو اثنتين.
وهنا مدت أجلايا يدها إلى الأمير وقالت:

- إلى اللقاء إذن!

وكان الظلام عندئذ قد تكاثف فلم يستطع أن يرى وجهها بوضوح، ولكنه بعد لحظة من انصرافه مع الجنرال من الدار «الفيلا» أحس بالدماء تتصاعد إلى وجهه، وراح يعتصر يده اليمنى بقوة.

وبدا أنه والجنرال كانا يسيران في اتجاه واحد، وكان هذا الأخير، رغم تلك الساعة المتأخرة، يهرع في سيره للتحدث مع شخص عن موضوع مهم، وفي الوقت نفسه كان لا يكف عن الحديث بلا ترتيب أو نظام مع الأمير، كما كان دائماً يذكر في حديثه اسم المسز إيبانشين.

ولو كان الأمير في حالة تسمح له بالمزيد من الانتباه إلى ما يقوله الجنرال لأدرك أن هذا الأخير كان راغباً في الحصول على بعض المعلومات منه، أو في الحقيقة، كان يريد أن يوجه إليه سؤالاً صريحاً، ولكنه لم يكن قادراً على أن يوطن نفسه على الدخول في الموضوع!

وقد بلغ من شروذ ذهن الأمير أنه منذ اللحظة الأولى لم يتمكن من الانتباه إلى كلمة مما كان الآخر يقول، ومن ثم فعندما توقف الجنرال أمامه فجأة وقد وجه إليه سؤالاً مثيراً، لم يسعه إلا أن يعترف في استخذاء وصراحة بأنه لا يعرف شيئاً عما كان يتحدث عنه الجنرال.

وهز الجنرال كتفه وهو يقول:

- لأشد ما أصبح الجميع أخيراً، بما فيهم أنت، على جانب كبير من الغرابة والشذوذ. لقد كنت أقول لك إنني لم أستطع بأية حال أن أفهم آراء المسز إيبانشين واهتياج عواطفها. إنها في حالة عصبية مستوفزة ولا تكف عن التوجع والقول بأننا تعرضنا «للعار والفضيحة» فكيف؟ ولماذا؟ ومتى؟

وممن؟ إنني أعترف أن كثيرًا من اللوم يقع عليّ. ولست أخفي هذه الحقيقة. ولكن سلوك هذه المرأة وتصرفاتها الفاضحة يجب أن يوضع لها في الواقع حد، ولو بواسطة رجال الشرطة إن لزم الأمر؟ وإني الآن في طريقي لمناقشة هذا الموضوع واتخاذ بعض الترتيبات. وإنه لمن الممكن أن يسوى كل شيء بهدوء، وبرفق، بل وبمودة وبدون أقل ضجة أو فضائح. إنني أتنبأ بأن المستقبل مفعم بالأحداث، وأن هناك الكثير الذي ينبغي إيضاحه وتفسيره، وأشعر أن في الجو مؤامرة. ولكن إذا لم نعرف شيئًا من ناحية، فلن نجد التفسير لشيء في ناحية أخرى. فإذا لم أكن أنا قد سمعت بما حدث، ولا أنت، ولا هي، فأنا أريد أن أعرف من إذن قد سمع؟ وعندئذ كيف يمكن تفسير الموضوع إلا بأنه نوع من السراب، أو ضوء القمر، أو بعض الهلوسة. وهنا قال الأمير فجأة وقد أحس بنبضة ألم في قلبه وهو يستعيد في ذاكرته كل ما حدث:

- إنها مجنونة.

- كان هذا هو رأيي أيضًا، وكنت مطمئنًا إليه. ولكنني أدرك الآن أن رأيهم كان أصح من رأيي. وأنا لم أعد أعتقد في نظرية الجنون! إن هذه المرأة ينقصها التفكير السليم حقًا، ولكنها ليست غير مجنونة فحسب، وإنما هي مأكرة إلى حد ما. وإن سورتها هذه الليلة عن موضوع عم إيفيني لتثبت هذه الحقيقة إثباتًا قاطعًا. إن ما حدث منها كان إجرامًا، ودهاءًا خالصًا، وعملاً يستهدف غرضًا ما.

- وماذا عن عم إيفيني؟

- يا أله! أيا ليو نيكولا يفيتش! كأني بك لم تسمع كلمة واحدة مما كنت

أقول لك؟ انظر إليّ! إنني ما زلت أرتعد بسبب هذه الصدمة الرهيبة. وإن هذا ما جعلني أتأخر في المدينة حتى هذا الوقت. إن عم إيفيني بافلوفيتش..
فهتف الأمير قائلاً:

– حسنًا! ماذا حدث له؟

– قتل نفسه بالرصاص هذا الصباح، في السابعة. وكان رجلًا محترمًا وقورًا في السبعين من عمره. وقد وصفت هذه المرأة ما حدث تمامًا بشأن المبلغ المفقود، وهو مبلغ ضخّم من أموال الحكومة!

– عجبًا! وكيف استطاعت هي...؟

– ماذا؟ أتعني كيف عرفت؟ ها، ها، ها. ألا تعرف أن عددًا كبيرًا من المعجبين قد تراحموا حولها بمجرد وصولها إلى هنا؟ وأنت تعلم نوع هؤلاء الذين يلتمسون التشرف بمعرفتها في هذه الأيام. ولعلها بطبيعة الحال، وبأسهل وسيلة قد سمعت هذا النبأ من أحد الذين جاءوا من المدينة. وإن كل بطرسبرج، إن لم تكن بافلوفسك أيضًا، تعلم ما حدث الآن. تذكر ملاحظتها الماكرة عن اعتزال إيفيني للخدمة العسكرية، أعني اعتزاله في الوقت المناسب. إن في هذه الملاحظة تلميحًا مسمومًا، إن صح هذا! لا لا ليس في حالة هذه المرأة أي نوع من الجنون! وأنا طبعًا أرفض الاعتقاد بأن إيفيني بافلوفيتش كان يعرف، سلفًا، أمر هذه الكارثة، أعني أنه كان يعرف كل التفاصيل الدقيقة عنها؛ ولكن قد يكون من المحتمل أنه كان يتوقع مثل هذه الكارثة. وكنت أنا، وكلنا، أعني الأمير «س» والجميع، نعتقد أنه سيرث ثروة طائلة عن عمه. وإنه لأمر فظيع، مروّع! ولكن ينبغي أن تعلم أنني لا أشك في إيفيني في أي شيء! أرجو أن تتأكد من هذه الحقيقة. إلا

أن ما حدث يدعو، مع هذا، إلى بعض الشك، وإن الأمير «س» عاجز عن طرد الشكوك عن نفسه. والواقع أن ما حدث يعتبر شبكة معقدة من الظروف الغريبة.

- وما الشك الذي يحيط بإيفيني؟

- أوه. لا شيء إطلاقاً! لقد كان في الحقيقة سليم التصرفات. وأنا لم أقصد أبداً أن ألمزه بشيء. وأعتقد أن ثروته الخاصة كما هي، لم تُمس. ولكن المسز إيبانشين تأبى، طبعاً، أن تنصت إلى شيء. وهذا أسوأ ما في الأمر. أعني هذه الكوارث العائلية أو الخصومات أو ما شئت أن تصفها. وأنت أيها الأمير تعلم أنك صديق الأسرة. ولهذا لا أجد بأساً في أن أصرحك. إذ يبدو الآن أن إيفيني بافلوفيتش تقدم للزواج من أجاليا منذ شهر، ولكنه لم يحز القبول.

فصاح الأمير قائلاً:

- مستحيل!

فاستطرد الجنرال يقول وقد ازداد انفعالاً وارتعاداً من فرط الالتهاب:

- لماذا؟ أكنت تعرف شيئاً عن هذا الموضوع! اسمع، لعلي قد أسرفت في إفشاء بعض الأسرار لك، فإن صح هذا، فإنما فعلت ذلك؛ لأنك شاب من النوع، أنت تعرف! من النوع اللطيف. ولعل أن يكون لديك بعض المعلومات الخاصة.

فقال الأمير:

- إنني لا أعرف شيئاً عن إيفيني بافلوفيتش.

- ولا أنا! إنهم دائماً يحاولون أن يبعدوني عنهم كلما حدث شيء.

ويبدو أنهم لا يفكرون في أن الإنسان لا يرضيه أن يُعامل على هذا النحو. وأنا لم أعد أحتمل هذه المعاملة. لقد حدثت الآن بيننا مشادة عنيفة! وإنني كما ترى الآن أتحدث إليك كما لو كنت ابنًا لي! لقد سخرت أجلايا من أمها. أما أختها فقد استنتجت أن إيفيني طلب يد أجلايا، وأنه لم يحز القبول، وقد أخبرتا المسز إيبانشين بهذا.

واستطرد الجنرال في حديثه قائلاً:

- لسوف أحدثك يا عزيزي عن أجلايا، إنها فتاة عجيبة، ولعلك لن تصدق أنها مخلوقة صغيرة واسعة الخيال، قوية الإرادة، إنها ممتازة جدًا في كل شيء، في التفكير وفي الإحساس، ويضاف إلى هذا مقدرة عجيبة على التهكم والتحليق في الخيال العجيب. إنها في الحقيقة شيطانة صغيرة! لقد كانت الآن تضحك ساخرة من أمها في مواجهتها، ومن أختها، ومن الأمير «س» ومن الجميع.. وهي طبعًا تضحك مني دائمًا! وأنت تعلم أنني أحب هذه الطفلة، أحبها حتى وهي تضحك مني، وأعتقد أن هذه المخلوقة الممراح الصغيرة تكن لي حبًا خاصًا لهذا السبب. إنها أكثر حبًا لي من الجميع. ويمكنني أن أقسم أنها كانت تضحك منك منذ لحظات! لقد كنت تتبادل معها الحديث كما لاحظت بهدوء الآن، وذلك رغم كل ما حدث من إرعاد وإبراق في الطابق العلوي. لقد كانت جالسة تتحدث معك وكأنما لم يكن قد حدثت مشادة عنيفة على الإطلاق.

واحمر وجه الأمير بشدة في الظلام، وضم قبضة يده اليمنى بعنف، ولكنه ظل صامتًا.

وعاد الجنرال يقول فجأة:

- يا عزيزي الطيب الأمير ليو نيكولايفيتش. إنني وزوجتي «التي بدأت تحترمك مرة أخرى، وتحترمني بسببك دون أن أعرف لماذا» نحبك بكل إخلاص ونقدر كل التقدير برغم كل المظاهر التي تناقض هذا. ولسوف ترى معي إلى أي حد بلغت الأمور من الغموض عندما وقفت هذه الألهوبة الصغيرة الجريئة الثابتة أجلايا؛ لأنها صمدت أمام أمها وأجابت عن أسئلتها في شيء من الاحترار، وعن أسئلتني بالمزيد منه؛ لأنني ظننت، بحماقتي، أن من واجبي تثبيت نفسي كرب للأسرة، أقول عندما وقفت أجلايا فجأة وقالت لنا: «إن هذه المرأة المجنونة (العجيب أنها استعملت نفس التعبير الذي استعملته أنت الآن) قررت أن تزوجني بالأمير ليو نيكولايفيتش، وأنها لهذا السبب تبذل كل جهدها لتضييق الخناق على إيفيني بافلوفيتش وقطع صلته بنا» هذا ما قالت له دون أن تقدم أي إيضاح أو تفسير، وإنما انفجرت ضاحكة، وصفقت الباب، وانصرفت. أما نحن، فقد جمدنا في أماكننا بأفواه مفعورة، حسنًا، وعلمت بعد ذلك بما حدث بينك وبينها بعد ظهر هذا اليوم. ... وإنك أيها الأمير العزيز، لصديق طيب عاقل، وأرجو ألا تغضبك صراحتي إذا قلت إنها تسخر منك يا ولدي! إنها تسلي نفسها، طفلة، على حسابك، ولهذا أرجو، وقد عرفنا أنها طفلة، ألا تغضب منها، وألا تهتم بتصرفاتها. وأؤكد لك أنها تتخذ منك مجالًا للسخرية كما نفعل جميعًا، وذلك لأنها لا تجد ما تفعله خيرًا من هذا. حسنًا! وداعًا الآن! إنك تعرف حقيقة مشاعرنا، ليس كذلك! حقيقة إخلاصنا لك. إنها مشاعر وطيدة كما تعرف يا ولدي العزيز، لا تزعزعها الظروف.. ولكن.. حسنًا، لسوف نفترق هنا، إذ يجب أن أتجه نحو اليمين. وإني لأشعر الآن بقلق قلما شعرت به من قبل، ومع ذلك فالناس لا يزالون يتغنون بمباهج المصايف!

ولما انفرد الأمير بنفسه في مفترق الطرق، تلفت حوله، ثم عبر الطريق بسرعة نحو نافذة مضيئة في بيت مجاور. ثم فض قصاصة صغيرة من الورق كانت في قبضة يده اليمنى طيلة حديثه مع الجنرال.

وعلى الضوء الخافت المنساب من النافذة، قرأ في القصاصة ما يلي:

«سوف أكون في صباح الغد عند المقعد الأخضر المستطيل بالحديقة العامة، في تمام الساعة السابعة، وسأكون في انتظارك هناك. لقد قررت أن أتحدث معك في موضوع يهكم أكبر الاهتمام.

ملاحظة، أعتقد أنك لن تطلع أحدًا على هذه الرسالة. وإنني لأشعر بالخجل إذ أصدر إليك كل هذه التعليمات، ولكنني أرى أن هذا ما يجب أن أفعل، بعد الذي عرفته عنك، إنني أكتب الكلمات ووجهي يضطرم خجلًا بسبب طبيعتك الساذجة.

ملاحظة أخرى: إنه نفس المقعد الأخضر المستطيل الذي أشرت لك عليه. هنا ألت خجلان من نفسك! لقد رأيت من الضروري أن أكرر إصدار هذه التعليمات إليك!

وكان الواضح أن الرسالة كُتبت وطُويت في سرعة واستعجال، وربما كان هذا قبل أن تنزل أجلايا إلى الشرفة بلحظات قليلة.

وابتعد الأمير مسرعًا عن النافذة وهو في حالة احتياج شديد يكاد يبلغ حد الخوف، ابتعد عن الضوء، كلص خائف، ولكنه وهو يفعل هذا، إذا به يصطدم برجل بدا كأنما انشقت الأرض عنه.

وقال ذلك الرجل:

- كنت أبحث عنك أيها الأمير.

فقال الأمير في دهشة:

- أهذا أنت يا كيللر؟

- نعم، كنت أبحث عنك. وقد انتظرتك طويلاً بالقرب من منزل آل إيبانشين، ولكنني بطبيعة الحال لم أستطع أن أدخل، ومن ثم اقتفيت أثرك وأنت تسير مع الجنرال إيبانشين. حسناً أيها الأمير، ها هو ذا كيللر، في خدمتك. وما عليك إلا أن تأمر! فإنني مستعد للتضحية بنفسي، بل مستعد للموت إذا لزم الأمر.

- ولكن، لماذا؟

- أوه، لماذا؟ إنك طبعاً سوف تُدعى للمبارزة! وإن الذي سيتحدثك هو ذلك الضابط الشاب الملازم مولونستوف. فإنني أعرف، أو على الأصح أعرف الشيء الكثير عنه، إنه لن يتجاوز عن إهانة توجّه إليه، وهو لن يهتم بأمرى أو أمر روجوجين، ولهذا لم يبق غيرك لكي يسوي الحساب معه. إن عليك أن تدفع الثمن أيها الأمير. إنه يسأل عنك، وليس من شك في أن صديقه سوف يزورك غداً، ولعله الآن في انتظارك بمنزلك. فإذا رأيت أن تشرفني وتتخذ مني شاهداً لك، فإن هذا يسعدني أيها الأمير. ذلك هو السبب الذي من أجله كنت أبحث عنك.

وقال الأمير وقد انفجر ضاحكاً لدهشة كيللر:

- مبارزة؟ أجئت أنت أيضاً لتحدثني عن مبارزة!

وظل يضحك بلا توقف حتى بدأ كيللر الذي كان ملهوفاً أشد اللهفة ليكون أحد مشاهديه، يشعر بالاستياء. وأخيراً قال:

- لقد أمسكت بذراعيه أيها الأمير كما تعلم، وليس ثمة إنسان حريص

على كرامته يرضى بمثل هذه المعاملة أمام الناس .

فصاح الأمير وهو لا يزال يضحك :

- نعم، وقد لكزني بقوة رهيبة في صدري، فعن أي شيء إذن سنتقاتل؟
لسوف أعتذر إليه، وينتهي كل شيء . ولكن إذا كان لا مفر من القتال، فلنتقاتل !
ليطلق رصاصة عليّ، بكل ما يستطيع، فإني في الواقع أميل إلى هذا! وأنا
أعرف الآن كيف أحشو غدارة، أتعرف كيف تحشو غدارة يا كيلر؟ يجب
أولاً، كما لا يخفى عليك، أن تشتري مسحوق البارود، ولكن احرص ألا
يكون رطباً، أو من ذلك النوع الرديء الذي يحشون به قذائف المدافع، وإنما
ينبغي أن يكون من النوع الخاص بالغدارات ثم ضع شيئاً منه فيها، ثم تناول
قطعة من اللباد من أحد الأبواب، ثم ادفع بالرصاصة في الفوهة، ولكن عليك
ألا تدفع بها قبل مسحوق البارود وإلا فلن تنطلق القذيفة. أسمع يا كيلر، إن
القذيفة لن تنطلق، ها، ها، ها، أليس هذا سبباً رائعاً يا صديقي؟ هه! أتعرف
يا صاحبي العزيز أنه ينبغي عليّ أن أقبلك حقاً وأن أعانقك، في هذه اللحظة،
ها، ها. كيف حدث أن برزت أمامي هكذا فجأة كما فعلت؟ تعال إلى بيتي
بأسرع ما تستطيع، وسوف نشرب معاً بعض الشمبانيا. لسوف نسكر جميعاً!
أتعرف أن لديّ اثنتي عشرة زجاجة شمبانيا في مخزن ليبيديف، لقد باعها
ليبيديف لي في اليوم التالي من وصولي، وقد اشترت الكمية كلها. ولسوف
ندعو الجميع! فهل تنوي أن تنام بعض الوقت الليلة؟

- سأنام بالقدر الذي تعودت عليه أيها الأمير، لماذا؟

- إذن أرجو لك أحلاماً سعيدة، ها، ها!

وعبر الأمير الطريق، ثم اختفى في الحديقة العامة، تاركاً كيلر

المدهوش في حالة من العجب العجيب؛ ذلك أنه لم ير الأمير من قبل أبدًا في مثل هذه الحالة الذهنية الغريبة، ومن ثم لم يستطع أن يتخيل الدوافع إليها. وقد قال لنفسه:

- لعلها الحمى؛ لأن أعصاب الرجل كلها مستوفزة، وإن ما حدث لأعظم مما يستطيع أن يحتمل. والشيء الواضح أنه ليس خائفًا، فإن هذا النوع من الناس لا يتخاذل أبدًا. هه! شمبانيا! إن هذه لناحية ممتعة من الموضوع كله على أية حال! اثنتا عشرة زجاجة! مرحى، إنها لذخيرة طيبة وأيم الله! وإني لأراهن بأي شيء أن لبيديف أقرض بعض الناس نقودًا واتخذ هذه الاثنتي عشرة زجاجة من الشمبانيا رهنا! وإنه لرجل لطيف، وإنه لأمر حقًا! وإني لأحب هذا الصنف من الرجال. حسنًا! لا حاجة بي إلى أن أضيع الوقت هنا، فإذا كان الأمر أمر شمبانيا، عجبًا! فليس هناك وقت مثل وقتنا الحاضر.

ولم يتجاوز كيللر الحقيقة كثيرًا في ظنه بأن الأمير في حالة تقرب من الحمى. فقد ظل يتجول في الحديقة العامة فترة طويلة، وأخيرًا عاد إلى نفسه وهو يسير في طريق خال، وشعر بغموض أنه قد عبر ذلك الطريق من قبل، من تلك الشجرة الكبيرة القائمة إلى ذلك المقعد في الجانب الآخر، الذي يبعد نحو مائة ياردة - لقد عبره ذهابًا وحيئة ثلاثين مرة على الأقل.

أما فيما كان يفكر في كل هذا الوقت، فإنه لم يستطع أن يتذكر. وإنما وجد نفسه على أية حال مستغرقًا في فكرة واحدة معينة جعلته يقهقه عاليًا، وذلك رغم أنه لم يكن فيها ما يضحك حقًا، إلا أنه شعر أن عليه أن يضحك، وأن يواصل الضحك.

وومض في ذهنه فجأة أن فكرة المباراة ربما لا تكون قد خطرت ببال

كيللر وحده، وأن الدرس الذي تلقاه عن كيفية حشو الغدارة قد لا يكون مجرد حدث عارض.

- أوه، هراء، لقد دهشت كل الدهشة عندما وجدتني جالسًا في الشرفة، ثم ضحكت وتحدثت كثيرًا عن الشاي! ومع ذلك فقد كانت تلك الورقة مطوية في يدها طيلة الوقت، ومن ثم فلا بد أنها كانت تعرف أنني جالس هناك. إذن فلماذا دهشت؟ ها، ها، ها.

وتناول الرسالة وقبلها، ثم وقف برهة وراح يفكر: «ما أعجب هذا كله؟ ما أعجبه» غمغم هذا لنفسه وهو يحس باكتئاب بالغ أخيرًا. ذلك أنه في لحظات الابتهاج الشديد، كان ثمة إحساس بالاكئاب يتسلل إلى نفسه، ولم يكن يستطيع أن يعرف السبب.

وتلفت حوله بإمعان، وتساءل لماذا أتى إلى هنا! وشعر أنه متعب جدًا، فاقترب من المقعد وجلس عليه. وكان السكون التام مخيمًا حوله، وكانت الفرقة الموسيقية في حديقة الفوكسهول قد فرغت من العزف، وبدأت الحديقة العامة خالية، وإن كان الوقت في الحقيقة لم يتجاوز النصف بعد الحادية عشرة مساءً. وكانت الليلة ساجية. دافئة. ذات سماء صافية الأديم- أي ليلة أصيلة من ليالي بطرسبرج في شهر يونية، ولكن الظلام كان حالكًا تمامًا حيث جلس في غياهب ذلك الطريق المحفوف بالأشجار الكثيفة.

ولو أن أحدًا جاء إليه في تلك اللحظة وأخبره أنه يحب، بل غارق في الحب إلى أذنيه، لعارض هذا الرأي في دهشة. وربما في ضيق وتوتر عصبي. ولو أن أحدًا أضاف إلى هذا قوله إن رسالة أجلايا هي رسالة حب. وأنها تحمل في طياتها موعدًا للقاء الحبيب؛ لاضطرم وجهه خجلًا للمتحدث بل وربما دعاه للمبارزة.

كل هذا قد يكون حقاً وصدقاً من ناحيته، ذلك أنه لم يفكر لحظة واحدة في مجرد احتمال أن تحبه هذه الفتاة، أو في أن يقع هو في حبها.... فقد كان يرى أن من الافتراضات الشاذة أن تحب فتاة ما «رجلاً مثله» كما يقول عن نفسه. وقد بدا له أن المسألة لا تعدو مجرد دعاية من جانب أجلايا، إذا كان الأمر ينطوي على شيء حقاً. وهذا، كما يبدو له، أمر طبيعي. ولكن كان ثمة شيء آخر مختلف يشغل فكره في تلك اللحظة.

لقد كان يؤمن تماماً بصدق الجنرال في قوله إن أجلايا تضحك ساخرة من كل شيء، ومنه هو، الأمير، على الأكثر. ومع ذلك فلم يخامره أبسط إحساس من الاستياء أو الامتناع، بل على النقيض، كان يشعر أن هذا ما ينبغي أن يكون.

وتركت أفكاره كلها الآن في البكور من صباح اليوم التالي، إنه سوف يراها. وسوف يجلس بجانبها على ذلك المقعد الأخضر الصغير، وينصت إلى حديثها عن كيفية حشو الغدارة، ويتطلع إليها. وإنه لا يريد أكثر من هذا. وقد تساءل في ذات نفسه مرة، أو مرتين، عن الموضوع الذي قد تتحدث عنه معه، والذي يهيمه هو بصفة خاصة. وأن الشك لم يخامره لحظة في أن لديها حقاً موضوعاً للتحدث عنه. ولكن بلغ من قلة اهتمامه بذلك الموضوع أنه لم يحاول كثيراً أن يعرف كنهه. وأخيراً رفع رأسه فجأة حين سمع خشخشة وقع الأقدام على حصباء الطريق بالقرب منه.

وكان من العسير عليه أن يتبين في الظلام، ملامح ذلك الرجل الذي اقترب من المقعد، ثم جلس بجانبه. ولكنه حين حملق في وجهه، عرف من تقاطيعه الشاحبة أنه روجوجين.

وقال هذا للأمير مغمغماً بين أسنانه:

- كنت أعلم أنك تتجول في مكان ما هنا، ومن ثم لم يستلزم الأمر أن أبحث عنك طويلاً.

وكانت تلك أول مرة يلتقيان فيها منذ حادثة السلم في الفندق.

وعجز الأمير، لمدة وجيزة، عن جمع شتات أفكاره بسبب دهشته الموجهة لظهور روجوجين على حين غرة. ولاح أن هذا الأخير قد رأى وأدرك مدى التأثير الذي أشاعه في نفسية الأمير، وبرغم مما بدا عليه في أول الأمر من ارتباك قليل أو كثير، فإنه، مع هذا، قد بدأ يتحدث في شيء من الحرية والانطلاق. وعلى أية حال، فإن الأمير سرعان ما غير رأيه في هذا الشأن، واعتقد أن روجوجين لم يكن فقط غير مهتم بشيء ما، وإنما كانت حالته لا تنم أيضاً عن الاهتمام النفسي. أما إذا كان ثمة ظواهر من الغرابة والشذوذ، فإنها تبدو فقط في كلماته وإيماءاته. ذلك أن كل ما كان مطبوعاً في أعماق قلبه فقد ظل على حالته، لم يتغير.

وقال له الأمير لمجرد الرغبة في أن يقول شيئاً:

- كيف أمكنك أن تعثر عليّ هنا؟

- أخبرني كيللر، الذي وجدته في بيتك، أنك في الحديقة العامة، وقد قلت لنفسك إنني سأجذك هنا بطبيعة الحال.

فسأله الأمير في قلق:

- ولماذا؟

وابتسم روجوجين، ولكنه لم يشرح السبب وإنما قال:

- لقد استلمت رسالتك يا ليو نيكولايفيتش - فما جدوى هذا كله؟ لا شيء كما تعلم. لقد جئت إليك من لدنها، أمرتني أن أخبرك أنها لا بد أن تراك؛ لأن لديها ما تريد أن تقوله لك. وقد طلبت مني أن أبحث عنك اليوم حتى أعثر عليك.

- لسوف أذهب غداً، أما الآن فإني ذاهب إلى بيتي.. فهل أنت آت معي؟

- ولماذا أفعل؟ لقد أبلغتك الرسالة، وداعاً.

فقال الأمير في وداعة:

- ألا تأتي معي؟

فضحك روجو جين متهكماً وهو يقول:

- يا لك من رجل غريب الأطوار! إنني في دهشة منك.

فسأله الأمير بحزن:

- لماذا تكرهني إلى هذا الحد؟ إنك نفسك تعرف أن كل ما ترتاب فيه ليس له أساس إطلاقاً. وإني لأشعر أنك لا تزال غاضباً عليّ، أتعرف لماذا؟ لأنك حاولت أن تقتلني.. وهذا ما يجعلك عاجزاً عن التحرر من غضبك الشديد عليّ. ولكنني أخبرك أنني لا أذكر فقط إلا بارفين روجو جين الذي تبادلته معه الصلبان، وتعاهدت وإياه على الإخاء. لقد ذكرت لك هذا في الرسالة التي كتبتها لك أمس، وذلك عسى أن تنسى كل ما بدر منك من حماقات، ومن ثم لا تشعر بوجوب التحدث عنها حينما نلتقي، فلماذا تتجنبني؟ لماذا تمسك يدك عني؟ أقول لك مرة أخرى إنني أعتبر كل ما حدث مجرد هלוسة، حلم جنوني. وإني أستطيع أن أفهم كل ما فعلته، وكل ما شعرت به في ذلك اليوم، وكأنما صدر هذا كله عني. إن كل ما تخيلته

عندئذ ليس هو الحقيقة، ولا يمكن أن يكونها. فلماذا إذن يكون ثمة غضب بيني وبينك؟

فضحك روجوجين وهو يجيب على عبارات الأمير التي قالها بحماسة:
- إنك لا تعرف ما هو الغضب.

ثم أردف قائلاً ببطء، وكان قد ابتعد عنه خطوة أو خطوتين، ووضع يديه وراء ظهره:

- لا، من المستحيل عليّ أن آتي إلى بيتك مرة أخرى.

- لماذا؟ أكرهني بهذا الشكل إلى هذا الحد؟

- إنني لا أحبك يا ليو نيكولايفيتش، ولهذا فما جدوى حضوري لزيارتك؟ إنك مثل الطفل.. تريد شيئاً تلهو به، ومن ثم يجب أن يُؤتى به إليك، وعندئذ لا تعرف كيف تجعله يعمل. وأنت الآن تكرر فقط كل ما ذكرته في رسالتك، فما الفائدة إذن؟ إنني أصدق كل كلمة تقولها، وأنا أعرف تمامًا أنك لم تخدعني أبداً ولا تستطيع أن تخدعني بأية وسيلة، ومع ذلك فأنا لا أحبك. لقد كتبت تقول إنك نسيت كل شيء. وإنك لا تذكر فقط إلا أخاك بارفين الذي تبادلت معه الصلبان، وأنك لم تعد تذكر شيئاً عن روجوجين الذي وجّه سكيناً إلى عنقك. فلماذا تعرف عن شعوري أنا إذن؟

وضحك روجوجين بمرارة ثم أردف قائلاً:

- ها أنت ذا تعرض عليّ صفحك الأخوي عن شيء ليلي لم أحاول قط أن أظاھر بالندم إطلاقاً على ارتكابه. إنني لم أفكر في رسالتك مرة أخرى طيلة المساء؛ لأن أفكاري كلها كانت مركزة في شيء آخر..

فصاح الأمير قائلاً:

- لم تفكر فيها مرة أخرى؟ طبعًا إنك لم تفعل! وإني لأستطيع أن أقسم أنك لم تأت رأسًا إلى بافلوفسك إلا لتسمع الموسيقى ولملاحقة ناستاسيا بين الجماهير والحملقة إليها تمامًا كما فعلت اليوم. وليس في هذا ما يدهش! ولو لم تكن في هذه الحالة الذهنية التي تجعلك لا تفكر إلا في موضوع واحد، لما رفعت - على الأرجح - يدك بالسكين عليّ. لقد كان لديّ إحساس بتوقع الشر مما ستفعل في ذلك اليوم منذ أن رأيتك أول مرة في الصباح. فهل تعرف كيف كان منظرك؟ لقد عرفت أنا أنك تريد قتلي حتى في اللحظة التي تبادلنا فيها الصلبان. ولماذا مضيت بي إلى والدتك. أكنت تظن أنك بهذا العمل ستمسك يدك عني؟ لعلك لم تعبر عن أفكارك بالكلمات، ولكننا، أنت، وأنا، كنا نفكر في شيء واحد، ونحس معًا بذلك الشيء الذي كان يتهددنا في نفس اللحظة. فماذا كان ينبغي أن تظن بي الآن لو لم ترفع يدك عليّ بالسكين.. السكين التي أبعدها يد الله عن عنقي! من جهتي كنت سأبقى متهمًا بالشك في أمرك على كل حال، ومن جهتك كنت ستظل مصرًّا على قتلي مهما يكن الأمر. ولهذا فنحن مشتركان في التبعة على أية حال. لا، لا تتجهم، ولا داعي لأن تسخر مني أيضًا. وأنت تقول إنك لم «تندم». أكنت تريد أن تندم؟ من المحتمل أنك ما كنت لتستطيع لو أنك حاولت؛ وذلك بسبب عنف كراهيتك لي. بل لو أنني كنت ملاكًا من النور، وطاهرًا في نظرك كطفل ولید، لما أمكنك أن تكف عن الشعور بالحقد عليّ إذا اعتقدت أنها أحببني بدلًا من أن تحبك. هذه هي الغيرة، الغيرة الحقّة!

وأردف الأمير قائلاً بعد برهة صمت:

- ولكن هل تعلم يا روججين فيما كنت أفكر طيلة الأسبوع الماضي؟ لسوف أخبرك. كيف يكون الحال لو أنها الآن تحبك أكثر مما تحب أي

شخص آخر؟ وماذا لو أنها تعذبك لأنها تحبك، وأنها على قدر غرامها بك، يزيد تعذيبها لك؟ إنها بطبيعة الحال لن تقول لك هذا، وإنما يجب أن تفتن إليه بنفسك. وماذا تظن عن قبولها الزواج بك؟ لا شك أن لديها سبباً، وأنها سوف تذكر لك هذا السبب يوماً ما. إن بعض النساء يشتهين مثل هذا الحب الذي تحمله لها، ومن المحتمل أن تكون هي واحدة منهن. إن حبك، وطبيعتك العنيفة يثيران عواطفها. فهل تعلم أن في مقدور المرأة أن تُفقد الرجل عقله أو تكاد بألوان من قسوتها وسخرياتها دون أن تحس بأية خلجة من الندم لأنها تنظر إليه وتقول لنفسها «ها! لسوف أعذب هذا الرجل حتى أجعله موشكاً على الموت، ثم، أوه، لشد ما سوف أعوضه عن هذا كله بقوة حبي!».«

وظل روجوجين ينصت حتى فرغ الأمير من حديثه، ثم انفجر ضاحكاً وقال:

- عجباً أيها الأمير! يبدو أنك ذقت مثل هذا النوع من الحب! أليس كذلك؟ لقد سمعت عنك شيئاً كهذا كما تعلم، فهل حقاً ما سمعت؟ فقال الأمير متلعثماً:

- ماذا؟! ماذا يمكن أن تكون قد سمعت؟

فاستمر روجوجين يضحك عالياً، وكان قد أنصت إلى حديث الأمير بفضول وبشيء من الرضى. وكانت حماسة المتحدث قد أدهشته، بل وأراحت نفسه وقد أجاب على الأمير بقوله:

- عجباً! إنني لم أسمع فقط، بل ورأيت بنفسي. فأنت لم تتحدث هكذا قط من قبل، وليست هذه طبيعتك أيها الأمير التي نعرفها عنك. عجباً!

إنني لو لم أسمع ما سمعته عنك، لما أتعبت نفسي بالسير كل هذه المسافة للحضور إلى هذه الحديقة، وفي منتصف الليل أيضًا.

- إنني لا أفهمك البتة يا روجوجين!

- أوه، لقد أخبرتني بالأمر منذ فترة طويلة، ولكنني الليلة رأيت كل شيء بنفسني. لقد رأيتك عند جوسق الموسيقى كما تعلم، جالسًا مع من؟ إنها أقسمت لي أمس، وكررت القسم اليوم، أنك مجنون بحب أجلايا إيفانوفنا ولكن هذا كله لا يهمني أيها الأمير، وهو ليس من شأني على الإطلاق؛ لأنك إذا كنت قد أقلعت عن حب ناستاسيا، فإنها لم تقلع عن حبك. وأنت تعلم بطبيعة الحال أنها تريد أن تزوجك بأجلايا؟ لقد أقسمت على هذا! ها، ها! لقد قالت لي: «وإلى أن يتم هذا، فلن أتزوج بك. ولكن عندما يذهبان لعقد الزواج بالكنيسة، سأذهب معك لنفس الغرض؟» فماذا تعني من هذا بحق السماء؟ إنني لا أعرف، ولم أعرف قط. فهي إما أنها تحبك حبًا لا حد له، أو... ولكن إذا كانت تحبك فلماذا تريد أن تزوجك بفتاة أخرى؟ إنها تقول: «أريد أن أراه سعيدًا» ومعنى هذا، أنها تحبك.

وهنا قال الأمير الذي كان ينصت بعذاب شديد إلى ما يقوله روجوجين:

- لقد ذكرت لك في رسالتي، وأقول لك مرة أخرى، إنها ليست في حالة عقلية سليمة.

- الله أعلم ولعلك أن تكون مخطئًا في هذا. وأيًا كان الأمر، فقد حددت الموعد في هذه الليلة أثناء انصرافنا من الحديقة. لقد قالت: «سوف يتم زواجنا في خلال ثلاثة أسابيع، وربما في مدة أقصر» وقد أقسمت على هذا، تناولت الصليب وقبلته، ومن هذا ترى أن كل شيء يتوقف عليك الآن

أيها الأمير، أترى! ها، ها!

- هذا جنون، إن كل ما تقوله بشأنى يا روججين لن يحدث، ولا يمكن أن يحدث. ولسوف آتى غداً لزيارتك و...

فقاطعه روججين قائلاً:

- كيف يمكن أن تكون مجنونة وهي عاقلة جداً مع غيرك من الناس، وليست مجنونة من أجلك! وكيف يمكنها أن تكتب الرسائل إلى أجلايا، إذا كانت مجنونة؟ فلو أنها فاقدة العقل للاحظوا هذا في رسائلها.

فقال الأمير في جزع:

- أية رسائل؟

- إنها تكتب لأجلايا، وإن الفتاة تقرأ رسائلها، ألم تسمع بهذا الأمر؟ لسوف تسمع به حتماً، ومن المؤكد أنها سوف تطلعك على هذه الرسائل بنفسها.

فصاح الأمير قائلاً:

- إنني لا أصدق هذا.

- عجباً أيها الأمير، إنك لم تخط في هذا الطريق إلا خطوات قليلة كما أرى. ويبدو أنك لا تزال مبتدئاً. انتظر قليلاً! ولن تمضي فترة طويلة حتى يكون لديك المخبرون الخصوصيون، وحتى ترقب ما يجري ليلاً ونهاراً، وعندئذ سوف تعرف كل صغيرة أو كبيرة مما يحدث هناك، هذا إذا...

- دعك من هذا الموضوع يا روججين، ولا تتحدث عنه بعد ذلك أبداً. ثم اسمع، إنني وأنا جالس هنا الآن أتحدث وأنصت إليك، خطر ببالي فجأة

أن غداً هو عيد ميلادي ولا شك أن الساعة الآن حوالي الثانية عشرة، فهلم
إلى البيت معي، أرجوك أن تأتي، وسوف نشهد مولد الغد معاً، وسنشرب
بعض الخمر، وسوف تتمنى لي - لا أدري ماذا- ولكن يجب عليك أنت،
وأنت خاصة، أن تتمنى لي أمنية طيبة، وسوف أتمنى لك السعادة الكاملة
بدوري وإلا، فأعد إليّ صليبي. إنك لم تعد إليّ في اليوم التالي، فهل هو
معك الآن؟

فقال روجوجين:

- نعم إنه معي.

- هلم إذن. إنني لا أريد أن أواجه عامي الجديد بدونك - أو حياتي
الجديدة، كما ينبغي أن أقول؛ لأن حياة جديدة سوف تبدأ لي، فهلا علمت
يا روجوجين أن حياة جديدة قد بدأت لي؟
- أرى بنفسني أن الأمر كما تقول.. وسوف أخبرها بذلك. ولكنك
لست في حالتك الطبيعية يا ليو نيكولايفيتش.



الفصل الرابع

عندما أخذ الأمير يقترب من داره، مع روجوجين، لاحظ، في دهشة بالغة، أن عددًا كبيرًا من الناس قد اجتمعوا في الشرفة التي بدت ساطعة الأنوار. وبدا له أن المجتمعين كانوا مرحين. يضحكون عاليًا ويتحدثون، بل ويتشاجرون، إذا حكمت من أصواتهم. وأيًا كان الأمر، فقد ظهر بوضوح أنهم يرفهون عن أنفسهم، كما لاحظ الأمير عدا هذا عندما ازداد اقترابًا، أنهم جميعًا يشربون الشمبانيا. وقد نمت حال المرح البالغ التي كان بعضهم عليها أن كمية كبيرة من الشمبانيا قد شُربت فعلاً.

وكان جميع الضيوف معروفين للأمير. ولكن الجانب العجيب في الأمر أنهم جميعًا قد حضروا في نفس الليلة، وكأنما جاءت بهم مناسبة خاصة، وذلك رغم أنه هو فقط الذي تذكر منذ لحظات أن عيد ميلاده سيكون بعد منتصف الليل.

وغمغم روجوجين وهو يصعد إلى الشرفة مع الأمير:

- لا بد أنك ذكرت لشخص ما أنك ستقدم الشمبانيا الليلة، ولهذا حضر هؤلاء جميعًا. إننا جميعًا نعرف عن هذا الأمر، وما عليك إلا أن تصفر حتى يهرعوا إليك حشدًا بعد حشد.

وكان الغضب يسري في صوته وهو يتحدث؛ لأنه تذكر، بلا شك، تجربته الأخيرة بشأن ندمائه.

وتحلّق الجميع حول الأمير مرددين عبارات التحية والترحيب وما إن سمعوا أن اليوم التالي هو عيد ميلاده حتى ارتفعت أصواتهم بالتهنئة والابتهاج. وكان الكثيرون منهم يسرفون في الصخب والضجيج.

وكانت دهشة الأمير بالغة حين رأى أشخاصًا معينين بين الحاضرين، ولكن الضيف الذي جعل بحضوره دهشة الأمير تبلغ الذروة، بل الذي جعلها تبلغ حد الجزع.. كان إيفيني بافلوفيتش. ولم يستطع الأمير أن يصدق عينيه حينما رأى هذا الأخير، ولم يملك نفسه من التفكير في أن شيئًا مزعجًا قد حدث!

وبادر ليبيديف فورًا لشرح للأمير سبب حضور هؤلاء السادة جميعًا. وكان هو نفسه ثملاً بعض الشيء. ولكن الأمير فهم من حديثه المتقطع الطويل العريض أن الضيوف اجتمعوا بطريقة طبيعية، وعرضية.

إن إيبوليت كان أول من حضر في بكور المساء، ولما كان يشعر بتحسن أكيد في صحته، فقد قرر أن ينتظر الأمير في الشرفة. ثم انضم إليه ليبيديف، وتبعه بقية المقيمين معه: أي بناته والجنرال إيفولجين. وكان بوردوفسكي قد جاء بإيبوليت ثم بقي معه. ثم أقبل جانيا وبيتسين عرضًا فيما بعد. ثم حضر كيلر الذي أصر مع كوليا على تناول الشمبانيا. أما إيفيني بافلوفيتش فقد حضر فقط منذ نصف ساعة، وكان ليبيديف قد أخذ في تقديم الشمبانيا.

واختتم ليبيديف الحديث قائلاً:

- هذه الشمبانيا على حسابي، على حسابي أيها الأمير، تعبيرًا عن أمنيته

لك بعمر مديد سعيد. وسوف يُقدم العشاء بعد ذلك. إن ابنتي تقوم على إعداداته الآن. هلم.. اجلس أيها الأمير، فإننا جميعاً في انتظارك، ونريدك معنا، تصور عن أي شيء كنا نتحدث؟ إنك تعرف الموضوع «أن تكون أو لا تكون»- من رواية هاملت- وهو موضوع الساعة الذي تكثر حوله المناقشات الآن. وقد كان المستر إيبوليت بليغاً في حديثه عنه إلى حد ما. وهو يرفض أن يأوي إلى فراشه، ولكنه لم يشرب غير القليل من الشمبانيا، ولن يسبب له هذا أي ضرر. هلم أيها الأمير واحكم برأيك في هذا الموضوع، فإن الجميع هنا كانوا ينتظرونك وهم متلهفون إلى نور ذكائك الساطع..

ولاحظ الأمير ومضة الترحيب الحلوة التي سطع بها وجه فيرا ليبيديف وهي تشق طريقها نحوه بين الحاضرين. وبسط يده إليها، فتناولتها وقد اضطرم وجهها ابتهاجاً، وتمنت له «حياة سعيدة منذ الآن فصاعداً» ثم هرعت منصرفة إلى المطبخ، حيث كان وجودها فيه ضرورياً للمساعدة في إعداد العشاء، وكانت قبل حضور الأمير قد أمضت بعض الوقت في الشرفة تنصت بشغف إلى الحديث الدائر، وذلك رغم أن الحاضرين- ومعظمهم تحت تأثير الخمر- كانوا يناقشون موضوعات تجريدية أبعد ما تكون عن مداركها. وفي الغرفة المجاورة، كانت أختها الأصغر منها سنّاً، راقدة على متكأ خشبي، مستغرقة في النوم، مغمورة الفم. ولكن الصبي، ابن ليبيديف، كان قد اتخذ مكانه بجوار كوليا وإيبوليت وقد أشرق وجهه استمتاعاً بالمحادثة الدائرة بين أبيه والباقيين، وبدا أنه على استعداد لأن يظل منصتاً عشر ساعات متوالية.

وقال إيبوليت للأمير الذي تقدم نحوه ليصافحه بحرارة بعد أن فرغ من تحية فيرا:

- كنت أنتظرك عن عمد، وإني لمسرور جدًا إذ أراك تحضر سعيدًا هكذا.

- ومن أين لك أن تعلم أنني «سعيد هكذا»!
- يمكنني أن أرى هذا مرسومًا على وجهك. حسنًا، قم بتحيةة الآخرين، ثم تعال واجلس هنا، بسرعة، لقد كنت في انتظارك.

كرر إيبوليت هذه العبارة الأخيرة ليؤكد للأمير أنه كان في انتظاره حقًا. ولما سأله هذا قائلاً: «أليس من الضرر عليك أن تجلس هكذا حتى ساعة متأخرة من الليل» أجاب قائلاً: إنه لا يستطيع أن يصدق أنه ظن منذ ثلاثة أيام أنه مشرف على الموت، ذلك لأنه لم يشعر في حياته أبدًا بمثل ذلك التحسن الذي طرأ عليه في هذا المساء.

ووثب بوردوفسكي بعد ذلك وقال - موضحًا - إنه حضر بطريق المصادفة، وذلك بمصاحبته لإيبوليت من المدينة إلى هذه الضاحية، وأنه سعيد إذ كتب ذلك «الهراء» في رسالته، ثم صافح الأمير بحرارة وعاد يجلس في مكانه.

وتقدم الأمير، بعد أن حيا الجميع، إلى إيفيني بافلوفيتش الذي بادر وتناول ذراعه وهو يقول:

- لديّ كلمتان أريد أن أقولهما لك. وهما عن موضوع كبير الأهمية، فهلم نتحدث على انفراد بضع لحظات.

وهمس صوت آخر في أذن الأمير قائلاً:

- مجرد كلمتين!

وتناولت يد أخرى ذراعه، ولما التفت الأمير، كانت دهشته بالغة حين

لمح وجهًا أحمر متوهجًا لشخص مضحك المنظر عرف فورًا أنه فيردشنيكو.
ولم يعلم أحد غير الله من أين ظهر!

وقال هذا للأمير:

- أتذكر فيردشنيكو؟

فصاح الأمير قائلاً:

- من أين هبطت علينا؟

وهتف كيللر بقوله:

- إنه الآن نادم على خطاياه، ولم يكن يريد أن يجعلك تعرف أنه هنا،
ومن ثم كان مختبئًا هناك، في ذلك الركن - ولكنه الآن يندم ويشعر بذنبه.

- ولماذا؟ لماذا فعل؟

- التقيت به في الخارج، وأحضرتة معي، وهو رجل مهذب لا يسمح
عادة لأصدقائه أن يروه، في العهد الأخير، ولكنه الآن آسف.

فقال الأمير وهو يتعد بصعوبة عنه لكي يتبع إيفيني:

- إنني بالتأكيد مسرور برؤيتك! ولسوف أعود إليكم فورًا أيها السادة.

وبدأ إيفيني الحديث قائلاً:

- إنك هنا سعيد مرح، وقد أمضيت نصف ساعة طيبة أثناء انتظاري لك.
والآن يا عزيزي ليو نيكولايفيتش. هذه هي المسألة. لقد اتخذت الترتيبات
مع مولوفستوف، وقد جئت من فوري لأطمئنك من هذه الناحية. وليس ثمة
ما يدعو لأن تخشى شيئًا، ذلك أنه كان، كعهدي به طبعًا، عاقلًا حكيماً، لأنه
كما أعتقد، جعل اللوم فيما حدث على نفسه.

- من هو مولوفستوف!

- إنه الشاب الذي أمسكت بذراعيه من الخلف، ألا تعرف؟ لقد كان
ثائرًا عليك، وأراد أن يرسل أحد أصدقائه ليدعوك إلى المباراة غدًا صباحًا.

- ما هذا اللغو الفارغ؟

- إنه لغو فارغ طبعًا، وكان الموضوع بلا شك سينتهي إلى لغو فارغ
أيضًا. ولكنك تعرف طبائع هؤلاء الصحاب.. إنهم..

- أوه، معذرة يا إيفيني بافلوفيتش، ولكنني كنت ولا شك أظن أن لديك
شيئًا آخر تريد أن تحدثني عنه.

فقال الآخر ضاحكًا:

- لديّ طبعًا! إنني، كما ترى يا صديقي العزيز، مضطر إلى الرحيل غدًا،
في بكور الصباح، إلى المدينة بشأن هذا الموضوع المؤلم «موضوع عمي
كما تعلم». هل تتصور يا سيدي العزيز أن ما سمعت كان حقيقة، كلمة كلمة،
وأن الناس جميعًا، فيما عداي، كانوا يعلمون به! لقد صدمني هذا كله بقسوة
جعلتني لا أستطيع الذهاب لزيارة آل إيبانشين. ولن أتمكن أيضًا من زيارتهم
غدًا؛ لأنني سأكون في المدينة عندئذ وربما أمكث هناك ثلاثة أيام أو أكثر.
وعلى الجملة فإن زمام شؤني قد أفلت من يدي بعض الشيء. ورغم أن
أعمالي في المدينة على جانب كبير من الأهمية بطبيعة الحال، إلا أنني قررت
ألا أرحل قبل أن أراك، وأن أبادل معك حديثًا صريحًا عن بعض الأمور.
وبدون أن أضيع أي وقت، سوف أنتظر الآن، إذا أذنت لي، حتى يرحل هذا
الجمع. ولعلي خيرًا أفعل؛ لأنه ليس ثمة مكان آخر يمكن أن أذهب إليه،
وليس من شك في أنني لن أنام الليلة بسبب احتياج مشاعري. وأخيرًا ينبغي

أن أعترف بأنه على الرغم من إدراكي أنه من سوء الأدب ملاحقة رجل على هذا النحو، إلا أنني حضرت لألتمس صداقتك يا عزيزي الأمير. فأنت شخص من نوع غير عادي؛ لأنك لا تكذب في كل خطوة تخطوها كما يفعل بعض الناس، بل إنك في الواقع لا تكذب أبدًا. وأن هناك موضوعًا أحتاج في معالجتة إلى صديق وفيّ مخلص؛ لأنني أستطيع أن أقول بحق إنني في الوقت الحاضر من الناس البائسين.

ثم ضحك مرة أخرى. أما الأمير فقد قال بعد لحظة من التفكير:

- ولكن المشكلة هي أن الله وحده يعلم متى سينفض هذا الجمع، ألا يحسن أن نتمشى في الحديقة؟ لسوف أستأذن منهم وأنا واثق بأنهم لن ينصرفوا قبل عودتنا.

- لا، لا! إن لدي أسبابًا تجعلني لا أرغب في اشتباههم بأننا مهتمون بالحديث في موضوع له أهميته الخاصة. وإن بين الحاضرين بعض السادة الذين يسرفون بعض الشيء في اهتمامهم بنا. ولعلك لا تدري هذه الحقيقة أيها الأمير؟ وإنه لمن الأفضل كثيرًا لو أنهم رأونا مجرد صديقين عاديين. ولسوف ينصرفون جميعًا في خلال ساعتين، وعندئذ سوف أطلب منك أن تمنحني من وقتك عشرين دقيقة، أو نصف ساعة على الأكثر.

- بكل سرور! أؤكد لك أنني سعيد بهذا، وما كان لك أن تضطر إلى كل هذه الإيضاحات. أما فيما يختص بحديثك عن صداقتك لي، فإني أشكر كل الشكر حقًا. وأرجوك أن تغفر لي غيبيتي الوجيزة هذا المساء. والآن هل تدري أنني لا أستطيع بشكل ما أن أركز انتباهي على شيء في الوقت الحاضر.

فابتسم إيفيني بافلوفيتش برفق، وقد بدا أن مرحه في ذلك المساء كان سطحياً جداً:

- أجل، أجل، إنني أفهم.

فقال الأمير مدهوشاً:

- ماذا تفهم؟

فقال إيفيني وهو لا يزال يتسم ودون أن يدلي بإجابة مباشرة عن السؤال:

- إنني لا أريد أن يخامرك الشك في أنني لم آت إليك إلا لأخدعك وأظفر بالمعلومات منك.

فقال الأمير ضاحكاً في النهاية:

- أوه، ولكن ليس لدي أقل شك في أنك جئت فقط لتظفر مني بالمعلومات. وكذلك يمكنني أن أقول إنك على استعداد تام لأن تخدعني إذا أتيت لك الفرصة. ولكن ماذا في هذا؟ إنني لست خائفاً منك. وعدا هذا، فإنك ربما لا تصدق أنني أشعر كأنما لم يعد يهمني في الوقت الحاضر أي وضع من الأوضاع تتخذه الأمور.. ربما أنك رجل مدهش، وأنا واثق من هذا، فيمكنني القول إن الأمر بيننا سينتهي إلى صداقة طيبة. فأنا أحبك كثيراً يا إيفيني بافلوفيتش، وأعتبرك صديقاً طيباً حقاً.

فقال إيفيني:

- حسناً: إنك على كل حال إنسان من ألطف الذين يمكن أن يتعامل معهم الناس أيّا كان موضوع التعامل.

ثم اختتم حديثه قائلاً:

- هلم الآن، لسوف أشرب كأسًا في تحيتك، وإني لسعيد جدًا بتأزرك
معي..

ثم أضاف قائلاً على حين غرة:

- وبهذه المناسبة، هل جاء الشاب إيوليت للإقامة معك؟
- أجل.

- إنه ليس على وشك الموت كما أرى! أليس كذلك؟
- لماذا؟

- لا أدري، لقد أمضيت نصف ساعة هنا معه، وبدأ لي...

وكان إيوليت في خلال هذه الفترة ينتظر الأمير، ومن ثم لم يكف لحظة عن النظر إليه وإلى إيفيني بافلوفيتش وهما يتبادلان الحديث في ركن منعزل. ثم اشتد انفعاله حينما عادا يقتربان من المائدة. وكان كما يبدو، مضطرب الذهن؛ لأن العرق كان يتفصد على جبينه في قطرات كبيرة، وكان من السهل أن تقرأ في بريق نظراته احتياج النفس ونفاد الصبر. وكانت نظراته تنتقل من وجه إلى آخر بين الحاضرين، ومن شيء إلى شيء في الغرفة، وذلك بلا هدف معين كما يبدو. وكان قد قام بدور - وهو في حالة نشوة - في خضم الأحاديث الصاخبة التي دارت بين الحاضرين، ولكن الواضح أن نشوته كانت ناشئة عن الحمى. وكان حديثه يكاد لا يبين عن شيء؛ فهو يتوقف عن الحديث في وسط عبارة يكون قد بدأها باهتمام بالغ، ثم ينسى ما كان قد تحدث به. وقد اكتشف الأمير في استياء واستنكار، أن الحاضرين سمحوا لإيوليت بالاشتراك في شرب كوؤوس أكبر مما ينبغي من الشمبانيا. وكانت الكأس الموضوعة بجانبه عندئذ هي الثالثة. وقد اكتشف هذا كله فيما بعد،

أما في تلك اللحظة، فإنه لم يلاحظ شيئاً معيناً.

وصاح إيوليت قائلاً:

- أتعرف أنني سعيد بصفة خاصة لأن اليوم هو عيد ميلادك!

- لماذا؟

- لسوف تعرف حالاً. ثم هل تعرف أنني أحسست أن عددًا كبيرًا من الصحاب سيكونون هنا الليلة؟ إن هذه ليست المرة الأولى التي تتحقق فيها هواجسي. وقد كنت أتمنى لو علمت أن اليوم عيد ميلادك حتى أقدم هدية.. فربما كنت أحتفظ لك بهدية! فمن يدري؟ ها، ها.. ما الوقت الباقي على شروق الشمس؟

فقال بيتسين وهو ينظر في ساعته:

- ساعتان على الأكثر. وقال أحد الحاضرين: «ثم ما قيمة ضوء النهار الآن؟ إن في مقدور الإنسان أن يقرأ الآن في الهواء الطلق».

فقال إيوليت:

- ما قيمته؟ حسنًا، إنني أريد فقط أن أرى ضوء الشمس، هل يمكن أيها الأمير أن يشرب الإنسان نخب الشمس؟

- أوه، أعتقد أن في مقدور الإنسان أن يفعل هذا. ولكن يحسن أن تهدأ أو تستريح يا إيوليت، فهذا أهم كثيرًا.

- إنك دائمًا تنصحني بالراحة، وكأني بك أيها الأمير ممرض خاص بي. فبمجرد أن «تصلصل» الشمس في السماء.. مَنْ ذلك الشاعر الذي قال: «صلصلت الشمس في السماء».. إنه تشبيه جميل وإن كان بلا معنى! فعندئذ

تأوي إلى الفراش. أخبرني يا ليبيديف، هل الشمس هي مصدر الحياة؟ ما المعنى الحقيقي لمصدر أو نبع الحياة في سفر الرؤيا؟ هل سمعت أيها الأمير عن «النجم المسمى ورمود؟».

- سمعت أن ليبيديف يفسره بأنه السكك الحديدية التي انتشرت في أوروبا كالشبكة.

وضحك الجميع. ونهض ليبيديف واقفاً فجأة وهو يصيح ملوحاً بذراعيه طالباً الصمت:

- لا! اسمحوا لي بالقول بأن هذا ليس هو الموضوع الذي ناقشه.
ثم أضاف قائلاً للأمير فجأة:

- معذرة! مع وجود هؤلاء السادة.. كل هؤلاء السادة، وفي حالات معينة، أعني..

وراح ينقر على المائدة باستمرار مما جعل الضحك يزداد. وكان ليبيديف كعادته في كل ليلة، قد فرغ لتوه من مناقشة علمية طويلة خرج منها مهتاج الشعور متوتر الأعصاب، وفي مثل هذه المناسبات يكون مستعداً لإظهار أشد احتقاره لخصومه..

ثم استطرد يقول:

- هذا لا يليق! فمنذ نصف ساعة أيها الأمير، كان الاتفاق قد تم بيننا على أنه لا ينبغي لأحد أن يقاطع، أو يضحك، وأن لكل واحد منا أن يعبر عن أفكاره بحرية ثم، في النهاية، عندما يفرغ كل شخص من حديثه، يجوز أن تبدأ الاعتراضات، حتى من الملحنين، وقد اخترنا الجنرال رئيساً. أما بدون نظام أو مبدأ، فإن من الممكن الصباح في وجه أي متحدث ليسكت حتى

وهو يعبر عن أعماق وأحكام الآراء..

فصاح عدد من الحاضرين:

- استمر.. استمر.. لن يعمل أحد على مقاطعتك.

- تحدث ولكن لا تخرج عن نطاق الموضوع.

وسأل أحدهم:

- ما شأن هذا «النجم»؟

فأجاب الجنرال إيفولجين الذي بدا جادًا وقورًا في رئاسته:

- ليست لدي فكرة عنه.

وقال كيلر وهو يتلملم في مقعده وقد بدا أنه أكثر من نصف ثمل:

- إنني أحب هذه المناقشات أيها الأمير، سواء كانت علمية أو سياسية.

ثم أردف قائلاً وهو يستدير نحو إيفيني بافلوفيتش الذي كان جالسًا

بجانبه:

- هل تعلم أي شغوف كل الشغف بقراءة نص المناقشات التي تدور

في البرلمان الإنجليزي. وليست المناقشات نفسها هي التي تهمني؛ لأنني كما

تعلم لست سياسيًا، وإنما الذي يسرنني هو طريقة كل منهم في مخاطبة الآخر

مثل «إن السيد النبيل يتفق معي» أو «إن خصمي المحترم الذي أدهش أوروبا

باقتراحه» أو «الفيكونت النبيل الجالس أمامي». إن كل هذه التعبيرات، وكل

هذه البرلمانيات لشعب حر، تستهويني إلى أقصى حد. إنها تسحرني أيها

الأمير. وأؤكد لك يا إيفيني بافلوفيتش أنني كنت دائمًا فنانًا في أعماق نفسي.

فصاح جانبا من الركن الآخر من الغرفة:

- هل تعني أن تقول إن السكك الحديدية هي من الاختراعات اللعينة،
وأنها ستكون مصدر خراب للإنسانية، وُسْمًا مصبوبًا على الأرض ليفسد
ينابيع الحياة؟

وكان جانبا في حالة معنوية رائعة في ذلك المساء. وقد بدا للأمير أن
مرحه ممزوج بشعور بالانتصار. وكان بطبيعة الحال يمزح فقط مع ليبيديف،
ويقصد إثارته، ولكنه في الوقت ذاته كان يثير نفسه.

وقال ليبيديف بمزيج من الغضب الشديد والمتعة البالغة:

- لا، ليست هي السكك الحديدية يا عزيزي! إن السكك الحديدية،
في ذاتها، لن تفسد ينابيع الحياة، ولكنها في مجموعها ملعونة، إن الاتجاه
الجماعي للقرون الأخيرة نحو العلوم والنظريات المادية هو، على الأرجح،
ألعن الأشياء.

فقال إيفيني بافلوفيتش:

- هل تقصد أن هذا الاتجاه ملعون حقًا، أو ربما يكون ملعونًا؟ إن هذه
النقطة على جانب كبير من الأهمية.

فأجاب ليبيديف بحماسة:

- إنه ملعون، ملعون بالتأكيد!

فقال بيتسين باسمًا:

- لا تغال يا ليبيديف، لقد كنت في الصباح أكثر وداعة.

فقال ليبيديف بنفس الحماس:

- ولكنني، من ناحية أخرى، أكثر صراحة في المساء. و.. وبرغم أنني

قد أكشف لكم عن الجانب الضعيف مني، فأني مستعد أن أتحداكم جميعاً،
أتحداكم أنتم أيها الملحدون على سبيل المثل. كيف تنوون أن تنقذوا
العالم؟ كيف ستجدون طريقاً مستقيماً للتقدم الحضاري يا رجال العلم
والصناعة والتعاون المشترك والنقابات العمالية وباقي هذا كله؟ أقول: كيف
ستعملون على إنقاذه؟ بأي شيء، وبأي نفوذ؟ وما النفوذ؟ وإلى أي طريق
سيقودكم هذا النفوذ؟

فقال إيفيني بافلوفيتش:

- إنك شديد الفضول.

- ربما. ولكن كل شخص لا يهتم بموضوع كهذا، يعتبر في رأيي،
مجرد دمية عصرية.

وقال بيتسين:

- إنه سيؤدي على الأقل إلى الاستقرار، وإلى موازنة المنفعة العامة.

- ألا يمكن أن تصل إلى هذا إلا عن طريق النفوذ؟ أي بدون الاستعانة
بأي مبدأ أخلاقي إلا مبادئ الأنانية والاحتياجات المادية! وهل نتيجة هذا
هي السلام العالمي والسعادة البشرية؟ هل هذا حقاً ما يمكن أن أفهمه يا
سيدي؟

فقال جانبا وقد تحمس تماماً:

- ولكن ضروريات الحياة العالمية: كالأكل والشرب.. أو على الجملة
أرى أن اليقين العلمي بأن هذه الضروريات لا يمكن استكمالها إلا بالتعاون
العالمي المشترك وباستقرار المنفعة العامة، هو، كما يبدو لي، مبدأ قوي
يمكن أن يكون أساساً أو «ينبوعاً للحياة» إن صح هذا التعبير، للبشرية في

القرون الآتية.

- أو بمعنى آخر أن الحاجة إلى الطعام والشراب هي، فقط، غريزة حب البقاء.

- ألا يكفي هذا؟ إن غريزة حب البقاء هي الناموس الطبيعي للبشرية..
فقاطعه إيفيني قائلاً:

- من قال لك هذا؟ إنها ناموس بلا شك، ولكنها ناموس لا يختلف قليلاً أو كثيراً في طبيعته عن ناموس الدمار، حتى دمار النفس. فهل يمكن أن يكون كل ما يختص بالناموس الطبيعي للبشرية مركزاً في الرأي المجمل الذي يدور حول «حب البقاء»؟.

فصاح إيبوليت وهو يلتفت نحو إيفيني بافلوفيتش وينظر إليه بنوع عجب من الفضول:
- أجل!

ولكن عندما رآه يضحك، راح هو أيضاً يضحك ويلكز بمرقه كوليا الجالس بجانبه، ثم يعود ويسأله عن الوقت. بل لقد جذب ساعة كوليا الفضية من يده ونظر فيها بلهفة. ثم إذا به، وكأنما نسي كل شيء، يتمدد على المتكأ، ويضع يديه وراء رأسه، ثم يتطلع إلى السماء. وبعد لحظة أو اثنتين، نهض وعاد إلى المائدة لينصت إلى تدفق لبيديف في الحديث الذي كان يعلق فيه بحماسة شديدة على رأي إيفيني بافلوفيتش المناقض:
وكان يقول:

- هذه فكرة بارعة ماكرة. بل رأي حصيف هدفت منه إلى إثارة الخصوم، ولكنه حق وصدق. وإنك لرجل ساخر عركتك صروف الحياة،

وضابط بسلاح الفرسان لا ينقصك الذكاء، فهلا أدركت مدى ما في رأيك من قوة وصدق. نعم، إن القوى متوازنة بين ناموسي «حب البقاء» و«الرغبة في التدمير» في هذا العالم. وإن الشيطان سوف يبقى ناشراً ظله على البشرية ردحاً من الزمن لم يزل بعد مجهولاً. إنك تضحك؟ إنك لا تؤمن بوجود الشيطان. وإن الشك في وجوده فكرة فرنسية، وهي فكرة سطحية تافهة. أتعرف من الشيطان؟ أتعرف اسمه؟ فرغم أنك لا تعرفه ولا تعرف اسمه، فإنك تتخذ منه مادة للسخرية كما فعل فولتير. إنك تسخر من الأظلاف، ومن ذيله وقرنيه، وهذا كله من نتاج خيالك. أما الحقيقة فهي أن الشيطان روح عظيمة رهبة بلا أظلاف أو ذيل أو قرنين. وإنما أنت الذي أسبغت عليه هذه الصفات والخصائص. ولكن... إنه ليس المشكلة الآن.

فصاح إيبوليت وهو يضحك بعصبية:

كيف تعرف أنه ليس المشكلة الآن؟

فأجاب ليبيديف قائلاً:

- هذه فكرة أخرى مدهشة جدية بالاعتبار والتأمل. ولكنني أعود فأقول إنه ليس المشكلة، وإنما المشكلة في الوقت الحاضر هي: هل نحن أفسدنا ينابيع الحياة بمدناً..

فأكمل كوليا العبارة في شغف قائلاً:

- بمدناً خطوط السكك الحديدية؟

- لا، ليست السكك الحديدية في ذاتها إذا شئنا أن نتحدث كما ينبغي أيها الشاب المتسرع، وإنما هي في الصورة العامة للحياة التي قد ترمز لها السكك الحديدية. إننا عندئذ سوف نجري، ونتدافع ونتزاحم في سبيل

الإنسانية! وقد قال أحد المفكرين المعتكفين عن الحياة وهو يتوجع: «لقد أصبح العالم صاحبًا وسوقيًا أكثر مما ينبغي» وعندئذ أجاب عليه آخر في زهو بلغ حد الكبرياء: «لا شك في هذا، ولكن عجيج المركبات وهي تحمل الخبز إلى البشرية الجائعة، أهم وأجمل كثيرًا من الهدوء النفسي» أما أنا، فإنني لا أؤمن بقدرة هذه المركبات على إحضار الخبز للبشرية؛ ذلك لأنها، أي هذه المركبات التي لم تنشأ على مبدأ أخلاقي معين قد تحرم بكل برود- وهي تحمل الخبز إلى البشرية- جانبًا كبيرًا منها من التمتع به. وقد حدث هذا أكثر من مرة و..

فكر أحد الحاضرين هذه العبارة:

- ماذا؟ هذه المركبات قد تحرم ببرود...؟

فاستطرد ليبيديف قائلاً دون أن يتنازل ويهتم بالذي قاطعه:

- وهذا ما حدث فعلاً، لقد كان مالتاس صديقاً للبشرية. ولكن صديق البشرية ذا المبادئ الأخلاقية القائمة على أساس سيئ، هو في الواقع عدوها المبين. ودعك من الحديث عن كبريائه؛ لأنك إذا جرحته فقط كبرياء واحد من أصدقاء البشرية هؤلاء الذين لا يُحصى عددهم، لغدا مستعداً فوراً لإشعال النار في العالم بدافع من الرغبة في الانتقام. وإن شئت الحقيقة فنحن جميعاً هكذا من ناحية أو من أخرى، وربما أكون أنا أول من يشعل النار في الوقود ثم أهرب. ولكن ينبغي مرة أخرى أن أكرر القول بأن هذه ليست المشكلة.

- ما هي إذن؟ بحق السماء؟

- إنه يضجرنا.

- إن المشكلة تتعلق بالأحدوثة التالية عن الأزمان القديمة؛ لأنني مضطر إلى سرد قصة. ففي زماننا، وفي بلادنا التي أرجو أن تحبوها كما أحبها؛ لأنني، من ناحيتي، مستعد للتضحية في سبيلها بآخر قطرة من دمي...
- استمر... استمر في حديثك.

- في بلادنا العزيزة، وفي أوروبا كلها، تأتي المجاعات بين البشرية أربع مرات في قرن واحد بقدر ما أستطيع أن أذكر: مرة في كل خمس وعشرين سنة وأنا لا أستطيع أن أقسم على صحة تحديد هذه الفترات، ولكنها، على أية حال، قد أصبحت نادرة نسبيًا.

- بالنسبة لماذا؟

- بالنسبة للقرن الثاني عشر، والقرون السابقة عليه مباشرة واللاحقة له. فقد ذكر لنا المؤرخون أن المجاعات الواسعة النطاق كانت تنتشر في تلك الحقبة الزمنية بمعدل مرة كل سنتين أو ثلاث سنوات. وقد بلغ من سوء الحالة أن ارتد الناس إلى طبائع أكلة اللحوم البشرية، في الخفاء، طبعًا. وقد أعلن أحد هؤلاء الأكلين للحوم البشرية، حين طعن في العمر، أنه قتل وأكل عن عمد ورغبة أثناء عمره الطويل الشقي ستين راهبًا، بخلاف عدد آخر من الأطفال، وذلك في أشد حالات الخفاء والسرية طبعًا. وهو يعتقد أن عدد الأطفال الذين قتلهم وأكلهم لا يقل عن ستة، وهو عدد لا قيمة له إذا قورن بالكمية الهائلة من رجال الدين الذين التهمهم. أما البالغون، أو على الأصح، العامة من الناس، فإنه لم يلمس واحدًا منهم.

وانضم رئيس الحاضرين إلى موجة الاحتجاج الجماعية، إذ قال بصوت كله الاستنكار:

- هذا مستحيل! إنني أيها السادة أتناقش معه كثيرًا في موضوعات كهذه، ووجدت أن الجانب الأكبر من حديثه لغو فارغ يصم الأذن. وليس في هذه القصة أي ادعاء على صدقها.

- تذكر يا جنرال حصار فارس! وأنتم أيها السادة، أوكد لكم أن قصتي هي الحقيقة العارية، ويمكنني أن أشير إلى أن الحقيقة رغم خضوعها للقانون الذي لا يتغير، فإنها في بعض الأحيان تشبه الباطل. والواقع أنه كلما كان الشيء أقرب إلى الحقيقة، بدا أمام الناس أبعد عنها.

واعترض الحاضرون الساخرون قائلين:

- ولكن، هل في مقدور أحد أن يأكل ستين راهبًا؟

- الواضح أنه لم يأكلهم جميعًا دفعة واحدة، وإنما في مدة خمسة عشر أو عشرين عامًا. ويمكن من هذه الناحية أن يكون الأمر معقولًا وطبيعيًا..

- طبيعيًا؟

فقال ليبديف مكرراً القول في عناد شديد:

- وطبيعيًا! وعدا هذا فإن الراهب الكاثوليكي شديد الفضول بطبيعته. ومن ثم كان من السهل جدًا استدراجه إلى غابة أو إلى مكان خفي لسبب زائف، وهناك يمكن أن يحدث ما سبق أن قلته. ولكنني لا أجادل أبدًا في أن عدد الأشخاص الذين التهمهم ذلك العجوز يدل على شيء من الجشع.

وقال الأمير بهدوء:

- ربما كان الأمر حقًا أيها السادة.

وكان جالسًا ينصت في صمت حتى تلك اللحظة دون أن يشترك في

الحديث، ولكنه كان يضحك بكل قلبه مع الآخرين بين الحين والآخر. والواضح أنه كان مسرورًا وهو يرى الجميع متمتعين بالسهرة، ومتحدثين معًا في وقت واحد، بل وشاربين أيضًا. وقد بدا أنه لم يكن ينوي أن يتحدث على الإطلاق، ثم إذا به يتدخل فجأة في الحديث بذلك الصوت الجاد الذي جعل الجميع يتطلعون إليه باهتمام، وقد استطرد قائلاً:

- كانت المجاعات حقًا منتشرة بكثرة في تلك الأزمنة أيها السادة، وكثيرًا ما سمعت عنها وإن كنت لا أقرأ التاريخ كثيرًا. ولكن يلوح لي أن الأمر لا بد وأن يكون هكذا. فعندما كنت في سويسرا، اعتدت أن أنظر في دهشة إلى كثير من خرائب قلاع العصور الوسطى وهي جاثمة على قمم المرتفعات الصخرية الوعرة التي ترتفع عن مستوى البحر بنصف ميل على الأقل، مما يحتم على الذي يريد الوصول إليها أن يتسلق أميالًا عديدة من الممرات الجبلية الصخرية. والقلعة كما تعلمون هي جبل من الصخور تحتاج إقامتها إلى جهود جبارة تكاد تبلغ حد الإعجاز.. ولا شك أن العاملين في بنائها كانوا من الفقراء الأتباع، كما كان على هؤلاء جميعًا أن يدفعوا مختلف أنواع الضرائب والإتاوات لإعالة الأديرة والربان، فكيف كان في مقدورهم إذن أن يعولوا أنفسهم وأن يجدوا الوقت الكافي لزراعة حقولهم؟ لا شك عندئذ في أن العدد الأكبر من هؤلاء كانوا يموتون جوعًا. وإني في بعض الأحيان أسأل نفسي: كيف لم يحدث أن مُحيت مثل هذه المجتمعات من على سطح الأرض؟ وكيف أمكن للناس أن يبقوا فيها على قيد الحياة؟ إن ليبيديف ليس في رأيي مخطئًا حين قال إن الناس كانوا في تلك الأزمنة من أكلة اللحوم البشرية، وربما كانت هذه الصفة شائعة في أعداد ضخمة. ولكنني لا أفهم لماذا ذكر الرهبان بالذات، أو ماذا يعني بهذا؟

فقال جانبا:

- لأن الرهبان في القرن الثاني عشر كانوا بلا شك الأشخاص الوحيدين الذين يمكن أن يؤكلوا. لقد كانوا يمتازون بالبدانة بين الكثيرين من العجاف.
فصاح ليبيديف:

- فكرة رائعة، وصادقة حقاً! لأنه لم يكن يلمس العوام أبداً. ستون راهباً ليس بينهم واحد فقط من الدهماء! إنها فكرة رهيبة، ولكنها تاريخية، وحقيقة خاضعة لعلم الإحصاء. إنها في الواقع إحدى الحقائق التي تعين المؤرخين الأذكياء على رسم صورة لملامح عصر خاص؛ لأن مثل هذه الصورة تقدم لنا معلومات أدق من الوجهة الإحصائية التي تقول إن رجال الدين في تلك الأزمنة كانوا أكثر ثراء ستين مرة، وأعظم ترفاً من بقية البشر، ولعلهم كانوا أكثر بدانة من غيرهم ستين مرة أيضاً.

وصاح المستمعون بين موجة من الضحك:

- إنك تبالغ، إنك تبالغ، يا ليبيديف.

فسأله الأمير قائلاً:

- أعترف أن هذا رأي تاريخي. ولكن ما هو استنتاجك الأخير؟

وكان يتحدث إلى ليبيديف بلهجة جادة جعلت نبرات صوته تبدو في مقابلها مع أصوات الآخرين مضحكة تماماً. وقد كادوا أن يضحكوا منه ولكنه لم يلحظ هذه الحقيقة.

وهمس إيفيني في أذنه قائلاً:

- ألا ترى أنه مخبول أيها الأمير؟ لقد قال لي أحدهم الآن فقط إن به

مسًا بشأن المحامين. وإن لديه شغفًا جنونيًا بإلقاء الأحاديث، وإنه ينوي أن يجتاز امتحانات المحاماة. وإنني أتوقع الآن منظرًا مضحكًا جدًا..

وأجاب ليبيديف بصوت كالرعد:

- إن استنتاجاتي واسعة النطاق. وهلم أولاً نفحص الموضع القانوني والنفساني للمجرم. وهنا نرى أن المتهم، أو كما يمكن القول، موكلي، قد أبدى في حياته العجيبة دلائل كثيرة على الرغبة في الندم، وفي الإقلاع عن طعامه الإكليروسي هذا. وذلك رغم صعوبة الحصول على طعام آخر. وثمة حقائق ثابتة تؤكد هذا الاتجاه. لقد أكل خمسة أو ستة من الأطفال، وهو عدد تافه جدًا نسبيًا، بلا شك، ولكن له دلالاته الكبيرة من ناحية أخرى. ومن النواحي البارزة في الموضوع هو أنه عندما وخز الضمير موكلي، وهو رجل متدين على طريقته كما سائبت هذا فيما بعد. وعندما أراد أن يخفف من آثامه بقدر الإمكان، حاول ست مرات على الأقل أن يستبدل بطعامه الإكليروسي، طعامًا من العامة. وإن هذه لتجربة لا يكاد يمكننا الشك فيها؛ لأنه لو كانت المسألة تتعلق بالرغبة في تغيير نوع الطعام فقط بسبب الضرورات الهضمية، لكان الرقم «ستة» قليلًا جدًا. فلماذا اقتصر على ستة فقط؟ لماذا لم يكونوا ثلاثين؟! ولكن إذا نظرنا إلى الموضوع على أنه تجربة تسببت عن الخوف من التماذي في التضحية برجال الكهنوت، فإن الرقم ستة عندئذ يصبح مفهومًا. إن المحاولات الست التي قام بها لتهدة شعوره بالندم، ولتخفيف إحساسه بوخز الضمير، لم تكن كافية بأية حال. أي لم تكن موفقة؛ لأن الطفل، في رأيي المتواضع جد صغير، أو كما ينبغي أن أقول، لا يشبع من جوع. والنتيجة هي أنه كان يحتاج من ضحايا العامة أربعة أو خمسة أضعاف ما كان يحتاجه من الرهبان في وقت معين. وعلى هذا تكون الخطيئة التي خفت

من ناحية، قد ازدادت من ناحية أخرى، في الكم وليس في الكيف. وإني لأرجوكم أيها السادة أن تفهموا أنني، وأنا أناقش الموضوع على هذا النحو- أشرح وجهة النظر التي ربما قد اتخذها مجرم في العصور الوسطى. أما عن نفسي، أي باعتباري رجلاً يعيش في أواخر القرن التاسع عشر، فإنه ينبغي أن يكون لي رأي مختلف. وما دمت أقول هذا بوضوح، فلا داعي لأن تهزأوا بي أو تسخروا مني أيها السادة، ولا سيما أنت يا جنرال. ومن جهة ثانية، فإن رأيي الخاص، هو أن لحم الطفل ليس بالغذاء الكافي. إنه مائع جدًا، وعذب جدًا، وعلى هذا فقد وجد المجرم أنه- وهو يقوم بهذه التجارب- لم يرض ضميره ولم يرض شهيته، وإني أيها السادة أوشك أن أختم حديثي، وإن في هذا الختام الرد على مسألة من أهم المسائل التي واجهها الناس في ذلك الزمن. وفي عصرنا هذا أيضًا! لقد انتهى أمر هذا المجرم بأن اعترف بجرائمه لأحد رجال الدين، وسلم نفسه للعدالة. ولا يسعنا إلا أن نتساءل- ونحن نتذكر إجراءات العقاب في ذلك العهد، وأنواع العذاب التي كانت في انتظاره، كالشد بالعجلة، والوضع على الخازوق والحرق بالنار!- أقول لا يسعنا إلا أن نتساءل عن السبب الذي دفع به إلى تسليم نفسه والاعتراف بجرائمه! لماذا لم يتوقف، ببساطة، عند الرقم «ستين» ويحتفظ بالسر حتى آخر لحظة في حياته؟ لماذا لم يترك الرهبان وشأنهم، ويمضي إلى الصحراء ليتوب ويكفر عن خطاياه؟ أو لماذا لم يصبح هو نفسه راهبًا؟ ها هنا يكمن اللغز! لا شك أنه كان هناك ما هو أقوى من الخازوق ومن النار أو حتى من العادات التي تأصلت في أعماق نفسه مدة عشرين سنة. لا بد وأنه كانت هناك فكرة أقوى من جميع كوارث ومحن عالمه، من المجاعات والتعذيب، من الجذام والطاعون، فكرة تمكنت من قلبه، ووجهته إلى ينابيع الحياة ثم

جعلت كل عذاب، حتى عذاب الجحيم أمراً محتملاً من البشر! دعوني أر مثل هذه القوة، ومثل هذه القدرة في عالمنا هذا المفعم بالرزائل والسكك الحديدية. بل وربما يمكنني القول في عالمنا هذا المليء بالزوارق البخارية والسكك الحديدية؛ لأنني وإن كنت سكران، إلا أنني صادق الحديث. أروني فكرة واحدة تجمع بين الناس في عصرنا هذا بمثل نصف القوة التي كانت لها في تلك العصور، والتي تستطيع اليوم أن تدلل على أن «ينابيع الحياة» لم تخرب وتضعف تحت هذا «النجم» تحت هذه الشبكة التي وقع بين خيوطها الناس! لا تحدثوني عن رخائكم وثرواتكم وندرة انتشار المجاعات بينكم، وسرعة وسائل المواصلات عندكم! إن لديكم رخاء أكثر، ولكن القوى الروحية أصبحت لديكم أقل. لم تعد لديكم الفكرة التي تربط القلب والنفس مع القلب والنفس، إن كل شيء أصبح مخلصاً، طرياً، مائعاً. إننا جميعاً مائعون، وهذا يكفي أيها السادة، لقد فرغت من الحديث. ولكن ليست هذه هي المشكلة، وإنما المشكلة الآن هي كما أرى يا فخامة الأمير، في الجلوس إلى الوليمة التي أعدتها لنا..!

وكان ليبيديف قد أثار موجة كبيرة من الاستنكار بين المستمعين إليه «ويجب الإشارة هنا إلى أن زجاجات كثيرة فتحت أثناء حديثه». ولكن ختام حديثه المفاجئ هدأ أكثر النفوس اضطراباً. وقد قال هو أثناء تعليقه على هذا الحديث فيما بعد: «هكذا ينبغي أن يكون المحامي الناجح». وعاد الضيوف إلى الضحك والحديث مرة أخرى، وترك أعضاء لجنة التحكيم مقاعدهم، وبسطوا سيقانهم على الشرفة، ولم يبق غير كيلر فقط الذي ظل متقزراً من حديث ليبيديف، ومن ثم كان يقول بصوت مرتفع وهو يلتفت من واحد إلى آخر:

- إنه يهاجم التعليم، ويبشر بالتعصب الذي كان شائعاً في القرن الثاني عشر، ويرسم على وجهه تعبيرات غريبة، وبالإضافة إلى هذا، فإنه ليس بالإنسان الطاهر كما يحاول أن يبدو أمامنا، وإلا فاسمحوا لي أن أسأله من أين أتى بالمال الذي اشترى به هذا المنزل؟

وفي ركن آخر كان الجنرال مسيطراً على أسماع مجموعة من الضيوف، بينهم بيتسين الذي استطاع الجنرال أن يحاصره، وكان يقول:

- لقد كنت أعرف مفسراً حقيقياً لسفر الرؤيا، وهو جريجوري سيميونوفيتش بيرمستروف، الراحل، وقد كان يصل إلى القلب كومة الضوء! كان يبدأ أحاديثه بوضع النظارة على عينيه، ثم يفتح كتاباً أسود كبيراً، كما كانت لحيته البيضاء، والميداليات على صدره وهو يتحدث عن مبادئ العطف والإحسان، تضيف الشيء الكثير إلى قوة تأثيره في النفس. وكان أيضاً يبدأ أحاديثه بصوت رزين، وأمامه كان يجلس الجنرالات، والرجال ذوو الخبرة والتجارب الذين كانوا يحنون رؤوسهم أمامه، أما النساء فكن يقعن أمامه في حالة إغماء. أما صاحبنا لبيبديف هذا فقد اختتم حديثه بالإعلان عن وليمة! وفي هذا الدليل على أنه ليس بالمفسر الأصيل!

وأنصت بيتسين إلى حديث الجنرال، وابتسم، ثم استدار كأنما يريد أن يتناول قبعته، ولكنه لو كان في نيته أن ينصرف، فقد غير رأيه. وقبل أن ينهض الآخرون عن المائدة، أمسك جانيا فجأة عن الشرب، ودفع بكأسه بعيداً عنه، وطافت بوجهه سحابة تجهم، حتى إذا نهض الجميع، ذهب وجلس بجانب روجوجين. وكان وضعهما يجعل من المحتمل الظن بأن علاقات المودة قائمة بينهما. أما روجوجين الذي بدا أيضاً على وشك الانصراف، فقد عاد وجلس محني الرأس، وكأنما قد نسي تماماً رغبته. ولم يكن قد

شرب خمراً، وإنما بدا مستغرقاً في التفكير. وكان بين الحين والآخر يرفع عينيه ويفحص كل واحد من الموجودين بنظرات قد تجعل الإنسان يتخيل أنه يتوقع أن يحدث شيء كبير الأهمية له، وأنه قرر أن ينتظره. وكان الأمير قد شرب كأسين أو ثلاثاً من الشمبانيا، وبدا من ثم شديد الابتهاج والمرح. وفيما هو ينهض، لاحظ وجود إيفيني، وتذكر الموعد الموعد الذي ضربه معه، فابتسم في غبطة ورضى. وأشار إيفيني برأسه إلى إيبوليت الذي كان يراقبه بانتباه، وكان المريض في تلك اللحظة مستغرقاً في النوم، ممدداً على المتكأ.

وقال إيفيني بصوت فيه من الاستياء ومن التوتر العصبي ما أدهش الأمير:

- أخبرني أيها الأمير، لماذا بحق السماء يقحم هذا الغلام نفسه علينا؟
إنني مستعد للمراهنة على أنه يدبر أمراً.

فقال الأمير:

- لقد لاحظت أنه يبدو لي الآن كشيء له أهميته الخاصة لك يا إيفيني
بافلوفيتش، فلماذا؟

- ويمكنك أن تضيف إلى هذا أن لديّ بالتأكيد من الشواغل الخاصة ما
يحتاج إلى أفكارٍ دون أن أشغل بأمره، ولهذا فإن من دواعي الدهشة أنني لا
أستطيع أن أحول عيني وأفكاري عن هذا المسخ البغيض.

- أوه، لا لا. إن له وجهاً وسيماً.

- عجباً! انظر إليه. انظر إليه الآن!

ومرة أخرى نظر الأمير إلى إيفيني بافلوفيتش وهو أبلغ ما يكون دهشة!

الفصل الخامس

إن إيوليت الذي استغرق في النوم أثناء حديث لبيديف الطويل إذا به يستيقظ الآن فجأة كأنما لكزه أحد في جنبه. وبعد أن ارتعد قليلاً، رفع نفسه بعض الشيء على ذراعه، وتلفت حوله، ثم شحب وجهه بقوة، وطافت بعينه نظرة تكاد تنم عن الفزع وهو يتذكر، ثم إذا به يقول:

- ما هذا؟ هل رحلوا جميعاً؟ هل انتهى كل شيء! هل أشرقت الشمس؟

ومرة أخرى ارتعد وأمسك بيد الأمير وأردف قائلاً في يأس وكأنما قد خشي أن يكون فاته شيء أثناء النوم يتوقف عليه مصيره كله.

- كم الساعة الآن؟ أخبرني بحق الله، بسرعة! هل أطلت النوم؟

فقال إييفيني بافلوفيتش:

- لقد نمت سبع أو ثماني دقائق.

فحملق إيوليت في وجه هذا الأخير بلهفة، ثم راح يفكر بضع لحظات قبل أن يقول أخيراً:

- أوه! أهذا فقط؟ إذن فإني..

ثم تنهد في عمق وارتياح وكأنما أدرك أن كل شيء لم ينته بعد، وأن

الشمس لم تشرق، وأن الضيوف انصرفوا فقط إلى تناول العشاء. وابتسم عندئذ، وارتسمت على وجنتيه نقطتان حمراوان متوهجتان وهو يقول متهمكًا:

- إذن فقد كنت تعد الدقائق أثناء نومي! أليس كذلك يا إيفيني بافلوفيتش؟ إنك لم تحوّل عينيك عني طيلة المساء! لقد لاحظت هذا تمامًا كما ترى، آه، روجوجين! إنني كنت أحلم به أيها الأمير.

أضاف تلك العبارة الأخيرة وهو يقطب جبينه، ثم أردف قائلاً وهو ينهض واقفًا:

- نعم، وبهذه المناسبة، أين الخطيب؟ أين ليبيديف! هل فرغ من حديثه، وفيم كان يتحدث؟ أحقًا أيها الأمير أنك صرحت ذات مرة أن «الجمال هو الذي قد ينقذ العالم؟» يا للسماوات العلى! إن الأمير يقول إن الجمال سينقذ العالم. أنا أعلن أن هذه الآراء الطريفة تخطر له لأنه يحب. إن الأمير يحب أيها السادة. لقد استنتجت هذه الحقيقة في اللحظة التي جاء فيها. لا تدع وجهك يضطرم خجلًا أيها الأمير، فإنك تجعلني أشعر بالأسف من أجلك! فأبي جمال هذا الذي سينقذ العالم؟ لقد أخبرني كوليّا أنك شديد التدين، أليس كذلك؟ إن كوليّا يقول إنك مسيحي متحمس.

وتطلع الأمير إليه متأملًا، ولكنه لم يقل شيئًا، وهنا أضاف إيبوليت قائلاً وكأنما الكلمات تنتزع من فمه انتزاعًا:

- إنك لم تجبني، ولعلك تظن أنني أحبك جدًّا؟

- لا، لا أظن هذا. فأنا أعرف أنك لا تجبني.

- ماذا؟ بعد ما حدث أمس؟ ألم أكن صادقًا معك؟

- لقد عرفت أمس أنك لا تحبني.

- لماذا؟ لماذا؟ الآنني أحسك؟ هه! إنني أعرف أن هذا ما تراه دائماً. ولكن أتعرف لماذا أقول لك هذا كله؟ اسمع! يجب أولاً أن أشرب المزيد من الشمبانيا. قدم إليّ بعضاً منها يا كيللر، أسمح؟

فقال الأمير وهو يزيح الكأس بعيداً:

- لا، لا ينبغي أن تشرب المزيد يا إيبوليت. إنني لن أدعك تفعل هذا.

فقال إيبوليت مفكراً:

- حسناً! لعلك أن تكون على صواب. إنهم قد يقولون- ومع ذلك فليأخذهم الشيطان! فماذا يهم! نعم، ماذا يهمنا ما يقوله الناس عنا أيها الأمير، عندئذ! هه! أعتقد أنني نصف نائم. آه، ما أقطع الحلم الذي رأيته! لقد تذكرت الآن فقط. أنني أيها الأمير لا أتمنى أن ترى أحلاماً كهذه رغم أنني، بالتأكيد، لا أحبك. لماذا أتمنى الشر لغيري حتى لو لم أكن أحبه! هه! هات يدك، ودعني أضغط عليها بإخلاص. آه، لقد أعطيتني يدك، ولا شك أنك تشعر بأنني أضغط عليها بإخلاص، أليس كذلك؟ لا أظن أنني سأشرب المزيد بعد. كم الساعة الآن؟ لا عليك، فإني أعرف الوقت. إنه قد حان على كل حال. ما هذا؟ إنهم يتناولون عشاءهم هناك، أليس كذلك؟ إذن فستبقى هذه المائدة خالية. عظيم جداً أيها السادة! إنني - آه، إن هؤلاء السادة غير منصتين. أيها الأمير، إنني سأقرأ عليك مقالة، معي هنا، وإذا كان العشاء بطبيعة الحال أهم كثيراً، إلا أنني...

وهنا أخرج إيبوليت فجأة، وعلى غير انتظار البتة، مخطوطة كبيرة مختومة من جيب سترته الداخلي. وعلى المائدة أمامه وضع تلك المخطوطة

المختومة التي تشبه وثيقة مهيبة المنظر.

وكان لهذه الحركة المفاجئة تأثير خاطف على الحاضرين، فكاد إيفيني بافلوفيتش أن يقفز من مقعده من فرط الدهشة. واقترب روججين من المائدة وقد ارتسمت على وجهه أمارات معينة كأنما يعرف ما سوف يحدث بعد ذلك. واقترب جانبا أيضًا، وكذلك ليبيديف والباقون - وبدأ أن المخطوطة شيء كبير الأهمية للجميع بوجه عام.

وقال الأمير في شيء من القلق:

- ماذا في هذا المظروف؟

فهتف إيبوليت قائلاً:

- عندما تسفر الأشعة الأولى من الشمس، سوف آوي إلى فراشي أيها الأمير. لقد تعهدت لك بشرفي أنني سأفعل! وسوف ترى.

ثم أردف قائلاً وهو يحملق بنظرات في وجوه الجميع بصفة عامة:

- إنكم تعتقدون أنني غير قادر على فتح هذا المظروف؟

ولاحظ الأمير أنه يرتعد من قمة رأسه إلى أطراف قدميه. وكان هو الذي أجاب عن الباقيين:

- لم يخطر ببال أحد منا شيء كهذا أبدًا. لماذا تفترض هذا معنا؟ وماذا تنوي أن تقرأ لنا يا إيبوليت! ما هذا؟

وردد الباقون القول:

- نعم، ما هذا؟

وكان المظروف المختوم بالشمع الأحمر يجذب انتباه الجميع، وكأنما

هو مغناطيس .

- لقد كتبت هذا بنفسى أمس بعد أن رأيتك أيها الأمير، وبعد أن قلت لك إننى سوف آتى إلى هنا. لقد ظللت أكتب سحابة النهار وطيلة الليل حتى فرغت في بكور هذا الصباح. وبعد ذلك رأيت حلمًا.

وسأله الأمير قائلاً بوداعة:

- ألا يحسن أن نعرف ما فيه غداً؟

فضحك إيبوليت بعصبية وقال:

- لن يكون ثمة ما يكفي من الوقت غداً، لا تخافوا، فإنى سأفرغ من الموضوع كله في أربعين دقيقة أو ساعة على الأكثر. انظر كيف يبدو الاهتمام على الجميع! اقتربوا جميعاً منى! انظر! انظر! كيف يحملقون في المظروف المختوم؟ لو لم أختمه لما كان له كل هذا التأثير. ها ها، هذا هو الغموض! والآن، أيها السادة، هل أفض الختم أم لا؟ قولوا! إن الأمر سر خفى، أوكد لكم. وأنت تعرف أيها الأمير من الذى قال: «ليس ثمة ما يكفي من الوقت» أول مرة! إنه الملاك العظيم في سفر الرؤيا.

فقال الأمير وهو يضع يده على المظروف:

- يحسن أن تقرأه الآن.

وقال إيفيني بافلوفيتش فجأة:

- لا، لا تقرأه!

وكان يبدو شديد الاضطراب مما جعل الآخرين لا يملكون أنفسهم من النظر إليه في دهشة وتساؤل.

وقال أحد الحاضرين:

- قراءة! لا مجال للقراءة الآن فقد حان وقت العشاء.

وقال آخر:

- أي نوع من المقالات هذه؟ إذا كانت مقالة في صحيفة فإنها ستثير الضجر.

وأثرت وداعة الأمير حتى على إيوليت الذي قال هامسًا في توتر عصبي:

- إذن ليس ينبغي أن أقرأها؟

ثم كرر العبارة وهو يحملق في وجوه الجميع كل على حدة:

- ليس لي أن أقرأها؟

واستدار فجأة نحو الأمير وسأله قائلاً:

- مم تخاف أيها الأمير؟

- ما الذي يخيفني؟

ووثب إيوليت قائلاً:

- هل أجد مع أحدكم قطعة نقدية من فئة العشرين كوبكا؟

فقال ليبيديف وهو يقدم قطعة النقد إلى الشاب الذي حسبه مجنوناً:

- ها هي ذي!

فقال إيوليت للفتاة فيرا ابنة ليبيديف:

- فيرا الدكيانوفنا. اقذفي بالقطعة لنرى على أي وجه ستسقط الصورة أم

الكتابة: إذا كانت «الصورة» فسأقرأ المخطوطة.

وقذفت فيرا بالقطعة النقدية في الهواء وتركتها تسقط على المائدة، وكانت «الصورة».

وقال إيبوليت بصوت الذي يحني رأسه لإرادة القدر:
- إذن فسوف أقرأها.

وقد بلغ من شحوب وجهه أنه ما كان ليزداد شحوبًا لو أن حكمًا بالإعدام صدر عليه فجأة.

واستطرد يقول وهو يرتعد ويدير عينيه في الجميع مرة أخرى:
- ولكن ما معنى هذا بعد كل شيء؟ أيمن أن أغامر بمصيري عن طريق هذا الرهان التافه؟

وارتسمت في عينيه أمارات عجيبة من الإخلاص وهو يهتف فجأة
موجهًا الحديث إلى الأمير في صوت ينم عن أبلغ الدهشة:
- إن هذه الحقيقة نفسية مدهشة.. إنها.. إنها شيء لا يمكن إدراكه أيها الأمير.

وعاد يقول في نشاط متزايد كرجل يفيق من غشيته:
- لاحظ هذا أيها الأمير، وتذكره. لقد قيل لي إنك تجمع الحقائق المتعلقة بعقوبة الإعدام، هكذا قالوا لي. ها، ها. يا إلهي، ما أغرب هذا.
ثم جلس على المتكأ، واعتمد بمرفقيه على المائدة، ووضع رأسه على راحتيه، وقال:

- إنه لأمر مخجل! ولكن، ماذا يهمني إن كان مخجلًا؟
ثم استطرد قائلاً في إصرار:

- لسوف أفض شمع الختم أيها السادة. وأنا، أنا لا أرغم أحدًا على الإنصات إذا لم يكن يريد.

وفض شمع الختم بأصابع مرتعدة، واستخرج عددًا من الأوراق المخطوطة وبسطها أمامه، وبدأ يرتبها.

وغمغم بعض الحاضرين قائلين:

- ما معنى هذا كله بحق السماء؟

والنزم البعض الآخر الصمت، ولكنهم جلسوا جميعًا وراحوا يرقبون ما يحدث بفضول وقد بدأوا يعتقدون أن شيئًا ما غريبًا يوشك أن يحدث فعلاً. ووقفت فيرا وراء مقعد والدها وهي ترتعد والدموع تكاد تطفّر من عينيها من فرط الجزع. وكان كوليا لا يكاد يقل عنها جزعًا. ووثب ليبيديف وقرب شمعتين من إيبوليت حتى يحسن الرؤية.

وبدأ إيبوليت الحديث قائلاً:

- هذه أيها السادة - حسنًا، لسوف ترون ما هذه.

ثم راح يقرأ فورًا فقال:

- إنها تحمل هذا العنوان: «إيضاح لا بد منه» ومعه هذا الشعار «وبعدي الطوفان» - اللعنة على كل شيء! ما كان ينبغي أبدًا أن أكتب شعارات سخيفة كهذه. استمعوا إليّ أيها السادة. أرجوكم أن تلاحظوا أن من المحتمل جدًا أن يكون هذا كله لغوًا فارغًا. إنها مجرد أفكار قليلة لي. فإذا ظننتم أن ثمة شيئًا غامضًا سوف يحدث، أو بعبارة أخرى...

فقال جانبًا:

- يحسن أن تقرأ بلال ف أو دوران .

وقال آخر معلقاً :

- إنه يقصد الإثارة والتشويق .

وخرج روجو جين عن صمته لأول مرة فقال :

- إنه يطيل في الحديث أكثر مما ينبغي .

ونظر إيبوليت إليه فجأة، فلما تلاقت نظراتهما، كشف روجو جين عن أسنانه بابتسامة نكراء، ثم قال هذه الكلمات العجيبة التالية :

- ليست هذه هي الطريقة التي تسوى بها الأمور يا صديقي، ليست هذه هي الطريقة إطلاقاً !

ولم يعرف أحد بطبيعة الحال ماذا عنى روجو جين بهذه الكلمات، إلا أنها تركت في نفوسهم جميعاً تأثيراً عميقاً. وبدأ أن كل واحد منهم قد أدرك نفس الرأي في لمحة خاطفة.

أما إيبوليت فقد كان تأثير هذه الكلمات عليه ضخماً، فإذا هو يرتعد بعنف وشدة مما اضطر الأمير إلى أن يسنده، وكان من المؤكد أنه أراد أن يصيح بشيء، ولكن بدا أن صوته تخلقى عنه تماماً في تلك اللحظة. وقد ظل عاجزاً عن الحديث دقيقة أو اثنتين، وإنما أخذ يلهث ويحملك في وجه روجو جين، وفي النهاية استطاع أن يلهث قائلاً :

- إذن فأنت الذي جئت .. أنت .. أنت ..

فقال روجو جين في دهشة :

- ما هذا؟ ماذا تعني؟

ولكن إيبوليت قاطعه بعنف وهو يلهث ويكاد يختنق من فرط الانفعال:
- الذي جئت في الأسبوع الماضي، في الليل، في الثانية بعد منتصف الليل. وذلك في نفس اليوم الذي كنت فيه معك صباحًا. اعترف أنه أنت!
- في الأسبوع الماضي؟ في الليل؟ هل فقدت عقلك يا صديقي الطيب؟
فتوقف إيبوليت عن الحديث برهة وأخذ يفكر، ثم طافت بشفتيه ابتسامة مأكرة تكاد تنم عن النصر وهو يقول مغمغمًا بصوت هامس ولكنه مفعم باليقين:

- لقد كنت أنت.. نعم أنت الذي جئت إلى غرفتي وجلست معي على المقعد بجوار النافذة في سكون تام لمدة ساعة كاملة.. أو أكثر! وكان ذلك فيما بين الساعة الواحدة والثانية بعد منتصف الليل، ثم نهضت وانصرفت في نحو الساعة الثالثة. لقد كنت أنت، أنت! فلماذا أردت أن تفرزني هكذا؟ لماذا أردت أن تعذبني على هذا النحو؟ إنني لا أستطيع أن أعرف. ولكن الذي جاء كان أنت.

وكانت الكراهية العنيفة تملأ عينيه وهو يقول هذا، ولكن سمات الخوف ومظاهر الارتعاد لم تكن قد فارقتة بعد. وبعد برهة وجيزة أردف قائلاً:

- لسوف تسمعون هذا كله فوراً أيها السادة، فأنا.. أنا.. أنصتوا.
وتناول المخطوطة بسرعة اليأس، وراح يقلبها بين يديه محاولاً ترتيبها، ولكنه ظل برهة طويلة وهو عاجز عن جمع الصفحات بعضها إلى بعض بسبب ارتعاد أصابعه. وقد غمغم روجوجين قائلاً:

- إما أنه مجنون أو يهذي!

وأخيراً بدأ إيبوليت في القراءة.

واستمر صوته مرتعدًا في الدقائق الخمس الأولى، وكان يقطع العبارات ولا يقرأ بانتظام. إلا أن صوته أخذ يقوى تدريجيًا. ورغم أن نوبات السعال العنيف كانت توقفه بين الحين والآخر، إلا أن حيويته كانت تزداد مع تقدمه في القراءة. وكذلك كان يزداد أيضًا التأثير السيئ على المستمعين. وظل الأمر هكذا حتى بلغ إيبوليت ذروة الانفعال.

وفيما يلي ما ورد بالمخطوطة:

«إيضاح لا بد منه»

«وبعدي الطوفان»

«في صباح يوم أمس، جاء الأمير لزيارتي، وقد طلب مني، فيما طلب، أن آتي إلى داره هذه. وكنت أعرف أنه سيحضر ليقتني باتخاذ هذه الخطوة، وأنه سيقوي حججه بأنه من الأيسر لي أن «أموت بين الناس والأشجار الخضراء» على حد تعبيره ولكنه اليوم لم يقل «مت» بل قال «عش». ولكن سواء لدي.. وأنا في هذه الحالة، ما يقول. ولما سألته لماذا أشار في حديثه بوجه خاص إلى «الأشجار الخضراء» قال لي - لدهشتي البالغة - إنه سمع أنني قلت وأنا موجود في آخر مرة ببافلوفسك، إنني جئت إليها لألقي «نظرة أخيرة على الأشجار الخضراء».

ولما قلت له إنه سيان أن يموت الإنسان بين الأشجار أو أمام جدار أصم كالذي هنا، وأن البقاء على الحياة أسبوعين آخرين لا يحتاج إلى كل هذا اللغط، إذا به يوافقني فورًا. ولكنه أصر على أن الهواء النقي والخضرة في بافلوفسك لا شك سيكون لهما تأثير كبير في تحسن حالتي البدنية، وإنني ربما تحررت من احتياجي النفسي، ومن أحلامي المزعجة. وعندئذ قلت

له، باسمًا، إنه يتحدث كرجل مادي المذهب. فقال إنه كان دائمًا كذلك، ولما لم يكن يكذب أبدًا، فقد أدركت أن كلماته تنطوي على شيء. وكانت ابتسامته لطيفة، وقد أطلت النظر إليه. ولم أدر هل أحسست بالحب له أم لا. ولم يكن ثمة وقت أضيعه للإجابة عن هذا السؤال. ولكن يمكنني القول إن الكراهية العنيفة التي كنت أشعر بها نحوه طيلة خمسة أشهر، خفت حداثها كثيرًا خلال الشهر الأخير. ومن يدري، فلعلي سأمضي إلى بافلوفسك لأراه! ولكن لماذا أترك غرفتي؟ إنه لا ينبغي على المحكوم عليهم بالإعدام أن يتركوا زنازاتهم. فلو أنني لم أعقد العزم على قرار نهائي، أو لو أنني قررت الانتظار حتى اللحظة الأخيرة، لما رحلت عن غرفتي وقبلت دعوته للذهاب والموت في بافلوفسك، وإنما يجب أن أسرع وأفرغ من كتابة هذا الإيضاح قبل أن تشرق شمس الغد؛ ولن أجد الوقت الكافي لإعادة قراءته وتصحيحه؛ لأنني يجب أن أقرأ هذا للأمرير ولاثنين أو ثلاثة من الشهود الذين سوف يحتمل أن أجدهم هناك.

وبما أن هذا كله سيكون صدقًا خالصًا، ليس فيه أية لمحة من الباطل، فإنني شغوف بمعرفة الأثر الذي سينطبع على نفسي عند قراءته. فإن هذه «آخر أقوالي وأصدقها». ولكن ما حاجتي إلى أن أقول هذا؟ إذ ليس ثمة أي شك فيها؛ لأنه ليس هناك ما يستحق الكذب في الأسبوعين الباقيين. إن أسبوعين من الحياة نفسها لا قيمة لهما، وفي هذا وحده الدليل على أنني لا أكتب شيئًا غير الصدق.

ملاحظة:

(دعوني أفكر في هذا الأمر: هل أنا مجنون في هذه اللحظة أم لا؟ أو على الأصح في هذه اللحظات. لقد قيل لي إن مرضى السل يفقدون عقولهم

أحياناً في المراحل الأخيرة من المرض. ويمكنني أن أثبت هذا غداً عندما أكتبه الآن وأرى التأثير الذي ستركه في نفوس المستمعين. يجب أن أعرف إجابة هذا السؤال للمرة الأولى والأخيرة وإلا فلن أستطيع الاستمرار في شيء). وإني لأعتقد أنني لم أكتب غير لغو فارغ، وليس ثمة وقت للتصحيح كما سبق أن قلت. وعدا هذا فقد عاهدت نفسي ألا أغير كلمة واحدة مما أكتب في هذه الورقة وذلك حتى لو وجدت أنني أناقض نفسي في كل خمسة أسطر. فإني أريد أن أثبت من تأثير المنطق الطبيعي لأرائي غداً أثناء القراءة، مما إذا كنت قادراً على اكتشاف الأخطاء المنطقية، وما إذا كان كل ما فكرت فيه طيلة الأشهر الستة الأخيرة حقاً وصدقاً أو مجرد هذيان.

لو أنني دُعيت منذ شهرين إلى ترك غرفتي، ومنظر جدار بيت ماير المواجه، لشعرت بالأسف حقاً. ولكن مثل هذا الشعور لا يخامرني الآن رغم أنني سأترك غرفتي ومنظر جدار بيت ماير إلى الأبد. ولهذا فإن رأيي الأخير هو أن الأمر لا يستحق الاستغراق في الحزن أو في أية مشاعر أخرى؛ لأن الشعور ببقائي على قيد الحياة أسبوعين فقط أثبت أنه أقوى من أية مشاعر أخرى، ومن ثم فقد سيطر عليّ اتجاه هذه المشاعر. ولكن، هل الأمر هكذا؟ هل حقاً هزمت مشاعري تماماً؟ فلو تحتم أن أوضع الآن على مشد التعذيب، لكان من المؤكد أن أصبح. ولهذا لا ينبغي أن أقول إن الأمر لا يستحق أن أصبح أو أن أشعر بالألم لأنني لن أعيش أكثر من أسبوعين.

ولكن هل حقاً لم يعد لي في الحياة غير أسبوعين. أنا أعرف أنني أخبرت بعض الأصدقاء أن الدكتور بوتكين قد قال هذا. ولكنني أعترف الآن أنني كنت في هذا كاذباً. بل إن الدكتور بوتكين لم يفحصني. وأياً ما كان الأمر فقد استدعيت منذ أسبوع أحد طلبة كلية الطب، المدعو كسلوردوف-

الذي يدين بمذاهب الإلحادية والعدمية والعالمية. هذا هو الذي استدعيته. لقد أردت رجلاً يصارحني بالحقيقة العارية بلا مجاملة أو مراوغة، وهذا ما فعله حقاً، وعن طواعية تكاد تبلغ حد السرور «وأعتقد أنه قد أسرف في هذا الشعور بعض الشيء».

حسناً. لقد بادرني قائلاً إنه لم يعد لي في الحياة غير شهر. وربما أكثر قليلاً إذا تحسنت ظروف معيشتي، ولكن من المحتمل أيضاً أن تقل هذه المدة جداً. وطبقاً لرأيه فمن المحتمل أن أموت فجأة - غداً مثلاً. وقد حدثت مثل هذه الحالات من قبل. فمنذ يوم أو يومين فقط، حدث أن سيدة شابة مريضة بداء الصدر، وكانت حالتها المرضية في مستوى واحد مع حالتي، أن كانت في طريقها إلى السوق لشراء بعض المؤن عندما شعرت فجأة بالإغماء، فرقدت على المتكأ، وشهقت مرة واحدة، وماتت.

أخبرني كسلوردوف بهذا كله، وبلهجة استهتار مبالغ فيها، وكأنما هو قد أولاني شرفاً كبيراً بمجرد تحدثه معي، وذلك لأنه كان يعتبرني من نفس طراز الكائنات العدمية المعظمة التي لا يهمها الموت في قليل أو كثير أبداً كان الأمر.

وعلى أية حال فقد بقيت الحقيقة كما هي، وهي أنه لم يعد لي في الحياة غير شهر واحد! ذلك لأنني شديد الاقتناع بصحة تقديره.

ومما أدهشني كثيراً هو كيف استنتج الأمير أمس - بحق السماء - أنني أرى في نومي أحلاماً مزعجة. وقد قال لي: «لسوف تجد في بافلوفسك الراحة من أحلامك ومن توتر أعصابك» فلماذا قال «أحلامك؟» إما أنه طبيب، أو رجل يتمتع بذكاء غير عادي، وبقوة ملاحظة مدهشة. «ولكن ليس ثمة أي شك في أنه أبله في قرارة نفسه». وقد حدث قبل حضوره بقليل أنني

رأيت في نومي حلمًا صغيرًا جميلًا، واحدًا من نوع المئات التي أحلمها في هذه الأيام. كنت قد استغرقت في النوم قبل مجيئه بساعة وحلمت أنني في غرفة ما، ليست غرفتي، كانت غرفة كبيرة، حسنة الأثاث، فيها صوان كبير، وخزانة أدراج، ومتكأ، وسرير لي، وكان سريرًا كبيرًا جميلًا مغطى بملاءة من الحرير. ولكنني لاحظت أن بالغرفة مخلوقًا رهيب المنظر، أو نوعًا من الكائنات الفظيعة الشكل، كانت تشبه العقرب إلى حد ما، ولكنها لم تكن عقربًا، وإنما أفظع شكلاً بمراحل. ومما زاد من فظاعة منظرها أنه ليس في الطبيعة كائنات مماثلة، ولأنها ظهرت أمامي لغرض خاص، ولكي تنم عن دلالة معينة.. ورحت أتأمل منظر الحشرة الرهيبة، فوجدت أنها بُنية اللون، ولها قشرة حول جسمها وتبدو في جملتها كنوع من الزواحف، وطولها نحو عشرين سنتيمترًا، ويضيق جسمها تدريجيًا ابتداءً من الرأس التي عرضها نحو أصبعين، حتى نهاية الذنب الذي ينتهي بطرف رفيع. وتبرز من جذع جسمها، بعد الرأس بنحو خمسة سنتيمترات، ساقان بزاوية مقدارها خمس وأربعون درجة، وطول كل منهما نحو ثمانية سنتيمترات، ومن ثم كانت الحشرة الفظيعة تبدو من أعلى كالتردن^(١). وكذلك كانت تبرز من أماكن مختلفة من جسمها ثماني شعرات حادة منتصبة كالإبر.

أما هي فكانت تزحف كالحية، ملتوية بجسمها رغم القشرة التي تغلفه. وكانت حركتها سريعة جدًا، وفظيعة المنظر جدًا. وقد خامرني خوف رهيب من أن تلدغني؛ لأنني سمعت من بعضهم - كما أذكر - أنها سامة. ولكن الذي عذبنني أكثر من غيره هو التساؤل المستمر المضني عن ذلك الذي أرسلها إلى غرفتي وعن السر الغامض الذي شعرت أنها تنطوي عليه!

(١) Trident = التردين، حيوان أسطوري مثلث الشعب.

وأخفت نفسها تحت الصوان وخزانة الأدراج، وزحفت إلى الأركان، بينما بقيت أنا جالسًا على المقعد، عاقداً ساقي تحتي، ثم زحفت الدابة الكريهة عبر الغرفة بهدوء ثم اختفت في مكان بالقرب من مقعدي، وتلفت باحثًا عنها بفزع وإن ظل الأمل يراودني بأنها لن تستطيع أن تلمسني ما دام أن ساقي منطويتين تحتي.

وفجأة سمعت ورائي، وعلى مستوى واحد مع رأسي، نوعًا من الصلصلة، ولما التفت خلفي بسرعة، رأيت الحشرة اللعينة قد زحفت صاعدة على الجدار حتى غدت في مستوى وجهي، وأن ذنبها الرهيب الذي كان يتحرك بسرعة من جانب إلى آخر، يكاد يلمس شعري! ووثبت واقفًا.. واختفت هي. ولم أجرؤ على الرقاد فوق سريري خشية أن تزحف تحت الوسادة. وأقبلت أُمي إلى الغرفة مع بعض صديقاتها، وبدأن البحث عن الحشرة الزاحفة وهن أهدأ أعصابًا مني. ولم يكن يبدو عليهن الخوف منها لأنه لم يكن بينهن من تفهمت الحقيقة مثلي.

وفجأة عادت الحشرة الرهيبة إلى الظهور، وأخذت تزحف عبر الغرفة ببطء في طريقها إلى الباب وكأنما تقصد هدفًا معينًا، وكانت تزحف بحركة بطيئة أفضع ما تكون منظرًا. وهنا فتحت أُمي الباب واستدعت كلبتي نورما، وكانت كلبة من النوع النيوزيلاندي الضخم وقد ماتت منذ خمس سنوات.

ووثبت الكلبة أمامها، ثم تسمرت في مواجهة الحشرة الزاحفة كأنما تحولت إلى تمثال من الحجر. وتوقفت الحشرة أيضًا، ولكن ذنبها ومخالبها بقيت تتحرك حولها. وأنا أعتقد - إن صح ما قيل لي - أن الحيوانات لا تعرف الخوف غير الطبيعي، ولكن بدا لي في تلك اللحظة أن ثمة شيئًا غير طبيعي في فزع نورما، وكأنما هو خوف غير طبيعي فعلاً، أو كأنما خامرها نفس

شعوري بأن لهذه الحشرة الزاحفة علاقة بسر خفي، أو بنذير شؤم مهلك.
وتراجعت نورما ببطء وحذر بعيداً عن الحشرة الرهيبة التي راحت
تتبعها متمعدة الزحف وراءها، وكأنما تنوي أن تثب عليها فجأة وتلدغها.
وكان الغضب العنيف يبدو على نورما رغم فزعها، ورغم الرعدة التي
كانت تسري في كل أطرافها. وأخيراً كشرت عن أنيابها الرهيبة، وفتحت
فكيها الكبيرين الحمرابين وترددت برهة، ثم أمسكت الحشرة الزاحفة،
بفمها، وبدا أنها- أي الحشرة- حاولت مرتين أن تمرق من الفكين، ولكن
نورما تشبثت بها وشرعت في ابتلاعها أثناء محاولة الحشرة للهرب،
وتكسرت قشرة جسمها تحت أسنان الكلبة بينما برزت ساقاها وذنبها من
الفم وأخذت تهتز بشكل فظيع. وفجأة صدر عن نورما عواء خافت مؤلم؛
لأن الحشرة الزاحفة لدغتها في لسانها. وفتحت الكلبة فمها من فرط الألم،
ورأيت الحشرة راقدة على طول اللسان وقد انثال من جسمها الذي كاد أن
ينفصم إلى جزأين، مادة بيضاء رهيبة المنظر أخذت تتقاطر من فم نورما،
وكانت تشبه في تكوينها المادة البيضاء التي تخرج من جسم محطم لخنفساء
سوداء.

واستيقظت حينذاك من النوم ودخل الأمير الحجرة.

وقال إيبوليت بعد أن توقف عن القراءة هنا:

- أيها السادة: إنني لم أفرغ بعد، ولكن يبدو أنني كتبت الشيء الكثير
هنا مما لا داعي له.. أعني هذا الحلم..

فقال جانيا:

- صدقت.

- أعرف أن فيما كتبت الشيء الكثير جدًا عن نفسي، ولكن..
وارتسم الإرهاق والألم الشديد على وجه إيوليت وهو ينطق بهذه
الكلمات، وراح يمسح العرق الذي تفصد على جبينه.
وقال ليبيديف:

- نعم، إنك في الواقع تفكر أكثر جدًا مما ينبغي في نفسك.
- ليكن أيها السادة، إنني لا أرغم أحدًا على الإنصات! فإذا كان بينهم
من لا يريد البقاء حتى أفرغ من قراءتي، فأرجوه أن ينصرف بكل حرية.
فغمغم روجوجين قائلاً:

- إنه يطرد الناس من بيت لا يملكه.
وقال فيردشنكو على حين غرة:
- ما رأيكم لو انصرفنا جميعًا!
وتشبث إيوليت بمخطوطه، وحملق في المتحدث الأخير بعينين
براقتين، وقال:

- إنك لا تحبني إطلاقًا!
وضحك عدد قليل من الحاضرين عندئذ، لا الجميع.
وقال الأمير:

- اعطني الأوراق، واذهب أنت إلى الفراش كأى شخص عاقل.
ولسوف نتبادل الحديث مدة طويلة غدًا، والمهم ألا تستمر في القراءة الآن؛
لأن هذا ليس في صالحك.
فصاح إيوليت قائلاً وهو ينظر إليه في دهشة:

- كيف أستطيع؟ كيف أستطيع.. أيها السادة! لقد كنت أحمق! لن أقطع القراءة مرة أخرى. أنصتوا- أعني لينصت كل من يريد.

وجرع بعض الماء من قدح بالقرب منه، وانحنى فوق المائدة لكي يخفي وجهه عن المستمعين، واستطرد في القراءة قائلاً:

«إن الفكرة التي راودتني بأنه لا قيمة للحياة بضعة أسابيع قليلة، استبدت بي منذ شهر، أي عندما قيل لي إنه لم يبق لي في الحياة غير أربعة أسابيع. ولكنها تمكنت مني تمامًا منذ ثلاثة أيام فقط عندما عدت من بافلوفسك في ذلك المساء. والمرة الأولى التي شعرت فيها بتأثير هذه الفكرة العميقة في نفسي كانت في هذه الشرفة من بيت الأمير وفي نفس الوقت قررت أن أعيش آخر تجربة في الحياة. «وأعتقد أنني قلت لنفسي» إني أريد أن أرى الناس والأشجار، وامتلاّت نفسي بالانفعالات، وقررت أن أؤيد بقوة جاري بوردوفسكي في المطالبة بحقوقه، وتخيلت أن الجميع، بلا استثناء، سيفتحون سواعدهم لاحتضاني، وأنهم سيغفرون لي، وأني سأغفر لهم! وعلى الجملة تصرفت بحماقة، وعندئذ، وفي تلك اللحظة نفسها، شعرت «بالحكم النهائي» وإني لأسأل نفسي الآن كيف كان في مقدوري البقاء ستة أشهر في انتظار هذا «الحكم». لقد كنت أعلم أنني مريض بداء لا ينجو ضحيته من الموت، ولم أحاول أن أتشبث أبدًا بالأوهام، إلا أنني كنت كلمًا أيقنت من سوء حالتي، ازددت تعلقًا بالحياة، لقد أردت أن أعيش بأي ثمن. وأعترف أنني ربما سخطت أشد السخط على ذلك القدر الأعمى الأصم الذي قرر، كما يبدو وبلا أي سبب واضح، أن يسحقني كذبابة. ولكن لماذا لم أقف عند حد السخط؟ لماذا بدأت أحيًا مرة أخرى وأنا أعلم أن الأمر لا يستحق أن أبدأ الحياة من جديد؟ لماذا حاولت أن أفعل ما كنت أعرف أنه

المستحيل؟ ومع ذلك فإني لا أستطيع حتى أن أقرأ كتابًا إلى النهاية. لقد هجرت القراءة. إذ ما جدوى القراءة، بل ما جدوى تعلم أي شيء لمجرد الحياة ستة أشهر. إن هذه الفكرة جعلتني ألقى جانبًا أكثر من مرة بأي كتاب أحاول أن أقرأه.

نعم، إن جدار منزل ماير يستطيع أن يتحدث بالشيء الكثير إذا أراد! فليس في سطحه القدر بقعة واحدة لا أعرفها كل المعرفة. ذلك الجدار اللعين! ومع ذلك فإنه أعز عليّ من كل أشجار بافلوفسك. أعني أنه كان يمكن أن يكون أحب إلى نفسي لو لم يهمني شيء الآن.

وإني لا أتذكر الآن كيف بدأت أرقب باهتمام شديد حياة غيري من الناس، إنه اهتمام لم أشعر بمثله في حياتي من قبل. وقد تعودت أن أنتظر حضور كوليا بفارغ الصبر لأنني كنت عندئذ مريضًا إلى حد عدم القدرة على مغادرة المنزل. وهكذا كنت أغرق نفسي في كل التفاصيل الصغيرة من الأخبار، وأشعر بأشد الاهتمام بكل ما يبلغني به من أقوال وشائعات حتى أصبحت في اعتقادي، لقلًا^(١) كبيرًا. ولم أستطع أن أفهم - مثلًا - كيف لا يغدو كل هؤلاء الناس، مع امتداد الحياة أمامهم - أغنياء! وحتى لا أستطيع أن أفهم هذا! وأذكر ما قيل لي عن رجل بئس مسكين كنت أعرفه ذات يوم، وقد مات جوعًا. لقد كدت أن أفقد صوابي من فرط الغضب حين علمت هذه الحقيقة. وأعتقد أنني لو استطعت أن أعيد إليه الحياة، لفعلت هذا فقط لكي أقتله.

(١) اللقلق = ناقل الشائعات والأقوال، ويوصف به الرجل. أما المرأة فهي الزلزلة. المترجم

وفي بعض الأحيان كنت أشعر بتحسن كبير يتيح لي القدرة على الخروج. ولكن الشوارع كانت تملأ نفسي بغضب شديد يجعلني أفضل اعتزال الناس في غرفتي أياً ما على الخروج حتى لو أعانتني صحتي على هذا! لم يكن في مقدوري أن أحتمل رؤية كل هؤلاء المخلوقات الذين تنم وجوههم عن انشغال الفكر وقلق النفس وهم يتدافعون مارين في الشوارع أمامي! لماذا هم دائماً قلقون؟ ما معنى شعورهم هذا الدائم بالهم وانشغال الفكر؟ إن السبب هو خبتهم، هو شرهم البغيض المستمر، نعم، هذا هو السبب، إنهم جميعاً مملوءون بالشر.

من هو المسئول عن جعلهم هكذا جميعاً بؤساء؟ عن جعلهم لا يعرفون كيف يعيشون رغم أن الحياة ممتدة أمامهم خمسين أو ستين سنة؟ لماذا سمح هذا الأحمق لنفسه أن يموت جوعاً والحياة أمامه لا تزال ممتدة ستين سنة؟

وإن كل واحد منهم ليكشف عن أسماله، وعن يديه اللتين براهما العمل المضني ثم يصيح في غضبه: «ها نحن أولاء نعمل كالماشية طوال حياتنا، ومع ذلك نظل دائماً جائعين كالكلاب، بينما هناك غيرنا لا يعملون شيئاً، وهم، مع هذا، بُدُن وأغنياء!» إنها القصة الخالدة! وفي الوقت نفسه يتواثب جنباً إلى جنب معهم ذلك الشخص البائس الذي شاهد في حياته أياً ما أفضل، مثل اكتساب الرزق بالعمل حملاً للأمتعة الخفيفة من الصباح إلى المساء، وإن هذا الشخص يتواثب ولا يكف عن الغمغمة قائلاً: «إن زوجته ماتت لأنه لم يجد ثمن الدواء» وإن أطفاله يموتون جوعاً وبرداً، وإن ابنته الكبرى ضلت الطريق إلى الشرف وهكذا. أوه، إنني لا أشعر بالعطف على هؤلاء الناس الحمقى ولا أطيقهم! لماذا لا يستطيعون أن يكونوا مثل آل روتشيلد؟

من هو المسئول عن منع إنسان ما عن الحصول على ملايين الجنيهات مثل روتشيلد؟ إذا كان لدى الإنسان الحياة، فيجب أن يكون هذا كله في نطاق قدرته! من المسئول عن جعله لا يعرف كيف يحيا حياته!

أوه، إن هذا كله الآن سيان بالنسبة لي! ولكنني في ذلك الحين كنت أبلل وسادتي طيلة الليل بدموع الغيظ والكبت، وأحاول تمزيق البطاطين من فرط الغضب والثورة. أوه، لشد ما تمنيت في ذلك الوقت لو أنني خرجت مطرودًا.. أنا الذي لم أتجاوز الثامنة عشرة من عمري - إلى الشارع فقيرًا، بالي الثياب، وحيدًا، شريدًا عاطلاً، بلا أقارب، ولا صديق واحد، ولا كسرة خبز، في مدينة كبيرة، جائعًا مهزومًا «إذا شئتم» ولكن في صحة جيدة - لكنك عندئذ أريهم..؟

- ماذا كنت تريهم؟

- أوه، لا تظنوا أنني لا أشعر بمهائتي! لقد عانيت الشيء الكثير فعلاً بما قرأت عليكم حتى الآن. فمن منكم جميعاً لا يظن في هذه اللحظة أنني مجرد أحرق صغير! أحرق صغير لا يعرف شيئاً عن الحياة - ولكن فاتكم أن الذي عاش - كما عشت أنا خلال الأشهر الستة الماضية، قد عاش حقاً مدة أطول جداً من المتقدمين في السن الذين شاب شعرهم. حسناً، دعهم يضحكون ويقولون إذا شاءوا إن هذا كله لغو وهراء، إنهم قد يقولون إن هذا كله خرافات وأساطير إذا رغبوا، لقد أمضيت ليالي كاملة أقص على نفسي هذه الخرافات. إنني أتذكرها كلها الآن. ولكن كيف يمكنني الآن أن أسرد أقاصيص خرافية؟ لقد انتهى الوقت المناسب لها. وقد كانت تمتعني وتسليني حتى في الفترة التي لم أكن أجدها فيها متسعاً من الوقت لدراسة قواعد اللغة اليونانية كما كنت أريد. وقد فكرت في نفسي قائلاً عندما بدأت قراءة

الصفحة الأولى «لسوف أموت قبل أن أبلغ فصل تراكيب الجمل» ومن ثم ألقيت به تحت المنضدة، وهو لا يزال في ذلك الموضع لأنني كنت أمنع كل شخص من أن يلتقطه.

وإذا وقعت هذه «الإيضاحات» في أيدي بعض الناس، وكان لديهم الصبر على قراءتها كلها، فإنهم ربما يعتبرونني مجنونًا، أو تلميذًا، أو - على الأرجح - إنسانًا محكومًا عليه بالموت يعتقد أنه من الطبيعي جدًا أن يرى الناس جميعًا - فيما عداه - يستخفون بالحياة أكثر مما ينبغي، ويعيشونها في إهمال وكسل بالغين، ومن ثم فهم جميعًا - بلا استثناء - غير جديرين بها. حسنًا! أؤكد هنا أن قارئ سيكون مخطئًا مرة أخرى؛ لأنه ليس لأرائي ومعتقداتي علاقة ما بحكم الموت الصادر عليّ. أسألهم، أسألوا كل واحد منهم، أو أسألهم جميعًا، ماذا يعنون بكلمة السعادة! أوه، يمكنك أن تكون واثقًا تمامًا بأنه إذا كان كولمبوس سعيدًا، فقد كان سعيدًا وهو يكتشف أمريكا، لا بعد أن تم له اكتشافها، ويمكنك أن تتأكد أنه بلغ ذروة السعادة قبل أن يرى بعينه العالم الجديد بثلاثة أيام، وعندما أراد بحارته المتمردون أن يتراجعوا ويعودوا إلى أوروبا! إذ ما قيمة العالم الجديد بالنسبة لكولمبوس رغم كل شيء؟ إنه لم يكذب يرى شيئًا منه عندما مات، وقد كان في الواقع جاهلًا تمامًا حقيقة ما اكتشف! إن الشيء المهم هي الحياة، الحياة ولا شيء آخر! وما قيمة أي اكتشاف، مهما يكن إذا قورن بالاكتشاف المستمر الدائم للحياة!

ولكن ما جدوى الحديث؟! أخشى أن يكون هذا كله شيئًا عاديًا بحيث يُنظر إلى اعترافاتي على أنها موضوع إنشائي في كراسة تلميذ، أو عمل غلام طموح يكتب وهو يأمل أن ترى كتابته «النور» أو ربما سيقول قرائي: «إن

لديه شيئاً يريد أن يقوله، ولكنه لم يعرف كيف يعبر عنه».

دعوني أضف إلى هذا أن كل فكرة تصدر عن عبقرى، أو حتى أية فكرة إنسانية جادة- نبتت في العقل البشري، فإنه دائماً يتبقى فيها شيء، تظل فيها بعض البقايا التي لا يمكن التعبير عنها للآخرين حتى لو كتب عنها المجلدات، وألقي فيها المحاضرات خمسة وثلاثين عاماً، إن شيئاً ما، بقية ما توجد دائماً في ذهنك، ولا تخرج منه أبداً، وإنما تبقى هناك، معك أنت وحدك. دائماً أبداً. وربما تموت دون أن تنقل إلى أي إنسان من الأحياء ما قد يكون الجوهر الأساسي للفكرة نفسها. ولهذا، فإذا أنا لم أستطع أن أعبر عن كل ما كان يؤودني خلال الأشهر الستة الماضية. وأياً كان الأمر، فإنكم ستدركون.. وقد وصلت إلى «أحكامي النهائية» أنني لا شك قد دفعت ثمنها غالباً. وهذا ما أردت- لأسباب خاصة بي- أن أشير إليه في «إيضاحاتي» هذه.

ولكن دعوني أستمّر في القراءة.



الفصل السادس

«إنني لن أخدعكم. فقد كان «الواقع» يوقع بي في شباكه بين الحين والآخر بحيث كنت أنسى خلال الأشهر الستة الماضية «حكم الموت» الصادر عليّ «أو ربما لم أكن أرغب في التفكير فيه». ومن ثم رحت أشغل نفسي بشئوني الخاصة.

وسوف أذكر هنا بعض الشيء عن ظروفِي الخاصة: فعندما اشتد بي المرض، منذ ثمانية أشهر، تخلّيت عن جميع ارتباطاتي، وهجرت كل أترابي وأصحابي، ولما كنت بطبيعتي شخصًا متجهّم الوجه، مكتئب السمّت دائميًا، أصحابي لم يلبثوا أن نسوا أمرِي بسهولة. وقد كان المنتظر، طبعًا أن ينسوا أمرِي على كل حال دون هذا السبب. أما في البيت، فقد كنت أعيش في عزلة، وقد فصلت نفسي تمامًا عن الأسرة منذ خمسة أشهر، بحيث لم يعد أحد أفرادها يجرؤ على دخول غرفتي إلا في أوقات معينة لتنظيفها وترتيبها، وما إلى هذا، ولإحضار وجبات طعامي، ولم تجرؤ أمي على عصيان أمرِي، وكانت تحرص على بقاء الأطفال هادئين من أجلي، فإذا ضجّوا أو أزعجونني، ضربتهم. وقد كثرت شكاياتي منهم بحيث أصبحوا الآن ولا شك لا يحبونني!. وأعتقد أنني لا بد قد عذبت صديقي المخلص كوليا «كما تعودت أن أسميه» كثيرًا أيضًا. وقد عذّبني هو أخيرًا، إذ أصبحت أرى أنه

يتحمل دائماً ثوراتي وكأنما قد قرر أن «يخفف عن العليل المسكين» وكان هذا يثير استيائي بطبيعة الحال. ويبدو أنه قرر أن يقلد الأمير فيما ينبغي أن تكون عليه السماحة المسيحية! وكان سيركوف، الذي يقيم فوقنا، يثيرني أيضاً، فقد كان فقيراً أشد الفقر، وقد اعتدت أن أثبت له أنه هو فقط المسئول عن فقره. اعتدت أن أثور غضباً عليه بحيث غدا يخافني بعد حين؛ لأنه توقف عن الهبوط لزيارتي. إن سيركوف هذا إنسان وادع ومتواضع جداً.

ملاحظة: «يقولون إن الوداعة قوة هائلة، ويجب أن أسأل الأمير عن هذا، لأنه هو الذي قال ذلك». ولكنني أتذكر ذات يوم في مارس، عندما صعدت إلى مسكنه لأرى هل حقاً مات أحد أطفاله جوعاً وبرداً. وقد بدأت الحملة عليه متهماً إياه بأنه هو المسئول عن فقره. وحدث في أثناء حملتي عليه أن ابتسمت مصادفة وأنا أنظر إلى جسد طفله، وهنا ارتعدت شفتا الشاب البائس وأمسك بكتفي، ودفع بي نحو الباب وهو يهمس قائلاً: «اخرج». وخرجت بطبيعة الحال. وأعلن أنني كنت ميالاً إلى الخروج، كنت ميالاً إليه في اللحظة التي طردني فيها. ولكن كلماته ملأت نفسي بنوع عجيب من الشعور بالثناء الحقير له كلما تذكرت هذه الكلمات - وهو شعور لم أرغب لحظة واحدة في الاحتفاظ به. إن هذا الرجل لم يستطع أن يفقد زمام أعصابه حتى في اللحظة التي أهنته فيها «لأنني أعترف بأني أهنته فعلاً وإن لم أكن أقصد هذا». لقد ارتعدت شفتاه حقاً، ولكنني أقسم أنها لم ترتعد غضباً. لقد أمسكني من كتفي وقال لي: «اخرج» دون أن يبدو عليه أقل غضب. وإنما كانت سمات العزة، العزة الموفورة، تبدو عليه، وقد بلغ من تنافرها مع شكله، ما جعل منظره يبدو - كما أؤكد لكم - مضحكاً. ولكن لم يكن ثمة غضب، ربما بدأ فقط يشعر في تلك اللحظة بالاحتقار لي.

ومنذ ذلك الحين وهو يرفع لي قبعته دائماً على السلم كلما التقينا، وكان هذا شيئاً لم يفعله من قبل أبداً، ولكنه في نفس الوقت كان يبتعد عني بأسرع ما يستطيع وكأنما يشعر بالارتباك. فإذا كان يحتقني حقاً، فلا شك أنه كان يحتقني بأسلوبه الوداع المتواضع.

وأستطيع القول إنه كان يرفع قبعته لي بدافع من الخشية؛ وذلك لأنني ابن لدائنيه؛ لأنه كان دائماً مديناً لأمي ببعض المال. وفكرت في أن أتحدث معه في هذا الشأن، ولكنني كنت أعرف أنني لو فعلت هذا، لبدأني بالاعتذار خلال دقيقة أو دقيقتين، ومن ثم قررت أن أدعه وشأنه.

وقد حدث في تلك الفترة من السنة، أي في منتصف شهر مارس، أنني شعرت بتحسن كبير مفاجئ في صحتي، وقد استمر هذا نحو أسبوعين. وتعودت الخروج عند شفق المساء، وأنا أحب شفق المساء، لا سيما في شهر مارس، عندما يبدأ صقيع الليل ينتشر في الهواء، ومصابيح غاز الاستصباح تضيء في خفوت.

وفي ذات ليلة بشارع شستلا ثوكنايا، مر بي رجل يحمل لفافة من الورق تحت ذراعه. ورغم أنني لم أتأمله ملياً، إلا أنه بدا لي مرتدياً معطفاً قديماً من معاطف الصيف التي تحمي الملابس الداخلية من الغبار، وكان من نسيج رقيق لا يناسب ذلك الفصل من العام. ولما أصبح في مواجهة مصباح الشارع على بعد عشر ياردات مني، لاحظت شيئاً يسقط من جيبه، وتقدمت مسرعاً لألتقطه، وقد وصلت في الوقت المناسب؛ لأن بئساً مسناً في معطف روسي طويل اندفع أيضاً في نفس اللحظة، ولكنه لم يحاول أن ينازعني الأمر، وإنما ألقى نظرة على ما في يدي واختفى.

وكان الشيء الذي التقطته حافظة نقود كبيرة عتيقة الطراز مملئة تماماً.

ولكنني أدركت من نظرة عابرة إليها أنه قد يكون فيها أي شيء، إلا المال.

وكان صاحبها عندئذ قد أمسى على مسافة أربعين ياردة أمامي، ثم سرعان ما اختفى بين المارة، ولكنني جريت وراءه، وبدأت أنادي عليه. ولما كنت لا أعرف اسمه أخذت أنادي عليه بعبارة نداء عامة، ومن ثم لم يلتفت وفجأة استدار إلى بوابة بيت على اليسار، فاندفعت وراءه، ولكن الظلام كان مخيمًا على البوابة، فلم أستطع أن أرى شيئًا، وكانت تلك البوابة لبيت كبير مكون من مساكن صغيرة كثيرة لا يقل عددها بلا شك عن مائة.

ولما دخلت إلى الفناء، ظننت أنني رأيت رجلًا يسير في الطرف الآخر منه، ولكنني لم أستطع، بسبب الظلام، أن أتبين ملامح جسمه.

وعبرت الفناء إلى ذلك الجانب الآخر منه، ووجدت مدخل سلم مظلم قذر، وسمعت رجلًا يصعد فوقه على بعد مني، وعندئذ قررت أن ألحق به قبل أن يصل إلى باب مسكنه ويختفي داخله، فاندفعت وراءه. وعند الطابق الخامس سمعت وأنا ألهث بآبًا يُفتح، ثم يغلق. وكانت السلالم ضيقة، والدرجات لا عدد لها. ولكنني استطعت أخيرًا أن أصل إلى الباب الذي ظننت أنه نفس الباب الذي فُتح وأُغلق. ومررت بضع لحظات قبل أن أعثر على الجرس، فلما وجدته جعلته يصلصل.

وفتحت لي الباب امرأة قروية عجوز، وكانت مشغولة في إشعال موقد الشاي بمطبخ صغير، وأنصتت إلى أسئلتني في صمت ودون أن تفهم كلمة واحدة بطبيعة الحال، وإنما فتحت بآبًا آخر يؤدي إلى غرفة جد صغيرة لا يكاد يكون بها شيء من أثاث ما عدا سريرًا كبيرًا واسعًا عليه ستائر. وفوق هذا السرير رقد المدعو تيرفيتش - كما أسمته المرأة - سكران كما بدا لي. وعلى المنضدة كان ثمة طرف شمعة في شمعدان حديدي مفرد، وزجاجة

فودكا أو شكت أن تفرغ. وغمغم تيرفيتش شيئاً لي، وأشار إلى الغرفة المجاورة، ولما كانت المرأة العجوز قد اختفت، فإنه لم يبق أمامي إلا أن أفتح الباب المشار إليه. وقد فعلت هذا، ودخلت إلى الغرفة المجاورة.

وكانت هذه أصغر من الأخرى، ولكنها مزدحمة بالأثاث بحيث كاد أن يكون من العسير عليّ السير فيها. وكان في جانب منها سرير مفرد يكاد يشغل الغرفة كلها وكان مع السرير ثلاثة مقاعد بالية، ومائدة مطبخ قديمة موضوعة أمام أريكة صغيرة، وكانت المسافة بين المائدة والسرير لا تكاد تتسع لأن يمر فيها أحد.

وكما رأيت في الغرفة الأخرى، كان ثمة بقايا شمعة موقدة في شمعدان حديدي مفرد، وعلى السرير رأيت طفلاً يعول لا يزيد عمره على ثلاثة أسابيع وبجانبه امرأة شاحبة الوجه تلبسه بعض الثياب، وتبدو كأنها أمه. وكان يبدو عليها أنها لم تسترد بعد كامل صحتها بعد الوضع، إذ كان يلوح عليها الضعف الشديد، كما كانت ترتدي ملابسها بإهمال. وعلى الأريكة رأيت طفلة، راقدة في نحو الثالثة من عمرها، ومغطاة بثوب قديم لرجل.

أما عند المائدة، فقد وقف رجل مرتد قميصاً وسروالاً، خالغاً سترته التي رأيتها موضوعة على السرير، وكان يفض لفافة ورق أزرق تحتوي على رطلين من الخبز وبعض السجق.

وكان على المائدة، عدا هذه الأشياء، بضع كسرات قديمة من الخبز الأسود، وقليل من الشاي في إناء. ومن تحت السرير برزت حقيبة سفر مفتوحة وممتلئة بلفافات من الأسمال البالية. وعلى الجملة كانت الفوضى في نظام الغرفة تفوق الوصف، ولاح لي، من النظرة الأولى، أن الرجل والمرأة من الناس المحترمين الذين انحدروا إلى حضيض الفاقة، والذين

حاولوا جهدهم في أول الأمر أن يحتفظوا - على الأقل - بالترتيب والنظام في المسكن، ولكنهم اضطروا في النهاية إلى الرضى بالواقع المر وبالحياة في عالم من الفوضى والاضطراب. وكان الرجل وهو الذي سبقني إلى الدخول بلحظة، والذي كان لا يزال يفض لفافات الورق، يقول شيئاً لزوجته في لهجة تنم عن الاضطراب، ويلوح أن الأنباء التي حملها إليها كانت كالمعتاد، سيئة؛ لأنها راحت تولول بصوت خافت، وكان وجه الرجل كما بدا لي، لطيفاً، بل وسيقماً أيضاً. كان ملوح البشرة، في نحو الثامنة والعشرين من العمر، له سواف سوداء، حليق اللحية والشارب. وكانت ملامحه تنم، رغم سمات الاكتئاب، عن نوع من الكبرياء.. وعند دخولي حدث هذا المنظر العجيب.

إن هناك بعض الناس الذين يستمدون نوعاً من الترفيه من أعصابهم المستوفزة لا سيما عندما يبلغون ذروة الضيق النفسي؛ لأنهم في هذه اللحظات يفضلون أن يسيء أحد إليهم على أن يتركهم وشأنهم. وهؤلاء الناس من ذوي المزاج الثائر يشعرون بعد ثورتهم - إن كانوا عقلاء - بالندم عندما يدركون - بالتفكير والتأمل - أن غضبهم كان أكثر مما ينبغي عشر مرات.

وقد حملت الرجل الواقف أمامي في وجهي برهة باندهاش، بينما نظرت زوجته إليّ في رعب، وكأنما ثمة ما يفزع في حضور أحد لزيارتهم. ولكنه، أي الرجل، لم يلبث أن وثب نحوي فجأة وهو أشد ما يكون غضباً واهتياجاً. ولم أجد أنا من الوقت ما يتسع لأكثر من الغمغة ببضع كلمات. ولكن يبدو أنه لاحظ بلا شك، أنني حسن الهيئة، ولهذا شعر بأشد الإهانة لأنني تجرأت واقترحت عليه عرينه بلا إذن، ورأيت مظاهر الفوضى والاضطراب الشائعة

فيه وكان من الطبيعي أن يشعر بالسرور حين يقع بين يديه شخص ما ينفس فيه عن غضبه وسخطه على كل شيء بوجه عام.

وخطر ببالي لحظة أنه سيعتدي عليّ. وكان وجهه قد امتنع بشدة حتى أصبح كوجه امرأة توشك على انهيار عصبي. أما زوجته فقد بقيت على حالها من الفزع الشديد.

وصاح قائلاً وهو يرتعد بالغضب ولا يكاد يقوى على نطق الكلمات:

- كيف تجرؤ على الدخول هكذا. اخرج!

إلا أنه لم يلبث أن لاحظ فجأة حافظته في يدي.

وقلت له بصوت مغلق ينم عن الهدوء والجفاف بقدر ما أستطيع: «إذا خطر لي أن هذا خير ما أفعله»:

- لقد سقطت هذه منك.

وظل واقفاً أمامي برهة في فزع واضح وقد بدا أنه لا يستطيع أن يدرك شيئاً. ثم إذا به فجأة يمسك بجيبه الأيمن، ثم يفتح فمه في جزع، ثم يضرب جبينه بيده ويصيح قائلاً:

- يا إلهي! أين وجدتها؟ وكيف؟

وشرحت له الأمر بأقل عدد ممكن من الكلمات، وبقدر ما أستطيع من جفاف الصوت، فقلت له كيف أنني رأيته تسقط منه وكيف التقطتها وكيف جريت وراءه وناديت عليه، وكيف تبعته على السلم وتلمست طريقي إليه. ولما فرغت من حديثي صاح قائلاً:

- يا لرحمة السماء! إن كل أوراقنا في هذه الحافظة! وإنك يا سيدي

العزیز لا تعرف مقدار فضلك علينا وأي صنع أسدیت إلینا. فلولا هذا الضعف..

وكنت عندئذ قد أمسكت بمقبض الباب، مزعماً الانصراف من الغرفة دون أن أجیب علیه. ولكنني كنت ألثت بسبب ما بذلت من جهد في صعود السلم، وكان شعوري بالإرهاق قد بلغ مداه بنوبة من السعال العنيف القاسي الذي جعلني لا أكاد أقوى على الوقوف.

ورأيت كيف اندفع الرجل في الغرفة ليأتيني بمقعد، وكيف ركل الأسمال البالية عن مقعد كان مغطى بها، وكيف قدمه إليّ وساعدني في الجلوس علیه، ولكن نوبة السعال استمرت ثلاث دقائق أخرى أو نحو ذلك. حتى إذا هدأت حالتي، رأيته جالساً بجواري على مقعد آخر كان قد رفع عنه نفايات الملابس ونثرها على أرضية الغرفة، وراح يرقبني بإمعان.

وأخيراً قال بنفس لهجة الطبيب حين يتحدث برفق مع أحد المرضى:

– أخشى أن تكون مريضاً، إنني شخصياً أحد رجال الطب.

ولم يقل إنه «طبيب» وإنما كان يشير، وهو يقول هذا، بيديه إلى الغرفة ومحتوياتها كأنما يعتذر عن حالته الراهنة. وعاد يقول:

– أرى أنك...

فقلت وأنا أنهض عن مقعدي:

– إنني مريض بداء الصدر.

ووثب هو أيضاً قائلاً:

– لعلك تبلغ فيما تقول، وإذا أنت اتخذت الإجراءات اللازمة، فربما..

وكان مرتبكاً أشد الارتباك، ويبدو أنه عاجز عن جمع شتات أفكاره،
كما كانت حافظة الأوراق لا تزال في يده.

وقلت له أخيراً:

- دعك من شأني، فإن الدكتور بوتكين فحصني في الأسبوع الماضي
«وهكذا كذبت عليه وأفحمت الدكتور بوتكين في الأمر» وإن حالتي الآن
ميئوس منها، معذرة!

ووضعت يدي على مقبض الباب مرة أخرى، وتأهبت لفتحه
والانصراف، تاركاً صاحبي «المشتغل بالطب» غارقاً في مزيج من الارتباك
والاعتراف بالجميل والشعور بالخجل لموقفه مني، ولكن نوبة من السعال
اللعين فاجأتني مرة أخرى.

وأصر «طبيبي» على أن أجلس حتى أسترده أنفاسي، وكان عندئذ قد قال
شيئاً لزوجته التي وجهت إليّ - وهي في مكانها - بضع كلمات من الشكر
والاعتراف بالجميل. وكان الحياء يغلب عليها وهي تنطق بها، كما صعدت
الدماء إلى وجهها الشاحب، من فرط الارتباك. وبقيت جالساً، ولكن في
سمت الرجل الذي يعرف أنه دخیل على غيره، ولهذا فهو ملهوف على
الانصراف.

وكان في مقدوري أن أرى أن «الطبيب» في حاجة إلى التعبير عن
شعوره بالندم بسبب موقفه الأول مني، فراح يقول بصوت متلعثم وبارتباك
يجعله يقطع حديثه بين كل عبارة وأخرى:

- إذا كنت معترفاً كل الاعتراف بجميلك، وإذا كنت مخطئاً أشد الخطأ
في نظرك بسبب موقفني منك، فإني واثق..

ثم أشار إلى الغرفة مرة أخرى واستطرد قائلاً:

- واثق أنني في هذه اللحظة أعاني ظروفًا..

فقلت:

- أوه! ليس هناك ما يستحق الملاحظة، فإن الأمر طبيعي جدًا. أنت رجل
فقدت وظيفتك وجئت هنا لتشرح ما حدث ولتظفر بغيرها - إذا أمكنك.

فسألني مدهوشًا:

- كيف عرفت هذا؟

فقلت متهمكًا ولكن بلا قصد:

- أوه، إن الأمر واضح من النظرة الأولى. فإن هناك عددًا كبيرًا من
سكان الأقاليم الذين يأتون بقلوب مفعمة بالآمال، ثم يهيمنون في أنحاء
المدينة وهم يعيشون على هذا النحو.

وهنا بدأ يتحدث في اضطراب وبشفتين مرتعدتين، بدأ يشكو ويسرد
عليّ قصته. وأعترف أنه أثار اهتمامي، ومن ثم جلست نحو ساعة معه.
وكانت قصته عادية جدًا، لقد كان طبيبًا من أطباء الأقاليم يشغل وظيفة
مدنية، ولكنه ما كاد يستقر فيها حتى بدأت المؤامرات تحاك حوله، بل وحول
زوجته أيضًا. ولما كان رجلًا يعتز بكرامته فقد هاج وماج، ثم حدث تغيير في
مناصب الحكومة المحلية لصالح أعدائه، فتخرج مركزه، وكثرت الشكايات
ضده، وهكذا فقد وظيفته وجاء إلى بطرسبرج بأخر ما تبقى معه من مال،
وذلك لكي يلتمس الإنصاف من السلطات الحكومية العليا. وبطبيعة الحال
لم يستمع لشكواه أحد مدة طويلة. حتى إذا استطاع ذات يوم أن يشرح أمره
للمسؤولين، إذا به يُقابل بالرفض. وإذا الوعود الزائفة تُبدل له في يوم آخر، ثم

إذا هو يُعامل بقسوة مرة أخرى؛ ثم يُطلب منه أن يوقع بعض المستندات، ثم يوقع التماسًا ويقدمه ولكنهم يرفضون استلامه لأنه مكتوب على ورقة عادية، وكان الواجب أن يكتبه على استمارة رسمية. وعلى الجملة. ظل ينتقل من مكتب إلى آخر مدة خمسة أشهر أنفق خلالها كل قرش كان معه. وكانت أسمال زوجته قد رهنّت وولد له في الوقت نفسه ابن و... و«اليوم علمت أن التماسي رُفض نهائيًا- ولم يعد معي ما يكاد يسد الرمق- أجل، لم يبق معي شيء، وقد أنجبت زوجتي ابنًا منذ أيام وأنا.. أنا..» ووثب من مقعده، واستدار بظهره إليّ. وأخذت زوجته تبكي في ركن الغرفة. وبدأ الطفل يعول مرة أخرى. وتناولت أنا مذكرتي وبدأت أكتب فيها، فلما فرغت ونهضت عن مقعدي، رأيته واقفًا أمامي وقد نم وجهه عن القلق الممزوج بالفضول: وقلت له:

- لقد دونت اسمك في مذكرتي، والموضوع كله: المكان الذي كنت تعمل به، والمنطقة، والتاريخ، وكل شيء. وإن لي صديقًا يدعى باخمانوف عمه مستشار بمجلس الدولة ومختص بمثل هذه الشؤون، ويدعى بيتر ماتيفيتش باخمانوف.

فصاح الرجل وهو يرتعد بشدة من فرط الانفعال:

- بيتر ماتيفيتش باخمانوف! عجبًا! إن كل شيء يتوقف على هذا الرجل.

وإنها لأمر عجيب، أعني قصة هذا الطبيب، وزيارتي له، والنهاية السعيدة التي نتجت عنها بالمصادفة. لقد كان كل شيء متناسقًا فيها، كالرواية! ولكنني أخبرت الزوجين المسكينين ألا يسرفا في الأمل؛ لاني لم أكن غير

تلميذ فقير «وأنا لست كذلك حقًا، ولكنني تواضعت بقدر الإمكان حتى لا أخدعهما بآمال كبار» ولكنني قررت الذهاب إلى جزيرة فاسيلي لزيارة صديقي، وكنت أعرف على وجه اليقين أن عمه يحبه كل الحب، ويتفاني في رعايته باعتباره آخر أمل في شجرة الأسرة. ومن ثم كنت آمل أن يقوم الرجل بشيء لإرضاء ابن أخيه.

وصاح الرجل وهو يرتعد بحمى الاحتياج، وتبرق عيناه من فرط الانفعال:

- كل ما أرجوه فقط هو أن يسمحوا لي بشرح هذا كله لفخامته، بأن يتيحوا لي فرصة التحدث إليه عن موضوعي.

وكررت له القول مرة أخرى بأنني لا أستطيع أن أسرف في الشعور بالأمل، وأن الأمر كله قد ينتهي إلى لا شيء، ثم أخبرته بأنني إذا لم أعد إليه في صباح اليوم التالي، فعليه أن يعرف أنه لم يعد ثمة ما يمكن عمله في هذا الشأن.

وودعني هو وزوجته إلى خارج المسكن بالانحناءات وبكل مظاهر الاحترام وقد بدا لي أنهما فقدوا العقل. وأعتقد أنني لن أنسى أبدًا ما كان يرتسم على وجهيهما من تعبيرات.

واستأجرت مركبة مضيت بها إلى جزيرة فاسيلي على الفور، وكنت على شيء من العداء لزميلي باخمانوف في المدرسة مدة أعوام. ذلك أننا كنا نعتبره من أفراد الطبقة الأرستقراطية، أو - على الأقل - كنت أنا أعتبره كذلك. إذ كان دائمًا فاخر الملابس، وتحمله إلى المدرسة مركبة خاصة. إلا أنه كان زميلًا لطيفًا، دائم البهجة والمرح، بل وسريع البديهة أحيانًا وإن لم

يكن حاد الذكاء رغم أنه كان دائماً أول الفرقة. وأنا نفسي لم أكن قط الأول في أي شيء. وكان الزملاء يجوبونه ما عداي. وقد حاول مرات كثيرة خلال تلك الأعوام أن يتقرب إليّ ويعقد معي أواصر الصداقة، ولكنني كنت دائماً أشيح بوجهي عنه، وأرفض أن تكون لي به علاقة ما. وكنت في العهد الأخير لم أره مدة عام كامل، إذ كان قد التحق بالجامعة، وعندما ذهبت إليه في هذا المساء في الساعة التاسعة، استقبلني بعد مواسم كثيرة وهو أشد ما يكون دهشة، ولكن بلا إسراف في الترحيب والبشاشة، إلا أنه سرعان ما تهلل، ثم إذا به يدقق النظر في وجهي فجأة، وينفجر ضاحكاً وهو يقول:

- عجباً! ما الذي دفع بك إلى زيارتي يا فيرنثيف بحق السماء.

وكان يتحدث بصوته اللطيف المألوف الذي لم يكن يخلو أحياناً من الجراءة التي لا تصل أبداً إلى الألفة البغيضة. وكنت رغم احتقاري له أحب طريقته هذه في الحديث.

وقد أردف قائلاً في انزعاج:

- عجباً! ماذا بك! هل أنت مريض؟

وكان سعالي اللعين قد استبد بي مرة أخرى، فتهالكت جالساً على مقعد، وبعد أن تمالكت نفسي واسترددت أنفاسي بمشقة، قلت:

- إنني بخير، إنه داء الصدر فقط! لقد جئت إليك بشأن التماس معين.

وجلس مدهوشاً. ولم أضيّع أنا وقتاً في إخباره بقصة ذلك الرجل المشتغل بالطب وتبين له أنه بما له من نفوذ عمه، قد يستطيع أن يخدم ذلك الرجل المسكين.

وعندئذ قال:

- سوف أفعل هذا، سوف أفعل هذا طبعًا. لسوف أتحدث مع عمي بشأن هذا الموضوع غدًا صباحًا، وإني لسعيد إذ أخبرتني به. ولكن كيف حدث أن فكرت في زيارتي بشأن هذا الموضوع يا فيرنitif؟
فقلت:

- إن الشيء الكثير يتوقف على عمك. وعدا هذا فقد كنا دائمًا عدوين يا باخمانوف.

ثم أردف قائلاً في تهكم:

- ولما كنت أعرف أنك إنسان كريم، فقد خطر لي أنك لن ترفض رجائي بسبب هذا العداء.
فهتف ضاحكًا:

- مثل نابليون في رغبته لزيارة إنجلترا! إيه! حسنًا، لسوف أفعل ما تريد رغم كل شيء.

ثم أردف قائلاً حين رأي أنهنض جادًا لأنصرف:
- وفورًا إذا أمكنني.

وانتهت المسألة نهاية طيبة. فبعد شهر أو نحو ذلك، عين صاحبي المشغل بالطب في وظيفة أخرى. ودفعت له مصاريف الانتقال، وقدم إليه مبلغ من المال لبدأ به الحياة من جديد. وأعتقد أن باخمانوف استطاع أن يقنع الطبيب بقبول سلفة مالية منه، وقد زرت أنا باخمانوف مرتين أو ثلاثًا في هذه الفترة، وكانت المرة الثالثة عندما أقام وليمة وداع للطبيب وزوجته قبيل رحيلهما.

وصحبنى باخمانوف، بعد الوليمة، في الطريق إلى منزلي حيث عبرنا قنطرة نيكولاى. وكانت الشمبانيا التي شربناها أثناء الطعام قد بدأت تدير رؤوسنا، فراح يحدثني عن بهجته، عن شعوره بالابتهاج لأنه قام بعمل خير، وقال إن الفضل يرجع إليّ في شعوره بهذا الابتهاج، ثم راح يتحدث عن حماقة النظرية التي تقول إن أعمال الخير الفردية لا جدوى منها.

وكنت أنا أيضاً أتحرق شوقاً لأتحدث في هذا الموضوع، فقلت له:

- كان في موسكو رجل مسن من مستشاري الدولة، وكان متقاعدًا عن خدمة الجيش برتبة جنرال. وقد تعود طيلة حياته أن يزور السجون ويتحدث إلى المساجين. وكان كل فريق من المسجونين في طريقهم إلى سيبيريا يعرفون، سلفًا- أنهم سوف ينعمون بزيارة من «الجنرال المسن» عند وصولهم إلى تلال فورديف. وكان يؤدي كل أعماله هذه بكل أمانة وإخلاص وجد. كان يسير بين صفوف المسجونين البؤساء ويقف أمام كل فرد ليسأله عن مطالبه دون أن يحاول أبدًا أن يلجأ إلى الوعظ الممل، وإنما كان يتحدث إليهم برفق، ويقدم إليهم المال، ويحضر لهم كل الضروريات للرحلة، ويعطيهم الكتب الدينية، وكان يختار لعطائه الذين يعرفون القراءة وهو على يقين بأنهم سوف يقرأونها أثناء الطريق ويفضلهم على الذين لا يقرأون.

وكان قلما يتحدث عن أية جرائم معينة مع أي واحد منهم، وإنما كان ينصت إلى كل من يريد أن يتطوع بالإفضاء بأية معلومات إليه في هذا الشأن. وكان المسجونون جميعًا في نظره سواء، فلم يحاول يومًا أن يميز أحدًا منهم على أحد. كان يتحدث إليهم جميعًا كإخوة. وكان كل منهم ينظر إليه كوالد. فإذا لاحظ بين المنفيين امرأة مسكينة تحمل طفلًا، بادر إليها وراح يلعب

الطفل حتى يضحكه. وقد ظل مستمراً في أعماله الرحيمة حتى آخر لحظة من عمره. وفي خلال هذه الفترة كان جميع المجرمين في روسيا وسيبيريا يعرفونه.

وقد حدثني رجل أعرفه كان قد عاد من سيبيريا أنه شهد بنفسه كيف كان عتاة المجرمين يذكرون بالخير ذلك الجنرال المسن، وذلك رغم أنه في الواقع لم يكن يستطيع طبعاً أن يعطي كل واحد منهم غير قروش قليلة. ولم تكن ذكرياتهم عنه نابعة دائماً من عاطفة صادقة أو شعور عميق بالوفاء. فمثلاً كان أحد الأشقياء «الذين قتل الواحد منهم عشرة من إخوانه في الإنسانية، أو طعن ستة أطفال لمجرد اللهو والتسلية، وفي العالم مثل هؤلاء الناس» أقول كان أحدهم مثلاً يتنهد فجأة وبلا سبب واضح ويقول: «ترى ألا يزال الجنرال المسن على قيد الحياة» وذلك رغم الاحتمال بأنه لم يذكر اسمه مدة عشرة أعوام أو عشرين. فمن ذا الذي يعرف أية بذرة طيبة تلك التي وضعها ذلك الجنرال المسن في نفس هذا الرجل لكي تبقى دائماً.

واستطردت في الحديث على هذا النحو مدة طويلة، موضحاً لباخمانوف كيف يستحيل على الإنسان أن يتابع الآثار الطيبة الناشئة من الإحسان الفردي، والمؤثرات القومية التي تظل تعمل عملها سرّاً في القلب ولكنها تنطبع على تصرفات المحسن إليه.

وقال باخمانوف في صوت الإنسان الذي يريد أن يلوم شخصاً ما من أجلي!

- ثم تصور رجلاً مثلك عليه أن يموت هكذا قريباً؟

وكنا في تلك اللحظة معتمدين على سياج القنطرة. ونظل على ماء نهر

نيفا. وهنا قلت فجأة وأنا أزداد ميلاً على السياج نحو النهر:

- أتعرف ماذا خطر ببالي الآن فجأة؟

فقال باخمانوف في فزع، ولعله قرأ أفكاره على وجهي:

- أرجو ألا يكون قد خطر لك إلقاء نفسك في النهر!

- لا، ليس الآن. إن ما طرأ على ذهني في هذه اللحظة، هي هذه التأملات: إن ما بقي لي في الحياة، كما ترى شهر أو ثلاثة، أو ربما أربعة. حسناً، ولنفرض أنه عندما لا يبقى لي غير شهرين في الحياة، رأيت أن أقوم بعمل من أعمال الخير التي تحتاج إلى جهد ووقت، كموضوع صاحبنا الطبيب مثلاً. فهل ترى أنه من الأفضل لي أن أنفض يدي منه، وأبحث عن عمل خير آخر يكون في حدود طاقتي؟ أليست هذه فكرة طريفة؟

واشتد تأثير المسكين باخمانوف بسببي فصحبني طوال الطريق إلى البيت وهو حريص على تجنب مواساتي، ولكنه كان يعاملني بأشد الرفق. وعند الافتراق ضغط على يدي بحرارة، وطلب مني الإذن للحضور لزيارتي. فأجبت قائلاً إنه إذا زارني للمواساة «لأنه لا بد أن يفعل سواء تحدث إليّ برفق أو لزم الصمت كما بينت له» فإنه سوف يذكرني في كل زيارة بالموت الزاحف عليّ. فهز كتفيه، ولكنه أقر وجهة نظري، وافترقنا ونحن أشد صداقة مما كنت أتوقع.

ولكن بذرة «الحكم النهائي» غرست في أعماق نفسي في ذلك المساء، وطيلة تلك الليلة، وتشبثت في نهم شديد بفكرتي الجديدة هذه، وشربت من مختلف مناهلها في لهفة «ولم أنم لحظة واحدة في تلك الليلة»، وكلما تعمقت فيها بدا أن كياني كله يزداد استغراقاً فيها، ويزداد في الوقت نفسه

جزعي أيضًا. وأخيرًا غمرني إحساس رهيب بالفزع، ولم يفارقني طيلة اليوم التالي.

وإنني عندما أفكر في هذه الحالة أحيانًا أشعر بالحذر يتمشى في جسمي من فرط الرعب، ومن ثم يمكنني الاستنتاج ببساطة، من هذه الحقيقة أن يقيني «بالحكم النهائي» كان ينخر في كياني بأسرع وأعنف ما يمكن، وأنه سيبلغ بلا شك منتهاه الرهيب قبل مضي زمن طويل. وفي سبيل هذا المنتهى كنت في حاجة إلى عزم أكثر مما لدي.

ولم ألبث على كل حال أن توافر لي هذا العزم في خلال ثلاثة أسابيع، نتيجة لظروف غاية في الغرابة.

هنا في هذه الورقة دونت جميع الأرقام والتواريخ التي يستلزمها هذا الإيضاح. وهذا كله بالنسبة لي سواء بطبيعة الحال، ولكنني الآن - وربما في هذه اللحظة فقط، أريد من جميع الذين سيزنون تصرفاتي أن يتبينوا بوضوح التسلسل المنطقي للاستنتاجات التي أدت بي إلى اليقين من هذا «الحكم النهائي».

لقد سبق أن قلت إن العزم الذي كنت بحاجة إليه لتحقيق ما صممت عليه أخيرًا قد توافر لي بفضل ظروف غريبة قد لا يكون لها أية علاقة بالموضوع. فمنذ عشرة أيام زارني روجوجين بشأن موضوع معين يخصه هو، ولا يخصني أنا في شيء في الوقت الحالي. ولم أكن رأيت روجوجين من قبل أبدًا، وإنما كثيرًا ما سمعت عنه وزودته بجميع المعلومات التي أرادها، ثم سرعان ما انصرف. وعلى هذا يمكن القول إنه ما دام قد جاء لغرض الحصول على هذه المعلومات، فقد كان من المحتمل أن ينتهي الأمر عند هذا الحد.

إلا أنه أثار اهتمامي إلى حد كبير، وقد أمضيت طيلة ذلك اليوم تراودني الأفكار العجيبة المتعلقة به. وأخيراً قررت أن أرد زيارته في اليوم التالي.

ووضح من الوهلة الأولى أن روجوجين لم يتهج بأية حال عند رؤيته لي، وقد لَمَح بلباقة أنه لا يرى أي سبب يدعو إلى وجوب استمرار تعارفنا. إلا أنني رغم هذا كله أمضيت معه ساعة ممتعة، وأستطيع القول إنه استمتع أيضاً بهذه الساعة التي أمضيتها معه. ذلك أن التباين بيننا كان من الفخامة والوضوح بحيث لا بد أن كلاً منا شعر به. وأياً كان الأمر فقد كان شعوري أنا به حاداً. فهذا أنا، بأيامي المعدودة في الحياة، وها هو ذا شاب ينعم بكل ما في الحياة من قوة وحيوية، ويعيش لحاضره دون أقل تفكير في «الأحكام النهائية» أو في الأرقام أو الأيام أو - في الواقع - في أي شيء إلا فيمن يحبها بجنون - إن سمح لي بهذا التعبير، كما يقول المؤلف الضعيف عندما لا يحسن التعبير عن آرائه كما ينبغي.

ولم يسعني إلا أن أرى أن روجوجين - رغم ما يعوزه من رقة وتلطف - رجل ذكي فطن، وأنه لا يزال رجلاً قوي الملاحظة على الرغم من قلة ما يهيمه في الحياة خارج نطاق شؤنه الخاصة.

ولم ألمح له بشيء عن «حكمي النهائي»، ولكن بدا لي أنه استنتجه من حديثي معه. وقد ظل صامتاً، وهو رجل صموت إلى حد مفرع. وعندما نهضت للانصراف، قلت له إنه على الرغم مما بيننا من تباين واضح واختلافات كثيرة، فإنه قد لا يكون هو أيضاً بعيداً جداً عن «حكمي الأخير» كما تنم الظواهر.

وكانت إجابته الوحيدة على هذا ابتسامة نكراء مَرَّة، ثم نهض وبحث عن قبعتي ووضعها في يدي، ومضى بي إلى خارج بيته، بيته ذاك الكثيب الرهيب،

وقد حرص بطبيعة الحال أن يبدو الأمر كأنما أنا الذي أخرج من تلقاء نفسي، وأنه فقط يصحبني إلى باب الخروج بدافع من الأدب والاحترام. وقد ترك بيته في نفسي أثراً عميقاً. إنه شديد الشبه بجبانة. ويبدو لي أنه يحبه، وهو أمر طبيعي بلا شك. ذلك أن الحياة الحافلة التي يعيشها مفعمة بالاهتمامات التي تشغل ذهنه بحيث غدا في غير حاجة كبيرة إلى التماس العون مما يحيط به. وأجهدتني زيارتي لزوجين إجهاداً عنيفاً. وعدا هذا كنت أشعر باشتداد المرض منذ الصباح، وقد بلغ بي الضعف والوهن في المساء أنني أويت إلى فراشي والحرارة المرتفعة تنوش جسمي بين الحين والآخر، وتجعلني أهذي في بعض الأحيان. وقد ظل كوليا جالساً بجانبني حتى الساعة الحادية عشرة.

إلا أنني أتذكر كل ما تحدث عنه، وكل كلمة في الحديث الذي تبادلناه. وذلك رغم أنني كلما أغمضت عيني لحظة، لا أستطيع أن أتصور شيئاً إلا منظر سيركوف في نفس اللحظة التي قد يجد فيها مليون روبل، وكنت أتصوره وهو لا يدري ماذا يفعل بالمال، ثم وهو يمزق شعره من فرط الحيرة، ثم وهو يرتعد خوفاً من أن يسرقه أحد، وأخيراً وهو يقرر أن يدفن المبلغ تحت الثرى. وتصورت نفسي وأنا أقنعه قائلاً إنه بدلاً من أن يدفنه كله بلا جدوى تحت الثرى، يحسن به أن يصهر جانباً منه ويصنع منه تابوتاً لطفله الميت جوعاً، ثم يحفر ويستخرج جثمان الطفل ويضعه في التابوت الذهبي. ويوافق سيركوف على هذا الاقتراح ودموع الاعتراف بالجميل تبلل عينيه كما ظننت، ثم سرعان ما بدأ في تنفيذ هذه الفكرة!

وخطر لي أنني بصقت على الأرض، وانصرفت عنه اشمئزاً. وقد قال لي كوليا، حين تنبهت تماماً، إنني لم أنم لحظة واحدة، وإنما كنت أتحدث

معه طيلة الوقت عن سيركوف.

وفي لحظات أخرى كنت أبدو في حالة من الضعف الشديد والشقاء البالغ، ومن ثم انصرف كوليا وهو أشد ما يكون قلقاً واضطراباً.

ولما نهضت لأغلق الباب بالمفتاح وراءه، استعدت في ذهني فجأة لوحة مصورة رأيتها في إحدى غرفات منزل روجوجين الكئيب، فوق الباب. وقد أشار لي بنفسه عليها ونحن نمر تحتها، ولكنني أعتقد أنني وقفت نحو خمس دقائق أمامها، ورغم أنه لم يكن بها لمسات فنية، إلا أنها جعلتني أشعر باضطراب شديد. كانت تمثل السيد المسيح وهو يُحْمَل من الصليب بعد إتمام عملية الصلب. ويخيل إليّ أن الرسامين بوجه عام يصورون المخلص، سواء على الصليب، أو وهو يُحْمَل منه، ويتحرون أن يجعلوا وجهه محتفظاً بجماله، إنهم يبذلون جهودهم للاحتفاظ بهذا الجمال المذهل حتى في لحظات أعظم الشعور بالألم ولكن لم يكن ثمة مثل هذا الجمال في الصورة التي يمتلكها روجوجين. وإنما كانت صورة تمثل جسمًا بائسًا ممزق الملامح يبدو عليه بوضوح أنه عانى من أشد العذاب حتى قبل الصلب، وقد امتلأ بالجراح والكدمات وآثار قسوة الجنود والناس، وبمرارة اللحظة التي سقط فيها بالصليب، وهذا كله ممتزج بعذاب الصلب نفسه.

كان الوجه منكشاً كأنما لا يزال صاحبه معذباً وكأنما الجسم، الذي لم يمت إلا منذ لحظات، لا يزال ينتفض وينخلع بالألم الاحتقار. كانت الصورة قطعة حية من الطبيعة؛ لأن الفنان لم يحاول تجميل الوجه، وإنما تركه على طبيعته، أيًا كانت شخصية المعذب بعد مثل هذا العذاب.

وأنا أعرف أن العقيدة المسيحية في عهدها الأول كانت تقول إن المخلص قد تعذب فعلاً لا رمزاً، وأن الطبيعة سارت في مجراها حتى عندما

كان جسمه على الصليب.

وإنه لمن العجيب أن ينظر الإنسان إلى هذه الصورة الرهيبة متى تمثل جسد المخلص الممزق ثم يسأل نفسه هذا السؤال: لنفرض أن حواريه، رسل المستقبل، والنساء اللاتي تبعنه ووقفن بجانب الصليب، وجميع من آمنوا به وعبدوه - لنفرض أنهم رأوا هذا الجسم المعذب، وهذا الوجه الممزق الدامي الممتلئ بالكدمات «ولا شك أنهم رأوه» فكيف يمكنهم أن يروا هذا المنظر الرهيب ثم يعتقدوا أنه سوف ينهض حيًا من جديد.

إن من الأفكار التي تقتحم ذهن الإنسان سواء أراد أو لم يُرد، هي أن الموت شيء رهيب وعنيف بحيث إن المخلص الذي هزمه بمعجزاته أثناء حياته لم يستطع أن ينتصر عليه في النهاية، إن المخلص الذي قال للعازر «انهض يا لعازر» فنهض الرجل الميت حيًا - قد أصبح هو نفسه ضحية للطبيعة وللموت. إن الطبيعة تبدو للإنسان، وهو ينظر إلى هذه الصورة، كوحش هائل قاس أصم القلب، أو إذا شئتُم تشبيهاً أفضل وأعجب، مثل آلة ميكانيكية هائلة من آلات عصرنا الحاضر، سحقت وابتلعت كائنًا حيًا عظيمًا لا يُعوّض، كائنًا يساوي الطبيعة بكل قوانينها، ويساوي الأرض بأجمعها.. الأرض التي ربما لم تُخلق إلا من أجل مجيء هذا الكائن العظيم. إن هذه القوة العمياء الصماء القاسية الخالدة الظالمة كانت ممثلة في تلك الصورة بإجادة كما كان خضوع جميع الناس والأشياء التامة لها على جانب رائع من إجادة التعبير بحيث تبرز فكرتها بلا وعي في ذهن كل من ينظر إليها. إن كل هؤلاء الناس الأوفياء الذين يحملون إلى الصليب وإلى ما عليه من جسم ممزق لا بد قد شعروا بعذاب نفسي في تلك الليلة، إذ لا شك قد شعروا أن آمالهم، بل وربما عقيدتهم نفسها، قد تناثرت تحت ضربة قاضية، ولا بد

أنهم قد اختلفوا منصرفين في رعب وفزع في ذلك المساء، وذلك رغم أن كلاً منهم ربما حمل معه فكرة عظيمة لم تُمَحَّ أبدًا من ذهنه فيما بعد. فإذا كان في مقدور معلمهم الكبير هذا أن يرى نفسه بعد الصلب، فكيف أمكنه أن يقبل الصعود إلى الصليب ليموت كما مات؟ إن هذه الفكرة أيضًا تقتحم ذهن الإنسان الذي ينظر إلى تلك الصورة، لقد فكرت في هذا كله على خطافات، ربما أثناء نوبات الهذيان التي استمرت ساعة ونصف ساعة قبل انصراف كوليا.

هل يمكن أن يكون ثمة مظهر لذلك الذي لا قوام له؟ ومع ذلك فقد لاح لي، في لحظات معينة، أنني أرى تلك القوة الخالدة المظلمة الصماء العارمة في قالب عجيب غير ممكن التعبير عنه.

كنت أظن أن شخصًا ما يأخذني من يدي ويجعلني أرى، على ضوء قنديل، حشرة ضخمة منفرة، ويؤكد لي أنها هي هذه القوة نفسها: القوة الهائلة، الصماء، الصلبة، ثم يضحك ساخرًا من شعوري بالاستنكار وأنا أتلقى منه هذه المعلومات. إنهم دائمًا يضيئون في غرفتي مصباحًا صغيرًا أمام أيقونتي أثناء الليل. وهذا المصباح يصدر ومضات من ضوء خافت، ولكنها كافية لأن يرى الإنسان بها الأشياء إلى حد ما. على أنك إذا جلست تحت المصباح أمكنك أن تقرأ على ضوءه رغم خفته. وأعتقد أن الوقت كان قد تجاوز منتصف الليل بقليل في تلك الليلة. ولم أكن قد غفوت غمضة عين، وإنما بقيت راقدًا مفتوح العينين تمامًا عندما رأيت الباب يُفتح فجأة ويدخل روجوجين. لقد دخل وأغلق الباب وراءه، ثم حملني إلى وجهي في صمت، ثم مضى مسرعًا إلى ركن الغرفة حيث يوجد المصباح المضئيء، وجلس تحته.

ودهشت كل الدهشة، ونظرت إليه متسائلاً، ولكنه مال فقط بمرفقيه على المائدة، وراح يحملني إليّ في صمت. وانصرمت على هذا النحو دقيقتان أو ثلاث، وأذكر أن صمته ألمني وساءني كثيراً جداً. إذ لماذا لا يتحدث؟ إن حضوره لزيارتي في تلك الساعة من الليل قد يبدو عجباً في قليل أو كثير، ولكنني أتذكر أنني لم أدهش بأي حال من الأحوال. بل ربما كان الأمر على النقيض. إذ على الرغم من أنني لم أحدثه في الصباح عن فكري أي عن «الحكم النهائي» حديثاً صريحاً إلا أنني كنت أعرف أنه فهمها. وأن لهذه الفكرة من الطابع والأهمية ما يجعل الإنسان لا يعجب إذا وجد أن شخصاً ما جاء ليطلب التحدث عنها في أية ساعة، مهما تكن متأخرة، من الليل.

وخطر لي أنه لا بد قد جاء لهذا الغرض.

وكنا في ذلك الصباح لم نفترق ونحن على أحسن ما يكون عليه الأصدقاء، وإنما أذكر أنه نظر إليّ مرة أو مرتين في تهكم بغض. وهذه النظرة نفسها كنت ألاحظها في عينيه الآن- وقد كانت هي السبب في شعوري بالاستياء.

ولم يخامرني الشك لحظة في أنني قد أكون واهماً أو هاذباً، وأن روججين ليس إلا تهويلاً من تهاويل الحمى والاهتياج النفسي. أجل، لم يخامرني أقل تفكير في هذا الاحتمال في أول الأمر.

وفي خلال هذا كان هو مستمراً في جلوسه، وفي حملته الساخرة إلى وجهي.

واستدرت غاضباً في السرير وقد قررت ألا أنطق بكلمة إلا إذا فعل هو. وهكذا رقدت مستريحاً في سكون على وسادتي، مصراً على التزام

الصمت حتى لو استمر الحال إلى الصباح. قد صممت على أن يكون هو
البادئ بالحديث. ومر على هذه الحالة نحو عشرين دقيقة. ثم إذا بخاطر
يومض في ذهني فجأة، ماذا لو أن ما رأيته ليس روجوجين، وإنما مجرد
طيف أو شبح!

ولم أكن خلال مرضي أو في أي وقت آخر قد رأيت شبحاً قط. ولكنني
دائماً أعتقد ، سواء وأنا طفل أو وأنا في هذه السن الآن، أنني إذا رأيت شبحاً
فسوف أموت في الحال رعباً، وذلك رغم أنني لا أؤمن بوجود الأشباح.
ومع ذلك فإنني الآن، عندما خطر ببالي أن ما رأيته قد لا يكون روجوجين
إطلاقاً، لم أشعر بأي خوف، وإنما شعرت فقط بالضيق العصبي. ومن
أعجب العجب أن التفكير في هل هذا روجوجين أو شبح، لم يهمني كثيراً
كما كان ينبغي أن يحدث. وأعتقد أنني بدأت أفكر في شيء آخر مختلف
تماماً. فمثلاً بدأت أتساءل لماذا ارتدى الآن روجوجين- الذي رأيته في
بيته صباحاً مرتدياً ثوباً منزلياً وشبشباً- سترة خروج وصديرياً أبيض وعناقاً
«كرافت»! وأذكر أنني أيضاً قلت لنفسني: «إذا كان هذا شبحاً وأنا غير خائف
منه، فلماذا لا أقربه وأضع لشكوكي حداً؟ لعلني أكون خائفاً...».

وما إن دارت هذه الفكرة برأسي حتى هبت عليّ نفحة من هواء ثلجي،
وأحسست بالبرودة تسري في ظهري، وركبتي ترتعشان.

وكأنما أدرك روجوجين ما يدور بذهني، فإذا هو في تلك اللحظة ذاتها
يرفع رأسه عن ذراعيه ويفتح شفثيه كأنما يهم بالضحك- ولكنه استمر في
الحملقة إليّ بإصرار كما كان يفعل من قبل.

وبلغ من غضبي الشديد عليه في هذه اللحظة أنني تُقت للاندفاع إليه،
ولكن بما أنني أقسمت أن يتكلم هو أولاً، فقد بقيت راقداً في سكون-

وفي مزيد من التصميم - لأنني لم أكن قد اطمأنت بأية حال هل كان هذا روجوجين أم لا.

ولست أتذكر كم استمر الحال على هذا المنوال، كما أنني لا أستطيع أن أتذكر أيضًا هل كنت أغيب عن وعيي بين الحين والآخر أم لا. إلا أن روجوجين نهض أخيرًا، ونظر إليّ بامتنان وقد اختفت ابتسامته النكراء - وبعد أن سار في رفق بالغ على أطراف أصابعه تقريبًا إلى الباب، فتحه وخرج وأغلقه وراءه.

ولم أنهض عن فراشي، ولا أعرف كم من الوقت أمضيت وأنا راقد مفتوح العينين أفكر. ولا أعرف فيما كنت أفكر، ولا كيف استغرقت في النوم وفقدت الإحساس بما حولي. ولكنني استيقظت في اليوم التالي بعد التاسعة صباحًا عندما نقرأ على بابي، وكانت تعليماتي العامة هي أنني إذا لم أفتح الباب في الساعة التاسعة وأستدعي أحدًا، فإن على «ماتريونا» أن تأتي إليّ بالشاي من تلقاء نفسها. وعندما فتحت أنا الباب لها الآن، تذكرت فجأة شيئًا مهمًا: كيف استطاع هو أن يدخل والباب مغلق بالمفتاح من الداخل؟ ولما قمت ببعض التحريات في جوانب المسكن، وجدت أنه كان في حكم المستحيل تقريبًا أن يحضر روجوجين بنفسه؛ لأن جميع الأبواب كانت تغلق بالمفاتيح من الداخل ليلاً.

حسنًا! إن هذا الحدث العجيب الذي دونته بكل هذا الإسهاب، كان الحافز النهائي الذي دفع بي إلى اتخاذ قراري الأخير. ومن ثم فليس للمنطق، أو للاستنتاجات المنطقية أية علاقة بهذا التصميم - وإنما الأمر كله مجرد شعور بالاشمئزاز.

لقد كان من المستحيل عليّ أن أستمر على قيد الحياة ما دامت الحياة مليئة بمثل هذه الكائنات الكريهة القاسية العجيبة. إن هذا الشبح قد أذلني.. كما أنني لا أحتمل أن أبقى تابعاً أو خاضعاً لهذه القوة الرهيبة السوداء المتقمصة شكل تلك الحشرة الدنيئة المنفرة . وبدأت أشعر بالراحة فقط عند اقتراب المساء، أي عندما حُزمت أمري بشأن هذا الموضوع.



الفصل السابع

كان لديّ مسدس جيب صغير، حصلت عليه وأنا غلام في تلك السن التي كانت تستهويني فيها قصص المبارزات ومغامرات قطاع الطرق، والتي يتخيل الإنسان فيها نفسه واقفًا ذات يوم في المستقبل، يطلق النار بشرف على غريم له في مبارزة ما.

وكان ثمة رصاصتان قديمتان في الكيس الذي يحتوي على المسدس، وبعض مسحوق البارود في زجاجة قديمة يكفي لطلقتين أو ثلاث.

وكان المسدس عتيقًا باليًا معوج الشكل لا تصل طلقته إلى ما يزيد على خمس عشرة خطوة على الأكثر، ولكن كان في مقدوره على أية حال أن يفتت جمجمة أي شخص يضع فوهته على جبينه ويطلقه.

وقررت أن أموت في بافلوفسك عند شروق الشمس، في الحديقة العامة، حتى لا أثير ضجة في المنزل.

وإن هذا «الإيضاح» سوف يجعل الأمر واضحًا أمام رجال الشرطة ويمكن لدارسي علم النفس أو لأي شخص آخر أن يستخرج من هذا «الإيضاح» ما يشاء. ولكنني لا أحب، على كل حال، أن تنشر هذه الصفحات على الملأ. وإنني لأرجو من الأمير أن يحتفظ بنسخة منها، وأن يعطي نسخة

أخرى لأجلابا إيفانوفنا إيبانشين. هذه هي وصيتي ورغبتى الأخيرة. أما عن جثمانى، فإننى أتبرع به لكلية الطب خدمة للعلم. إننى الآن لا أعترف بأية ولاية أو سلطة عليّ؛ لأننى أعرف أنني أصبحت بعيداً عن متناول القوانين والقضاة.

ومنذ مدة قصيرة، خطرت ببالي فكرة مثيرة جداً! ماذا لو أنى الآن ارتكبت جريمة رهيبية - قتلت عشرة من إخوانى فى البشرية مثلاً أو أى شيء آخر مما يُعتبر فى هذا العالم مُفزَعاً ورهيباً؟ أى مأزق سوف يجد القضاة أنفسهم فيه عندما يحاكمون مجرماً لم يعد له فى الحياة غير أسبوعين؛ وبعد أن صدرت القوانين التى تحرم تعذيب المتهمين! بل ومن العجب أنى قد أموت مستريحاً فى المستشفى الحكومى فى غرفة دافئة نظيفة، وتحت رعاية الأطباء - أى ربما أكثر راحة وترفاً مما أنا عليه فى البيت. إننى لا أفهم لماذا لا تخطر مثل هذه الآراء فى أذهان أناس لهم مثل ظروفى - ولو على سبيل الدعابة فقط! لعلها تخطر لهم فعلاً، فمن يدري! فإن بيننا الكثيرين من ذوي النفوس المرححة.

ولكننى رغم عدم اعترافى بأية سلطة عليّ، فإننى أعرف أنني سوف أحاكم عندما لا أصبح شيئاً أكثر من قطعة طين صامته. ولهذا لا أريد أن أمضى قبل أن أترك ورائى بضع كلمات للإجابة. إجابة الرجل الحر، وليست إجابة الرجل المضطر إلى تبرير تصرفاته. أجل، إننى فى غير حاجة إلى أن ألتمس المغفرة من أى شخص، وإنما أريد أن أقول ما أقول لأننى أريد هذا بمحض إرادتى الحرة.

ولنبداً أولاً بالنظر فى هذا الرأي العجيب:

من ذا يستطيع، بأي حق أو قانون، أن يحرمنى من التمتع بكل حقوقى

أثناء الأسبوعين الباقيين لي في الحياة؟ أية سلطة يمكن أن تتولى هذا الموضوع؟ من ذا قد يرغب لا في أن يحكم عليّ بالإعدام فقط، بل وفي احتمال الحياة حتى لحظة التنفيذ؟ يقيناً لا يوجد في الدنيا رجل يرغب في شيء كهذا- أجل، لماذا يريد مثل هذا أي إنسان! أيريده إكراماً للمبادئ الأخلاقية؟! حسناً، يمكنني أن أفهم أنني لو قمت بمحاولة القضاء على حياتي وأنا متمتع بالقوة والصحة والحيوية- أي عندما تكون لحياتي فائدتها للغير، إلخ... إلخ.. فقد يكون للمبادئ الأخلاقية الحق في لومي- طبقاً للتقاليد القديمة لو أنا قضيت على حياتي بلا إذن- أو بلا اعتبار لأية عقيدة ما. ولكن كيف الحال الآن، وقد صدر الحكم وأصبحت أيامي معدودة! كيف يمكن أن تكون المبادئ الأخلاقية في حاجة إلى أنفاسي الأخيرة، ولماذا يحتم عليّ أن أموت وأنا أستمع إلى عبارات العزاء يقدمها إليّ الأمير الذي لا يستطيع بلا شك أن ينكر أنه يرى أن الموت هو خير شيء لي «إن المسيحيين أمثاله ينتهون دائماً بالإيمان بهذه النظرية التي يعتزون بها». ثم ماذا يقصدون من «أشجار بافلوفسك» الخضراء المضحكة؟ أيريدون أن يلطفوا ساعاتي الأخيرة؟ ألا يمكنهم أن يفهموا أنني كلما نسيت أمر نفسي، وكلما ازدادت تعلقاً بأوهام الحياة والحب التي يحاولون إظهارها لي بأخذي بعيداً عن جدار ماير، زادوا من شعوري بالتعاسة، والشقاء؟ ما فائدة كل مناظركم الطبيعية لي، وكل حداثتكم وأشجاركم ومناظر غروب شمسكم وشروقها، وزرقة سماواتكم وسمات الرضى البادية على وجوهكم. ما فائدة كل هذه الثروة من الجمال والسعادة ما دامت تغلق أبوابها في وجهي - وجهي أنا فقط! ما جدوى كل هذا الجمال والبهاء لي عندما لا يسعني إلا أن أدرك في كل دقيقة، بل في كل ثانية، أن هذه الذبابة التي تطن حول رأسي في أشعة

الشمس - حتى هذه الذبابة الضئيلة تشارك الأحياء بالتمتع ببهاء الوجود، وتعرف مكانها منه، وتشعر بالسعادة فيه. هذا بينما أنا.. أنا فقط إنسان منبوذ. إنسان لم يكن يعرف هذه الحقيقة، ويرجع الفضل في هذا إلى سذاجتي.

أوه، إنني أعرف جيدًا أن الأمير وغيره كانوا يتمنون لو أني - بدلًا من إضاعة الوقت في كتابة هذه العبارات الشريرة - أخذت أغني لمجد المبادئ الأخلاقية وانتصارها هذه الأبيات المعروفة للشاعر ميليفيو:

كم كنت أتمنى أن يتمكن كثير من الأصدقاء

الذين لا يستمعون لوداعي..

أن يروا جمالك المقدس لأمد طويل..

وأن يموتوا بعد عمر طويل، وأن أبكي لموتهم..

وأن تقع آخر نظرة لهم على صديق.

ولكن صدقوني، صدقوني يا أصدقائي الطيبين القلوب، إن في هذا الشعر الأخلاقي الرفيع، في هذه البركة الأكاديمية الممنوحة للعالم جميعًا باللغة الفرنسية، تخفي أشد المرارة والمقت. ولكن هذا السم مخفف ببراعة يمكن معها القول إن الشاعر قد أقنع نفسه فعلاً بأن كلماته زخرة بدموع المغفرة والسلام، بدلًا من المرارة والسخط والشر، وهكذا مات في عالم من الوهم.

هل تعرفون أن هناك حدًا للهوان لا يستطيع إحساس الإنسان بالعار أن يتعده، والذي يبدأ بعده الشعور بالرضى بهذا العار! إن الهوان، بهذا المعنى، يعتبر طبعًا قوة رهيبة، وأنا أعترف بهذا - وإن كنت لا أعترف به على الطريقة التي يعتبر الدين بها أن الهوان قوة.

الدين! إنني أعترف بخلود الحياة. ولعلي كنت أعترف بهذه الحقيقة دائماً.

فإذا اعترفنا بأن الوعي يأتي إلى الوجود بإرادة قوة عليا، وأن هذا الوعي يطل على العالم قائلاً: «هأنذا»، وأن القوة العليا تريد لهذا الوعي الذي جاء إلى الوجود بأمرها أن ينطفئ فجأة «لسبب غير معروف» فإنه يبقى أمامنا مع هذا ذلك السؤال الخالد- لماذا أكون ذليلاً خلال هذا كله؟ ألا يكفي أنني سألتهم، فبأي حق إذن يطلب مني أن أبارك هذه القوة التي ستلتهمني؟ إنني يقيناً في غير حاجة إلى أن أفترض أن كائننا ما- أيًا كان- سوف يستاء لأنني لا أريد أن أعيش الأسبوعين المسموح لي بهما! إنني لا أعتقد هذا.

إنه لمن الأسهل جداً، بل ومن المرجح جداً، الاعتقاد بأن موتي مرغوب فيه، موت ذرة تافهة، من أجل تحقيق التناسق العام للوجود، بل من أجل زيادة أو نقصان العدد الموجود. تماماً كما يستلزم موت أعداد من الكائنات كل يوم لأنه بدون تحليلهم لن يستطيع الباقون أن يعيشوا «هذا مع وجود الاعتراف بأن هذه الفكرة في ذاتها ليست كريمة».

ولنعترف، على كل حال بالواقع! لنعترف بأنه بدون الاتهام المستمر لبعضنا البعض، فإن العالم لا يمكن أن يستمر في الوجود، أو لا يمكن أبداً تنظيمه وتنسيقه وإنني مع اعترافي هذا سأبقى دائماً على استعداد للاعتراف بأنني لا أستطيع أن أفهم أبداً لماذا يكون الأمر هكذا! إلا أنني سأخبركم ماذا أعرف عن يقين. وهو إذا كنت قد منحت الشعور «بكياني»، فماذا يهمني إذا كان العالم مليئاً بالأخطاء، أو أنه لا يستطيع الاستمرار في البقاء. من ذا الذي سيحاكمني بعد ذلك، وبأية تهمة؟ قولوا ما يحلو لكم، ولكن الأمر في رأيي قاس وظالم.

وفي الوقت نفسه لم أستطع قط - رغم شدة رغبتني في أن أفعل هذا- أن أقنع نفسي بأنه لا توجد حياة أخرى، أو أنه لا توجد عناية إلهية. إن حقيقة الأمر هو أن كل هذا موجود فعلاً، ولكننا لا نعرف شيئاً أبداً عن تلك الحياة الأخرى أو نوااميسها.

إلا أنه إذا كان من العسير، بل ومن المستحيل أن نفهمها، فمن المؤكد أن أعفى من اللوم لأنني لم أستطع أن أفهم شيئاً غير مفهوم. وأنا بطبيعة الحال أعرف ما يُقال عن وجوب الطاعة، وأعرف أيضاً أن الأمير أحد الذين ينادون بهذا، وهو أن على الإنسان أن يكون مطيعاً دون أن يسأل، وأن تكون طاعته نابعة من طهارة قلبه، وأنه بسبب هذا السلوك الحميد سوف يلقي أحسن الجزاء في العالم الآخر. إننا نخطئ في حق الله عندما نعزو أفكارنا الخاصة إليه سبحانه بدافع من سخطنا لأننا لا نستطيع أن نتعمق في فهم حكمته.

وأكرر القول مرة أخرى أنه لا يمكن أن أتعرض للمؤاخذه لأنني عاجز عن فهم هذا الذي لا يسمح للبشرية أن تفهمه. فلماذا أحاكم لأنني لم أستطع أن أفهم إرادة ونواميس القدرة الإلهية؟ لا، يحسن بنا أن نسقط الدين من حسابنا. وكفى هذا الآن. ففي الوقت الذي أبلغ فيه هذا المدى من قراءة هذه الأوراق، ستكون الشمس قد بزغت، وستكون قوة أشعتها الهائلة قد بدأت تؤثر في العالم الحي. فليكن الأمر ما يكون. لسوف أموت وأنا أحمل في هذا النبع الضخم للقوة وللحياة. وأنا لا أريد هذه الحياة!

ولو كانت لدي القدرة على منع خروجي إلى الحياة ساعة مولدي، لما قبلت أبداً أن أوجد في ظل هذه الظروف الشاذة. ولكن لدي على كل حال

القدرة على إنهاء وجودي، وذلك رغم أنني أرد أياً ما قد أصبحت معدودة أنها هدية تافهة، وأن ثورتي عليها تتساوى في التفاهة معها.

وثمة إيضاح أخير: إنني أموت، لا لأنني بأية حال عاجز عن احتمال الحياة خلال الأسابيع الثلاثة الباقية. لا، فإن في مقدوري أن أجد ما يكفي من القوة، وأستطيع إذا أردت أن ألتمس العزاء من التفكير في الظلم الذي وقع عليّ. ولكنني لست شاعراً فرنسياً، ولست راغباً في مثل هذا اللون من العزاء. وأخيراً فقد حددت الطبيعة قدرتي على العمل أو على القيام بأي نشاط، كان بتحديد ما البقية الباقية من عمري بثلاثة أسابيع، ومن ثم أرى أن الانتحار هو الشيء الوحيد الذي بقي لي، والذي أستطيع أن أبدأ فيه وأنتهي منه في الوقت الذي أريد. ولعلي بهذا أتوق إلى استغلال آخر فرصة للقيام بشيء لنفسي وبمحض إرادتي. وليس الاحتجاج في بعض الأحيان بالشيء اليسير.

وعند هذا الحد انتهى الإيضاح، وأمسك إيبوليت عن القراءة أخيراً. والمعروف أنه في الحالات المتطرفة توجد مرحلة نهائية من الصراحة السافرة التي تجعل الرجل العصبي الشديد الانفعال، لا يخشى شيئاً، ولا يتردد في إثارة أية فضيحة، بل لعله يبتهج بها. وقد بلغ إيبوليت الآن في هذه المرحلة تلك الحالة العصبية المتوترة التي كانت تستبد به حتى هذه اللحظة. فإن ذلك الفتى المسكين الضعيف ابن الثامنة عشرة - المرهق بالمرض - كان يبدو في نظر العالم واهناً رقيقاً كورقة منتزعة من أمها الشجرة ف راحت ترتعد بلمسات النسيم. ولكنه ما كاد يمسح بنظراته وجوه المنصتين إليه، لأول مرة خلال الساعة الأخيرة - حتى ارتسمت على وجهه أشد أمارات الازدراء والترفيع والنفور. لقد كان يتحداهم بهذه النظرات ولكن المنصتين

إليه كانوا أيضًا في حالة سخط واستنكار شديد، ومن ثم نهضوا واقفين والاستياء يعلو وجوههم، كما كان التعب، وشرب الخمر، وتوتر الأعصاب أثناء فترة الإنصات الطويلة قد زاد هذا كله من سوء الأثر الذي تركته القراءة في نفوسهم.

ووثب إيبوليت فجأة كأنما أصابته رصاصة، ثم صاح قائلاً وقد رأى رؤوس الأشجار المذهبة بضوء الصباح فراح يشير إليها كأنما هي معجزة:

- إن الشمس تشرق. انظروا، إنها تشرق الآن.

فسأله فيردشنيكو قائلاً:

- حسنًا! وماذا بعد؟ أكنت تظن أنها لن تشرق!

وقال جانبا بصوت ينم عن الضيق وهو يتناول قبعته:

- لسوف يكون الحر طيلة هذا اليوم فظيعًا مرة أخرى. وإن شهرًا على

هذا الحال.. حسنًا، هل أنت آت معي إلى البيت يا بيتسين؟

وأنصت إيبوليت إلى هذا في دهشة تكاد تبلغ مرحلة الذهول. وفجأة

اشتد امتقاع وجهه، وارتعد جسمه وهو يصيح قائلاً لجانيا:

- إنك تسرف في الظهور بمظهر المستخف بأمري، وإني أرى أنك تريد

إهانتي.

ثم أردف قائلاً وهو يوجه إلى جانبا نظرات مليئة بالشر:

- وما أنت إلا كلب حقير.

فقال فيردشنيكو مدهوشًا:

- ماذا دهى هذا الفتى؟ إن أعراض ضعف العقل واضحة عليه!

وقال جانبا:

- إنه مجرد شاب أحمق.

وتمالك إيبوليت نفسه بعض الشيء وقال وهو يرتعد ويتلعثم كما كان الحال من قبل:

- إنني أدرك أيها السادة أنني أستحق نفوركم وسخطكم. وإني، وإني
لأسف على إزعاجي لكم بهذا اللغو الفارغ.

وكان عندئذ يشير إلى أوراق مقالته، ثم أردف قائلاً وقد علت شفثيه
ابتسامة شاحبة:

- أو، على الأصح، إني آسف لأنني لم أزعجكم بما فيه الكفاية.

ثم استدار إلى إيفيني فجأة وسأله قائلاً:

- هل أزعجتك يا إيفيني بافلوفيتش؟ أخبرني الآن، هل أزعجتك أم
لا؟

- حسنًا! لعلها كانت مطولة بعض الشيء! ولكن..

فاستطرد إيبوليت يقول وهو يرتعد من فرط الانفعال:

- قل، تكلم! لا تكذب مرة واحدة في حياتك. تكلم..

فقال إيفيني بغضب وهو يستدير بظهره إليه:

- أوه، أوكد لك يا سيدي أن الأمر بالنسبة لي سواء. ومن ثم أرجوك أن
تدعني وشأني.

وقال بيتسين وهو يقترب من مضيفه:

- طابت ليلتك أيها الأمير.

وهنا صاحت فيرا لبيديف وهي تندفع نحو إيبوليت وتمسك بيديه في
ألم وجزع:

- كيف هذا؟ لا تذهبوا؟ إنه سيطلق الرصاص على نفسه..

وكانت تومئ إلى إيبوليت وتعنيه وهي تستطرد قائلة:

- ألم تسمعه وهو يقول إنه سيطلق الرصاص على رأسه عند شروق
الشمس:

فهتف عدد من الحاضرين بصوت ينم عن التهكم:

- أوه، إنه لن يقتل نفسه بالرصاص.

وصاح كوليا وهو يمسك بدوره يد إيبوليت:

- يحسن أن تكونوا على حذر أيها السادة! انظروا فقط إليه . ماذا ترى
أيها الأمير؟

وكان كوليا وفيرا وكيلر وبوردوفسكي قد اجتمعوا حول إيبوليت
وراحوا يتشبهون به.

وغمغم بوردوفسكي قائلاً:

- إن له الحق، له الحق.

وهنا تقدم لبيديف نحو الأمير وقد ضاق ذرعاً ثم قال:

- معذرة أيها الأمير. ولكن ما هي «إجراءاتك»؟

- ماذا تعني بكلمة «إجراءات»؟

- لا، لا، معذرة، إنني رب هذا البيت وإن كنت لا أريد أن يعوزني
الشعور باحترامك. وأنت رب البيت على نحو ما؟ إلا أنني لا أستطيع أن

أسمح بوقوع شيء كهذا.

وفجأة قال الجنرال إيفولجين في لهجة تنم عن الاستنكار:

- إنه لن يقتل نفسه بالرصاص، إن هذا الفتى يقوم بدور الغلام الأحمق..

- أنا أعرف أنه لن يفعل، نعم أعرف أنه لن يفعل يا جنرال، ولكنني..

ولكنني السيد هنا.

وقال بيتسين الذي كان قد حيا الأمير ومد الآن يده إلى إيبوليت:

- اسمع يا مستر تيرنتيف. أظن أنك أشرت في مخطوطك هذا إلى أنك

تهب هيكلك لكلية الطب. فهل أنت تعني هيكلك الخاص، أعني عظامك أنت؟

- نعم، عظامي.. فأنا..

- حسنًا جدًا، فهمت، وأنا أسأل لأن ثمة بعض الأخطاء قد حدثت كما

تعرف في هذا الشأن بين الحين والآخر.. وأذكر حالة من هذا النوع كانت..

وصاح الأمير قائلاً:

- لماذا تسخر منه؟

وقال فيردشنكو:

- لقد دفعت به إلى حافة البكاء.

ولكن إيبوليت لم يكن يبكي بأية حال، وإنما كان على وشك التحرك من

مكانه لولا أن بادر حراسه الأربعة وأمسكوه مرة أخرى. وتعالى ضحكات

بعضهم في الغرفة. وقال روججين:

- لقد تعمد أن يثير هذا الموقف. إنه شق على نفسه بكتابة كل هذا

لكي يدفع بعضهم إلى الإمساك به. طابت ليلتك أيها الأمير، ولشد ما طال بنا المقام هنا حتى غدت عظامي تؤلمني.

وقال إيفيني بافلوفيتش ضاحكاً:

- إذا كنت حقاً نويت أن تطلق الرصاص على نفسك، فأنا أرى لو أنني كنت في موضعك لعدلت عن هذه الإطراءات؛ لكي أغيظهم جميعاً.

فقال إيبوليت بمرارة:

- إنهم مشوقون جداً لرؤيتي وأنا أفجر رأسي بالرصاص.

- نعم، ولسوف يستاءون جداً إذا لم يروا هذا المنظر.

- إذن فأنت ترى أنهم لن يروه!

- إنني لا أحاول أن أشتبك، بل على النقيض، فإني أعتقد أن من المحتمل جداً أن تقتل نفسك بالرصاص، ولكن..

وحرص إيفيني على أن يقول العبارة الآتية ببطء وتلطف شديد:

- الشيء المهم هو أن يحتفظ الإنسان بقوة أعصابه.

فقال إيبوليت فجأة موجهاً الحديث إلى إيفيني وناظرًا إليه في ثقة ويقين وكأنما يلتمس النصيحة من صديق وفي:

- لقد أدركت الآن أي خطأ رهيب ارتكبته في قراءة هذه المقالة عليهم.

فأجاب إيفيني ضاحكاً:

- نعم، إنه موقف هزلي! وأنا في الواقع لا أعرف أية نصيحة يمكن أن أقدمها إليك.

وحملق إيبوليت في وجهه بثبات دون أن يجيب بشيء. وكان الناظر إليه

قد يظن أنه غائب عن الوعي بين الحين والآخر.

وقال لبيديف:

- معذرة! ولكن هل لاحظتم أسلوب هذا السيد الصغير؟ إنه يقول:
«لسوف أمضي وأطلق الرصاص على رأسي في الحديقة العامة. وذلك حتى
لا أزعج أحدًا» إنه يعتقد أنه لن يزعج أحدًا إذا هو ابتعد ثلاث ياردات داخل
الحديقة العامة وأطلق الرصاص على نفسه هناك.

وبدأ الأمير الحديث قائلاً:

- أيها السادة..

فقاطعه لبيديف قائلاً بانفعال:

- لا لا، معذرة أيها الأمير المبجل، فما دمت قد لاحظت ولا شك
بنفسك أن الأمر ليس هزلاً، وما دام نصف الحاضرين على الأقل قد تأكدوا
بعد كل الذي قيل بأن هذا الفتى سوف يطلق النار على رأسه بدافع من
الشرف فإنني - بصفتي رب هذا البيت - أطلبك أمام هؤلاء الشهود لكي
تتخذ الإجراءات اللازمة.

- نعم، ولكن ماذا ينبغي أن أفعل يا لبيديف؟ ما هي الإجراءات التي
ينبغي أن أتخذها؟ إنني مستعد.

- لسوف أخبرك. أولاً يجب أن يسلم لنا المسدس الذي يزهو به،
ومعه كل أجهزته. إذا فعل هذا، فسوف أتنازل وأقبل أن يقضي الليلة في
هذا البيت بسبب حالته الصحية الواهنة، وطبعاً على شرط، أن يكون تحت
رقابة مناسبة. ولكن يجب أن يمضي إلى مكان آخر غداً. ومعذرة أيها الأمير!
فإذا رفض أن يسلم المسدس، فسوف أمسك فوراً إحدى ذراعيه، وسيمسك

الجنرال إيفولجين الذراع الأخرى، وسوف نظل قابضين عليه حتى يأتي رجال الشرطة ويتولوا بأنفسهم زمام الأمر. وسوف يتكرم المستر فيردشنكو باستدعائهم.

وحدثت عندئذ ضجة هائلة، وراح لبيديف يتواثب من فرط الانفعال، واستعد فيردشنكو للذهاب إلى مركز الشرطة. وأصر جانيا بقوة على أن هذا كله لغو فارغ. «لأن أحداً لن يطلق الرصاص على نفسه». أما إيفيني بافلوفيتش فقد التزم الصمت.

وهمس إيبوليت للأمير وقد اتقدت عيناه:

- ألم تكن تظن أيها الأمير أنني لم أثنأ بكل هذا الحقد؟

ونظر إلى الأمير برهة وكأنما كان يتوقع أن يجيب عليه، ثم أضاف قائلاً:

- هذا يكفي!

وأخيراً وجه الحديث إلى الجميع قائلاً بصوت مرتفع:

- هذه أيها السادة غلطتي! وإليك يا لبيديف هذه المفاتيح..

ثم تناول من جيبه مجموعة من المفاتيح وأردف قائلاً:

- وهذا المفتاح، قبل الأخير، إن كوليا سوف يطلعك.. كوليا، أين

كوليا؟

وكان يصيح منادياً على كوليا وهو ينظر إليه دون أن يراه، ثم استطرد

قائلاً:

- نعم، إنه سيطلعك. لقد حزم معي الحقيقة هذا الصباح. اصعد به يا

كوليا. إن حقيتي بالطابق العلوي بمكتب الأمير. وها هو ذا المفتاح، وسوف

تجد في الحافظة الصغيرة مسدسًا ومسحوق البارود، وكل شيء. لقد وضعه كوليا بنفسه في الحقبة يا مستر ليبديف، وسوف يطلعك على مكانه. ولكن بشرط أن تعيده إلى بترسبرج. أسمع؟ إنني أفعل هذا إكرامًا للأمير، وليس لك!

فصاح ليبديف:

- عظيم جدًا.

ثم اختطف المفاتيح وانطلق مسرعًا. وكان كوليا قد وقف مترددًا كأنما يريد أن يقول شيئًا، ولكن ليبديف أمسك به وجره معه.

وتلفت إيبوليت نحو الضيوف الضاحكين، ولاحظ الأمير أن أسنان الفتى كانت تصطك كأنما يعاني من نوبة حمى عنيفة.

وقال إيبوليت للأمير هامسًا، وكان يخفض صوته كلما وجه إليه الحديث:

- يا لهم جميعهم من وحوش!

- دعهم وشأنهم، فإنك الآن أضعف من...

- نعم.. فورًا - لسوف أمضي فورًا. لسوف..

وفجأة احتضن الأمير، ثم قال وهو يضحك بطريقة غريبة جدًا:

- لعلك تحسبني مجنونًا؟!

- ولكنك...

- كن صريحًا! أرجوك أن تقف ثابتًا برهة، فإني أريد أن أنظر إلى عينيك.

لا تتحدث - قف هكذا. دعني أنظر إليك! فإني أحبي الجنس البشري تحية الوداع.

ووقف هكذا نحو عشر ثوان يحدث في الأمير بثبات وبوجه شاحب كوجوه الموتى، وبجبين تفصد بحبات العرق. وكان يمسك به الأمير في قبضة قوية، كأنما يخشى أن يدعه ينصرف.

وصاح الأمير قائلاً:

- إيبوليت، إيبوليت؟ ماذا بك؟

- حالاً: وكفاني هذا. لسوف أرتد حالاً. وينبغي أن أشرب نخب الشمس، إنني أريد هذا، بل أصر عليه، هيا- دعني-..

وتناول من فوق المائدة كوباً، ثم تخلص من الأمير، وإذا هو في لحظة قد وصل إلى درجات الشرفة.

وتنهأ الأمير للانطلاق ورائه، ولكن حدث في تلك اللحظة أن مد إيفيني يده إليه ليصافحه ويحييه تحية الانصراف، وفي اللحظة التالية حدث هرج ومرج وامتلاً الجو بمختلف الانفعالات وألوان الإثارة العنيفة.

فعندما وصل إيبوليت إلى درجات الشرفة، توقف برهة وهو يمسك الكوب بيده اليسرى، بينما وضع يده اليمنى في جيبه معطفه.

وأصر كيللر فيما بعد على أن إيبوليت كان يضع يده اليمنى طيلة الوقت في جيب معطفه أثناء حديثه مع الأمير، وأنه أمسك بكتف هذا الأمير بيده اليسرى فقط، ويؤكد كيللر أن هذا الوضع قد أثار شكوكه منذ أول الأمر. وعلى أية حال، فإن كيللر أسرع وراء إيبوليت ولكن بعد فوات الأوان.

لقد لمح شيئاً يومض في يده إيبوليت، ثم رأى أنه مسدس، فاندفع نحوه في نفس اللحظة التي رفع فيها إيبوليت المسدس إلى جبينه وضغط على الزناد. وتبع هذا صرير معدني حاد، ولكن بلا دوي انفجار.

ولما أمسك كيللر بالذي أوشك على الانتحار، انهار هذا بين يديه. ولعله ظن أنه أطلق النار فعلاً على نفسه. وبعد أن انتزع كيللر المسدس منه، أجلسه فوراً على مقعد، بينما تراحم الجميع حوله في احتياج، يتبادلون الأحاديث والأسئلة! وكان كل منهم قد سمع طرقة الزناد، ومع ذلك فهم يرون الشاب أمامهم سليماً كما يبدو.

أما إيبوليت فقد ظل جالساً لا يدري شيئاً مما يجري، وإنما راح يتلفت حوله بنظرات جوفاء ذاهلة.

واندفع ليبيديف وكوليا إلى الغرفة في تلك اللحظة، بينما سأل أحد الحاضرين قائلاً بأنفاس لاهثة:

- ماذا حدث؟ هل أخطأ الإصابة؟

ارتفعت أصوات أخرى عديدة تقول:

- لعل المسدس لم يكن محشواً؟

فقال كيللر بعد أن فحص المسدس:

- إنه محشو فعلاً، ولكن...

- إذن ماذا؟ هل أخطأ الإصابة؟

فأعلن كيللر قائلاً:

- لم تكن به كبسولة التفجير.

وإنه لمن العسير وصف المنظر المؤلم الذي أعقب هذا. فإن الشعور الأول بالجزع سرعان ما أخلى الطريق لمشاعر أخرى عكسية: فإذا بعضهم ينفجرون ضاحكين من صميم القلوب، وقد بدا أنهم قد استمدوا من هذه الدعابة لوناً من الاستمتاع الخبيث، وراح إيبوليت المسكين يبكي بعصبية

وهو يضرب كفاً بكف. وكان يقترب من كل واحد على حدة- حتى فيردشنيكو- ويمسك بيديه. ويقسم جاداً أنه نسي.. نسي تمامًا- «مصادفة وليس عمدًا» أن يضع الكبسولة. وأن لديه- «عشر كبسولات على الأقل في جيبه»- ثم أخرجها من الجيب، وراح يطلع كل واحد عليها، موضعاً أنه لم يشأ أن يضع واحدة منها أنفًا خشية حدوث انفجار عرضي في جيبه، وأنه خطر بباله أن سيكون لديه ما يكفي من الوقت ليضعها فيما بعد- عند اللزوم- وأنه في غمرة الحماسة في تلك اللحظة نسي كل شيء عنها. وألقى الفتى بنفسه على الأمير، ثم على إيفيني بافلوفيتش، وراح يتوسل لكيلا أن يعيد إليه المسدس لكي يروا بأنفسهم كيف يحافظ على شرفه»- ولكن لا «لقد حل بي العار، الآن، وإلى الأبد».

وأخيرًا سقط مغشيًا عليه، فحمله بعضهم إلى مكتب الأمير.

وأرسل ليبيديف، الذي استرد الآن هدوءه- يستدعي الطبيب، ثم بقي هو وابنته وبوردوفسكي والجنرال إيفولجين بجوار فراش الشاب المريض.

وعندما حمل إيبوليت مغشيًا عليه، وقف كيللر، وأعلن القرار التالي للجميع بوجه عام، وبصوت مرتفع، مع الضغط على كل كلمة:

- أيها السادة، إذا أعرب أحدكم عن أي شك مرة أخرى أمامي في صدق إيبوليت أو لمح بأنه نسي عامدًا وضع الكبسولة، أو يوعز بأن هذا الفتى البائس كان يمثل أمامنا دورًا، فأنا أرجو أن أعلن بأنني سوف أحاسب مثل هذا الشخص على كلماته هذه.

ولم يجب أحد بشيء على هذا.

وانصرف الجميع بسرعة، وفي جماعات، وقد مضى بيتسين وجانيا وروججين معًا.

ولشد ما دهش الأمير حين رأى إيفيني بافلوفيتش يغير رأيه ويرحل دون أن يحدثه بشيء كما كان يرجو. ومن ثم قال له:

- عجباً! لقد كنت تريد أن تحدثني عن شيء ما عندما ينصرف الجميع؟
فقال إيفيني وهو يجلس بجانبه فجأة:

- تمامًا، ولكنني غيرت رأيي في الوقت الحاضر. وإني أعترف بأنني في حالة اضطراب شديد، وأعتقد أنك أيضًا كذلك. وإن الموضوع الذي أريد أن أشتيرك فيه على جانب كبير من الأهمية بحيث لا يجوز أن يعالجه أحد وهو مضطرب الفكر. إنه كبير الأهمية بالنسبة لكل منا على السواء. ذلك أنني، أيها الأمير، أريد لأول مرة في حياتي، أن أقوم بعمل شريف تمامًا، أعني عملاً لا يصدر عن رغبة خفية. وأعتقد أنني لا أكاد أكون في الحالة المناسبة للحديث عن هذا الموضوع في هذه اللحظة. و- حسنًا- سوف نناقشه في وقت آخر. ولعل الأمور تزداد وضوحًا إذا انتظرنا يومين أو ثلاثة- نفس اليومين أو الثلاثة التي سأقضيها في بطرسبرج.

وهنا نهض مرة أخرى عن مقعده، وقد بدا أنه من الغرابة أن فكر في أن هذه العبارات القليلة كانت تستلزم جلوسه على الإطلاق.

وقد خطر للأمير أيضًا أنه بدا مستاء، ضيق الصدر، وليس على شيء من تلك المودة التي أظهرها له في بكور الليل.

وأضاف إيفيني بافلوفيتش قائلاً:

- أظن أنك الآن ستذهب إلى جوار المريض!

فبدأ الأمير الحديث قائلاً:

- أجل، فإنني أخشى..

- أوه، لا حاجة بك إلى الخوف من شيء، إنه سيعيش ستة أسابيع أخرى على الأقل، ومن المحتمل جدًا أن يبرأ من دائه. ولكنني أنصحك مخلصًا بأن تجعله يحزم أمتعته غدًا و يرحل ..

- أعتقد أنني قد أثرت استياءه بالتزامي الصمت الآن. وأخشى أنه قد يظن أنني أرتاب في صدق حديثه - عن إطلاق الرصاص على نفسه كما تعلم. فما رأيك يا إيفيني بافلوفيتش؟

- لا لا، مطلقًا. وإن إسرافك في العطف عليه هو الذي يجعلك شديد الاهتمام بأمره، وليس ينبغي أن تهتم في قليل أو كثير بما يدور بخلدك. ولقد سمعت عن مثل هذه الأمور من قبل، ولكنني لم أرها تحدث أمامي إلا الليلة. إن إنسانًا ما قد يقتل نفسه حقًا بالرصاص ليظفر بشهرة سوقية، أو يحطم رأسه بطلق ناري بدافع من الحنق والغضب إذا وجد أن الناس لا يهتمون بالتربيت على ظهره إعجابًا بمقاصده الجريئة. ولكن الذي يدهشني أكثر من غيره هو اعترافه الصريح بضعفه. ويحسن بك أن تتخلص منه غدًا بأية وسيلة.

- أنظن أنه سيقوم بمحاولة أخرى؟

- أوه، لا، لا أعتقد، الآن على الأقل. ولكن عليك أن تكون شديد الحذر مع هذا النوع من الناس، إن الجريمة تكون عادة الملاذ الأخير لأمثال هؤلاء التوافه، إن هذا الفتى قادر على ذبح عشرة رجال لأنفه شيء كما قال لنا في «إيضاحه». وأؤكد لك إن كلماته هذه اللعينة ستزود النوم عن عيني.

- أعتقد أنك تسرف في إزعاج نفسك.

- ما أغرب أمرك أيها الأمير! أتريد أن تقول إنك تشك في قدرته على قتل عشرة رجال؟

- إنني لا أستطيع أن أجزم بهذا الشيء أو ذاك. فإن هذا كله شيء غريب، ولكن..

فقال إيفيني بافلوفيتش في توفز عصبي:

- حسنًا، كما تشاء، كما تشاء تمامًا - كل ما في الأمر أنك رجل شجاع، فاحذر أن تكون واحدًا من الضحايا العشر.

فقال الأمير وهو يحدق في شرود ذهن إلى إيفيني:

- أوه، إن الأرجح جدًا أنه لن يقتل أحدًا على الإطلاق.

فأرسل إيفيني ضحكة نكراء وقال:

- حسنًا! إلى اللقاء. ألم تلاحظ أنه أوصى بنسخة من هذه الاعترافات لأجلايا إيفانوفنا!

- أجل، وإنني أفكر في هذا الأمر الآن.

فضحك إيفيني قائلاً وهو ينصرف:

- خشية أن تكون هي بين «العشرة»، هه!!

وبعد ساعة، أي في نحو الرابعة صباحًا ذهب الأمير إلى الحديقة العامة. وكان قد حاول أن ينام فلم يستطع بسبب ما كان يخامره من انفعال شديد.

وكان قد ترك الأمور وراءه في سلام وهدوء، فالمريض كان مستغرقًا في النوم، وكان الطبيب الذي استدعى لفحصه قد أعلن أنه ليس ثمة خطر معين يخشى منه. ورقد ليبيديف وكوليا وبوردوفسكي في غرفة المريض وهم على استعداد لأن يتناوبوا السهر عليه. وعلى الجملة لم يكن ثمة ما يخشاه في مبيته. ولكن قلق الأمير الذهني كان يزداد في كل لحظة. وقد راح

يتجول في الحديقة العامة، وينظر إلى ما حوله شارد الفكر. ثم إذا هو يتوقف في دهشة حين وجد نفسه فجأة في الساحة الخالية ذات المقاعد المصفوفة حولها بالقرب من حديقة الفوكسهول. وبدا منظر المكان في نظره الآن رهيبًا. ومن ثم استدار وسار في الممر الذي تبع فيه أسرة إيبانشين وهي في طريقها إلى جوستق الموسيقى حتى وصل إلى المقعد الأخضر الذي حددته أجلايا مكانًا للقاء، وما إن جلس عليه، حتى انفجر فجأة في نوبة من الضحك العريض المتصل الذي أعقبه فورًا شعور بالضيق والتوفز العصبي. واستمر إحساسه بالاضطراب الذهني، وشعر أنه لا مندوحة له من الذهاب إلى مكان ما، أي مكان.

وغرد فوق رأسه طائر صغير على حين غرة، فبدأ يتطلع حوله بحثًا عنه بين أوراق الشجر، وفجأة اندفع الطائر من الشجرة ومرق بعيدًا، وفي الحال تذكر الأمير «الذبابة التي تطن في ضوء الشمس» تلك التي تحدث عنها إيبوليت في «إيضاحه». وكيف أنها تعرف مكانها في الحياة، وتشارك في الوجود، بينما هو فقط «المنبوذ». لقد أثرت هذه الصورة في نفسية الأمير عندئذ، وهو يفكر فيها الآن. وتيقظت في ذهنه ذكرى قديمة منسية لم تلبث أن توضحت فجأة. إنها إحدى ذكريات سويسرا التي حدثت له في خلال العام الأول من علاجه، بل في نفس الشهور الأولى، وكان في ذلك الحين لا يزال «أبله» لم يكن يستطيع أن يتحدث كما ينبغي، كما كان من العسير عليه أن يفهم ما يقوله له الغير. وفي ذات صباح مشمس، صعد إلى جانب الجبل، وراح يسير على غير هدى وقد خامرت ذهنه فكرة معينة لم تكن قد توضحت بعد. وكانت السماء المتوهجة فوقه والبحيرة تحته وفيما حوله الأفق صافيًا، بلا نهاية. وأطال النظر إلى هذا كله في شوق ولهفة. ثم تذكر

كيف مد ذراعيه نحو الأفق الأزرق اللانهائي الجميل، ثم بكى.. وأمعن في البكاء. وكان الشيء الذي يعذبه هو التفكير في أنه غريب عن هذا الجمال كله، وأنه منبوذ عن هذا المهرجان الفاخر.

ماذا كان هذا الوجود؟ وما هذا المهرجان الرائع الخالد الذي طالما هفا إليه منذ الطفولة، والذي لم يستطع أبدًا أن يشارك فيه! في كل صباح نفس الشمس الرائعة، وفي كل صباح نفس ألوان الطيف الجميلة على مسقط المياه، وفي كل مساء نفس الوهج الجميل الذي يتوج قمم الجبال الثلجية.

إن كل ذبابة صغيرة تطن في ضوء الشمس ما هي إلا نعمة في لحن الوجود «تعرف مكانها، وتسعد به». وإن كل ورقة عشب تنمو وتحس بالهناء. وإن كل شيء يعرف طريقه ويهواه، ويمضي فيه بأغنية، ويعود منه بأغنية. إلا هو فقط الذي لا يعرف شيئًا، ولا يفهم شيئًا، لا رجالًا، ولا كلمات، ولا نعمة واحدة في لحن الطبيعة، لقد كان غريبًا.. منبوذًا.

أوه! إنه لم يكن يستطيع عندئذ أن يتحدث بهذه الكلمات، أو أن يعبر عن كل هذه المشاعر! لقد كان يتعذب في صمت. أما الآن فيبدو أنه لا بد قد قال هذه الكلمات نفسها - حتى يومذاك، وأن إيبوليت لا بد قد نقل صورة «الذبابة الصغيرة» عن دموعه وكلماته في ذلك الحين.

إنه واثق من هذا، وإن قلبه ليخفق بعنف كلما خطرت له هذه الفكرة دون أن يعرف لماذا.

واستغرق في النوم على المقعد، ولكن اضطرابه الذهني ظل على حاله أثناء نومه.

وقبيل أن يستغرق في النوم، كان التفكير في قدرة إيبوليت على قتل

عشرة رجال قد ومض بذهنه، وإذا هو يبتسم من غرابة هذه الفكرة.
وكان السكون حوله مخيمًا، لا يقطعه غير حفيف وهمس أوراق
الشجر، وما كان يقطعه إلا ليجعل هذا السكون أشد عمقًا وانتشارًا.
وتراءت له في النوم أحلام كثيرة. وكانت كلها مزعجة جعلته يرتعد بين
كل لحظة وأخرى.

وأخيرًا بدا له أن امرأة تقترب منه. وكان يعرفها! أوه، كان يعرفها تمام
المعرفة. بل كان في مقدوره دائمًا أن يعرف اسمها ويتعرف عليها في أي
مكان. ولكن، يا للعجب! لقد بدا أن لها وجهًا يختلف عن الوجه الذي كان
يعرفها به، ومن ثم استبدت به رغبة عارمة ليتمكن من القول لها إنها ليست
نفس المرأة. ذلك أنه رأى على وجهها أمارات الندم والفرع ما جعله يظن
أنها لا بد مجرمة، وأنها لا شك قد ارتكبت من فورها جريمة رهيبة.

وكانت الدموع ترتعش على خدها الأبيض، وهي تومئ إليه، ثم تضع
أصبعها على فمها كأنما توصيه بالسكون التام وهو يتبعها، وشعر بقلبه
يتجمد في صدره، ولم يكن يستطيع، أن يجروء على الاعتراف بأنها مجرمة.
ومع ذلك، فقد أحس أن شيئًا ما سوف يحدث في اللحظة التالية، شيئًا سوف
يفجر حياته كلها في الهواء.

وبدا أنها تريد أن تطلعه على شيء في الحديقة، وفي مكان ليس جد
بعيد.

ونفض عن مقعده ليتبعها، ثم إذا بضحكة حلوة صافية ترن بجانبه.
وفجأة شعر بيد شخص ما تمسك بيده، وتضغط عليها بقوة، ثم إذا هو
يستيقظ ليرى أجلايا واقفة أمامه تضحك عاليًا.

الفصل الثامن

كانت تضحك، وكانت أيضًا أقرب إلى الغضب منها إلى الضحك.

قالت في دهشة تنم عن الاحتقار:

- إنه نائم! كنت نائمًا؟

فغمغم الأمير قائلاً قبل أن يفيق تمامًا، وبعد أن تعرف عليها في دهشة

بالغة:

- أهذه أنت حقًا؟

ثم أضاف قائلاً:

- أوه، نعم. طبعًا. هذا موعد لقائنا. لقد غلبني النوم على أمري.

- هذا ما أرى!

- هل أيقظني أحد غيرك؟ هل كان ثمة أحد آخر هنا؟ لقد ظننت أن

هناك امرأة أخرى.

وأفاق في النهاية تمامًا، ثم قال مفكرًا:

- لقد كان الأمر حلمًا بطبيعة الحال. ومن العجيب أن أرى حلمًا كهذا

في مثل هذه اللحظة، اجلسي.

وتناول يدها، وأجلسها على المقعد، ثم جلس بجانبها، وراح يفكر..
ورأت أجلايا ألا تبدأ الحديث، وإنما قنعت بمراقبة صاحبها بإمعان.
وكان ينظر إليها بين الحين والآخر، وكان الواضح في بعض الأحيان أنه
لم يك يراها أو يفكر فيها.

وبدأت الدماء تتصاعد إلى وجه أجلايا.

وفجأة قال الأمير وهو يهم بالنهوض:

- آه، أجل! إن انتحار إيوليت..

فسألته قائلة دون أن تعلق وجهها دهشة بالغة:

- ماذا! في منزلك؟ لقد كان حتى مساء أمس على قيد الحياة، أليس
كذلك؟

ثم أرذفت قائلة بصوت مرتفع وقد أخذتها الحماسة فجأة:

- ثم كيف يطاوعك النوم هنا بعد الذي حدث؟

- أوه! ولكنه لم يقتل نفسه، إن المسدس لم ينطلق.

وأصرت أجلايا على أن تسمع القصة بأكملها. وأخذت تستحث الأمير،
ولكنها كانت في الوقت نفسه تقاطعه بكل أنواع الأسئلة التي كان معظمها
تقريباً لا علاقة له بالموضوع. وكان يبدو عليها أنها شديدة الاهتمام بكل
كلمة قالها إيفيني بافلوفيتش ومن ثم كانت تجعل الأمير يعيد هذا الجانب
من القصة - الذي يتعلق ببافلوفيتش - المرة بعد الأخرى.

وقالت أخيراً بعد أن سمعت كل شيء:

- حسناً! هذا يكفي! وعلينا الآن أن نسرع؛ فليس لدينا غير ساعة حتى

الثامنة صباحًا، إذ يجب أن أكون في البيت عندئذ بلا أدنى تأخير، حتى لا يعلموا أنني جئت وجلست معك هنا. إلا أنني جئت لمهمة ما، وإن لديّ الكثير مما أريد أن أقوله لك، إلا أنك زلزلتني بأخبارك. أما عن إيبوليت، فأعتقد أنه تعمد ألا ينطلق المسدس في الوقت المناسب. فإن هذا يتناسب تمامًا مع الموضوع كله. فهل أنت متأكد أنه كان حقًا يريد أن يقتل نفسه بالرصاص، وأن الأمر ليس فيه زيف أو خداع!

- لا، لم يكن فيه زيف إطلاقًا.

- محتمل جدًا! إذن فقد كتب طالبًا منك أن تأتيني بنسخة من اعترافاته؟
ليس كذلك! فلماذا لم تأت بها؟

- إنه لم يمت على كل حال، ولسوف أطلبها إذا شئت.

- ائب بها بكل وسيلة، ولا داعي لأن تطلبها منه، ويمكنك أن تتأكد أنه سيستهجج جدًّا؛ لأنه، في كل الاحتمالات، قد أطلق النار على نفسه لكي أقرأ اعترافاته. أرجوك، لا تضحك على ما أقول يا ليو نيكولايفتش؛ لأن الأمر قد يكون هكذا حقًّا.

- إنني لا أضحك، بل إنني مقتنع شخصيًا في أن هذا قد يكون بعض السبب.

فقالت أجلايا وهي أشد ما تكون اندهاشًا:

- هل أنت مقتنع؟ إنك لا تعني في الواقع أن تقول إنك ترى هذا حقًّا؟

وكانت توجه إليه أسئلتها بسرعة، وتحدث بسرعة، وبين الحين والآخر تنسى أول العبارة فلا تتمها. وكان يبدو عليها اللهفة لتحذير الأمير من شيء أو من آخر. ومن ثم كانت في حالة غير عادية من الانفعال. ورغم تظاهرها

بالجراً، بل وبالتحدي، فقد كان يلوح أنها شديدة الجزع. وكانت ترتدي ملابس بسيطة وإن كانت جد مناسبة لها. وكانت ترتعد دائماً، وتصدع الدماء إلى وجهها بين الحين والآخر وهي جالسة على حافة المقعد.

وقد أدهشها إلى حد كبير تأكيد الأمير لرأيها عن محاولة إيوليت إطلاق الرصاص على نفسه لمجرد رغبته في أن تطلع على اعترافاته.

وقد أضاف الأمير إلى حديثه قائلاً:

- نعم، طبعاً، لقد أراد منا جميعاً أن نصفق لتصرفه، وأنت معنا.

ماذا تعني بكلمة «نصفق»؟

- حسناً! كيف أستطيع أن أشرح الأمر؟ لقد كان شديد اللهفة لأن نجتمع كلنا حوله، وأن نقول له إننا آسفون من أجله، وإننا نحبه كل الحب وما إلى هذا، وإننا نرجو ألا يقتل نفسه، وإنما أن يبقى على قيد الحياة. ومن المحتمل جداً أن تفكيره فيك كان أكثر من تفكيره فينا جميعاً؛ لأنه ذكر اسمك في مثل هذه اللحظات. وذلك رغم أنه هو نفسه ربما لم يكن يعرف أنك محور أفكاره.

- إنني لا أفهمك. إذ كيف أكون موضع تفكيره دون أن يدرك هذه الحقيقة؟ ومع ذلك فإنني لا أدري، أو لعلني أدري - أتعرف أنني انتويت أكثر من ثلاثين مرة أن أقتل نفسي بالسّم منذ أن كنت في الثالثة عشرة من عمري أو نحو ذلك. وقد تعودت أن أقول لنفسي ما أجمل أن أوضع في التابوت، والجميع من حولي سيكون من أجلي ويقولون إنهم المسؤولون عما حدث بسبب قسوتهم عليّ.. وما إلى هذا..

ثم أضافت قائلة وهي تزوي ما بين حاجبيها:

- علام تضحك؟ وماذا تظن في نفسك عندما تسير على غير قصد بمفردك؟ أعتقد أنك تظن نفسك قائدًا عسكريًا عظيمًا، وأنت قد هزمت نابليون؟

فضحك الأمير قائلاً:

- حسنًا، الواقع أنني كثيرًا ما فكرت في شيء كهذا بين الحين والآخر، لا سيما عند العفو.. ولكن الذين كنت أهزمهم هم النمساويون، لا نابليون.
- إنني لا أريد أن أمزح معك يا ليو نيكولايفيتش، ولسوف أزور إيبوليت بنفسي. بلغه هذا. أما أنت، فأنا أعتقد أنك أسأت الظن؛ لأنه ليس من الصواب أن تحكم على روح إنسان هذا الحكم الذي أصدرته على روح إيبوليت. إنك لا تعرف الرحمة، وإنما تعرف العدالة، ولهذا فأنت غير عادل.
ففكر الأمير برهة، ثم قال:

- أعتقد أنك لم تنصفيني. فليس ثمة ما يشين في الآراء التي وصفت بها إيبوليت. فإنها كلها عادية. إلا أنني بطبيعة الحال لا أعرف على وجه اليقين حقيقة تفكيره. ولعله لم يفكر في شيء أكثر من أنه كان يهفو فقط لأن يرى وجوهاً آدمية مرة أخرى، وأن يسمع عبارات المديح الإنسانية، وأن يحس بدفء المشاعر البشرية. فمن يدري! إن كل ما في الأمر أن النتيجة قد تأتي على غير ما ينتظر أحد! فإن لبعض الناس حظًا طيبًا يجعل كل شيء ينتهي كما يشاءون. وليس للبعض الآخر مثل هذا الحظ، فينتهي كل شيء على غير ما يحبون.

فقالت أجلايا:

- أظن أنك أحسست بهذا في حالتك؟

فقال الأمير وهو غافل تمامًا عما تنطوي عليه عبارتها من تهكم:

- أجل. هي هي الحقيقة.

- ها- حسنًا! وأيًا كان الأمر ما كان ينبغي أن أستغرق في النوم هنا لو كنت في مكانك. فلم يكن هذا جميلًا منك. وأعتقد أنك تستغرق في النوم حيثما جلست.

- ولكنني لم أتم غمضة عين طيلة الليل. ثم خرجت أتمشى وأتمشى هنا وهناك، وذهبت إلى حيث كانت الفرقة الموسيقية.

- أية فرقة موسيقية؟

- أعني إلى حيث كانت تعزف في الليلة الماضية. ثم عثرت على هذا المقعد وجلست عليه وفكرت، وفكرت. وأخيرًا استغرقت في النوم.

- أوه، أهكذا الأمر؟ إن هذا قد يجعل للمسألة وجهًا آخر. ولكن لماذا ذهبت إلى ساحة العزف الموسيقي؟

- إنني لا أدري.. فإني..

- حسنًا جدًّا، لتحدث عن هذا فيما بعد، وأنت دائمًا تقاطعني! حسنًا، أية امرأة تلك التي كنت تحلم بها؟

- كان الحلم عن.. عن، أنك رأيته..

- نعم، أفهم، أفهم هذا تمامًا.. إنك.. حسنًا، كيف ظهرت لك؟ كيف كان شكلها؟ لا إنني لا أريد أن أعرف أي شيء عنها.

قالت أجلايا هذا بغضب وهي تردف قائلة:

- لا، لا تقاطعني..

وتوقفت برهة كأنما تريد أن تلتقط أنفاسها أو تحاول السيطرة على مشاعر الاستياء التي استبدت بها. وأخيراً استطردت قائلة:

- اسمع، سوف أذكر لك الآن لماذا دعوتك للقاء هنا. إنني أريد أن أجعلك، أن أطلب منك.. أن تكون صديقاً لي.

ثم أردفت قائلة بصوت يكاد ينم عن الغضب:

- لماذا تحملق فيّ هكذا؟

وكان الأمير في الواقع قد قذفها بنظرة نافذة. وقد لاحظ الآن أن وجهها بدأ يضطرم بقوة. وفي مثل هذه الحالات كانت أجلايا تزداد غضباً من نفسها كلما ازداد وجهها اضطراباً. وكان هذا الإحساس واضحاً تماماً في عينيها اللتين كانتا تتوهجان كالنار. وقد اعتادت في هذه الحالات أن تصب غضبها على من يكون معها، أيّاً كانت شخصيته. ذلك أنها كانت شديدة الإحساس بحيائها الطبيعي، ومن ثم لم تكن كثيرة الحديث مثل أختيها لهذا السبب، بل إنها في أحيان كثيرة كانت تبدو هادئة أكثر مما ينبغي. فإذا اضطرت للحديث ذات مرة، ولا سيما في مناسبة دقيقة كهذه، فإنها في الواقع تقوم بالحديث وهي في حالة من الترفع والتحدي. وكانت دائماً تعرف متى سيضطرم وجهها، وذلك قبل أن يضطرم بوقت طويل!

وعادت تقول وهي تنظر إلى الأمير في استعلاء:

- لعلك لا تريد أن تقبل ما عرضت عليك؟

فقال الأمير وقد بدا عليه الارتباك:

- أوه، إنني أريد، ولكنني أرى أنه ليس ثمة ضرورة لهذا. أعني، أنه ليس ثمة ما يدعو إلى هذا العرض.

- إذن ماذا تظن؟ وماذا ترى في دعوتي لك للمقابلة هنا؟ أظن أنك تراني «حمقاء صغيرة» كما يسمونني في البيت.

- إنني لم أكن أعرف أنهم يسمونك حمقاء! ولا أظن أبداً أنك كذلك!
- ألا تظن أنني حمقاء! أوه، مرحى! إنها لفئة بارعة منك، وقد أحسنت أيضاً التعبير.

- إنك في رأيي أبعد ما تكونين عن الحماسة أحياناً. بل إنك في الواقع حادة الذكاء. وقد قلت الآن عبارة رائعة عن كوني غير عادل لأنني لا أراعي إلا العدالة فقط. لسوف أذكر هذا دائماً وأمعن التفكير فيه.

واضطرم وجه أجلايا ابتهاجاً. وكانت التعبيرات المختلفة تتوالى على وجهها بسرعة، وبلا تكلف بحيث جعلت الأمير يشعر بالغبطة وهو يراقبها، ثم يضحك.

وبدأت هي الحديث مرة أخرى قائلة:

- لقد انتظرت طويلاً لأقول لك هذا، أي منذ ذلك الوقت الذي أرسلت إليّ فيه ذلك الخطاب... بل وقبل ذلك أيضاً. وقد سمعت مني أمس نصف ما كنت أريد أن أقول. وأنا أعتبرك أكثر الرجال شرفاً واستقامة - أكثر شرفاً واستقامة من أي رجل عرفته. وإذا كان أحدهم يقول إن عقلك - أعني أنك كنت تعاني من اضطراب عقلي - فهو غير منصف. إنني أجاهر بهذا دائماً وأصر عليه؛ لأنه حتى لو كان الجانب السطحي من عقلك قد اضطرب يوماً بعض الشيء «وبطبيعة الحال لن تغضب مني بسبب حديثي هذا؛ لأنني أتحدث من وجهة نظر عليا»، إلا أن جوهر عقلك أفضل بكثير جداً من عقولهم مجتمعة. إنهم لا يحلمون أبداً بمثل عقلك هذا؛ لأن هناك في الواقع

نوعين من العقول: النوع الذي يهتم، والآخر الذي لا يهتم، أليس كذلك؟

فقال الأمير بصوت خافت وهو يحس بقلبه ينبض بعنف شديد:

- ربما، ربما..

فقالت في لهجة انتصار:

- أنا أعرف أنك لن تسيء فهمي. فإن الأمير س، وإيفيني بافلوفيتش
والكسندرا لا يفهمون شيئاً عن هذين النوعين من العقول، ولكن هل تتصور
أن أمي تفهم هذا!

- إنك مثل أمك إلى حد كبير.

- أحقاً؟ لا أظن أبداً.

- بل إنك في الواقع مثلها تماماً.

فقالت أجلايا وهي مشغولة الفكر:

- شكراً. إنني سعيدة إذ أكون مثل أمي.

ثم أردفت قائلة دون أن تدرك ما في سؤالها من سذاجة:

- وأنت تحترمها كل الاحترام. أليس كذلك؟

- جداً. وإنني سعيد إذ أدركت هذه الحقيقة.

- وأنا أيضاً جد سعيدة؛ لأنها كثيراً ما تكون موضع سخرية الناس.

ولكن استمع إلى هذه النقطة الأساسية. لقد فكرت كثيراً في الموضوع،
ووقع اختياري عليك في النهاية. وأنا لا أريد أن يسخر الناس مني. لا أريد
أن يظن الناس أنني «حمقاء صغيرة» إنني لا أريد أن يهزل معي أحد. لقد
أحسست بهذه الرغبة فجأة ومن ثم رفضت الزواج بإيفيني بافلوفيتش رفضاً

باتًا؛ لأنني لا أنوي أن أكون دائمًا ألعوبة في أيدي من يريدون أن يزوجوني .
إنني أريد... أريد، حسنًا، سأخبرك، أريد أن أرحل عن البيت، وقد اخترتك
لكي تساعدني.

فصاح الأمير قائلاً:

- تهربين من البيت؟

فراحت تقول في غضب وإصرار:

- أجل، أجل، أجل.. سأهرب من البيت! إنني لن أضطر إلى الشعور
بالخجل والحياء بين كل لحظة وأخرى في البيت. إنني لا أريد لوجهي أن
يحمّر خجلًا أمام الأمير «س» أو إيفيني بافلوفيتش أو أي شخص آخر، ولهذا
السبب وقع اختياري عليك. ولسوف أخبرك بكل شيء، كل شيء حتى أهم
الأشياء كلها، كلما أردت ذلك، وعليك أنت ألا تخفي شيئًا من ناحيتك عني،
وإنني أريد أن أتحدث إلى شخص واحد فقط، كما لو كنت أتحدث إلى نفسي.
ولقد بدأوا فجأة يقولون إنني أنتظرك، وإنني أحبك. بدأوا في هذه الأقوال قبل
مجيئك إلى هنا، ولهذا لم أطلعهم على الخطاب، وهم الآن جميعًا يقولون
هذا، كل واحد منهم بلا استثناء، وإنني أريد أن أتذرع بالشجاعة، ولا أخشى
أحدًا، وأنا الآن لا أرغب في الذهاب إلى حفلاتهم ومراقصهم وما إلى هذا،
وإنما أريد أن أفعل شيئًا طيبًا، ولطالما تمنيت الهرب؛ لأنني بقيت مسجونة
هنا عشرين عامًا؛ ولأنهم دائمًا يحاولون أن يزوجوني وينفضوا أيديهم مني،
وقد رغبتُ في الهرب منذ أن كنت في الرابعة عشرة من عمري، وأنا أعرف
أنني كنت يومذاك حمقاء صغيرة، أما الآن فقد فكرت في الأمر بإمعان، أريد
منك أن تحدثني عن البلاد الأجنبية، تصور أنني لم أر في حياتي كاتدرائية
على الطراز القوطي! يجب أن أذهب إلى روما، يجب أن أرى المتاحف،

يجب أن أدرس في باريس. لقد كنت طيلة العام الأخير أستعد وأقرأ الكتب المحرمة عليّ. إن ألكسندرا أو أديليدا مسموح لهما بقراءة كل ما تريدان، أما أنا، فلا! وأنا لا أريد أن أتنازع مع أختي، ولكنني أخبرت والدي منذ أمد بعيد أنني أريد تغيير وضعي الاجتماعي. وقد قررت أن أشتغل بالتدريس، وإني أعتمد عليك؛ لأنك قلت ذات مرة إنك تحب الأطفال. فهل يمكن أن نشتغل بالتدريس معاً؟ إذا لم يتيسر هذا الآن. فربما فيما بعد. إن في مقدورنا أن ننجح معاً، وأنا لن أكون بعد الآن ابنة جنرال! ولكن أخبرني، هل أنت رجل واسع العلم والثقافة؟

- أوه، لا، لا أبداً.

- أوه! إني آسفة لهذا. لقد ظننتك غزير العلم. ولست أدري لماذا كنت أظن هذا. ولكنك سوف تساعدني على كل حال، أليس كذلك؟ سوف تساعدني لأنني اخترتك، ترى.

- أجلايا إيفانوفنا! إن هذا أمر غريب!

فصاحت قائلة وقد توهجت عيناها مرة أخرى بالغضب:

- لسوف أفعل، لسوف أهرب. وإذا أبيت أن تساعدني، فسوف أمضي وأتزوج جافريلا أرداليونوفيتش، إني لا أريد أن أعامل في البيت كفتاة نظيفة لا يرضى أحد الزواج بها، وأن أبقى موضع اتهامات لا يعلمها غير الله.

فصاح الأمير وهو يكاد ينتفض واقفاً؟

- هل فقدت عقلك! بأي شيء يتهمونك؟ ومن هم الذي يتهمونك؟

- كل من في البيت: أُمِّي وأخواتي، والأمير «س»، حتى ذلك السمج كوليا. وإذا كانوا لا يقولونها، فإنهم يفكرون فيها. وقد صارحتهم بهذا وجهًا

لوجه. صارحت أمي وأبي والجميع. وقد مرضت أمي طيلة اليوم بعد هذا. وفي صباح اليوم التالي قال لي أبي وألكسندرا إنني لا أعني أي لغو أتفوه به. وقد أخبرتهما أنهما لا يعرفانني كما ينبغي. فأنا لست طفلة صغيرة، وإنما أنا أفهم كل كلمة في اللغة، وأني قرأت منذ عامين روايتين لبول دي كوك عن عمدا؛ لكي أعرف كل ما ينبغي أن أعرفه عن كل شيء. وما إن سمعت أمي هذا حتى كادت تسقط مغشياً عليها.

وعندئذ طافت بذهن الأمير فكرة غريبة، فراح يحدق النظر في أجلايا بإمعان ثم ابتسم.

إنه لا يكاد يصدق أن هذه هي نفس الفتاة الشابة المترفة التي أطلعته في كبرياء على خطاب جانبا لها. وإنه لا يستطيع أن يفهم كيف يمكن لمن تتمتع بكل هذا الجمال الباهر المترفع أن تكشف نفسها هكذا لتبدو طفلة.. طفلة من المحتمل أنها لا تفهم حتى معنى بعض الكلمات. وسألها قائلاً:

- هل أمضيت حياتك كلها بالبيت يا أجلايا إيفانوفنا؟ أعني، ألم تذهبي قط إلى مدرسة، أو كلية أو أي شيء من هذا القبيل؟

- لا، لم أذهب قط إلى شيء من هذا. لقد عشت حياتي كلها بالبيت، مضغوطة داخل قمقم مغلق. وهم يتوقعون أن أنتقل من هذه الحياة إلى الحياة الزوجية فوراً. لماذا تضحك مرة أخرى! إنني ألاحظ أنك أيضاً بدأت تضحك مني.

ثم أضافت قائلة وهي تقطب جبينها غضباً:

- وتنضم إلى جانبهم ضدي. أرجوك ألا تستفزني - فحسبي ما أعانيه.

وإنني في بعض الأحيان لا أدري ما أنا فاعلة! إنني مقتنعة بأنك جئت هنا اليوم
وأنت مؤمن كل الإيمان بأنني أحبك.

ثم أردفت قائلة في استياء شديد:

- وإنني لم أعد هذا اللقاء إلا لهذا السبب!

فقال الأمير في تلثم وارتباك:

- أعترف أنني كنت أخشى أن يكون الأمر كما تقولين، أمس. أما اليوم
فإنني مقتنع تمامًا بأن..

فصاحت أجلايا وقد أخذت شفتها السفلى ترتعد بعنف:

- كيف هذا؟ أكنت تخشى أن.. هل جرؤت على التفكير في أنني.. يا إله
السماء! هل خطر ببالك أنني ربما أرسلت إليك للمجيء هنا لكي أوقع بك
في شرك! لكي يعثروا علينا معًا هنا ثم يرغموك على الزواج بي.

- أجلايا إيفانوفنا! ألا تخجلين وأنت تقولين شيئًا كهذا؟ كيف يمكن
لمثل هذه الفكرة الرهيبة أن تجد طريقها إلى قلبك الطاهر البريء. أنا واثق
بأنك لا تصدقين كلمة واحدة مما تقولين، بل من المحتمل أنك لا تعرفين
شيئًا عما تتحدثين!

فجلست أجلايا وعيناها مطرقتان إلى الأرض، وقد بدا عليها أنها نفسها
قد انزعجت مما قالت. وأخيرًا غمغمت قائلة:

- لا، لست أشعر بأي خجل، أبدًا. ثم كيف تعرف أن قلبي طاهر بريء!
ثم كيف جرؤت على أن ترسل إلي خطابًا غراميًا يومذاك؟

- خطابًا غراميًا! أكان خطابي غراميًا؟ إن ذلك الخطاب كان من أكثر

الخطابات توقيراً. لقد صدر من صميم قلبي في لحظة ربما كانت من أشد لحظات حياتي يأساً، وقد فكرت فيك عندئذ على أنك الضوء الذي..

فقلت عندئذ بصوت مختلف اللهجة:

- حسناً، حسناً جداً.

وكانت عندئذ تشعر بالندم الذي جعلها تنحني نحوه وتلمس كتفه دون أن تنظر في وجهه، وكأنما ترى أنها بهذا تزيد من رجائها ألا يغضب منها.

واستطردت قائلة وهي تبدو شديدة الخجل من نفسها:

- حسناً جداً. أشعر أنني تفوهت بكلام فارغ جداً، وأنا لم أفعل هذا إلا لأختبرك فقط، وأرجوك أن تعتبر أنني لم أقل شيئاً، وإذا كنت قد أسأت إليك، فاصفح عني. أرجوك ألا تحملق في وجهي هكذا! أدر رأسك قليلاً. لقد سميتها «فكرة رهيبة» وأنا لم أذكرها لك إلا لأصدمك. وأنا نفسي في أحيان كثيرة يخامرني الخوف من أن أقول ما أنوي قوله، ومع ذلك تصدر هذه الأقوال عني رغماً مني، وقد قلت لي الآن إنك كتبت ذلك الخطاب في لحظة من أشد لحظات حياتك بؤساً.

ثم أضافت قائلة بصوت رقيق وهي تغضي عينيها إلى الأرض:

- وأنا أعرف أية لحظة كانت!

- أوه، لو أنك تعرفين كل شيء؟

فصاحت قائلة وقد أخذتها نوبة أخرى من الاستنكار:

- إنني أعرف كل شيء! لقد كنت تعيش في نفس المنزل مع تلك المرأة

الرهيبة التي فررت معها.

ولم يضطرم وجهها وهي تقول هذا! وإنما على العكس، امتنع بشدة وهي تنهض عن المقعد دون أن تشعر بما تفعل كما يبدو، ثم إذا هي تعود فتجلس بسرعة مرة أخرى، وقد استمرت شفتها السفلى ترتعد فترة طويلة. وخيم الصمت برهة، وكان الأمير قد أخذ على غرة بإجابتها الأخيرة المفاجئة ولم يستطع أن يعرف على أي وجه يمكن أن يفسرها. وقالت فجأة وكأنما انفجرت الكلمات من شفتيها:

- إنني لا أحبك أقل حب.

ولم يجب الأمير بشيء. وبعد برهة أخرى من السكون، قالت بسرعة، وبصوت خافت وقد ازداد رأسها إطراقاً:

- إنني أحب جافريلا أورداليونوفيتش.

فقال الأمير بنفس الصوت الخافت:

- هذه ليست الحقيقة.

- ماذا؟ هل أنا كاذبة! أترى هذا؟ إنها الحقيقة! لقد وعدته بالزواج منذ يومين على هذا المقعد نفسه.

واضطرب الأمير، وراح يفكر برهة، ثم عاد يقول بلهجة حازمة:

- هذه ليست الحقيقة، إنك تزعمين هذا فقط.

- يا لك من إنسان مهذب جداً! إنك تعرف أنه تحسن كثيراً. وهو يحبني

أكثر من نفسه، وقد ترك يده تحترق أمامي حتى يثبت لي أنه يحبني أكثر من نفسه.

- أحرق يده!

- نعم، صدق هذا أو لا تصدقه. فالأمر في نظري سواء.

والتزم الأمير الصمت مرة أخرى، فقد بدا له أن أجلايا غير هازلة؛ لأنها كانت في حالة من الغضب لا تحتمل الهزل.

وقال أخيرًا:

- أتعنين أنه جاء بشمعة هنا، هذا إذا كان الحادث قد وقع هنا، وإلا فإنني لا أستطيع..

- نعم، شمعة، فأی شيء مستبعد في هذا؟

- أكانت شمعة كاملة، وفي شمعدان؟

- نعم، لا، بل نصف شمعة، بقيت منها، كما تعلم.. لا، بل كانت شمعة كاملة، والأمر على كل حال سواء. أرجوك ألا تقاطعني؟ ألا تستطيع؟ وقد جاء أيضًا بعلبة ثقاب، إذا شئت، ثم أوقد الشمعة، ووضع أصبعه في اللهب نحو نصف ساعة، أو أكثر. ها؟ ألا يمكن أن يحدث هذا؟

- لقد رأيته أمس، وكانت أصابعه كلها سليمة.

وهنا انفجرت أجلايا ضاحكة بنفس البساطة التي يضحك بها الطفل.

وقالت للأمير فجأة بصراحة الطفل البريء، والضحك لا يزال يتراقص على شفيتها:

- أتعرف لماذا قصصت عليك كل هذه الأكاذيب؛ لأن الإنسان إذا أراد أن يلقي كذبة، فإنه يصر على أن يختار موضوعًا غير عادي، شاذًا «بعيدًا عن المؤلف» في أي شيء.. وكلما كان الموضوع بعيدًا عن الإمكان، كانت الكذبة أقرب إلى الصدق. هذا ما لاحظته. ولكنني لم أحسن إحكامها، ولم أعرف كيف أحبكها.

وهنا قطبت جبينها مرة أخرى كأنما تذكرت شيئًا لا يسر. ولكنها لم

تلبث أن عادت تقول وهي تنظر إليه في مزيج من الجذ والحزن:

- إنني عندما قرأت لك كل ما يتعلق «بالفارس المسكين» كنت أريد أن أمتدحك من جهة، وأن أبين لك، من جهة أخرى، إنني أعرف كل شيء، وإنني غير راضية عن تصرفاتك في ذلك الحين.

- إنك جد قاسية عليّ يا أجلايا وعلى تلك المرأة المسكينة التي تتحدثين عنها الآن بمثل هذه العبارات الرهيبة.

- ذلك لأنني أعرف كل شيء، كل شيء.. وهذا ما يجعلني أتحدث هكذا. فأنا أعرف تمامًا كيف أنك- منذ ستة أشهر- قد عرضت عليها الزواج أمام الجميع، لا تقاطعني، أترى! إنني أذكر الحقائق المجردة بدون أية تعليقات عليها من جانبي. وبعد ذلك هربت مع روجوجين. ثم عشت معها في إحدى القرى أو المدن فترة ما هربت بعدها منك «وهنا اضطرم وجه أجلايا بشدة». ثم عادت مرة أخرى إلى روجوجين الذي يحبها بجنون. ثم إذا أنت- بما هو معروف عنك من حكمة وذكاء- تأتي إلى هنا وراءها بمجرد أن علمت أنها عادت إلى بطرسبرج. وقد بادرت مساء أمس إلى حمايتها، ومنذ لحظات فقط كنت تحلم بها. أترى أنني أعرف كل شيء. لقد جئت إلى هذه البلدة وراءها، ومن أجلها، فهل تنكر هذا الآن؟

فقال الأمير بصوت رقيق حزين:

- نعم، من أجلها!

وكان وهو يقول هذا مطرقاً برأسه، غير شاعر بأن أجلايا كانت تحملق فيه بعينين متقدتين كالجمهر. وقد استطرد يقول:

- لقد جئت لاكتشف شيئاً ما- فأنا لا أعتقد أنها ستكون سعيدة في

المستقبل كزوجة لزوجين! وذلك رغم أنني لا أعرف - في إيجاز - كيف يمكن أن أساعدها، أو ماذا أستطيع أن أفعل من أجلها. لقد جئت تاركًا الأمور للظروف.

ونظر إلى أجلايا التي كانت تنصت إليه بوجه ينم عن الحقد.
وقالت هي أخيرًا:

- إذا كنت قد جئت وأنت لا تدري لماذا جئت، فلا شك في أنك تحبها - كما أظن - أشد الحب.
فقال الأمير:

- لا، إنني لا أحبها، أوه، لو أنك فقط تعلمين مدى فزعي كلما تذكرت الفترة التي عشتها معها!
وبدا كأن رعدة عنيفة تسري في كل جسمه لمجرد الذكرى.

وقالت أجلايا:

- حدثني عن هذه الفترة.

- ليس فيها ما يمكن أن أمتنع عن ذكره لك. ولست أدري في الواقع لماذا أريد أن أحدثك أنت، وأنت فقط، بهذه التجربة التي مررت بها. لعل السبب هو أنني في الحقيقة أحبك أشد الحب. إن هذه المرأة البائسة قد اقتنعت بأنها أبأس وأحقر امرأة في الدنيا. أوه، أرجوك ألا تلغنيها، لا تلقي بالحجارة عليها. لقد عانت الشيء الكثير من العذاب بسبب ذلك العار الذي جللها رغمًا عنها. وهي في الواقع ليست مذنبه. أوه، يا إلهي! إنها في كل لحظة تبكي وتندب حظها. وتصيح قائلة إنها لا تعترف بأي ذنب، وإنها ضحية الظروف، ضحية فاجر شرير.

ولكن مهما يمكن أن تقول، فتذكرني أنها لن تؤمن هي نفسها بما تقول -
تذكرني أنها لن تؤمن أبداً إلا بأنها مخلوقة مذنبه.

وعندما حاولت أن أحرر روحها من هذا الوهم القائم، إذا بها تتعذب
عذاباً جعل قلبي لن يشعر أبداً بالأمن والسلام ما دمت قادراً على تذكر ذلك
الوقت الرهيب! أتعلمين لماذا رحلت عني؟ لكي تثبت لي فقط ما هو ليس
بالحقيقة - لكي تثبت أنها دنيئة. ولكن أسوأ ما في الأمر أنها نفسها لا تدرك
أن هذا هو كل ما أرادت أن تثبته برحيلها! لقد رحلت استجابة لدافع خفي
يجعلها تقوم بعمل فاضح . لكي يمكنها أن تقول لنفسها: «ها، لقد قمت
بعمل فاضح جديد أيتها المخلوقة المنحطة».

أوه، أجاليا، لعلك لا تستطيعين أن تفهمي هذا كله. ولكن حاولي
أن تدركي أنها باعترافها المستمر بذنبها، ربما تجد بعض العزاء الغريب
الرهيب - وكأنما هي تنتقم لنفسها من شخص آخر.

وكنت بين الحين والآخر أكاد أنجح في إقناعها لكي ترى النور حولها
من جديد، ولكنها لا تلبث أن تعود وتتهادى في بحر أوهاهما المضنية القديمة،
ثم تتماذى وتعابني قائلة إنني أضع نفسي في مركز المتعالي المترفع بالنسبة
لها، وكأنني تمثال على قاعدة شامخة فوقها «وإن كنت لم أسمع بمثل هذا
قط» ثم تخبرني، وهي تجيب على عرضي للزواج بها، أنها «لا تريد أن يتنازل
أحد بمواساتها، أو أن يساعدها أحد» وقد رأيتها أنت في الليلة الماضية. ولا
شك أنك لا تعتقدين أن في مقدورها أن تكون سعيدة بين هؤلاء الناس. لا
يمكن أن تعتقدي أن مثل هذه الصحبة مناسبة لها؟ فأنت لا تعرفين مبلغ ما
حصلته من علم وثقافة، ومدى ما تتمتع به من فطنة وذكاء - وإنها لتدهشني
في بعض الأحيان.

وهنا قالت أجلايا:

- وكنت تلقي عليها المواعظ هناك. أليس كذلك؟

فاستطرد الأمير في حديثه دون أن يلاحظ ما في صوت أجلايا من تهكم:

- أوه، لا. كنت لا أكاد أخرج عن نطاق الصمت هناك. وكثيراً ما رغبت في الحديث، ولكنني لم أكن أدري ماذا أقول. وأعتقد أن الصمت هو خير شيء في بعض الظروف، لقد أحببتها، أجل، أحببتها حقاً أشد الحب. ولكنها بعد ذلك.. بعد ذلك، أدركت كل شيء.

- ماذا أدركت؟

- أنني أعطف عليها فقط، وأني لم أعد أحبها.

- ومن أين لك أن تعرف؟ من أين لك أن تعرف أنها لا تحب حقاً ذلك - ذلك السافل الثري - الرجل الذي هربت معه؟

- أوه، لا، أنا أعرف أنها تسخر منه فقط، وأنها تتخذ طيلة الوقت موضعاً للعبث والسخرية والتهكم.

- ألم تسخر منك قط؟

- لا! ولكن ربما سخرت مني أثناء الغضب. أجل. لقد كانت تلومني بعنف أثناء الغضب، وكانت تعاني من هذا أيضاً. ولكنها بعد ذلك - أوه، لا تذكريني، لا تذكريني بشيء من هذا.

وطمر وجهه بين يديه، بينما قالت هي:

- أتعلم أنها تكتب إليّ كل يوم تقريباً؟

فصاح الأمير قائلاً في انفعال شديد:

- إذن فهذا صحيح؟ لقد سمعت بشيء من هذا، ولكنني لم أصدقه.

فقلت أجلايا في قلتي:

- ممن سمعت به؟

- لقد قال روجوجين شيئاً من هذا القبيل أمس، ولكن بلا تحديد.

- أمس؟ صباحاً أم مساءً؟ قبل ما حدث بجوار جوستق الموسيقى أم

بعده؟

- بعده، في حوالي الساعة الثانية عشرة.

- آه، إذا كان روجوجين، فلا بأس. ولكن هل تعرف عن أي شيء

تكتب هي إليّ؟

- لن يدهشني أي شيء منها، إنها مجنونة.

وتناولت أجلايا ثلاثة خطابات من جيبها وألقت بها أمام الأمير وهي

تقول:

- هذه هي الخطابات. لقد ظلت طيلة أسبوع كامل وهي ترجوني

وتزعجني بمحاولة إقناعي للزواج بك. إنها.. أجل، إنها بارعة رغم أنها قد

تكون مجنونة - أبرع مني بكثير كما قلت أنت، حسنًا، إنها تكتب إليّ لتقول لي

إنها نفسها تحبني، وإنها تحاول أن تراني كل يوم، ولو من بعيد. وتكتب أيضًا

قائلة إنك تحبني، وأنها تعرف هذه الحقيقة منذ أمد بعيد، وأنها رأت مظاهرها

بعينها، وأنتك تحدثت معها عني - هناك. وهي تريد أن تراك سعيدًا، وتقول

إنها واثقة أنني وحدي التي أستطيع أن أحقق لك السعادة التي تستحقها. إنها

تكتب خطابات على جانب كبير من الغرابة والتهور وأنا لم أطلع عليها أحدًا.

والآن هل تعرف ما معنى هذا كله؟ هل تستطيع أن تخمن شيئًا؟

فقال الأمير وشفته تترعدان:

- رأيي أن هذا جنون. إن هذا مجرد دليل جديد على خبلها.

- إنك تبكي؟ أليس كذلك؟

فقال الأمير وهو ينظر إليها:

- لا يا أجلايا، لا، إنني لا أبكي.

- حسنًا. ماذا ينبغي أن أفعل؟ بماذا تنصحي؟ إنني لا أستطيع أن أستمّر في استلام هذه الرسائل، كما تعلم.

فصاح الأمير قائلاً:

- أوه، دعيها وشأنها، إنني أتوسل إليك. فماذا يمكن أن تفعلي إزاء هذا اللغز الغامض المظلم؟ دعيها وشأنها، ولسوف أكرس كل قواي لمنعها من كتابة أية رسائل أخرى.

فهتفت أجلايا قائلة:

- إذا كان الأمر كذلك، فأنت إنسان بلا قلب. وكأني بك لا ترى أنها لا تحبني أنا، وإنما تحبك أنت، وأنت فقط! وأنت بالتأكيد قد وجدت الوقت الكافي لتعرف الشيء الكثير عنها، ولكنك لم تعرف هذه الحقيقة بالذات! أتعلم ماذا تعني هذه الخطابات؟ إنها تعني الغيرة، يا سيدي لا شيء غير الغيرة المطلقة. إنها.. أظن حقاً أنها سوف تتزوج روجوجين يوماً ما كما تقول إنها ستفعل؟ إنها سوف تقتل نفسها في اليوم التالي على زواجي بك.

وارتعد الأمير وقد بدا له أن قلبه تجمد بين ضلوعه، فراح يحملق إلى أجلايا في دهشة. وكان من العسير عليه أن يدرك أن هذه الطفلة هي في الوقت نفسه امرأة ناضجة.

وقال لها:

- الله يعلم يا أجلايا أنني مستعد للتضحية بحياتي لكي أurd عليها سكينه عقلها، وأحقق لها ما تصبو إليه من سعادة. ولكنني لا أستطيع أن أحبها، وهي تعرف هذا.

- أوه، أتضحني بنفسك! إن هذا اللون من السلوك يتلاءم معك تمامًا، كما تعلم، ولماذا لا تفعل؟ ثم لا تقل لي «أجلايا»، لقد ناديتني باسمي المجرد هذا بضع مرات في الآونة الأخيرة، وإنك مرتبط، أو إن من واجبك أن «تنتشلها» ومن ثم ينبغي أن تهربا مرة أخرى معاً إلى مكان ما لتهدئتها والترفيه عنها، عجباً! إنك تحبها كما تعرف.

- إنني لا أستطيع أن أضحي بنفسي هكذا، وذلك، رغم اعترافي بأنني رغبت في القيام بهذه التضحية ذات مرة، ومن يدري، فلعلي ما زلت أرغب في التضحية حتى الآن! ولكنني أعلم عن يقين أنها لو تزوجتني، فسوف يكون في هذا دمارها، إنني أعرف هذا، ومن ثم أدعها وشأنها، وقد كان ينبغي أن أذهب لزيارتها اليوم، ولكن يبدو الآن أنني لن أذهب، إن لها كرامتها وكبرياءها، وإنها لن تغفر لي أبداً نوع هذا الحب الذي أحمله لها، ولهذا فإننا سنتحطم معاً لو تزوجنا، وقد يكون هذا كله شيئاً غير طبيعي، فأنا لا أدري، ولكن كل شيء يبدو لي غير طبيعي، فأنت تقولين إنها تحبني، فهل هي تحبني حقاً، هل يمكنها أن تحبني بعد كل ما حدث لي؟ لا، لا ليس هذا حباً.

فهمت أجلايا قائلة في جزع:

- لأشد ما يبدو وجهك شاحباً!

- أوه، لا عليك! إنني لم أنم، وهذا كل شيء. بل إنني أشعر بالإرهاق،

وأنا.. أعني نحن تحدثنا عنك كثيرًا يا أجلايا.

- أوه، أحقًا؟ إذن فتلك هي الحقيقة! لقد أمكنك أن تتحدث عني معها
فعلًا ثم، ثم كيف يمكن أن تكون قد أحببتني وأنت لم ترني عندئذ غير مرة
واحدة.

- إنني لا أدري. فلعل الأمر كما يبدو أنني عثرت على النور بين ظلام
حياتي. وقد كنت صادقًا حين قلت لك إنني لا أدري لماذا شغلت أنت
تفكيري دون الآخرين جميعًا. وإن الأمر كله يكاد يكون بطبيعة الحال، نوعًا
من الأحلام، أحلام جميلة بين مفزعات الواقع. وقد بدأت بعد ذلك في
العمل، ولم أكن أنوي أن أعود إلى هنا لمدة عامين أو ثلاثة..
فقلت أجلايا:

- ثم جئت من أجلها!
وكان صوتها يرتعد، وقد أجاب قائلاً:
- أجل، جئت من أجلها.

وبعد برهة من السكون المظلل بالاكْتئاب، نهضت أجلايا عن المقعد،
وشرعت تقول بصوت مهتز:

- إذا كنت تقول.. إذا كنت تقول إن صاحبك هذه مجنونة، فلا شأن لي
في أية حال من الأحوال بنزواتها الجنونية. وأرجوك يا ليو نيكولا يفيتش أن
تفكر وتأخذ هذه الخطابات الثلاثة لتقذفها بها نيابة عني..

ثم أردفت فجأة قائلة بصوت أكثر ارتفاعًا عن ذي قبل:

- وإذا تجرأت مرة أخرى وكتبت إلي كلمة واحدة، فقل لها إنني سأخبر
أبي، ولا شك أنه سيلحقها بمصحة الأمراض العقلية.

فوئب الأمير واقفاً وهو يشعر بالجزع من غضب أجلايا المفاجئ، ولاح له أن ثمة غيوماً قد تبدت أمام عينيه!

وغمغم قائلاً:

- ليس من الممكن أن يكون هذا هو شعورك الحقيقي؟ إنك لا تعنين ما تقولين، إنك لست جادة في أقوالك هذه.

فصاحت أجلايا وهي تكاد تفقد عقلها من فرط الغضب:

- بل هذه الحقيقة، كل الحقيقة.

وهنا سمعا صوتاً بجانبهما يقول في قلق:

- ما هي هذه الحقيقة؟ وما معنى هذا كله؟

وما لبثا أن رأيا المسز إيبانشين واقفة أمامهما.

وصاحت أجلايا وهي تستدير نحو أمها:

- عجباً! الحقيقة هي أنني سأتزوج جافريلا أرداليونوفيتش، وإني أحبه،

وأنوي الهرب معه غداً. أسمعين؟ هل أرضيت فضولك؟ هل أنت مبتهجة بما سمعت؟

قالت أجلايا هذا واندفعت في طريق العودة إلى البيت..

وقالت المسز إيبانشين وهي تمنع الأمير عن المسير:

- أوه، إنك لن تنصرف الآن بأية حال يا صديقي. أرجو أن تأتي معي إلى

البيت لتقدم لي تفسيراً بسيطاً لهذا اللغز، إنها لأحداث لطيفة هذه! وإني لم أنم غمضة عين طيلة الليل.

ولم يسع الأمير إلا أن يتبعها.

الفصل التاسع

عندما وصلت المسز إيبانشين إلى البيت، توقفت في أول غرفة؛ لأنها لم تستطع أن تمضي إلى أبعد منها، ثم تهالكت جالسة على متكأ وثير وهي تشعر بالإرهاق، وبالضعف الشديد الذي جعلها تنسى أن تطلب من الأمير أن يتخذ لنفسه مقعداً. وكانت الغرفة غرفة استقبال رحيبة ممتلئة بالزهور، ولها باب زجاجي يؤدي إلى الحديقة.

وما لبثت ألكسندرا وأديليدا أن أقبلتا فوراً، وراحتا تنظران في تساؤل إلى أهمهما وإلى الأمير.

وكانت البنات يستيقظن عادة في التاسعة صباحاً أثناء وجودهن في المناطق الريفية. وقد تعودت أجلايا في الأيام الأخيرة على الاستيقاظ قبل هذا الموعد لتمشى في الحديقة. ولكنها لم تكن تستيقظ في السابعة، وإنما في نحو الثامنة أو بعدها بقليل.

وفي ذلك الصباح، غادرت المسز إيبانشين - التي لم يغمض لها جفن طيلة الليل فراشها في نحو الثامنة لكي تلتقي بأجلايا في الحديقة وتمشى معها. ولكنها لم تستطع أن تجدها، لا في الحديقة، ولا في غرفتها الخاصة. وأثار هذا في نفس السيدة العجوز أشد الاضطراب، وجعلها توظ

الابنتين الأخريين. ثم علمت بعد ذلك من الخادمة أن أجلايا ذهبت إلى الحديقة العامة قبيل الساعة صباحًا. وتندرت الاختان على هذه النزوة الأخيرة من نزوات أختهما، وأخبرتاهما أنها إذا ذهبت إلى الحديقة لتبحث عنها، فإن من المحتمل جدًا أن تغضب أجلايا منها. إنها بالتأكيد سوف تجدها جالسة تقرأ على المقعد الأخضر الذي تحدثت عنه منذ يومين أو ثلاثة، والذي كادت بسببه تتشاجر مع الأمير «س» الذي قال إنه لم ير فيه أية سمة معينة أو مميزة من الجمال.

ولما وصلت المسز إيبانشين إلى مكان اللقاء بين الأمير وابنتها، وبعد أن سمعت العبارة الأخيرة العجيبة من ابنتها، استبد بها شعور عميق بالقلق؛ لأسباب كثيرة. ولكنها الآن وقد جرّت الأمير معها إلى البيت، بدأت تحس ببعض الخوف مما فعلت. وكأنما قالت لنفسها: لماذا لا تلتقي أجلايا بالأمير في الحديقة العامة وتبادلته الحديث، حتى لو كان هذا اللقاء محدد المكان والزمان من قبل؟

وبدأت الحديث وهي تعد نفسها لما ستبذله من جهد معه:

- لا تظن أيها الأمير أنني جئت بك إلى هنا لأستجوبك. فبعد الذي حدث ليلة أمس، أؤكد لك أنني لست شديدة الرغبة في رؤيتك إطلاقًا، وقد كان في إمكاني أن أؤجل هذا الشرف مدة طويلة.

ولما توقفت برهة عن الحديث، استكملة لها الأمير بكل هدوء:

- ولكنك في الوقت نفسه تريدين بكل سرور أن تعرفي كيف حدث أن التقيت بأجلايا إيفانوفنا في هذا الصباح؟
فهتفت المسز إيبانشين بوجه مضطرم:

- حسنًا! وماذا في هذا؟ لنفرض أنني أريد أن أعرف . إنني على يقين بأنني لا أخشى الحديث الصريح، وأنا لا أسيء إلى أحد، ولم أرغب قط في الإساءة إلى أحد.. و..

- معذرة! ليس من الإساءة في شيء أن تعرفني هذا، فأنت أمها، وقد التقينا عند المقعد الأخضر هذا الصبح، في تمام الساعة السابعة صباحًا، وبناء على اتفاق سابق بيني وبين أجلايا إيفانوفنا أمس. قالت إنها تريد أن تراني، وأن تتحدث إليّ بشأن موضوع مهم. والتقينا وتحدثنا نحو ساعة في موضوعات تهتم أجلايا إيفانوفنا. هذا هو كل ما حدث.

فقالت المسز إيبانشين بوقار:

- طبعًا هذا هو كل ما حدث! فأنا لا أشك في أمرك لحظة يا صديقي.

وهتفت أجلايا التي كانت قد دخلت الغرفة عندئذ:

- أحسنت أيها الأمير. عظيم جدًّا. وأشكرك على افتراضك بأنني لا أستطيع أن أحقر نفسي بالأكاذيب. وهذا يكفي الآن يا أماء، أم تنوين أن توجهي إليه مزيدًا من الأسئلة؟

فقالت المسز إيبانشين في ترفع شديد:

- أنت تعلمين أنني لم أضطر يومًا لأن أشعر بالخجل أمامك، وذلك رغم أنك قد تبتهجين كثيرًا لو أن هذا حدث، طاب يومك أيها الأمير، وأرجو أن تغفر لي إزعاجي لك. وأنا أعتقد أنك ستظل واثقًا من احترامي الثابت لك.

وأدى الأمير التحيات، وانسحب فورًا. وأخذت ألكسندرا وأديليدا تبادلان الابتسامات والهمسات بينما كانت أمهما تحملق فيهما بعنف مما

جعل أدليدا تقول معذرة:

- إننا نضحك لانحناءات الأمير اللطيفة يا أماء. فهو أحياناً ينحني مثل
كيس الدقيق أما اليوم فقد كان مثل إيفيني بافلوفيتش!
فقالت الأم وهي تهم بالانصراف إلى غرفتها بالطابق العلوي دون أن
تنظر إلى أجلايا:

- إن القلب، لا مدرس الرقص، هو خير أستاذ لفن الرقة والوقار.
ولما وصل الأمير إلى بيته في نحو الساعة التاسعة صباحاً، وجد فيرا
ليبيديف والخادمة في الشرفة، وكانتا مشغولتين بتنظيف المكان بعد حفلة
اليوم السابق.
وقالت فيرا بسرور:

- شكراً لله أننا فرغنا من عملية التنظيف قبل حضورك.
- طاب صباحك، إن رأسي الآن يدور لأنني لم أنم الليلة الماضية،
وأحب الآن أن أغفو قليلاً.
- هنا في هذه الشرفة! حسناً جداً! لسوف أخبر الجميع لكيلا يأتوا
ويوقظوك. أما أبي فقد ذهب إلى حيث لا أدري.
وغادرت الخادمة الشرفة، وهمت فيرا أن تتبعها، ولكنها استدارت
واقتربت من الأمير وقد بدت مشغولة الفكر، ثم قالت:
- أيها الأمير، أرجوك أن تشفق بالفتى المسكين فلا تطرده من البيت
اليوم.

- لا لا، مطلقاً. لسوف يبقى هنا كما يشاء.

- إنه لن يسيء إلى أحد أو إلى نفسه الآن. و.. ولا تكن قاسياً معه.
- أوه، طبعاً، طبعاً..
- و.. ألن تسخر منه أيضاً؟ هذا هو المهم.
- لا، أبداً.
- ما أشد حماقتي إذ أتحدث في مثل هذه الأمور مع رجل مثلك..
- واضطرم وجه فيرا واستدارت عنه قليلاً وهي تردف قائلة:
- رغم ما يبدو عليك من تعب، فإن عينيك في هذه اللحظة رائعتان..
- زاخرتان بالسعادة.
- فسأل الأمير قائلاً بسرور وهو يضحك من فرط الابتهاج:
- أحقاً؟
- ولكن فيرا، الفتاة الصغيرة، البريئة التفكير، والتي تشبه في الواقع صبيّاً، أصبحت فجأة في حالة ارتباك شديد، ثم إذا هي تجري بسرعة إلى خارج الغرفة وهي تضحك وقد علت وجهها حمرة الخجل.
- وقال الأمير لنفسه: «يا لها من فتاة صغيرة عزيزة».
- ثم نسي كل شيء عنها.
- وسار إلى نهاية الشرفة حيث كان ثمة متكأ وأمامه منضدة. وهنا جلس الأمير وأخفى وجهه بين يديه، وظل هكذا نحو عشر دقائق. وفجأً وضع يده في جيب معطفه بسرعة وأخرج ثلاثة خطابات.
- ولكن الباب فُتح مرة أخرى، وأقبل كوليا.
- وبدا أن الأمير ابتهج بإعادة الخطابات إلى جيبه وتأجيل قراءتها إلى

فرصة أخرى.

وقال كوليا متحدثاً عن صميم الموضوع كعادته دائماً:

- حسناً، ها نحن أولاء! ما رأيك في إيبوليت الآن؟ ألن تحترمه بعد اليوم؟

- لماذا لا أحترمه؟ ولكن اسمع يا كوليا، إنني متعب، وعدا هذا فإنني لا أريد أن أعود إلى الحديث في هذا الموضوع المحزن، وكيف حاله الآن؟ - إنه نائم، وسيظل نائماً ساعتين أيضاً. وأنا أدرك موقفك، فإنك لم تنم الليلة، وإنما تمشيت في الحديقة، فأنا أعرف هذا. ومن الطبيعي أن تتناوبك مختلف ألوان الإثارة والانفعالات أيضاً.

- كيف عرفت أنني تمشيت في الحديقة ولم أُنم في بيتي؟

- أخبرني فيرا، لقد حاولت أن تمنعني من الحضور الآن، ولكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من الحضور ولو لمدة لحظة واحدة. وقد كنت أقوم بنوبتي للسهر على إيبوليت خلال الساعتين الأخيرتين. ويقوم كوستيا لبيديف بنوبته الآن. أما بوردوفسكي فقد انصرف، والآن، ارقد أيها الأمير واسترح وانعم بالنوم. فإني كما تعلم شديد الدهشة والتعجب.. - إن هذا كله بطبيعة الحال..

- لا لا. إنني أعني «الإيضاحات» لا سيما الجزء الذي تحدث فيه عن المصير والحياة المقبلة. إنه ينطوي على تفكير عميق جداً.

ونظر الأمير بمودة إلى كوليا الذي لم يأت طبعاً، إلا لغرض واحد، وهو الحديث عن هذا «التفكير العميق». وقد استطرد يقول:

- ولكن الأمر لا يقتصر على تفكير شخص معين بذاته، وإنما على الظروف العامة المحيطة بالموضوع. فلو أن فولير أو روسو هو الذي كتب هذا الآن، لقرأته وأعجبت به. ولكن دون أن أشعر بكل هذه الدهشة والانفعالات. ولكن شخصًا ما كان يدرك تمامًا أنه لم يبق في عمره غير عشر دقائق ثم يتحدث هكذا؟- عجبًا! إنها الكبرياء بلا شك. وإنها في الواقع أعظم وأغرب تأكيد للكرامة الذاتية- إنها- إنها التحدي الخالص. فما أروعها من قوة إرادة! فهل يمكن اتهام إنسان كهذا بأنه تعمد عدم وضع الكبسولة في المسدس؟ إنه اتهام دنيء حقير. وأنت تعرف أنه خدعنا في الليلة الماضية، فأنا لم أحزم له حقيته كما قال، ولم أر المسدس. ولكنه هو الذي حزم حقيقته بنفسه، وغافلني ووضع المسدس في جيبه، تقول فيرا إنك ستتركه يبقى هنا كما يشاء، وأنا أقسم أنه لن يكون ثمة خطر في بقائه، لا سيما ونحن سنظل بجانبه دائمًا.

- من كان بجانبه ليلاً؟

- أنا وبوردوفسكي وكوستيا لبيديف. ومكث كيلر معنا فترة وجيزة، ثم مضى إلى مسكن لبيديف لينام، وكذلك نام فيردشنكو في مسكن لبيديف، إلا أنه رحل في نحو الساعة صباحًا. ويقيم أبي دائمًا مع لبيديف، ولكنه خرج الآن. ويمكنني القول إن لبيديف في طريقه إلينا الآن؛ لأنه كان يبحث عنك. ولست أدري ماذا يريد. إذا جاء وأنت نائم، هل نسمح له بالدخول عليك أم لا؟ وإني أيضًا ذاهب لأغفو قليلًا. طاب يومك، وما أعجب ما حدث. لقد أيقظني بوردوفسكي في الساعة صباحًا. وقد التقيت بأبي خارج الغرفة، وكان قد بلغ من السكر بحيث لم يعرفني. لقد تسمر أمامي كالتمثال، ولما تمالك نفسه، سأل عن إيوليت فلما طمأنته قال لي: «إن كل شيء على

ما يرام، ولكنني أحذرك بأن تكون شديد الحرص فيما تقول أمام فيردشكو»
هل أنت منصت إليَّ أيها الأمير؟

- نعم بالتأكيد، ومع ذلك، فإن الأمر بالنسبة لنا سواء طبعًا.

- إنه طبعًا كذلك! فإننا لسنا جمعية سرية. وما دام الأمر كذلك، فإنه
لمما يزيد الإنسان دهشة أن يكون الجنرال في طريقه لإيقاظي لكي يقول لي
هذا.

- أتقول إن فيردشكو قد رحل!

- نعم، انصرف في الساعة السابعة. وقد دخل الغرفة أثناء انصرافه،
وكنت أقوم بنوبتي عندئذ. وقال: إنه ينوي أن يقضي «بقية الليلة» في مسكن
ويكلنز، وهو شاب سكير وصديق له. حسنًا، لسوف أمضي الآن. أوه، ها هو
ذا ليبيديف نفسه! إن الأمير يريد أن ينام يا لوكيان تيموفيفيتش. ولهذا يجب
أن تنصرف مرة أخرى.

فقال ليبيديف بلهجة تجمع بين الجدية والغموض وهو يدخل الغرفة
بانحناء وبمظهر ينم عن الأهمية الكبرى:

- لحظة واحدة يا عزيزي الأمير، مجرد لحظة. إذ يجب أن أتحدث
إليك عن شيء على جانب كبير من الأهمية.

وكان ليبيديف عائداً لتوه من الخارج، وحاملاً قبعته في يده، وكان
وجهه ينم عن انشغال فكري عميق، وعن وقار غير عادي.

وقال الأمير بعد أن رجاه لكي يتخذ لنفسه مقعدًا:

- سمعت أنك حضرت مرتين، وأعتقد أنك ما زلت مهمومًا بما حدث
أمس.

- أتعني ذلك الفتى وما ينبغي أن نفعل معه؟ أوه لا يا عزيزي! إن أفكاري أمس كانت، كانت مختلطة بعضها ببعض شيئاً ما. أما اليوم، فإني أؤكد لك أنني لن أعارض البتة على أية اقتراحات قد يسرك تقديمها.

فقال الأمير باسمًا:

- ماذا بك اليوم يا ليبيديف؟ إنك تبدو على جانب كبير من الأهمية والوقار، كما أنك تختار ألفاظك بعناية!

فقال ليبيديف موجّهًا الحديث إلى كوليا بصوت كله التلطف:

- نيكولاي أرداليوفيتش، بما أنني أريد التحدث مع الأمير في أمور تهمني شخصيًا..

فقال كوليا وهو ينصرف:

- طبعًا، طبعًا، ليس هذا شأني..

وقال ليبيديف وهو يشيعه بنظراته:

- إنني أحب هذا الفتى للماحيته.

ثم استطرد يقول للأمير:

- يا عزيزي. لقد حلت بي كارثة رهيبة، ولست أدري أكانت في الليلة الماضية، أو في بكور هذا الصباح، فإني لا أستطيع تحديد الوقت.

- ماذا حدث؟

فقال ليبيديف بابتسامة مريّة:

- لقد فقدت من جيب ملابسي المدنية أربعمئة روبل - ضاعت تمامًا!

- أفقدت أربعمئة روبل؟ أوه! إنني آسف لهذا؟

- أجل، إنه أمر خطير بالنسبة لرجل فقير يعيش من كد يديه.

- طبعًا، طبعًا! كيف حدث هذا؟

- إن الخمر هي المسؤولة عما حدث طبعًا. وإنني أعترف لك أيها الأمير كما لو كنت أعترف للعناية الإلهية نفسها. لقد استلمت أمس أربعمئة روبل من أحد المدينين في حوالي الخامسة بعد الظهر، ثم حضرت إلى هنا بالقطار. وكان المبلغ في كيس بجيب، ولما غيرت ملابس، وضعت في جيب بذلي المدينة.. متتويًا الاحتفاظ به معي لأنني كنت أتوقع حضور شخص يطالب في المساء.

- إذن فأنت حقًا يا ليبيديف تقرض المال مقابل رهنات من الذهب أو الفضة؟

- نعم. ولكن عن طريق وسيط، ولهذا فإن اسمي لا يظهر في عمليات الإقراض؛ لأنني كما ترى صاحب أسرة كثيرة العدد، وإن الفائدة بسيطة.

- نعم تمامًا، تمامًا. إنني أسأل فقط لمجرد العلم بالشيء. استمر في حديثك..

- حسنًا، وفي خلال هذا، جيء بذلك الفتى إلى البيت، ثم توافد أولئك الضيوف وشربنا الشاي، و.. وطربنا كثيرًا، لخرابي! ولما علمنا بعد ذلك بعيد ميلادك ازددت انفعالًا واهتياجًا بأحداث الليلة، وجريت إلى الطابق العلوي، حيث استبدلت بملابسي المدنية، ملابس الرسمية^(١). ولا شك أنك لاحظت أنني كنت أرتمي ملابس الرسمية طيلة السهرة؟ حسنًا. وهكذا نسيت المبلغ في جيب ثوبي المدني القديم - وأنت تعلم أن الله عندما يريد

(١) كان الموظفون الروسون يرتدون ملابس رسمية.

القضاء على رجل، فهو يحرمه أولاً من حسن التفكير. ولم أتذكر الأمر إلا في الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم عندما استيقظت واندفعت إلى جيب ثوبي قبل كل شيء. ولكن الجيب كان خالياً، والكيس ضائعاً، ولا أثر له في أي مكان.

- ويحي! إن هذا أمر يؤسف له جداً.

- يؤسف له؟ نعم، حقاً!

ثم أردف لبيديف قائلاً بصوت مهذب لا يخلو من تهكم:

- لقد أعربت عن رأيك بالتعبير المناسب جداً.

فقال الأمير مفكراً:

- ولكن ماذا ينبغي أن نفعل، إن الأمر جد خطير. ألا تظن أنه ربما سقط من جيبك وأنت سكران.

- بالتأكيد! إن كل شيء محتمل الوقوع عندما يكون الإنسان سكران كما أحسنت التعبير أيها الأمير. ولكن لنفرض، سواء كنت سكران أم لا، أن شيئاً ما سقط من جيبك على الأرض، ألا ينبغي أن يبقى هذا الشيء في مكانه! فأين هذا الشيء إذن؟

- ألا يحتمل أن تكون قد وضعت المبلغ في درج ما؟

- لقد بحثت في كل مكان، وفتشت في كل شيء.

- أعترف أن هذا الأمر يزعجني إلى حد كبير. إذ لا شك أن شخصاً ما قد التقطه..

- أو أخذه من جيبك. فهناك احتمالان.

- إنه لشيء محزن جداً، فمن هو يا ترى...؟ هذه هي المشكلة!
- لقد أصبت كبد الحقيقة بلا شك يا سمو الأمير. فهذه هي المشكلة حقاً فما أروع قدرتك على تحديد الموقف ببضع كلمات.
- أوه، كفى يا ليبيديف، لا داعي للتهكم، فإن الأمر خطير!
- فصاح ليبيديف وهو يضرب كفاً بكف:
- تهكم؟ أنا أنهكم!
- حسناً، حسناً، إنني لست غاضباً. وإنما أنا شديد الاهتمام بهذا الأمر.
- فمن هو الذي تشك فيه؟
- إنه سؤال جد عسير ومعقد، فأنا لا أستطيع أن أشك في الخادمة؛ لأنها كانت في المطبخ طيلة الوقت، وكذلك لا أشك في أحد أبنائي.
- أعتقد هذا، استمر.
- إذن فلا بد أنه أحد الضيوف.
- أهذا ممكن؟!!
- إنه غير ممكن بكل تأكيد، وبلا أدنى شك، ومع ذلك فلا بد أن يكون الأمر كذلك! إلا أنني جد واثق من شيء واحد، إذا كانت جريمة سرقة، وهو أنها لم ترتكب أثناء السهرة عندما كنا مجتمعين معاً. وإنما ارتكبت إما في الليل أو في بكور الصباح، وأن مرتكبها واحد من الذين ناموا هنا. وأنا استثني بوردوفسكي وكوليا بطبيعة الحال؛ لأنهما لم يقتربا حتى من غرفتي الخاصة.
- نعم، وحتى لو اقتربا! ولكن من الذي نام معك في غرفتك؟
- كانوا ثلاثة وأنا الرابع، وقد نمنا في غرفتين متجاورتين. أنا والجنرال

وكيللر وفيردشنكو. ولا بد أن الذي أخذ المبلغ واحد منا، وأنا لا أتهم نفسي طبعاً، وذلك رغم وجود حالات كان السارق فيها هو نفسه صاحب المال.

- أوه، استمر في الحديث يا لبيديف، لا داعي للإطالة هكذا.

- حسناً. يبقى أماننا ثلاثة إذن. أولهم كيللر: إنه أولاً سكير، وطويل اليد «على جيوب غيره» ولكن من ناحية أخرى عنده من حب الفتوة أكثر مما عنده من الميل إلى الحرية الحديثة. وقد كان في غرفة الشاب المريض في بادئ الأمر، ثم جاء إلينا قائلاً إنه لا يجد فيها مكاناً لنومه، وإن النوم على الأرضية يرهقه.

- إذن فأنت تشك فيه!

- نعم، شككت فيه. فعندما استيقظت في السابعة والنصف وأخذت أشد شعري حزناً ويأساً على إهمالي وكارثتي، إذا بالجنرال يستيقظ بعد أن كان نائماً بجواري نوم الأبرياء. ورغم اتهامنا لفيردشنكو الذي كان قد اختفى فجأة، فقد قررنا أن نفتش كيللر الذي كان نائماً على المتكأ كالجذع. وفتشنا ملابسه أدق تفتيش، ولكننا لم نجد فيها مليماً. بل كانت جميع جيوبه في الواقع مثقوبة. وقد عثرنا في ملابسه على منديل قذر، وخطاب غرامي من خادمة مطبخ، وقرر الجنرال أنه لا شك بريء. ومن ثم أيقظناه لنسأله، ولكننا عانينا أشد التعب لنجعله يفهم ما حدث. لقد راح يفتح فمه، ويتلفت حوله، ويدو على جانب من الغباء والبراءة بحيث قررنا أن السارق ليس كيللر.

فقال الأمير بابتهاج:

- أوه. إنني جد مسرور لهذا. فقد كنت أخشى..

فقطب لبيديف جبينه وقال:

- تخشى! إذن فقد كانت لديك أسباب تدعو إلى الشك في أنه قد يكون المذنب!

- أوه، لا لا، أبدًا، إنها لحماقة مني أن أقول إنني كنت أخشى! أرجوك يا لبيديف ألا تقول لأحد إنني قلت هذا.

فقال لبيديف في جد ووقار وهو يضع قبعته على قلبه:

- يا عزيزي الأمير، إن كلماتك تستكن في أعماق قلبي، إنه مثواها الأخير.

- شكرًا جزيلاً. والآن، إذن فهو فيردشنيكو على ما أظن، أعني أنك تتهم فيردشنيكو.

فقال لبيديف وهو يحملق في وجه الأمير:

- ومن هناك غيره!!

- نعم، نعم، طبعًا. من هناك غيره! ولكن ما هي البراهين؟

- إن لدينا الدليل، وهو اختفاؤه المفاجئ في الساعة السابعة أو حتى قبلها.

- نعم، فقد أخبرني كوليا أن فيردشنيكو قال إنه ذاهب إلى مسكن صديق له، نسيت اسمه، ليقضي بقية الليلة.

- إه! إذن فقد حدثك كوليا بالأمر فعلاً؟!

- لم يحدثني عن السرقة.

- إنه لا يعرف أمرها بعد؛ لأنني أحفظ به سرًا حتى الآن. حسنًا جدًا
لقد ذهب فيردشنيكو إلى مسكن ويلكنز. وليس في هذا ما يشير الفضول في

ذاته، ولكن الدليل هنا يزداد قوة، لقد ترك عنوانه، كما ترى، عندما انصرف عليك الآن أيها الأمير أن تفكر: لماذا ترك عنوانه؟ لماذا اهتم بصفة خاصة لكي يقول لكوليا إنه ذاهب إلى مسكن ويلكنز؟ فماذا يهمنا من معرفة أمر ذهابه إلى بيت ويلكنز؟ لا لا أيها الأمير، هذه هي حيلة اللصوص، أو دهاؤهم، وكأنما هو يقصد بهذا أن يقول لنا بوضوح «مهلاً، كيف يمكن أن أكون اللص وأنا أترك لكم عنواني، ولا أحاول أن أخفي تحركاتي كما يفعل اللص!» أفهم ما أعني أيها الأمير؟

- أوه، نعم. ولكن هذا لا يكفي!

- الدليل الثاني: لقد ثبت أن الأثر الذي تركه مزيف، وأن العنوان الذي ذكره مضلل فبعد ساعة من انصرافه، أي في نحو الثامنة، ذهبت إلى بيت ويلكنز بنفسه وهناك لم أجد أثراً لفيردشنكو. حقاً أخبرتني الخادمة أنها سمعت قبل ذلك بساعة أو نحوها، شخصاً يطرق الباب بعنف بعد أن حطم الجرس. ولكنها لم تفتح الباب؛ لأنها لم ترغب في إيقاظ سيدها. ومن المحتمل أنها هي نفسها كانت أكسل من أن تنهض، فإن مثل هذه التصرفات كثيرة في هذه المناسبات.

- ولكن، أهذه كل براهينك؟ أترى أنها كافية؟

فقال ليبيديف في شيء من التلطف وهو يتسم للأمر، وإن كان ثمة نظرة مأكرة تطل من عينيه:

- إذن فمن الذي تشك في أمره يا سيدي الأمير؟

فقال الأمير بعد برهة من الصمت والتفكير:

- يجب أن تعيد تفتيش غرفات المسكن وجميع الأدراج.

فقال ليبيديف بصوت يقطر عذوبة وتلطفًا:

- ولكنني فعلت هذا يا عزيزي الأمير.

وهنا سأله الأمير وهو يضرب المائدة بقبضته استياءً:

- لماذا أصررت على الصعود إلى الطابق العلوي لتغيير ملابسك على

هذا النحو؟

- أوه، لا تزعج نفسك بسببي أيها الأمير. فأنا أؤكد لك أنني لا أستحق

هذا. أو على الأقل أنا فقط. ولكنني أرى أنك مبتئس أيضًا من أجل الجاني،

أي من أجل الشقي فيردشنيكو في الواقع.

فقال الأمير في ضيق وتوتر عصبي:

- لقد جعلتني طبعًا مشغول الفكر بأمر لا يسر أحدًا. ولكن ماذا تنوي أن

تفعل ما دمت واثقًا هكذا من ثبوت التهمة على فيردشنيكو؟

فعاد ليبيديف يقول بصوت يقطر عذوبة مرة أخرى:

- ولكن من يمكن أن يكون غيره يا عزيزي الأمير إذا كنت لا تريد مني

أن أشك في بوردوفسكي.

- إنه ليس الجاني طبعًا!

- وليس الجنرال أيضًا! ها، ها، ها..

فقال الأمير في غضب وهو يستدير نحوه:

- كلام فارغ!

- طبعًا كلام فارغ! ها، ها، ها! ويحي! لأشد ما أضحكني، ذلك

الجنرال! لقد انطلقنا معًا في إثر فيردشنيكو، أي إلى بيت ويلكنز، كما تعلم.

ولكن ينبغي أن أقول أولاً إن الجنرال صدم بالخبر أشد مما صدمت به أنا، في هذا الصباح، وذلك حين أيقظته بعد أن اكتشفت أمر السرقة. وقد بلغ من تأثير الخبر عليه أن وجهه أصبح مسرّحاً للانفعالات السريعة التغير، فقد اربدّ أولاً، ثم شحب، ثم إذا به ينم عن أشد وأعنف الغضب الكريم، وأؤكد لك أنني دهشت لهذا كل الدهشة، إنه رجل طيب القلب جداً. حقاً إنه مغرم بالكذب، كما نعلم، ولكن هذا مجرد ضعف منه. وهو في جملته رجل سامي العواطف، بسيط التفكير أيضاً، كل شيء فيه ينم عن البراءة. إنني أحب هذا الرجل يا سيدي، ولعلي قد قلت لك هذا من قبل، فإن هذا من بين نقائصي. حسناً. لقد توقف فجأة في منتصف الطريق، وفتح سترته، وكشف عن صدره، وقال: «فتشني، لقد فتشت كيلر، فلماذا لا تفتشني أيضاً؟ الإنصاف يقتضي هذا».

وكانت أطرافه كلها ترتعد غضباً أثناء الحديث، والشحوب البالغ يعلو وجهه. وقد قلت له من ثم «ما هذا اللغو يا جنرال! لو أن أحداً غيرك قال هذا؛ لأخذت رأسي ووضعتة على طبق كبير، ودرت به إلى أي شخص يرتاب في أمرك، ولقلت له: أترى هذا الرأس؟ إنه رأسي، وإنني لأدفعه كفالة له، أجل، وإنني لأقتحم النار معه أيضاً - نعم يا جنرال، هكذا كنت أجيب على كل من يتهمك» وعندئذ عانقني في منتصف الطريق، وضممني إلى صدره بقوة وهو يبكي ويقول: «إنك الصديق الوحيد الذي بقي لي في محنتي هذه». نعم، إنه رجل عاطفي جداً، ذلك الجنرال. لقد راح يحدثني عن كيف ارتابوا ذات يوم في أمره، أو كيف اتهموه بسرقة خمسمائة ألف روبل، وهو لا يزال شاباً، وكيف أنه اندفع في اليوم التالي إلى بيت مشتعل بالنيران لإنقاذ نفس الكونت الذي اتهمه، كما أنقذ في الوقت نفسه نينا ألكسندروفنا من الموت احتراقاً -

وكانت يومذاك فتاة في ميعة الصبا. وقد عانقه الكونت يومذاك، كما أن ذلك الحادث كان سبباً في زواجه بنينا ألكسندروفنا. أما المال، فقد عثروا عليه في اليوم التالي بين الأنقاض وداخل خزانة حديدية إنجليزية ذات قفل سري. وكانت الخزانة قد سقطت تحت السقف بطريقة ما. ولولا الحريق لما عثر عليها أحد. ولكن القصة كلها من بنات أفكاره بطبيعة الحال، وذلك رغم أنه بكى وهو يتحدث عن إنقاذه لنينا ألكسندروفنا. إنها سيدة عظيمة، نينا هذه، وإن كانت غاضبة مني أشد الغضب.

- أتعرفها؟

- لا أكاد أعرفها، وإن كنت أتمنى هذا، ولو لكي أبرر موقفني في نظرها على الأقل. إن نينا ألكسندروفنا تحقد عليّ لأنني، في رأيها، أشجع زوجها على شرب الخمر. بينما أنا في الواقع لا أشجعه أبداً، بل إنني أمنعه من الإضرار بنفسه، ومن مصاحبة إخوان السوء. وعدا هذا فهو، أيها الأمير، صديقي، ومن ثم فأنا أألزمه دائماً، فأذهب حيثما يذهب. وقد كف أخيراً عن زيارة أرملة الكابتن، وإن كان في بعض الأحيان يفكر فيها بقلب حزين، لا سيما عندما يرتدي حذاءه في الصباح. ولست أدري لماذا يفكر فيها في هذا الوقت بالذات. ولكنه أصبح مفلساً الآن، ولا جدوى من ذهابه إليها بغير مال. هل تراه اقترض منك أي مبلغ من المال؟

- لا إنه لم يفعل.

- آه، لا شك أنه خجلان! لقد كان ينوي أن يفعل كما أعلم؛ لأنه قال لي هذا. وأظن أنه يعتقد أنك سترفض أن تعطيه مرة أخرى بعد أن أعطيته في مرة سابقة، لا شك تذكرها.

- هل حدث أن أعطيته أنت مالا؟

- مالا أيها الأمير؟! إنني على استعداد لأن أعطي هذا الرجل، لا المال فقط، إنما حياتي أيضًا إذا أرادها. حسنًا، قد يكون في قلبي هذا مبالغة، ولهذا فلن أقول أعطيه الحياة، وإنما أقول إنني مستعد من أجله لاحتمال المرض بسرور، مثل الحمى، أو السعال، أو أي شيء من هذا القبيل. ذلك لأنني اعتبره رجلًا عظيمًا أخنى عليه الدهر! فلن أضن عليه بالمال وحده.

- هه؟ إذن فأنت تعطيه ما يريد من مال؟

- لا، إنني لم أعطه مالا قط، وهو يعلم تمام العلم أنني لن أعطيه شيئًا منه قط؛ ذلك لأنني شديد الاهتمام بإبعاده عن الضرر والأذى. وهو سوف يذهب إلى المدينة معي الآن، إذ يجب أن تعلم أنني ذاهب إلى بطرسبرج في إثر فيردشنكو قبل أن تخف الضجة. وأنا واثق أنه هناك، في بطرسبرج. وسوف أدع الجنرال يمضي في طريق، بينما أمضي أنا في طريق آخر. على هذا النحو رتبنا الأمر حتى نهبط على فيردشنكو، كما ترى، من جهتين مختلفتين. إلا أنني سوف أقتي أثر ذلك الجنرال العجوز الشقي، وأضبطه، وأنا أعلم أين. في مسكن تلك الأرملة. وأعتقد أن سألقي عليه درسًا طيبًا عندما أفضحه متلبسًا بزيارة هذه الأرملة.

فقال الأمير في اضطراب شديد وبصوت خافت:

- أوه، لبيديف، أرجوك، لا تثر فضيحة حول هذا الموضوع.

- لا لا أبدًا، أبدًا، إنني أريد فقط أن أجعله يخجل من نفسه، أوه، أيها الأمير، فبرغم الكارثة التي حاقت بي، فإنني لا أملك نفسي من التفكير في أمر هذا الجنرال. وإنني أريد منك خدمة كبيرة أيها الأمير المبجل. وأعتقد أن هذا

هو السبب الرئيسي لزيارتي لك. فأنت تعرف آل إيفولجين، بل إنك أقمت في منزلهم فترة ما. فإذا كنت تتكرم بمساعدتي، أيها الأمير الكريم، في العمل لصالح الجنرال ...

وعقد ليبيديف يديه في هيئة ابتهاال بينما قال الأمير:

- أية مساعدة تريدها مني؟ يمكنك أن تتأكد أنني شديد الرغبة لأن أفهمك يا ليبيديف.

- أنا واثق من هذا، وإلا لما جئت إليك، وقد تستطيع أن تنجح في هذا الأمر بمعاونة نينا ألكسندروفنا، وذلك لكي يمكن مراقبته بدقة في عقر داره. ومن سوء الحظ أنني لست على علاقة طيبة بها- وإلا، ولكن كوليا الذي يقدسك بكل كيانه، قد يساعدنا أيضًا.

- لا، لا، معاذ الله أن نحشر بيننا ألكسندروفنا في هذا الأمر، أو كوليا أيضًا. ولكن لعلي لم أحسن فهمك يا ليبيديف.

فصدرت عن ليبيديف حركة تنم عن الضيق وهو يقول:

- ولكن ليس ثمة ما يحتاج إلى الفهم! إن كل ما يحتاج ذلك المريض المسكين هو العطف وحسن المعاملة. وأرجو أن تسمح لي باعتباره مريضًا. - نعم، إن هذا دليل على ما تتمتع به من رقة وذكاء.

- لسوف أشرح لك فكريتي بمثل عملي حتى يزداد وضوحًا. فأنت تعرف أي نوع من الرجال هو، وإن نقيصته في الوقت الحاضر هي شغفه الشديد بأرملة ذلك الكابتن. وهو لا يستطيع أن يذهب إليها بلا مال، وأنا أنوي أن أضبطه في بيتها اليوم، لصالحه الخاص. ولكن لنفرض أن الأمر لا يقتصر على علاقته بالأرملة، وإنما لعله ارتكب جريمة حقيقية، أو على

الأقل، عملاً مخلاً بالشرف «عملاً لا يستطيع، بطبيعة الحال أن يرتكبه». وأكرر القول إنه حتى في هذه الحالة، إذا عومل بما ينبغي من رقة ورفق، فإن في المقدور أن نصل إلى الحقيقة كلها. ذلك لأنه بسبب طيبة قلبه - وصدقني - سوف يعترف بكل شيء قبل مضي خمسة أيام. إنه سينفجر باكياً ويذكر الحقيقة كلها، لا سيما إذا عاملناه بلباقة، وإذا حرصت أنت وأصررت على مراقبة كل تحركاته بدقة، إن صح هذا التعبير.

وأردف ليبيديف قائلاً بلهجة تأكيد:

- أوه، يا عزيزي الأمير، إنني لا أعني القول على وجه التأكيد إنه.. بل إنني على استعداد، كما يقال، أن أسكب آخر قطرة من دمائي في سبيله، الآن. ولكنك تعترف معي أن الضلالة والسكر وأرملة الكابتن، كل هذا قد يؤدي إلى هذه النتيجة.

فقال الأمير ناهضاً:

- إنني مستعد بطبيعة الحال لأن أضيف جهودك إلى جهودك في هذه الحالة، ولكنني أعترف لك يا ليبيديف أنني في أشد حالات الحيرة - فقل لي الآن، هل تظن حقاً - لقد قلت بصراحة أنك تشك في فيردشنكو.

وعقد ليبيديف يديه مرة أخرى ثم أجاب بابتسامة مكرة:

- عجباً! أي شخص آخر يمكن أن أشك فيه؟ أي شخص آخر أيها الأمير البليغ؟

فقطب الأمير جبينه، ونهض عن المتكأ، ثم قال:

- اسمع يا ليبيديف! إن أي خطأ هنا سيكون أمراً خطيراً جداً. أما عن فيردشنكو، فأنا لا أستطيع أن أقول كلمة واحدة ضده بطبيعة الحال. ولكن

من يدري؟ ربما يكون هو حقًا! أعني أنه في الواقع يبدو أنه الشخص الذي
يحتمل الشك في أمره أكثر من غيره!

وركز لبيديف نظراته، وأرهف أذنيه ليفهم كل كلمة مما يقول الأمير.
وكان وجه هذا يزداد تقطيبًا بين لحظة وأخرى، وهو يسير جيئةً وذهابًا في
انفعال شديد دون أن يحاول النظر إلى لبيديف. وأخيرًا قال:

- أترى؟ لقد جعلني بعضهم أفهم أن فيردشنكو ليس من ذلك النوع من
الرجال، أعني الرجال الذين يستطيع الإنسان أن يقول كل شيء أمامهم. أي
يجب أن يكون الإنسان على حذر من كثرة الكلام أمامه. أفهم؟ إنني أقول
هذا لأثبت أنه هو، في الواقع، الذي يرجح أن يكون الجاني، هه؟ أفهم.
والمهم في الموضوع هو أن تتجنب الخطأ.

فقال لبيديف:

- ومن قال لك هذا عن فيردشنكو؟

- أوه، هكذا قيل لي، وأنا بطبيعة الحال لم أصدق كل هذا الذي يقال.
وإنني آسف جدًا لاضطراري أن أقول هذا كله؛ لأنني أؤكد لك أنني نفسي
لا أصدق. إن هذا كله هراء طبعًا، وإنها لحماقة مني أن أتحدث عن هذا
الموضوع.

وهنا قال لبيديف في انفعال نفسي، وكان قد نهض من مقعده وأخذ
يحاول ملاحقة الأمير في ذهابه وإيابه:

- أترى. إن الأمر مهم جدًا. وأهميته في معرفة المصدر الذي عرفت
منه هذه المعلومات. ولكن، اسمع يا سيدي الأمير، إنني لا أجد بأسًا في أن
أخبرك الآن، أنه حدث ونحن في الطريق إلى بيت ويلكنز في هذا الصباح،

وبعد أن حدثني الجنرال عن الحريق وعن إنقاذه للكونت، وما إلى هذا، أن راح في سرور يفضي إليّ بتعليمات في هذا المعنى عن فيردشنكو. ولكن حديثه كان من الغموض والمراوغة بحيث رأيت من المستحسن توجيه بعض الأسئلة إليه في هذا الشأن، وكانت النتيجة أنني وجدت الأمر كله مجرد خيال خصب من أخيلة ذهن فخامته. وهو طبعاً لا يكذب إلا عن خير المقاصد. ولكنه يُعتبر كذباً على كل حال. أما وهذا هو الحال، فمن أين يمكن أن تكون قد استقيت نفس هذه المعلومات. لقد بدا لي أنه تحدث عن هذا الموضوع بدافع من خيال مفاجئ في تلك اللحظات، أتفهمني؟ ومن ثم فمن يمكن أن يكون قد أخبرك؟ إنه كما ترى سؤال مهم؟

- إنه كوليا الذي أخبرني. وكان أبوه قد قال له هذا عن فيردشنكو، في نحو السادسة صباحاً، وكانا قد تقابلا أمام غرفة المريض عندما غادرها كوليا لسبب ما.

ثم حدث الأمير لبيديف بتفاصيل كل ما ذكره له كوليا. فلما فرغ قال هذا الأخير وهو يفرك يديه ويضحك في خفوت:

- هذا ما يمكن الآن أن نسميه طرف الخيط. وأعتقد أن الأمر لا بد أن يكون هكذا، كما سأذكر لك. لقد قطع الجنرال نومه البريء في الساعة السادسة، لكي يذهب ويوقظ ابنه الحبيب، ويحذره من الخطب الرهيب الكامن في صحبة فيردشنكو. ويحي! ما أفضع خطورة فيردشنكو، وما أحنّ قلبه على ابنه؟ ها، ها، ها.

فقال الأمير وهو في دوامة من الانفعالات:

- اسمع يا لبيديف، أرجوك أن تتصرف بهدوء، أرجوك ألا تثير

فضيحة، أتوسل إليك. لا يجب أن يعرف أحد شيئاً عن هذا الأمر. لا أحد،
أنفهم؟ وإنني في هذه الحالة فقط، سوف أساعدك.

فصاح لبيديف قائلاً وهو في نوبة من الانتشاء:

- اطمئن يا سيدي الأمير الجليل المبجل، اطمئن على أن الأمر كله
سوف يدفن في أعماق قلبي، ولو ضحيت في هذا السبيل بكل قطرة من
دمائي. إنني أيتها الأمير المعظم لست إلا إنساناً شقي النفس والروح، ولكن
اسأل أي وغد زعيم هل يفضل أن يتعامل مع رجل مثله، أم مع إنسان نبيل
القلب مثلك، وعندئذ ستعرف ولا شك الإجابة. لسوف يجيب قائلاً إنه
يفضل التعامل مع ذي القلب النبيل.. وهكذا تستمتع أنت بغلبة الفضيلة! إلى
اللقاء أيتها الأمير الجليل، أنت وأنا، معاً، في رفق، وهدوء.



الفصل العاشر

أدرك الأمير أخيراً لماذا كان يرتعد فرعاً في كل مرة يتذكر فيها أن الخطابات الثلاثة في جيبه، ولماذا كان يرجئ قراءتها حتى المساء.

فعندما استغرق في نوم عميق على المتكأ الموجود بالشرفة دون أن يجد الشجاعة الكافية ليفتح مظروف خطاب واحد من الخطابات الثلاثة، راح مرة أخرى يحلم أحلاماً مؤلمة، ويرى مرة أخرى، في هذه الأحلام، تلك المرأة المسكينة «الخاطئة» لقد عادت، تحمق فيه والدموع تتألق على أهدابها، ثم تومئ إليه لكي يتبعها، ثم إذا هو يستيقظ مرة أخرى كما فعل من قبل، وصورة وجه هذه المرأة تزعج خياله.

وأحس بالشوق إلى النهوض والذهاب إليها فوراً. إلا أنه لم يستطع. وأخيراً راح، فيما يقرب من اليأس، يفتح الخطابات ويقرأها.

هذه الخطابات أيضاً كانت كحلم، إننا في بعض الأحيان نرى أحلاماً عجيبة شاذة مناقضة لكل النواميس الطبيعية، فإذا استيقظنا، تذكرناها. وعجبنا لغرابتها، ولعلك تذكر أنك عندئذ تكون مالكاً لكل قواك الفكرية أثناء تتابع هذه الرؤى الشاذة، بل إنك تلجأ في تصرفاتك إلى الحكمة والعقل والدهاء عندما تحاط بجماعة من القتلة الذي يخفون عنك حقيقة مقاصدهم، ويعربون لك عن أبلغ مظاهر الصداقة، بينما هم يترقبون الفرصة

لقطع رقبتك. وأنت تذكر كيف نجوت منهم بخطة بارعة، ثم كيف خامرك الشك في أنك ربما لم تخدعهم تمامًا، أو في أنهم يتظاهرون فقط بأنهم لا يعرفون المكان الذي اختبأت فيه. وعندئذ تفكر في خطة ثانية، ثم تخدعهم مرة أخرى، إنك تتذكر هذا كله بوضوح تام. ولكن كيف أمكن أن يتقبل عقلك كل هذه الغرائب والمستحيلات التي تراءت وتزاحمت في حلمك؟ فمثلاً ترى أحد القتلة يتحول فجأة إلى امرأة أمام عينيك، ثم إذا هذه المرأة تتحول إلى قزم رهيب خبيث. وأنت تصدق هذا، وتتقبله كشيء طبيعي، هذا بينما يكون ذكاؤك في الوقت نفسه حاداً على غير العادة، بحيث يحقق لك معجزات في الدهاء والحكمة وحسن التصرف! فلماذا إذن عندما تستيقظ في عالم الحقائق، تشعر في كل مرة تقريباً، وبوضوح شديد أحياناً، أن الحلم المتلاشي كان يحمل بعض الألغاز التي عجزت عن حلها؟ إنك تبتسم سخرية من تهاويل حلمك، ومع ذلك فأنت تشعر أن هذا النسيج الشاذ يحتوي على فكرة حقيقية، شيء يتعلق بحياتك الواقعية، شيء موجود، وقد ظل موجوداً دائماً في قلبك. إنك تفتش في حلمك عن بعض النبوءات التي تتوقع حدوثها لك. ولقد ترك في نفسك تأثيراً عميقاً، طيباً أو سيئاً، ولكن ما هو معناه، وما هو المقدر لك فيه؟ إنك لا تستطيع أن تفهم أو تتذكر.

لقد تركت قراءة هذه الخطابات مثل هذا التأثير في نفس الأمير. فحتى قبل أن يقص غلافها، كان يشعر أن مجرد وجودها مثل الكابوس المزعج، وإنه ليتساءل: كيف استطاعت أن تقنع نفسها بكتابة هذه الخطابات إلى أجلايا؟ كيف أمكنها أن تكتب عن هذا الموضوع بوجه عام؟ وكيف أمكن لمثل هذه الفكرة الطائشة أن تجد طريقها إلى ذهنها؟ ومع ذلك فإن أعجب جانب في الموضوع، أنه كان - أثناء قراءته للخطابات - يكاد يؤمن بوجاهة

هذه الفكرة التي ظنها طائشة. إنه حقاً حلم مزعج، كابوس رهيب، ومع ذلك فإنه لا يخلو من بعض الواقع المؤلم. لقد ظل ساعات طويلة وهو في قبضة ما قرأ. وكان ثمة فقرات كثيرة ترد المرة بعد الأخرى إلى ذهنه، وكان وهو يخبرها يشعر بالرغبة لأن يقول لنفسه إنه كان يتنبأ ويعرف مقدماً كل ما كتب في هذه الخطابات. بل لقد بدا له أنه قرأها كلها في يوم ما، منذ أمد بعيد، وأن كل ما كان يعذبه ويحزنه حتى اليوم، يمكن أن يوجد في هذه الخطابات القديمة المقروءة منذ أمد بعيد.

لقد قرأ في الخطاب الأول ما يلي:

«عندما تفتحين هذا الخطاب، انظري أولاً إلى التوقيع؛ لأنك ستعرفين من هذا التوقيع كل شيء، ومن ثم لن أحتاج إلى شرح شيء، أو محاولة تبرير موقفي. ولو أنني كنت على نحو ما في مستوى واحد معك، لكان من الممكن أن تغضبك جرأتي. ولكن من أنا؟ ومن أنت؟ إننا على طرفي نقيض، وإنني لأبعد جداً عنك بحيث لا أستطيع أن أثير استياءك حتى لو رغبت في هذا».

وكتبت في موضع آخر، بعد ذلك تقول:

«لا تعتبري كلماتي كأعراض مرضية لعقل سقيم. إلا أنك، في رأيي، أنموذج للكمال! لقد رأيتك - بل إنني أراك كل يوم. وأنا لا أحكم عليك.. بل أنا لم أزنك بميزان العقل لأعرف أنك أنموذج للكمال، وإنما المسألة ببساطة مسألة يقين وإيمان. ولكن يجب أن أعترف بخطيئتي في حقك، وهي أنني أحبك. إذ لا ينبغي على الإنسان أن يحب الكمال، وإنما عليه أن يتطلع إليه على أنه الكمال فقط. ومع ذلك فإنني أحبك. ورغم أن الحب يساوي بين المحبين، فلا تجزعي. فإني لن أهبط بك إلى مستواي، حتى في أعماق أعماق تفكيري. وقد كتبت «لا تجزعي» وكأنما يمكن أن تجزعي. فإني على

استعداد لأن أقبل موطئ قدمك إذا أمكن. ولكن، أوه! إنني لا أضع نفسي في مستوى واحد معك - انظري إلى التوقيع، بسرعة! انظري إلى التوقيع».

وفي موضع آخر من الرسائل، كتبت تقول:

«ويمكنك على كل حال أن تلاحظني أنني برغم جمعي بينك وبينه في الكتابة، إلا أنني لم أسألك ذات مرة عما إذا كنت تحببته. لقد أحبك رغم أنه لم يرك إلا مرة واحدة. وقد تحدث عنك كما لو كان يتحدث عن «النور». فتلك هي كلماته. لقد سمعته يتحدث بها. ولكنني فهمت دون أن أسمع هذه الكلمات منه أنك نور الحياة في نظره، لقد عشت بجواره شهراً كاملاً، وقد فهمت عندئذ أنك أيضاً لا بد أن تحببه. وأنا أفكر فيك، وفيه كشخص واحد».

وفي صفحة أخرى كتبت ما يلي:

«ماذا كان بك أمس؟ لقد مررت أمامك. ولاح لي أن وجهك اضطرم بحمرة الخجل، ولعل أن يكون هذا وهماً من جانبي، فلو أنني جئت بك إلى أحقر بؤرة؟ وأطلعتك على الخطيئة وهي عارية، فما كان لوجهك أن يضطرم، فأنت لا يمكن أن تستائي من أية إهانة. إنك قد تكرهين كل حقير، ودنيء وتافه - لا من أجل نفسك، وإنما من أجل الذين يسيئون إليهم. إذ لا يمكن لأحد أن يسيء إليك، فهلا تعلمين أنه ينبغي عليك أن تحببني؟ لأنك في نظري، كما أنت في نظره، نور الحياة، وإن الملاك يستطيع أن يكرهه، وربما لا يستطيع أيضاً أن يحب، وكثيراً ما سألت نفسي: هل يمكن أن يحب الإنسان كل شخص؟ إن هذا في الواقع غير ممكن، إنه مناقض للطبيعة. إن الحب المجرد للإنسانية يكاد يكون دائماً حب الإنسان لنفسه، ولكنك تختلفين عن غيرك. فأنت لا تستطيعين إلا أن تحبي الجميع ما دمت

لا تقارنين بأحد، وما دمت فوق كل إساءة أو غضب شخصي، أوه، ما أشد ما سوف أشعر به من مرارة إذا علمت أنك تشعرين بالغضب أو الخجل بسببي؛ لأنه إذا حدث هذا فسيكون سبباً في سقوطك - أي قد تصبحين في مجال المقارنة فوراً بمخلوقة مثلي.

وأمس، بعد أن رأيتك، عدت إلى البيت، وفكرت في صورة ما: إن الفنانين يصورون المخلص دائماً كشخصية في قصص الإنجيل، ولو كان الأمر بيدي، لفعلت غير هذا. لكنني أبرزه في الصورة بمفرده؛ لأن حواريه كانوا أحياناً يتركونه بمفرده. ولكنني صورت معه طفلاً صغيراً فقط، ولجعلت هذا الطفل يلعب بالقرب منه، وربما جعلته يحدث المخلص بشيء ما، بطريقته الصبائية اللطيفة. ويكون المخلص في الصورة قد أنصت إليه، ثم راح يفكر فيما سمعه منه وقد وضع يده على رأس الطفل الذهبية. أما عيناه، ففيهما نظرة تفكير عميق ضخم كعمق الوجود وضخامته، هذا والحزن يكسو وجهه، والطفل الصغير يعتمد بمرقه على ركة المخلص، متأملاً كما يتأمل الأطفال عادة، وتكون الشمس عندئذ في طريقها إلى الغروب، وهكذا تتكامل الصورة في مخيلتي.

«إنك بريئة وفي براءتك يكمن كل كمالك. أوه، تذكرني هذا! ما هي عاطفتي نحوك؟ إنك الآن لي، ولسوف أكون بجانبك طيلة حياتي، وأنا لن أعيش طويلاً!».

وقرأ في النهاية، في آخر خطاب، ما يلي:

«أناشدك الله ألا تسيئي فهمي. لا تظني أنني أذل نفسي بالكتابة إليك على هذا النحو، أو أنني أنتمي إلى هذه الطبقة من الناس الذين يستمدون بهجتهم من إذلال أنفسهم - حتى بدافع الكبرياء - فإن لي عزائي بأني لا أذل

نفسي وإن كان من العسير أن أشرح الأمر.

«لماذا أريد أن أربط بينكما؟ أمن أجلك أنت، أم من أجلي أنا؟ من أجلي أنا بطبيعة الحال. إن كل مشكلات حياتي سوف تحل على هذا النحو. وهذا ما فكرت فيه منذ وقت بعيد. وأنا أعلم أن أختك أدليدا حينما رأت صورتني ذات مرة، قالت إن مثل هذا الجمال كفيف بأن يقيم الدنيا ويقعدها. ولكنني اعتزلت الدنيا، ولعلك ترين أن من الغريب أن أقول هذا؛ لأنك رأيته وأنا مرتدية أفخر الملابس ومزينة بالحلي الماسية، وفي صحبة السكارى والصعاليك. لا تبالي بهذا. فأنا أعرف أنني الآن لا أكاد أحيأ. والله وحده يعلم ماذا في أعماقي الآن. إنها ليست نفسي، إنني أستطيع أن أراها في عيني رهيبتين تحملقان فيّ دائماً حتى عندما لا يكونان أمامي. إن هاتين العينين صامتتان الآن. إنهما لا تقولان شيئاً، ولكنني أعرف سرهما، وإن بيته لكئيب الظلال، ولكن فيه سرّاً. وإنني لواقفة بأنه يوجد في أحد الصناديق موسى حلاقة مخبوء، ومربوط بخيط حريري. تماماً كالذي يستعمله القتلة في موسكو. وإن هذا الرجل يعيش أيضاً مع أمه، ويخفي لديه «موسى حلاقة» مربوطاً بخيط حريري أبيض اللون. وهو ينوي بهذا الموسى أن يقطع إحدى الرقاب.

وكنت طيلة المدة التي أمضيتها في بيتهما، أشعر عن يقين بأنه يوجد في مكان ما تحت أرضية الغرف جثة رهيبة مخبوءة وملفوفة بمشمع. ومن يدري، فلعل أن تكون مدفونة على يدي والده! تماماً كما حدث في جريمة موسكو. وفي مقدوري أن أطلعك على المكان.

«إنه دائماً صامت، ولكنني أعلم تماماً أنه يحبني هذا الحب العارم الذي لا بد يجعله يكرهني أيضاً. إن زوجي وزواجك سوف يكونان في يوم واحد.

هكذا رتبت الأمر معه. فليس هناك سر يخفيه عني، وقد يمكن أن أقتله من فرط خوفي منه، ولكنه سيسبق إلى قتلي. وقد انفجر الآن ضاحكًا وقال إنني أهذي وهو بهذه المناسبة يعرف أنني أكتب إليك».

وكان ثمة هذيان كثير غير هذا في صفحات الخطابات، وكان أحدهما طويلًا جدًّا.

وأخيرًا خرج الأمير من الحديقة العامة المظلمة التي كان يتجول فيها منذ ساعات كما فعل في اليوم السابق. وبدأ ضوء الليل في نظره أشد إشراقًا عنه في أي وقت آخر. ومن ثم قال لنفسه: «لا بد أننا ما زلنا في ساعة مبكرة» ولم تكن ساعته معه. ولما سمع من بعيد عزفًا موسيقيًا، قال لنفسه: «آه، إنها موسيقى حديقة الفوكسهول، لا شك أنهم لن يكونوا هناك اليوم» وفي تلك اللحظة، لاحظ أنه جد قريب من بيت آل إيبانشين، وفجأة شعر أنه لا بد أن يدخله في النهاية، فراح - من ثم - يصعد درجات الشرفة بقلب خافق.

ولم يلتق به أحد، إذ كانت الشرفة خالية وتكاد تكون غارقة في ظلام دامس وفتح الباب المفضي إلى الغرفة. فرآها أيضًا خالية مظلمة. وفيما هو يقف في وسطها محيرًا مرتبكًا، إذا بالباب يفتح، وإذا ألكسندرا تدخل وفي يدها شمعة. فلما رأت الأمير، توقفت أمامه في دهشة، وشرعت تنظر إليه بتساؤل!

والواضح أنها كانت تجتاز الغرفة فقط من باب إلى آخر، وأنه لم يكن لديها أية فكرة عن احتمال التقائها بأحد.

وسألته أخيرًا قائلة:

- كيف جئت؟

- أنا، أنا جئت من ..

- إن صحة أُمي ليست كما ينبغي، وكذلك أجلايا، وأوت أدليدا إلى فراشها، وكنت أنا في الطريق إليه. وكنا بمفردنا طيلة المساء. إذ ذهب أبي والأمير «س» إلى المدينة.

- لقد جئت إليكم، الآن...

- أتعرف كم الوقت الآن؟

- لا.. لا!

- إنه بعد الثانية عشرة. ونحن دائماً نكون في مضاجعنا في الواحدة.

- لقد.. لقد ظننت الساعة التاسعة والنصف!

فضحكت وقالت:

- لا بأس! ولكن لماذا لم تأت في ساعة مبكرة عن هذه؟ لعلهم كانوا يتوقعون حضورك!

فقال متلعثماً وهو يتجه نحو باب الخروج:

- ظننت.. ظننت..

فشيعته قائلة:

- إلى اللقاء، لسوف أضحكهم غداً بهذه النادرة.

وسار في الطريق قدماً نحو بيته، وكان قلبه يخفق بعنف. وأفكاره شديدة الاضطراب، وكل شيء يبدو حوله كأنه جزء من حلم.

وفجأة وكما حدث تماماً في المراتين اللتين استيقظ فيهما من النوم، بدا له أن نفس الرؤيا تبرز أمامه الآن. بدا أن المرأة خرجت من الحديقة العامة،

ووقفت في الطريق أمامه، وكأنما كانت تنتظره فيه.

وارتعد ووقف، وأمسكت هي بيده، وضغطت عليها بعنف شديد.

لا، ليست هذه رؤيا.

إنها واقفة هناك، أخيراً، وجهاً لوجه أمامه. لأول مرة منذ افتراقهما.

وقالت شيئاً، إلا أنه عاد ينظر إليها في صمت. وأحس بقلبه ينتفض بالألم. أوه! إنه لا ينسى أبداً ذكرى هذا اللقاء معها، وإنه لا يذكره أبداً إلا ويذكر معه انتفاضات قلبه المؤلمة.

لقد ركعت أمامه، هناك، على الطريق العام، كأية امرأة مجنونة. وتراجع عنها خطوة، ولكنها أمسكت يده وقبلتها، وكما حدث تمامًا في الحلم، رأى الدموع تتألق على أهدابها الوضاعة الجميلة.

قال لها في همس وخوف وهو يرفعها:

- انهضي، انهضي فوراً.

فسألته قائلة:

- هل أنت سعيد؟ هل أنت سعيد؟ قل هذه الكلمة فقط: هل أنت سعيد

الآن، في هذا اليوم، في هذه اللحظة؟ أكنت معها الآن؟ ماذا قالت لك؟

وظلت راکعة أمامه، غير حافلة برغبته في إنهاضها، وكانت تلقي أسئلتها بسرعة ولهفة كأنما يطاردها شخص ما.

وعادت تقول:

- إنني راحلة غداً، كما أمرتني، ولن أكتب.. ومن ثم فهذه هي المرة

الأخيرة التي سأراك فيها.. المرة الأخيرة. إنها حقاً المرة الأخيرة!

فراح يستعطفها في يأس قائلاً:

- أوه، اهدئي، اهدئي، وانهضي.

فحملت في وجهه بنظرات ظمأى، وتشبث بيديه. وأخيراً قالت:

- وداعاً!

ثم نهضت و انصرفت عنه بسرعة.

ولاحظ الأمير أن روجو جين ظهر فجأة بجانبها، وأنه تناول ذراعها،
وراح يتعبد بها وهو يهتف بالأمر قائلاً:

- انتظر لحظة أيها الأمير، لسوف أعود إليك في خلال خمس دقائق.

وعاد إلى الظهور بعد خمس دقائق كما قال، فوجد الأمير في انتظاره،
فقال له:

- لقد وضعتها في المركبة التي كانت في انتظارها في المنعطف منذ
الساعة العاشرة. وكانت تتوقع أنك ستبقى طيلة السهرة معهم. وقد ذكرت
لها تمامًا كل ما كتبتك إلي. ومن ثم فهي لن تكتب للفتاة مرة أخرى كما
وعدت. وغداً سوف ترحل كما أردت لها. لقد أرادت فقط أن تراك للمرة
الأخيرة، ولكنك رفضت، ومن ثم جلسنا في انتظارك على ذلك المقعد حتى
نراك وأنت تمضي في الطريق إلى بيتك.

- هل جاءت بك معها بمحض إرادتها؟

فقال روجو جين مكشراً عن أسنانه في ابتسامة باردة:

- طبعاً، طبعاً. وقد رأيت بنفسي ما كنت أعرفه من قبل. وأظن أنك
قرأت خطاباتنا.

فقال الأمير وقد فوجئ بذلك الخاطر:

- وهل قرأتها أنت؟

- طبعاً، لقد أطلعتني بنفسها عليها. إنك تفكر في موسى الحلاقة؟ ها، ها، ها.

فصاح الأمير قائلاً وهو يضرب كفّاً بكف:

- أوه، إنها مجنونة!

فقال روجوجين في همس وكأنما يتحدث إلى نفسه:

- من يدري، فلعلها ليست مجنونة إلى الحد الذي تتصوره.

ولم يجب الأمير بشيء.

وعاد روجوجين يقول:

- حسناً جداً. وداعاً!! إنني أيضاً راحل غداً كما تعلم.. اذكرني بالخير..! وداعاً.

ثم أردف قائلاً وهو يستدير نحوه بحدة مرة أخرى:

- هل أجبت سؤالها الآن؟ هل أنت سعيد أم لا؟

فقال الأمير بحزن لا يوصف:

- لا، لا، لا.

فصاح روجوجين وهو يضحك ساخراً:

- ها، ها. إنني لم أفترض أبداً أنك ستقول «نعم».

ثم اختفى دون أن يلتفت إليه مرة أخرى.

a HGTMdG 1/4j • 2dG

الفصل الأول

انصرم أسبوع على هذا اللقاء الذي تم بين الأمير وأجلانيا عند المقعد الأخضر في الحديقة العامة. ثم حدث ذات صباح جميل، في نحو العاشرة والنصف أن عادت فارفارا أو- على الأصح- المسز بيتسين، من زيارة صديقة لها وهي في حالة اكتئاب نفسي شديد.

إن هناك طبقة معينة من الناس يصعب على الإنسان أن يقول شيئاً يمكن في الحال أن يصور شخصياتهم التقليدية تصويراً شاملاً. وهؤلاء هم المعروفون عادة باسم «الطبقة العادية». وتتكون هذه الطبقة بطبيعة الحال، من الغالبية العظمى من الجنس البشري. ويحاول المؤلفون- بوجه عام- أن يختاروا ويصوروا نماذج إنسانية قلما تراها في الحياة الواقعية، ولكنها مع هذا أكثر واقعية من واقع الحياة نفسه.

وربما كانت شخصية «بودكوليوزين»^(١) مبالغاً في تصويرها، ولكنها ليست بأية حال من الأحوال من الشخصيات التي لا وجود لها، بل على العكس، فكم من الناس الأذكياء الذين بدأوا بعد أن سمعوا عن «بودكوليوزين»

(١) شخصية في إحدى مسرحيات جوجول الهزلية «الزواج».

من جوجول- يرون أن أعدادًا كثيرة من أصدقائهم مثله تمامًا. ولعلمهم كانوا يعلمون- قبل أن يحدثهم جوجول عن هذه الشخصية- أن أصدقاءهم مثل بودكوليوزين، ولكنهم لم يكونوا يعرفون كيف يسمونهم. والشبان في واقع الحياة قلما يقفز الواحد منهم من النافذة قبيل ليلة زفافه؛ لأن هذه العملية البارة ليست على وجه التأكيد، إذا تجاوزنا عن جوانبها الأخرى، بالوسيلة الطيبة للنجاة، ومع ذلك فثمة كثيرون من الأزواج- الأذكى أيضًا- الذين هم على استعداد أن يعترفوا بأنهم في قرارة نفوسهم كانوا مثل بودكوليوزين قبيل الزواج. وليس كل زوج يشعر بضرورة الهاتف في كل خطوة يخطوها بهذه العبارة «أنت أردتها يا جورج داندين!» مثل شخصية نموذجية أخرى، ومع ذلك فكم مليون أو بليون جورج داندين في واقع الحياة الذين يشعرون بالرغبة في أن يهتفوا بهذه العبارة الحزينة المؤثرة بعد شهر العسل، إن لم يكن بعد الزفاف بيوم! ولهذا، وبدون الدخول في المزيد من تفاصيل الموضوع- سوف أقصر على القول بأن الشخصيات النموذجية في واقع الحياة «ضائعة» إذا صح هذا التعبير، وأن كل أمثال داندين وبودكوليوزين يعيشون بيننا حقًا كل يوم ولكن في صورة مخففة. وسوف أضيف إلى هذا، على كل حال- أن جورج داندين ربما وُجد في الحياة تمامًا كما صورته لنا مولير، ومن المحتمل أنه يوجد الآن هنا وهناك- وإن كان نادرًا. وعلى هذا سوف أفرغ من هذا البحث العلمي الذي بدأ يشبه مقالة نقدية في الصحف. ولكن هذا السؤال لا يزال يواجهنا رغم هذا كله: ماذا يفعل الروائيون بالطبقات العادية من الناس؟ وكيف يمكن تقديمهم للقارئ في قالب يثير الاهتمام بأي شكل؟ إن من المستحيل إهمال أمرهم تمامًا؛ لأن الإنسان يكاد يلتقي في كل خطوة بهم في واقع الحياة، وإهمال أمرهم سوف يقضي على

مشابهة القصة للواقع. وامتلاء الرواية بالشخصيات الأنموذجية فقط، أو بمجرد شخصيات غريبة غير مألوفة، قد يجعلها غير واقعية، وغير معقولة، وقد يجردها من أسباب الإمتاع والتشويق. وإن من واجب الروائي، في رأيي، هو إبراز الجوانب المثيرة الممتعة حتى في الشخصيات الممتازة من الطبقة العامة.

فمثلاً عندما يكون كل ما في طبيعة الشخص العادي كامن في عاداته الدائمة التي لا تتغير، وعندما يظل هذا الشخص العادي داخل نطاق الطبقة العادية رغم كل ما يبذله من مجهودات ليرز عنها، فأنا أعتقد أن مثل هذه الشخصية يمكن أن تُقدَّر أنموذجاً في ذاتها، أنموذجاً للإنسان العادي الذي لا يمكن أبداً أن يقنع بعاديته - إن استطاع هذا - والذي يحاول ملهوفاً أن يغدو إنساناً أصيلاً متميزاً، وذلك دون أن يكون هناك أدنى احتمال في أن يغدو كذلك. وإلى هذه الطبقة من الناس العاديين ينتمي عدد من شخصيات هذه الرواية، وهي شخصيات أعترف أنني لم أصورها بما ينبغي من وضوح وجلاء حتى الآن للقارئ.

ومن بين هذه الشخصيات فاريا، زوجة بيتسين، وزوجها، وأخوها جانبا. وليس هناك ما هو أدعى للاستياء والسخط من أن يكون الإنسان على شيء من الثراء، ومن أسرة محترمة، وفي مركز جيد، ومتوسط التعليم، وغير «أحمق» وطيب القلب، ومع ذلك فهو بلا موهبة على الإطلاق، محروم من أصالة التفكير، ومن القدرة على ابتكار أية فكرة خاصة، أو على الجملة «كأي شخص آخر».

مثل هذا الشخص موجود في هذا العالم بكثرة لا حصر لها، بل أكثر جداً مما يبدو لنا. إنه وأمثاله يمكن تقسيمهم إلى طبقتين، كما هو الشأن

مع الناس جميعاً: الطبقة المحدودة الذكاء، والأخرى الأكثر براعة ودهاء. ولكن الطبقة الأولى هي في الواقع الأكثر سعادة ورضى بالحياة.

فمثلاً ليس أسهل على الرجل العادي المحدود الذكاء من أن يتصور نفسه شخصية ممتازة ثم ينتشي بهذا الاعتقاد دون أن يخامر فيه أدنى شك. وإن كثيراً من الشابات قد رأين أن من المناسب أن يقصرن شعورهن، ويستعملن نظارات زرقاء ويسمين أنفسهن «عدميات» نسبة إلى المذهب العدمي الإلحادي. وهن بهذا يستطعن أن يقنعن أنفسهن - بغير المزيد من الجهد - بأنهن قد اكتسبن عقيدة جديدة خاصة بهن. وقد يشعر بعض الناس بشيء من العطف نحو إخوانهم في الإنسانية، ثم إذا بهذا الشعور يكفي لإقناعهم بأنهم ينفردون بميزة خاصة، وأنه ليس ثمة من يتمتع مثلهم بهذا الشعور الإنساني. وهناك غيرهم، ما إن يقرأ الواحد منهم عن فكرة جديدة لشخص ما، حتى يبادر فيتمثلها ثم يعتقد أنها من بنات أفكاره. إن «وقاحة الجهل» إن جاز لي استعمال هذا التعبير، تبلغ في مثل هذه الحالات مداها العجيب، ونحن نرى كل يوم مثل هذه الحالات رغم ما يبدو لنا عكس ذلك.

إن هذه الثقة التي يضعها الرجل الغبي في مواهبه، قد أبرزها جوجول بصورة رائعة في شخصية بيردجوف العجيبة. فليس لدى بيردجوف أدنى شك في عبقريته، لا ولا في تفوق هذه العبقرية عن غيرها. وقد بلغ من ثقته فيها أن الشك لم يخامرهُ بشأنها قط. فكم من أمثال بيردجوف كانوا بين كتابنا، وأساتذتنا، وخبراء الدعاية بيننا، وأقول «كانوا» وإن كان الكثيرون منهم لا يزالون موجودين حتى يومنا هذا.

وكان صاحبنا جانبا ينتمي إلى الطبقة الأخرى، الأكثر براعة ودهاء،

وذلك رغم أنه كان يهفو بكل ذرة من كيانه ليكون شخصية «ممتازة». وإن هذه الطبقة التي ينتمي إليها، أقل إحساسًا بالسعادة كما سبق أن قلت. ذلك أن الرجل «العادي البار» قد يتصور نفسه عبقرًا ممتازًا، ولكنه في الوقت نفسه لا يخلو أبدًا من الشك في هذا التصور. وقد يؤدي هذا الشك بالرجل البار إلى هوة اليأس. ولكن المعتاد في هذه الحالات ألا تحدث مأس. وكل ما قد يحدث أنه يصاب باضطرابات في كبده. وإن أمثال هذا الإنسان لا يتخلون عن مطامحهم نحو النبوغ إلا بعد معركة عنيفة. وإن هناك رجالاً لا يترددون في الانحدار إلى حد ارتكاب الجرائم في سبيل مطامحهم هذه رغم أنهم قد يكونون في أعماق نفوسهم طبيين ومن ذوي النوازع الإنسانية الرحيمة.

والذي حدث أن جانيا كان مبتدئًا في هذا الطريق. إذ كان في أعماق قلبه حتى منذ الطفولة صراع بين شعور عميق ثابت بأنه محروم من المواهب، وبين اللهفة العارمة لإقناع نفسه بأنه شخصية موهوبة.

ويلوح أنه ولد بأعصاب مشدودة متوترة، ومن ثم فإنه كثيرًا ما أوشك أن يتخذ خطوات طائشة في سبيل حماسه للظهور والتفوق. ومع ذلك فعندما يحين الوقت لاتخاذ هذه الخطوة الطائشة التي صمم عليها، إذا به يثبت رجاحة عقله بالتراجع عنها. إلا أنه على استعداد، في الوقت نفسه، لأن يقوم بعمل دنيء من أجل الوصول إلى هدفه. ومع ذلك فعندما تأتي اللحظة التي يجب أن يقوم فيها بهذا العمل، يجد نفسه أشرف من القيام بعمل بالغ الدناءة «ولا يعني هذا أنه يرفض ارتكاب أعمال دنيئة بسيطة، بل العكس، إنه على استعداد دائم لارتكابها» فمثلاً نراه ينظر في حقد واشمئزاز إلى انحدار أسرته وحالة الفقر التي تعيش فيها، ويعامل أمه بترفع واحتقار رغم علمه بأن

كل مستقبله يعتمد على أخلاقها وحسن سمعتها.

أما أجلايا، فإنها، ببساطة، أفزعته. إلا أنه، مع هذا، لم ينفذ ذهنه من التفكير فيها إطلاقاً - وذلك رغم أنه لم يعد يأمل بصفة جدية في أنها ستقبله زوجاً يوماً ما - وقد انتهى به الرأي، أثناء فترة مغامرته مع ناستاسيا فيليبوفنا، إلى أن المال هو أمله الوحيد، فإنه بالمال يستطيع أن يحقق كل ما يريد.

وفي الوقت الذي فقد فيه أجلايا، وبعد ذلك الموقف المثير مع ناستاسيا، شعر بأنه بلغ من الهوان في نظر نفسه بحيث لم يجد مندوحة من إعادة المال إلى الأمير. ولكنه منذ ذلك الحين وهو يشعر بالندم على إعادة هذا المال الذي أخذه من امرأة مجنونة، أخذته بدورها من شاب مجنون، إلا أنه رغم هذا الندم كان دائماً يشعر بالزهو لما فعل. وفي الفترة التي مكثها الأمير ميشكين في بطرسبرج، بدأ جانبا يشعر بكراهيته؛ لأن الأمير كان دائم العطف عليه، هذا رغم أنه رأى الأمير، كان يقول له بشأن إعادته للمال: «ليس كل إنسان بقادر على التصرف بمثل هذا النبل». أما من ناحية أجلايا، فقد فكر طويلاً في علاقته بها، ثم انتهى إلى أنه كان من الممكن أن تتخذ الأمور وضعاً آخر أفضل، مع مثل هذه الفتاة اللطيفة الصبيانية الشعور، البريئة العواطف. ومن ثم استبدت به مشاعر الندم، فاستقال من منصبه، ودفن نفسه في عالم من اللوم والتعذيب النفسي.

وكان يعيش في مسكن بيتسين، ويعرب له بوضوح عن احتقاره له، وذلك رغم أنه كان يستمع إلى نصائحه، وأنه كان من الفطنة بحيث يلتمسها منه كلما احتاج إليها. وكان جانبا غاضباً من بيتسين لأن هذا الأخير لم يهتم كثيراً لكي يصبح في ثراء روتشيلد. وكان يقول له: «ما دمت تريد أن تكون يهودياً في معاملتك للناس، فمن الواجب أن تؤدي دورك بإتقان، يجب أن

تعتصر الناس يميناً وشمالاً، وأن تحجر عواطفك، وتغدو ملكاً على اليهود ما دمت قد سرت في هذا الطريق».

وكان بيتسين وديعاً، غير سريع الغضب، فكان يقابل ثورات جانبا بالضحك ولكنه في إحدى المناسبات تحدث معه جدياً، وأكد له أنه ليس «يهودياً» في معاملته للناس، وأنه لا يرتكب أعمالاً مخلة بالشرف، وأنه لا يؤثر في الأسواق المالية، وهو يحمد الله على أنه أصبح مستقراً في حياته، محترماً بين الناس، وأن أعماله دائماً في ازدهار. وقد أضاف إلى حديثه هذا الجاد قائلاً في ابتسام:

«إنني لن أكون أبداً مثل روتشيلد، وليس هناك البتة ما يدعوني إلى هذا. ولكنني سوف أمتلك بيتاً في شارع ليتيفايا. وربما بيتين، وحسبي هذا».

ولكنه اختتم بقية الحديث قائلاً لنفسه:

«ومن يدري، فربما أمتلك ثلاثة بيوت؟».

إلا أنه لم يكن يفضي بأحلامه، أيّاً كان ازدهارها، لأحد.

إن الطبيعة تحب وترعى أمثال هؤلاء الناس، ومن ثم فلا شك أن بيتسين سوف ينال ما يرجو، لا ثلاثة بيوت فحسب، وأنما أربعة على التحديد، وذلك لأنه منذ طفولته حتى اليوم كان يدرك تماماً أنه لن يكون مثل روتشيلد، وهذا الإدراك سيكون الحد الذي تبلغه ثروته، وأيّا كانت الأحداث، فإنه لن يمتلك أكثر من أربعة بيوت.

ولم تكن فاريا- أو فارفارا أرداليونوفا- مثل أخيها جانبا. فرغم أنها لم تكن تخلو من الرغبات والمطامح، إلا أنها، أي رغباتها، كانت أقرب إلى الواقع منها إلى الخيال. فكانت مشروعاتها معقولة مثل الوسائل التي

تنفذها بها، وليس من شك في أنها أيضًا كانت تنتمي إلى طبقة الناس الذين يحلمون بأن يكونوا ممتازين ولكنها سرعان ما اكتشفت أنها لا تتمتع بذرة من المواهب الحقة، إلا أنها لم تدع مثل هذا الاكتشاف يزعجها كثيرًا. ولعلها استعانت على احتمال هذا الموضع بلون من ألوان الكبرياء. وقد قدمت قربانها الأول لتقبل واقع الحياة بعزيمة قوية عندما وافقت على الزواج بيتيسين. إلا أنها لم تقل لنفسها عندما تزوجته: «لا بأس من القيام بعمل حقير ما دام يؤدي إلى الغاية المنشودة» كما كان من المؤكد أن يقول أخوها لنفسه في مثل هذه الظروف. ومن المحتمل جدًا أنه قال هذا لنفسه عندما أعرب عن رضاه الأخوي بقرارها. ولكن فاريا كانت أبعد شيء عن هذا التفكير؛ لأنها لم تتزوج بيتيسين إلا بعد أن اقتنعت تمامًا بأن زوج المستقبل هذا شخصية وادعة، لطيفة، على شيء من الثقافة، وأنه لا شيء في الوجود يمكن أن يغريه للقيام بعمل غير شريف، أما عن الدناءات البسيطة، فإن مثل هذه الهنات لم تكن تزعجها كثيرًا. وإلا فَمَنْ في الواقع يخلو منها؟ فإن من شذوذ التفكير أن يتوقع الإنسان الحصول على الكمال! وعدا هذا كانت تعرف أن هذا الزواج سيكون ملاذًا لكل أفراد أسرته، ذلك أنها كانت ملهوفة على مساعدة جانبا حين رآته شقيًا بائسًا، وذلك رغم ما كان بينهما من منازعات وخلافات سابقة. وكانت تعلم أن بيتيسين، بطريقته الودودة، سوف يغري أخاها بالالتحاق بالجيش. وكان يقول له أحيانًا مداعبًا:

«أنا أعرف أنك تحتقر الجنرالات ومناصبهم، ولكنك سوف ترى أن كل الضباط سوف ينتهون إلى جنرالات بالدور. لسوف ترى هذا إذا مد الله في عمرك».

إلا أن جانبا كان يقول لنفسه متهكمًا:

«ولكن لماذا يفترضون أنني أحتقر الجنرالات؟».

وكانت فاريا- في سبيل مصلحة أخيها- لا تنقطع عن زيارة آل إيبانشين، يساعدها على هذا أنها كانت وجانيا يلعبان منذ الصغر مع بنات الجنرال إيبانشين، وأن طبيعتها التي عرفناها تجعلها تؤمن بأنها لا تجري وراء سراب بهذه الزيارات. ذلك أن الفكرة التي تسعى إلى تحقيقها لم تكن سراباً على الإطلاق، وإنما تقوم على أسس سليمة ثابتة- على معرفتها التامة بطبائع أسرة إيبانشين، لا سيما أجاليا، التي درست أخلاقها بدقة. وكانت كل مجهودات فاريا مركزة في الجمع بين أجاليا وجانيا. ولعلها قد حققت بعض النتائج، ولعلها أيضاً قد أخطأت في اعتمادها كثيراً على أخيها، وعلى انتظارها الشيء الكثير منه، مما ليس في مقدوره أبداً أن يقدمه. وأياً كان الأمر فقد كانت مناوراتها على جانب كبير من البراعة. فمثلاً كانت لا تذكر اسم جانيا مدة أسابيع متوالية. كما كانت تحرص في معاملتها على الوداعة الممتزجة بالإباء، مع الحرص الدائم على الوفاء والإخلاص. وكانت كلما أمعنت النظر في أعماق ضميرها، لم تجد ما تؤاخذ به نفسها عليه. وهذا بدوره كان يزيدها قوة على تنفيذ خطتها. إلا أنها في بعض الأحيان كانت تشعر أنها شريرة حقود وأنها تسرف في الشعور بالكبرياء، بل وربما أيضاً بالكبرياء الجريح. وكانت تلاحظ هذا على نفسها في أوقات معينة دون أخرى، لا سيما عقب زيارتها لآل إيبانشين.

وقد عادت اليوم إلى بيتها وهي في حالة شديدة من الاكتئاب كما سبق أن قلت. وكان ثمة إحساس بالمرارة يخامرها، ويمتزج بهذا الإحساس لون من الاحتقار الساخر.

وما إن وصلت إلى بيتها حتى سمعت ضجيجًا عاليًا في الطابق العلوي، ثم تبينت أصوات أبيها وأخيها. ولما دخلت غرفة الاستقبال، رأت أخاها يذرع الأرضية جيئةً وذهابًا بسرعة عصبية، وقد شحب وجهه من فرط الغضب وهو يكاد ينزع شعره بيديه. وقطبت جبينها، وتهالكت على المتكأ في سمت الإنسان المرهق دون أن تقول شيئًا أو أن تعنى بخلع قبعتها عن رأسها. وكانت تعرف تمامًا أنها إذا استمرت على هدوئها، وعلى الامتناع عن سؤال أخيها عن سبب احتياجه هذا الشديد، فإنه سوف يصب جام غضبه على رأسها، ومن ثم أسرعَت تسأله قائلة:

- أهى الحكاية إياها؟

- الحكاية إياها؟ لا. الله وحده يعلم ماذا جد في الأمر الآن! فأنا لا أدري. إن أبي قد فقد عقله تمامًا، وإن أمي غارقة في دموعها، وأقسم يا فاريا على أني سوف أطرده من البيت.

ولعله تذكر أنه لا يستطيع أن يطرد أحدًا من بيت لا يمتلكه، فأردف قائلاً:

- أو أرحل أنا.

فغمغمت فاريا قائلة:

- يجب أن تكون واسع الصدر.

- واسع الصدر؟ لمن؟ له هو؟ ذلك الوغد العجوز؟ لا، لا يا فاريا. إن هذا لن يجدي، أؤكد لك. ثم انظري إلى تبجحه! إنه المسئول عن كل هذه الأخطاء، ومع ذلك فهو يتبجح بحيث تظنين - ويحي، ماذا أقول! إن مثله كمثل الذي يقول لك: «إن الدخول من الباب عملية مرهقة، ومن ثم يجب

أن تكسر السياج من أجلي». ولكن ماذا بك يا فاريا؟ ما هذه الكأبة التي تعلق وجهك.

- إنني بخير.

ولكن صوتها كان ينم على أنها أبعد ما تكون عن الخير.

وأمعن جانبا النظر إليها برهة، ثم قال فجأة:

- هل كنت هناك؟

- نعم.

- هل عرفت شيئاً؟

- لا شيء غير منتظر. لقد وجدت أن كل ما قيل كان حقاً. وقد ثبت أن زوجي كان أحكم منا. لقد حدث ما كان يتوقعه منذ الوهلة الأولى. أين هو؟

- في الخارج. حسناً! ماذا حدث؟ استمري في الحديث.

- لقد خطبها الأمير رسمياً، وتم كل شيء؟ وقد أخبرتني أختهاها الكبريان بالأمر كله. ووافقت أجاليا على الخطبة، ولم يحاول أحد منهم أن يخفي هذه الحقيقة أكثر من هذا. وأنت تعلم كيف كانوا جميعاً متحفزين متكتمين الأخبار حتى اليوم. وقد تأجل زواج أدليدا مرة أخرى حتى يتم زواج الأختين في وقت واحد. ألا ترى في هذا لوناً من الخيال الجميل! ينبغي أن يكتب أحد قصيدة في هذا. اجلس واكتب ملحمة بدلاً من هذا الرواح والمجيء هكذا. والمعروف أن الأميرة بيلوكوفسكي سوف تصل الليلة، وإنها لتأتي في الوقت المناسب؛ لأنهم يقيمون في بيتهم حفلة الليلة. ولسوف يُقدَّم للأميرة العجوز بيلوكوفسكي رغم أنه، كما أعتقد، يعرفها. ومن المحتمل أن تعلن الخطبة رسمياً. وكل ما يخشونه أنه قد يقع بشيء

على الأرض، أو يتعثر في شيء عندما يدخل الغرفة، فليس هذا ببعيد عنه.
وراح جانبا ينصت بانتباه. ولكنه لم يكن - لاندهاش أخته - شديد
الانفعال بهذه الأنباء «التي يجب أن يكون لها- في رأيها- أهميتها الكبرى
بالنسبة له».

وقال بعد برهة تفكير:

- حسنًا. إن الأمر كان واضحًا منذ البداية.

ثم أردف قائلاً بابتسامة مريرة:

- وها هي ذي النهاية.

واستمر يروح ويجيء في الغرفة، ولكن بسرعة أبطأ كثيرًا عن ذي قبل،
كما كان يختلس النظر إلى وجه أخته التي قالت أخيرًا:

- جميل منك أن تقبل هذا الأمر بمثل هذه الروح الفلسفية. وأنا على
كل حال جد مسرورة بما حدث.

- نعم؛ لأننا استرحنا من هذا الموضوع، أو على الأصح، استرحتِ
أنت منه.

- أعتقد أنني خدمتك بإخلاص. بل لم يحدث قط أن سألتك: أية
سعادة تلك التي كنت تتوقع أن تجدها في الحياة مع أجلايا!

- وهل حدث أنني كنت أتوقع السعادة يومًا مع أجلايا؟

- أوه، لا تسرف في الاعتماد على ذكائك في هذا الأمر، لقد كنت طبعًا
تتوقع السعادة معها. أما الآن فقد انتهى كل شيء، وعلى خير أيضًا. لشد
ما كانت حماقتنا معًا! إنني أعترف أنني لم أكن أنظر إلى هذا الموضوع من

زاوية جادة قط. وإنما شغلت نفسي به فقط من أجلك على أمل أن الإنسان لا يعرف ماذا قد يحدث من فتاة عجيبة كهذه. أما الأمل في نجاح هذا المشروع فلم يكن يزيد نسبياً على واحد في المائة. وأنا حتى هذه اللحظة لا أستطيع أن أعرف لماذا كنت تريد الزواج منها؟
فهمهم ثم قال ضاحكاً:

- أظن الآن أنك وزوجك لن تكفا عن دفعي إلى العمل مرة أخرى. وسوف تبدأين محاضرتك عن وجوب التذرع بالصبر وقوة الإرادة وما إلى هذا. فأنا أعرف هذا كله عن ظهر قلب.

وقالت فاريا لنفسها: «لا شك أن فكرة ما جديدة قد خطرت بذهنه».
وسألها جانينا قائلاً على حين غرة:

- هل هم سعداء، أعني أصحابنا هناك.. الوالدين؟

- لـ. لا، لا أظن أنهما كذلك. ويمكنك أن ترى هذا بنفسك. وأظن أن الجنرال مسرور. ولكن أمها على شيء من القلق، إذ كانت دائماً تتقزز من مجرد التفكير في الأمير كزوج. وهذا ما يعرفه الجميع.

- هذا أمر طبيعي. فإن العريس شخصية غريبة شاذة. ولكن، هل أجاليا أعربت رسمياً عن موافقتها؟

- إنها لم تقل لا حتى الآن، هذا هو كل شيء. وتلك هي طبيعتها دائماً. وأنت تعرف هذا عنها، أي تعرف إلى أي حد يغلبها الحياء والخجل على أمرها. وإنك لتذكر كيف كانت تختبئ ساعات شديدة في خزانة الملابس، وهي طفلة حتى تتجنب مقابلة الزوار، وهي الآن تماماً كما كانت. ولكن،

هل تعلم أني أظن أن ثمة شيئاً خطيراً في هذا الأمر، حتى من جانبها! إنني أشعر بهذا على نحو ما. إنها، كما يقولون، تسخر من الأمير من الصباح إلى المساء لكي تخفي حقيقة مشاعرها. ولكنك يمكنك أن تثق بأنها تجدد المناسبة الملائمة لتقول له شيئاً ما خلصة. لأنه يبدو دائماً في حالة من السعادة والهناء. إنه كمن يسير فوق السحاب، ويقولون إنه يبدو خفيفاً مثيراً للضحك. وقد سمعت هذا منهم. ويلوح لي أنهم يضحكون مني خلصة، وأعني الأختين الكبيرين، ولست أدري لماذا؟

وبدأ جانبا يتجهم. ولعل أن فاريا قد أضافت العبارة الأخيرة إلى حديثها لكي تستشف ما يدور بذهنه. إلا أنه حدث في تلك اللحظة أن ارتفعت الأصوات مرة أخرى في الطابق العلوي.

وصاح جانبا وقد سره أن يجد شيئاً يفتأ فيه غضبه:

- لسوف أطرده. سأطرده حالاً. إننا لا نستطيع احتمال هذا الوضع.

- إنك لو فعلت ، فسوف يمضي ويفضحنا هناك كما فعل أمس.

فقال جانبا في جزع:

- كما فعل أمس! ماذا تعنين؟ ماذا فعل أمس؟

فقالت فاريا في دهشة وقلق:

- ويحي! ألم تكن تعلم؟

فصاح جانبا وقد اضطرم وجهه بحمرة الغضب والشعور بالعار:

- ماذا؟ إنك لا تعنين أنه ذهب أمس إلى.. إلى هناك! يا إله السماء،

تكلمي يا فاريا. إنك جئت من هناك الآن، فهل كان هناك أم لا؟

ثم اندفع جانبا مسرعاً نحو الباب، ولكن فاريا تبعته وأمسكت بيديه
قائلة:

- ماذا تنوي أن تفعل؟ إلى أين أنت ذاهب؟ إنك لا تستطيع أن تجعله
يرحل الآن؛ لأنك لو فعلت، فسوف يزداد الأمر سوءاً.
- ماذا فعل هناك؟ وماذا قال؟

- إنهم لم يستطيعوا أن يقولوا لي بأنفسهم شيئاً. ويبدو أنهم لم
يستطيعوا أن يفهموا منه شيئاً. وكل ما فعله أنه أفرغهم جميعاً. لقد ذهب
لمقابلة الجنرال الذي لم يكن موجوداً بالبيت عندئذ. ومن ثم طلب مقابلة
المسز إيبانشين. وقد التمس منها في أول الأمر أن تجده له عملاً من أي نوع،
ثم راح يشكو منا. مني ومن زوجي ومنك، ولا سيما منك أنت. وقد تحدث
بكلام كثير في هذا الشأن.

فغمغم جانبا قائلاً وهو يرتعد من فرط التوتر العصبي:

- أوه! ألم تعرفي ماذا قال أو فعل أكثر من هذا؟
- لا، لا شيء أكثر من هذا. ولا عجب، فإنهم لم يستطيعوا أن يفهموه،
ومن المحتمل جداً أنهم لم يذكروا لي كل شيء.
ووضع جانبا رأسه بين يديه، وسار مترنحاً نحو النافذة، بينما جلست
فاريا إلى النافذة الثانية.

وبعد برهة من الصمت قالت فاريا:

- إن أجلايا فتاة غريبة الأطوار، فعندما انصرفت عنها، قالت لي:
«بلغني تحياتي واحتراماتي الخاصة إلى والديك. وسوف أنتهز لا شك
الفرصة لزيارة والدك يوماً»، وكانت تتحدث بلهجة جادة أشد الجدة. فيا لها

من مخلوقة عجيبة!

- ألم تكن هازلة؟ ألم يكن في حديثها معنى التهكم؟

- لا، مطلقاً. وهذا هو العجيب في الأمر.

- هل تظنين أنها تعرف موضوع أبي، أم لا؟

- من المؤكد أنهم لا يعرفون موضوعه في البيت. أعني الجميع فيما عدا أجلايا. ولكنك ذكرتي بشيء، فإن أجلايا ربما تعرف؛ لأن أختيها كانتا مندهشتين حينما سمعتا وهي تتحدث معي بهذه اللهجة الجادة. وإذا كانت تعرف فلا شك أن الأمير هو الذي أخبرها.

- أوه. إنه ليس بالأمر العسير أن نعرف من الذي أخبرها. ويحي! أيكون بيننا لص؟ ويكون هذا اللص في أسرتنا، بل ورأس الأسرة أيضًا.

فصاحت فاريا غاضبة:

- أوه، هراء! إن ما حدث لم يكن غير أكاذيب رجل سكران. هراء! ثم من الذي ابتكر القصة كلها؟ إنهما ليبيدف والأمير، ويا لهما من رجلين! ولعل الاثنين كانا مخمورين.

فقال جانبا مستطردًا بمرارة:

- إني أبي سكير ولص، وأنا إنسان متسول عاطل، وزوج أختي مراب. فيا لها من قائمة مشرفة تسعد قلب أجلايا!

- إن زوج أختك هذا.. المرابي...

- يطعمني! استمري، لا تدعي الرسميات تمنعك من الحديث.

- لا تفقد زمام أعصابك. إنك تبدو تمامًا كتلميذ صغير. وإنك تظن أن

هذا كله قد يسيء إلى مركزك في نظر أجلايا. أليس كذلك؟ إذن فأنت لا تعرف الكثير عن طبيعتها، إنها قادرة على أن ترفض الزواج بأحسن شخص مناسب لها، لكي تهرب مع طالب بائس حيث تجوع معه في جحر حقير. هذه هي طبيعتها الحقّة. إنك لن تستطيع أن تدرك أبدًا كيف يمكن أن تكون موضع اهتمامها وتقديرها إذا أنت استطعت أن تخرج من هذه المحنة مرفوع الرأس، أبيّ النَّفس. ولقد استطاع الأمير أن يصيدها؛ لأنه لم يفكر - أولاً - في الجري وراءها قط. ولأنه، ثانيًا، يبدو أبله في نظر معظم الناس. وإنه ليكفيها رضى أن تثير السخط في محيط أسرتها بقبولها إياه. وهذا هو ما نريده بالذات، والواقع أنك لا تفهم هذه الأمور.

فقال جانبا متهكمًا:

- سوف نرى ما إذا كنت أفهم أم لا. ولكنني كنت أتمنى لو أنها لم تعرف موضوع أبي على كل حال. وقد ظننت أن الأمير، على الأقل، سوف يمسك لسانه في هذا الموضوع. ذلك أنه منع لبيديف من إذاعة الخبر، بل إنه أبى أن يتحدث إليّ بكل شيء عندما سألته.

- إذن فلا بد أنك ترى أنه غير مسئول عما حدث. وأيًا كان الأمر، فماذا يهملك الآن؟ ما الذي تأمل فيه بعد؟ إذا كان بعض الأمل لا يزال يراودك، فلا شك أنك تعتمد على أن آلامك النفسية سوف تثير في قلبها العطف عليك.

- أوه، إنها سوف تجزع من الفضيحة كأبي شخص آخر. إنكن جميعًا مصنوعات في قالب واحد.

- ماذا؟ أعتقد أن أجلايا تجزع؟

قالت فاريا ذلك وهي تنظر إلى أخيها في احتقار، ثم استطردت تقول:

- إنك يا جانيا إنسان خائر العزم. إنه ليس بيننا من يرتفع إلى مستوى أجلايا، إنها قد تكون فتاة هوجاء، ولكنها أنبل قلبًا من أي واحد بيننا، أنبل ألف مرة.

فقال جانيا:

- أوه، مهلاً يا فاريا، فليس هناك ما يدعو إلى هذا الغضب!
- إن كل ما أخشاه أن تعلم أُمي، أخشى أن تصل أنباء هذه الفضيحة إلى مسامعها، ولعلها قد وصلت، ولشد ما أنا خائفة!

فقال جانيا:

- لا شك أنها علمت بالأمر.
وكانت فاريا قد نهضت عن مقعدها وبدأت تتجه للصعود إلى أمها، ولكنها حين سمعت عبارة جانيا، استدارت إليه، وركزت نظراتها عليه قائلة:

- من يمكن أن يكون قد أخبرها؟
- ربما إيبوليت. إنه قد يرى أن من أمتع الأشياء في الحياة أن يخبرها بمجرد وصوله إلى هنا. ولست أشك في هذا.
- ولكن كيف يمكنه أن يعرف شيئاً عن هذا الأمر؟ لقد قرر الأمير وليبيديف أن يكتما الموضوع عن الجميع، حتى كوليا لا يعرف شيئاً.

- إنك لا تعرفين إيبوليت إذن! فلا شك أنه عرف بالموضوع من تلقاء نفسه. ويبدو أنك لا تعرفين أي حيوان ماهر ذلك المدعو إيبوليت، وأي ثرثار قدر أيضاً! إن لديه قدرة عجيبة على تشتم أسرار الناس، أو على

التقاط كل ما يقرب من الفضائح. صدقيني إن شئت أو كذبيني، فإنني جد واثق بأنه أبلغ هذا النبأ إلى أجلايا بطريقة ما. وإذا لم يكن قد فعل هذا، فسوف يفعله عن قريب. وإن روجوجين على صلة وثيقة به أيضًا. وإنني لا أفهم كيف لم يلاحظ الأمير هذا. وإن ذلك الشقي الصغير يعتبرني الآن عدوًّا له، ومن ثم فهو يبذل جهده للإيقاع بي. وأي شيء يهمه على الإطلاق ما دام مشرفًا على الموت؟ وعلى كل حال سوف ترين من منا الذي سيوقع بصاحبه!

- لماذا جئت به إلى هنا ما دمت تكرهه إلى هذا الحد؟ ثم هل من المهم كثيرًا أن نسوي الحساب معه؟

- عجبًا! إنك أنت التي نصحتني بإحضاره!

- ظننت أنه قد يفيدنا. فأنت تعلم أنه الآن يحب أجلايا وقد كتب إليها، بل لقد كتب إلى المسز إيبانشين نفسها.

وهنا ضحك جانيا بغضب:

- أوه، لا خطر منه في هذا المجال! لقد كنت أرى على كل حال أن ثمة شيئًا في الجو يتم عمّا تقولين. فمن المحتمل جدًا أنه يحبها؛ لأنه لا يعدو أن يكون غلامًا مراهقًا، ولكنه ما كان ليكتب خطابات بلا توقيع للسيدة العجوز المسز إيبانشين؛ لأن هذا عمل أحقر من أن يحاول القيام به. ولكن يمكنني أن أقسم أن أول ما يمكن أن يفعله هو أن يكشفني أمام أجلايا كإنسان مخادع متآمر. وأعترف أنها حماقة مني حين حاولت أن أستعين به في أول الأمر. لقد ظننت أنه سوف يضع نفسه في خدمتي بدافع من الرغبة في الثأر من الأمير، فإيا له من حيوان مقاتل صغير! ولكنني الآن أعرفه على حقيقته.

أما عن حادث السرقة فربما سمع به من الأرملة المقيمة في بطرسبرج؛ لأن الرجل العجوز لم يرتكب في الواقع هذا العمل المشين إلا لكي يدفع المال إليها. وقد قال إيبوليت لي، بكل صراحة، إن الجنرال وعد الأرملة بمبلغ أربعمائة روبل. وقد فهمت بطبيعة الحال كل شيء. ولكن الشقي الصغير وجه إليَّ نظرات تنم عن الشماتة والتشفي. وأنا أعرفه، ويمكنك أن تثقي بأنه قد ذهب وأخبر أننا أيضًا لمجرد الاستمتاع برؤيتها تتألم. ثم لماذا لم يمت؟ هذا ما أريد أن أعرفه. لقد تكفل بأن يموت في خلال ثلاثة أسابيع، وها هو ذا يزداد بدانة. وقد تحسنت حالة السعال معه أيضًا. وبالأمر فقط قال لي إنه اليوم الثاني الذي لم ينفث فيه دمًا مع السعال.

- حسنًا. اطرده.

فقال جانبا بعظمة:

- إنني لا أكرهه، ولكنني أحتقره.

ثم إذا به يردف قائلاً في غضب مفاجئ:

- حسنًا، إنني أكرهه إذا شئت. ويمكنني أن أقول له هذا في وجهه حتى وهو يحتضر. يا إلهي! لو أنك فقط قرأت اعترافاته! إنها أنموذج ممتاز من الوقاحة والجرأة. أوه، لشد ما تمنيت عندئذ لو أنني ضربته بالسوط كأني تلميذ بليد لأرى إلى أي حد تستبد به الدهشة! إنه الآن يكره كل إنسان لأنه، أوه، ما هذا الذي يفعلونه هنا بحق السماء؟ أسمعين هذا الضجيج؟ إنني لا أستطيع في الواقع أن أحتمل أكثر من هذا.

ثم صاح حين رأى بيتسين يدخل الغرفة:

- بيتسين! إلى أي مصير سوف ننحدر بحق السماء.. أسمع هذا؟..

ولكن ضجة الأصوات أخذت تقترب بسرعة، ثم إذا بالباب يفتح
بعنف وإذا بالجنرال إيفولجين يندفع بوجه مضطرم بالغضب والثورة،
وبجسم يرتعد من فرط الانفعال. وكانت تتبعه زوجته نينا ألكسندروفنا
وكوليا، ووراء الجميع، إيبوليت.



الفصل الثاني

كان إيبوليت قد أقام حتى ذلك الحين خمسة أيام في ضيافة آل بيتسين. وكان انتقاله من مسكن الأمير إلى هذه المثابة الجديدة قد حدث بطريقة طبيعية، وبغير كثير من الكلام. إنه لم يشتبك مع الأمير في خصومه ما بل بدا أنهما، في الواقع، قد افترقا صديقين. وكان جانبا الذي بدا في تلك الليلة الحافلة بالأحداث، في حالة من العداء والنفور، قد جاء بعدها بيومين لزيارته. ولعله فعل هذا إرضاء لرغبة مفاجئة. وبدأ روججين أيضًا، لسبب ما، في زيارة الفتى المريض. وخطر للأمير أنه قد يكون من الأفضل له أن يرحل عن بيته «بيت الأمير». وقد أخبره إيبوليت، وهو ينصرف، أن بيتسين «قد تعطف وعرض عليه الإقامة في ركن بمسكنه»، ولكنه لم يقل شيئًا عن جانبا، رغم أن هذا الأخير هو الذي حمل هذه الدعوة، وجاء بنفسه ليصعبه. وقد لاحظ جانبا هذا الموقف في حينه، ووضعه في قائمة الحساب مع إيبوليت.

وكان جانبا صادقًا حين قال إن صحة إيبوليت تتحسن، والواقع أنه كان يبدو أحسن حالًا من النظرة الأولى. وقد دخل الغرفة الآن في ذيل الجميع،

متعمداً، وعلى شفّيته ابتسامة نكراء.

وأقبلت نينا ألكسندروفنا ووجهها ينم عن الخوف. وكانت قد تغيرت كثيراً منذ أن رأيناها آخر مرة، أي منذ ستة أشهر، فأصبحت أكثر هزاً وشحوباً. وكانت أمارات القلق والحيرة ترسم على وجه كوليا؛ ذلك أنه لم يكن قادراً على فهم سورة الجنرال؛ لأنه لم يكن يعرف شيئاً عن آخر مغامرات هذا العجوز التي سببت كل هذه الضجة في أنحاء البيت. ولكن كان في مقدوره أن يلاحظ أن أباه قد تغير كثيراً في الآونة الأخيرة، وأنه قد بدأ يتصرف بطريقة شاذة سواء كان في البيت أو في الخارج؛ حتى خُيِّل إليه أنه لم يعد نفس الرجل الذي يعرفه. وكان أشد ما أثار حيرته وارتباكاً أن أباه قد أقلع تماماً عن شرب الخمر في الأيام القليلة الأخيرة. وكان كوليا يعرف أن أباه اشتبك في نزاع مع لبيديف والأمير، ومن ثم فإنه - أي كوليا - قد اشترى زجاجة فودكا وجاء بها إلى البيت ليقدمها له.

وكان قد قال لأمه وهو معها في الطابق العلوي ليطمئنهما:

- يحسن بنا في الواقع يا أماه أن ندعه يشرب؛ فإنه لم يذق قطرة من الخمر منذ ثلاثة أيام، ولا شك أنه يعاني آلام...

وكان الجنرال قد اقتحم الغرفة الآن بعد أن فتح بابها على مصراعيه، ثم وقف في مدخلها وهو يرتعد سخطاً واستنكاراً:

وأخيراً وجه الحديث إلى بيتسين قائلاً بصوت مرتفع جداً:

- اسمع يا سيدي العزيز، إذا كنت حقاً قررت أن تضحي برجل عجوز، هو بمثابة والدك، أو على أية حال، والد زوجتك، وهو نفس العجوز الذي خدم في جيش بلاده، أقول، إذا كنت قررت أن تضحي بمثل هذا الرجل من

أجل فتى ملحد كهذا، فإن كل ما في وسعي أن أقوله يا سيدي، هو أنني لن أطأ عتبة بيتك أبداً. وعليك أن تختار الآن وبسرعة من فضلك. إياي أم هذا المثقاب؟ أجل. مثقاب يا سيدي. لقد نطقت بها عفواً، ولكن فليكن. هذا المثقاب؛ لأنه يشق وينخر لنفسه طريقاً في أعماق روحي.

فقال إيبوليت:

- ألم يكن من الأفضل أن تسميني «بريمة»!

- لا يا سيدي، لست بريمة؟ لأنني جنرال ولست زجاجة. والآن، عليك أن تختار يا سيدي، إياي أم إياه!

وهنا قدم كوليا إليه مقعداً، فتهالك عليه وهو يلهث بالغضب.

وغمغم بيتسين المذهول:

- ألا يحسن بك أن تغفو قليلاً؟

فصرخ الجنرال قائلاً:

- أغفو؟ إنني لست مخموراً يا سيدي. إنك بهذا تهينني.

ثم نهض واستطرد يقول:

- أرى.. أرى أنكم جميعاً ضدي، وهذا يكفي، لسوف أرحل. ولكن اعلموا أيها السادة أنني..

ولم يُسمح له باستكمال عبارته؛ لأن أحدهم دفع به وأجلسه على المقعد، وراح يرحوه أن يهدأ. وكانت زوجته المسز إيفولجين ترتعد وتبكي في صمت، بينما عاد جانبا إلى النافذة متقرّزاً.

وقال إيبوليت والابتسامة النكراء على شفثيه:

- ولكن ماذا فعلت؟ ما سبب غضبه مني؟

فقالت نينا ألكسندروفنا:

- ألا تعرف حقاً ما فعلت؟ كان ينبغي أن تخجل من نفسك قبل أن تسخر من رجل عجوز على هذا النحو، وعلى الرغم من مركزك أيضاً.

- وما هو مركزي يا سيدتي؟ أرجوك أن تخبريني به، فإنني أحمل لك شخصياً كل احترام، ولكن...
فصاح الجنرال قائلاً:

- إنه مثقاب صغير، وقد صنع في قلبي وروحي ثقباً لن يلتئم، إنه يريد مني أن أتحوّل إلى ملحد. ولكن اعلم أيها المراهق أن صدري امتلأ ذات يوم، قبل أن تولد، بأوسمة الشرف. أما أنت فلا تزيد عن دودة صغيرة بائسة ممزقة بالسعال، وعلى وشك الموت بسبب ما أنت عليه من شر وإلحاد. ولست أدري لماذا جاء بك جانيا؟ ولكنهم جميعاً ضدي، حتى ابني، إنه يقف أيضاً ضدي.

فصاح جانياً قائلاً:

- أوه، هذا هراء! فلو لا أنك لم تفضحنا جميعاً في أنحاء البلدة، لكان من الممكن أن تتحسن الأمور بالنسبة للجميع.

- ماذا؟ أفضحك؟ ماذا تعني أيها العجل الصغير؟ إنني لا أستطيع إلا أن أشرفك، لا أن أفضحك.

ثم وثب واقفاً في حالة من الغضب الجامح، ولكن جانيا كان أيضاً في أشد حالات الغضب وهو يقول باحتقار:

- تشرفني! حقًا!

فدمدم الجنرال وهو يخطو نحوه قائلاً:

- أقول إن ما عليّ فقط ألا أفتح فمي حتى...

ولكن جانيا لم يستكمل عبارته، وإنما وقف أمام أبيه - الأب والابن وقفا وجهًا لوجه، وكلاهما في حالة احتياج لا توصف - لا سيما جانيا.

وصاحت المسز إيفولجين قائلة:

- جانيا، جانيا، لا تنهز...

فقالت فاريا بحدة:

- إن هذا كله هراء من جانبيهما، دعيهما وشأنهما يا أمه.

وقال جانيا بصوت مؤثر:

- من أجل أمي فقط أعفو عنك.

فقال الجنرال وهو يكاد يفقد عقله من فرط الغضب والانفعال:

- تكلم.. تكلم وتحمل في النهاية اللعنة الأبوية.

فقال جانيا:

- إلى الجحيم باللعنة الأبوية، إنك لن تخيفني بهذا. من المسئول عن تصرفاتك الجنونية طيلة هذا الأسبوع! إنه أسبوع تمامًا؛ لأنني أحصي الأيام كما ترى. فكن على حذر ولا تثرني أكثر من هذا وإلا أفشيت كل شيء. لماذا ذهبت إلى منزل آل إيبانشين أمس؟ تكلم! أو تقول إنك رجل عجوز، وَخَطَّ الشيب شعره أيضًا، ورب أسرة! هه! يا لك من رب أسرة لطيف!

فصاح كوليا قائلاً:

- اسكت يا جانيا! اخرس أيها الأحمق.

وعاد إيپوليت يقول بنفس اللهجة السافرة المتحدية:

- ولكن كيف أسأت إليه أنا؟ ولماذا يدعوني مثقاباً؟ لقد سمعتموه جميعاً. لقد جاءني بنفسه وأخذ يحدثني عن شخص يدعى الكابتن إيروبيجوف. وأنا لا أريد صحبتك يا جنرال، وقد كنت دائماً أتجنبك، وأنت تعلم هذا. فما شأني أنا بالكابتن إيروبيجوف؟ إن كل ما فعلته هو أنني أعرب عن رأيي بأن من المحتمل ألا يكون للكابتن إيروبيجوف وجود على الإطلاق.

فقال جانيا مقاطعاً:

- طبعاً لم يكن له وجود قط.

ولكن الجنرال وقف مذهولاً يحملق فيما حوله بنظرات زائغة. ويبدو أن حديث جانيا بصراحته الرهيبة قد ترك أثره العميق في نفسه؛ لأنه لم يستطع - لأول مرة - أن يرد عليه في الحال. وفجأة انفجر إيپوليت ضاحكاً وهو يقول:

- أترى! حتى ابنك يؤيد رأيي في أنه لم يكن ثمة وجود إطلاقاً لشخص يدعى الكابتن إيروبيجوف.

وهنا فقط غمغم الرجل العجوز بارتباك قائلاً:

- إنه كابيتون إيروبيجوف - وليس الكابتن إيروبيجوف. كابيتون إيروبيجوف إنه ضابط متقاعد برتبة ميajor.

فقال جانيا في إصرار خبيث:

- وليس لكابيتون وجود أيضًا.

فهتف الجنرال المسكين قائلاً وقد اربد وجهه:

- ماذا؟ أليس له وجود؟

وصاحت فاريا وييتسين في صوت واحد:

- كفى هذا يا جانيا.

وقال كوليا:

- اخرس يا جانيا.

ويبدو أن هذا التدخل قد أعاد إلى الجنرال حماسته، فقال:

- ماذا تعني بقولك إنه ليس له وجود يا سيدي؟

ثم أردف قائلاً في غضب:

- فسر موقفك!

- لأنه لم يكن له وجود، ولن يكون له وجود أبداً، ويحسن أن تدع

الحديث في هذا الموضوع.. إنني أحذرك.

- آها، ويقولون إن هذا ابني - ابني من دمي ولحمي، ابني الذي...

يرعانا الله! أليس لإيروبيجوف، إيروشكا إيروبيجوف، وجود؟

فضحك إيبوليت قائلاً:

- هاها، إنه الآن إيروشكا!

- لا يا سيدي، أعني كابيتوشكا، وليس إيروشكا، كابيتوشكا

أليكسييتش الضابط المتقاعد برتبة ميajor، والمتزوج من ماريا بترونالولو.

لقد كان صديقًا وزميلًا لي منذ الشباب، نعم، إنه زوج ماريا لتوجوف، وقد مات بين يدي، قُتل في الميدان. ها ها، حقًا إن كابيتون إوروبيجوف لا وجود له!

وكان الجنرال يصيح في غضبه، ولكن الواضح أن غضبه لم يكن مندلًا بسبب الشك في وجود كابيتون. فقد جعل من هذا الموضوع «كباش فداء» لموضوع آخر. ذلك أن احتياجه كان ناشئًا عن سبب آخر جد مختلف. وقد كان المعتاد في مثل هذه الحالات أن يتحدى الشك في وجود كابيتون بأن يسرد عنه قصة طويلة عريضة ثم ينتهز أول فرصة وينسحب إلى غرفته بالطابق العلوي، ولكنه اليوم - وهذا من عجائب الطبيعة البشرية المتقلبة - كان كما يلوح في حاجة إلى هذه الإساءة البسيطة لتفويض كأس غضبه. وقد اربد وجهه من ثم، ورفع يديه وصاح قائلاً:

- كفى هذا. اللعنة عليكم، أفسحوا لي الطريق، لسوف أخرج من هذا البيت، انت لي يا كوليا بحقيتي...

ثم انصرف مسرعًا وهو في أشد حالات الغضب.

وأسرعت زوجته وراءه مع كوليا وبيتسين بينما قالت فاريا لجانيا:

- ما هذا الذي فعلت؟ من المحتمل أن يمضي إلى هناك الآن مرة أخرى. فيا للفضيحة.

فصاح جانيا وهو يلهث بالغضب:

- ما كان ينبغي أن يسرق..

ثم التقت نظراته بنظرات إيبوليت، فأردف قائلاً له:

- أما أنت يا سيدي، فقد كان ينبغي أن تتذكر، على الأقل، أنك لست

في بيتك، وأنت تستمتع بضيافتنا، ومن ثم فلم يكن من الواجب أن تنتهز مثل هذه الفرصة لتعذب رجلاً مسنّاً ليس في كامل وعيه كما يبدو.

واستبد الغضب بإيبوليت، ولكنه تمالك نفسه وقال بهدوء:

- إنني لا أتفق معك على أن أباك ليس في كامل وعيه، بل على العكس، إنني لا أستطيع إلا أن أراه أكثر تعقلاً في الأيام الأخيرة. ألا ترى أنت هذا أيضاً؟ لقد ازداد حذراً ودهاءً، وأصبح يزن كلماته بحرص، وقد تحدث معي عن ذلك المدعو كابيتون لغرض معين. فتصور فقط، أنه أراد مني أن...

فصاح جانبا قائلاً:

- أوه، ليأخذ الشيطان ما أراده منك! لا تحاول أيها الفتى أن تسرف في الدهاء معي. فلو أنك كنت تعلم السبب الحقيقي لحالة أبي الراهنة.. ولا شك أنك تعلم السبب؛ لأنك حرصت على أن تتجسس علينا خلال الأيام القليلة التي أمضيتها هنا.. أقول لو أنك علمت السبب الحقيقي، لما كان لك أي حق في تعذيب هذا الرجل البائس، وبإشاعة القلق والاضطراب في نفسية أُمِّي بسبب إسرائفك في تصوير الموضوع - هذا بينما أن الأمر كله هراء، مجرد مزاعم رجل سكير، لا أكثر، وليس ثمة أي دليل عليه، ومن ثم فأنا لا أصدق حرفاً مما قيل. وما كان يليق بك أن تتجسس علينا؛ لأنك، لأنك..

فقال إيبوليت ضاحكاً:

- مثقاب!

- لأنك دجال يا سيدي، ولأنك لم تتورع عن إزعاجنا نصف ساعة

وأنت تحاول أن تفرغنا وتجعلنا نصدق أنك ستطلق الرصاص على رأسك من مسدس فارغ، متظاهراً بالرغبة في الانتحار! لقد استضيفناك هنا، وتحسنت صحتك بفضل هذه الضيافة، وزالت عنك نوبات السعال، وها أنت ذا ترد هذا الجميل كله..

- أرجو أن تسمح لي بكلمتين! إنني ضيف فاريا أرداليونوفيتش. لاضيفك أنت. إنك لم تشر عليّ ظل ضيافتك، بل على العكس، فأنا أظن - وأرجو ألا أكون مخطئاً في هذا الظن - إنك أيضاً مدين بضيافة بيتسين لك. وقد التمسيت من أمي، منذ أربعة أيام، أن تأتي وتبحث لي عن مسكن في هذه البلدة؛ لأنني شعرت بتحسّن أكيد، وإن كنت لم أضمن، كما زعمت، ولم أخلص تماماً من السعال. واليوم علمت أن غرفتي قد أُعدت لي، وأني من ثمّ أنوي الرحيل عن هذا البيت في المساء بعد أن أشكر أمك وأختك لما لقيت منهما من عطف وترحيب. وإني ألتمس منك المَعذرة، إذ يبدو أنني قاطعتك، وكنت، كما أظن، تريد أن تضيف إلى أقوالك شيئاً.

فقال جانيا:

- أوه، إذا كان الأمر كما تقول..

فقاطعه إيوليت قائلاً وهو يجلس:

- معذرة، لسوف أتخذ لنفسني مقعداً؛ لأنني لا زلت ضعيف الجسم. وهأنذا الآن مستعد لأن أنصت إليك، لا سيما أن هذه آخر فرصة نتبادل فيها الحديث، ومن المحتمل جداً ألا نلتقي بعد ذلك أبداً.

وأحس جانيا بشيء من الندم، ثم قال:

- أؤكد لك أنني لم أكن أقصد أبداً أن أحاسبك على شيء، وإذا كنت..

فقاطعه إيبوليت مرة أخرى قائلاً:

- إنني لا أفهم معنى لهذا الموضوع من جانبك - أما أنا فقد عاهدت نفسي منذ أول يوم جئت فيه إلى هذه البيت، أن أستمع بتسوية الحساب معك بطريقة كاملة شاملة قبل أن أرحل. وأنا أنوي أن أقوم بهذا الآن، إذا شئت، وذلك بعد أن تقول كل ما تريد طبعاً.

- هل يمكن أن تتكرم وتغادر هذه الغرفة؟

- يحسن أن تقول ما تريد أن تقوله لي، وإلا فسوف تندم على هذا فيما بعد.

وهنا قالت فاريا:

- إيبوليت، كفى هذا أرجوك. إن هذا لا يليق أبداً.

فقال إيبوليت ضاحكاً:

- حسناً! إكراماً لسيدة مثلك سوف أرجئ تسوية الأمر، سوف أرجئه إلى حين فقط يا فاريا أرداليانوفاً لأنه أصبح من الضروري جداً أن نسوي الأمر بيننا، ولهذا لا أستطيع مجرد التفكير في الرحيل عن هذا البيت قبل أن أزيل كل سوء تفاهم أولاً.

فصاح جانيا قائلاً:

- هذا يعني في كلمة واحدة أنك من هواة نشر الفضائح. وأنك لا تطيق الرحيل دون أن تشير فضيحة ما.

فقال إيبوليت ببرود:

- ها أنت ذا لا تستطيع أن تتمالك نفسك، كما ترى، ولسوف تندم كل

الندم فيما بعد إذا لم تتحدث بما في نفسك الآن- هلم، لسوف يكون لك حق الحديث أولاً، وسوف أنتظر..

فالتزم جانبا الصمت، واكتفى بالنظر إليه في احتقار. وعندئذ قال إيبوليت:

- إنك لن تفعل؟ حسناً. لسوف أوجز في حديثي عنك بقدر ما أستطيع. لقد ألقيت في وجهي بكلمة «الضيافة» مرتين أو ثلاثة هذا اليوم. وليس هذا من الإنصاف في شيء، فإنك بدعوتك لي قد أردت استغلالي لمصالحك، ظننت أنني أريد أن أثار لنفسي من الأمير. وكنت قد سمعت أن أجلايا إيفانوفنا تعطف عليّ بعد أن قرأت اعترافاتي. ولما تأكدت أنني مستعد لأن أضع نفسي في خدمتك، داعبك الأمل في أنني قد أكون ذا فائدة لك. وأنا لن أدخل في التفاصيل، ولكنني أقول فقط إنني لن أطلب منك أن تعترف بهذا كله أو أن تؤكده، ويكفيني أن أترك هذا الموضوع لضميرك، وأن أشعر بأن كلاً منا يفهم الآخر تماماً.

فصاحت فاريا قائلة:

- أية قصة هذه التي تنسجها من ظروف عادية جداً!

وقال جانبا:

- لقد قلت لك إن هذا الفتى هاوٍ لنشر الفضائح.

فقال إيبوليت:

- معذرة يا فاريا، لسوف أستمّر في الحديث. إنني لا أستطيع، بطبيعة الحال، أن أحب أو أحترم الأمير، وذلك رغم أنه إنسان طيب القلب، غريب الأطوار بعض الشيء، إلا أنه ليس ثمة ما يدعو إلى كراهيتي له. وأنا أدرك

تمامًا شعور أخيك عندما عرض عليّ مساعدته في أول الأمر، ضد الأمير، وذلك رغم أنني لم أكتشف عن إدراكي هذا. إلا أنني كنت أعلم تمامًا أن أخاك قد ارتكب خطأ مضحكًا في اعتماده عليّ. وأيًا كان الأمر، فإنني مستعد لأن أعفو عنه، حتى في هذه اللحظة، وذلك بدافع فقط من احترامي لك يا فاريا أرداليانوف.

واستطرد إيبوليت يقول:

- وبعد أن بينت لكما الآن أنني لست غيبًا كما يبدو عليّ، وأنه ليس من السهل الإيقاع بي، سوف أستمّر في الحديث لأبين كيف أنني رغبت - بوجه خاص - أن أجعل أخاك يبدو غيبًا أحمق! وأنا لن أنكر أن الكراهية هي القوة التي حفزني إلى هذا، لقد أحسست بها قبل الموت - وأنا الآن على وشك الموت رغم كل مظاهر البدانة التي بدت على جسمي - إنه من الواجب المحتم أن أكتشف عن حماقة واحد - على الأقل - من طبقة هؤلاء الناس الذين أذلوني مدى الحياة، والذين أحمل لهم كل الكراهية، والذين يمثلهم أخوك المحترم. إنني ما كنت لأستمتع بالجنة إذا لم أفعل هذا قبل أن أموت. إنني أكرهك يا جانبا، لا لشيء إلا لأنك الأنموذج، الرمز، المثل الأعلى للشخصية العادية بكل سوقيتها، ووقاحتها، وغرورها، وحقارتها. إنك إنسان أقل من العادي أيضًا، ولن تستطيع أبدًا أن تحقق الأهداف التي تملأ رأسك، ومع ذلك فإنك حסود مغرور بقدر ما يمكن لإنسان أن يغتر ويحسد، إنك تعتبر نفسك عبقرًا عظيمًا، وإنك لشديد الاقتناع بهذا الوهم، رغم ما يعتريك في أوقات الانقباض من شك وغضب عندما تحس أن هذه الحقيقة ليست مؤكدة. إن هناك وصمات سوداء في سمائك، ولسوف تختفي عندما تصبح غيبًا أحمق تمامًا. وإن أمامك الآن طريق طويل وعمر،

وإنني لسعيد كل السعادة لأنك لم تحقق أملك في فتاة معينة.

فصاحت فاريا قائلة بينما ظل جانيا صامتًا شاحب الوجه مرتعد اليدين:

- كفى، كفى، إن هذا لا يطاق. يحسن بك أن تسكت أيها الشقي
الشرير الصغير.

وشحب وجه جانيا وارتعش ولكنه لم يفه بكلمة.

وتوقف إيبوليت عن الحديث، ثم نظر إلى جانيا بإمعان وباستمتاع
بالغ، ثم تحول بنظراته إلى فاريا، ثم انحنى لها، وانصرف عن الغرفة دون
أن ينطق بكلمة أخرى.

وربما كان لجانيا عندئذ الحق في أن يشكو من القسوة التي عاملته بها
الأقدار ولم تجرؤ فاريا على أن تتحدث إليه، مدة طويلة، كان جانيا خلالها
يذرع الغرفة جيئة وذهابًا. وأخيرًا مضى نحو النافذة ووقف فيها، وراح يطل
منها وقد أولى ظهره لأخته. وكان ثمة ضجة عنيفة تجري بالطابق العلوي.
وفجأة قال جانيا حين شعر بأن أخته نهضت عن مقعدها وهمت
بمغادرة الغرفة:

- أمنصرفة أنت؟ انتظري لحظة، وانظري.

- ثم اقترب من المائدة ووضع أمامها ورقة بدت كأنها رسالة. وما إن
قرأتها فاريا حتى رفعت يديها وهتفت قائلة:

- يا إله السموات!

وقد جاء في الرسالة ما يلي:

«جافريلا أرداليونوفيتش. بعد أن آمنت بطيبة قلبك، قررت أن أسألك

النصيحة في موضوع على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لي. وإني من ثم أريد أن ألتقي بك غداً في الساعة صباحاً عند المقعد الأخضر بالحديقة العامة. إنه غير بعيد من منزلك. وإن فاريا التي يجب أن تصحبك، تعرف هذا المكان. أجلايا».

وقالت فاريا:

- كيف يستطيع الإنسان، بحق السماء، أن يفهم فتاة كهذه؟

ورغم أن جانبا لم يكن ميالاً في تلك اللحظة إلى الشعور بالزهو والخيلاء، إلا أنه لم يستطع أن يخفي إحساسه بالانتصار، لا سيما بعد تلك العبارات المهينة التي سمعها من إيبوليت، وهكذا أشرق وجهه بابتسامة كلها الثقة بالنفس، كما أن فاريا بدت في قمة السعادة.

وقالت فاريا:

- إنها تضرب هذا الموعد في نفس اليوم المقرر أن تعلن فيه خطبتها رسمياً! ترى ماذا تنوي أن تفعل بعد ذلك؟

وسألها جانبا قائلاً:

- وما هو في رأيك الموضوع الذي تريد أن تحدثني فيه؟

- لا أهمية لهذا! لأن الشيء المهم هو أنها تريد أن تراك بعد ستة أشهر من انقطاع الصلة. اسمع يا جانبا، إن هذا الأمر خطير، فيحسن ألا تختال بنفسك مرة أخرى وتخسر هذه الجولة. كن حريصاً في غير خوف أو جبن. هل تفهم ما أعني؟ لكأني بها لم تلحظ كل ما كنت أبذله من جهود في هذه الأشهر الستة الأخيرة! ومع هذا فهل تتصور أنني كنت معها في الصباح، ومع ذلك فلم تذكر لي كلمة واحدة عن هذا الأمر. لقد كنت هناك خلصة،

ولولا هذا لطردتني الأم العجوز من البيت. وقد ركبت من أجلك هذه المغامرة لأنني أريد أن أعرف حقيقة ما يجري بكل وسيلة ممكنة.

وهنا ازدادت الضجة في الطابق العلوي قوة وعنفًا، وبدأ كأن عددًا كبيرًا من الناس يندفعون هابطين.

وقالت فاريا في خوف:

- جانبا! إننا لا نستطيع أن ندعه يخرج من البيت. لم يعد في مقدورنا أن نحتمل أية فضيحة في البلدة الآن. انطلق وراءه واعتذر إليه. أسرع.

ولكن رب الأسرة كان قد اندفع إلى الطريق فعلًا، وكان كوليا وراءه يحمل له حقيبة ملابسه. أما الزوجة فقد وقفت تبكي في مدخل البيت وتحاول اللحاق بزوجها، لولا أن بيتسين كان يمنعها قائلاً:

- إنك ستزيدين فقط من سَورة غضبه. وأؤكد لك أنه سيعود بعد ساعة؛ لأنه لن يجد مكانًا يذهب إليه. لقد تحدثت مع كوليا في هذا الأمر، ومن ثم أرى أن ندعه يركب رأسه بعض الوقت حتى يهدأ.

وصاح جانبا قائلاً لأبيه من النافذة:

- ماذا تنوي أن تفعل الآن؟ وإلى أين أنت ذاهب؟ إنك تعرف أنه ليس ثمة مكان تذهب إليه!

وصاحت فاريا قائلة:

- عُذ يا أبي، إن الجيران سيسمعون هذا كله.

ووقف الجنرال، ورفع يديه وهو يستدير نحوهم قائلاً:

- لتنزل لعنتي على هذا البيت.

فغمغم جانبا قائلاً وهو يغلق النافذة بقوة:

- إنه ينطق بهذه العبارة بكل ما في وسعه من لهجة مسرحية.

واندفعت فاريا إلى خارج الغرفة، وقد أدركت أن الجيران لا بد قد سمعوا هذا كله.

وما إن وجد جانبا نفسه وحيداً في الغرفة، حتى تناول رسالة أجاليا من جيبه وراح يقبلها وهو يتراقص في أنحاء المكان.



الفصل الثالث

كانت نوبات غضب الجنرال إيفولجين تنتهي، بصفة عامة، إلى لا شيء. وقد حدث قبل هذا أن تعرض لمثل هذه النوبات من الغضب المفاجئ، ولكنها لم تكن كثيرة جداً؛ لأنه كان في الواقع رجلاً مسالماً بطبيعته. وقد حاول مئات المرات أن يقلع عن هذه العادات الفاسدة التي اكتسبها في السنوات الأخيرة. وكان يتذكر فجأة أنه والد، فيسرع إلى إرضاء زوجته، ويسكب دمة التوبة والندم بإخلاص، وكانت عواطفه نحو زوجته تكاد تبلغ القداسة، وكثيراً ما صفحت عنه في صمت، إذ كانت لا تزال تحبه رغم الحالة التي انحدر إليها أخيراً. إلا أن محاولات الجنرال للتخلص من نقائصه لم تكن تستمر طويلاً؛ ذلك أنه كان، بطبعه، رجلاً مندفعاً في تصرفاته مما يجعله لا يطيق أن يحيا حياة هادئة بين أفراد أسرته، ولهذا كان يثور في النهاية، ويستسلم لنوبات عنيفة من الغضب لا يلبث أن يندم عليها، وكان يشعر، وهو في سورة غضبه، أنه مخطئ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يسيطر على زمام نفسه، وكان يثير أسباب النزاع مع كل شخص في البيت، ثم يبدأ في إلقاء محاضرة طويلة عريضة عن وجوب احترام الجميع له، ثم يخفي من البيت، ولا يعود، في أحيان كثيرة، إلا بعد وقت طويل، وكان قد نفّض

يديه من التدخل في شئون الأسرة خلال العامين الأخيرين، فلم يعد يعرف عنها إلا ما يلتقطه عن طريق السمع.

أما في هذه المرة، فقد كان ثمة ما هو أخطر جدًّا من المعتاد. كان يلوح له أن كل شخص يعرف شيئًا ما، ولكنه يخشى من الحديث معه بشأنه.

وكان قد عاد إلى أحضان أسرته منذ يومين أو ثلاثة، ولكن دون أن يمسك هذه المرة بغصن الزيتون، أو يرتدي ثوب الأسف والندم- الذي طالما ارتداه في مثل هذه المناسبات- وإنما على العكس- جاء في حالة لا توصف من سوء الطبع. لقد عاد وهو أشد ما يكون استعدادًا للمشاكسة والمنافرة، وللإصطدام بكل من يعترض سبيله، كما راح يتحدث في كل أنواع الموضوعات بطريقة لا تخطر على بال أحد، ومن ثم كان من المستحيل أن يعرف أحد حقيقة ما يضطرب في أعماق نفسه، وكان يبدو في بعض الأحيان مشرق النفس سعيًا، إلا أنه كان في معظم الأحيان يبدو مكتئب النفس مشغول الفكر دون أن يعرف هو نفسه ما الذي يشغل فكره، وكان يبدأ الحديث فجأة عن شيء ما- عن آل إيبانشين، أو الأمير، أو ليبيديف- ثم إذا به يمسك فجأة عن الحديث تمامًا، ليحجب عن أسئلة أخرى بابتسامة جوفاء دون أن يدرك أنه يتسم أو أن أحدًا وجَّه إليه سؤالًا. وكان قد أمضى الليلة السابقة يتأوه ويتوجع ويجهد زوجته المسكينة التي أمضت الليل كله وهي تعد له المسكنات والكمادات. وفي أواخر الليل استغرق فجأة في النوم، وظل نائمًا نحو أربع ساعات ثم استيقظ على نوبة عنيفة من آلام حادة في الأيطنين «جانبى البطن» وقد انتهت هذه النوبة بمشاجرة مع إيبوليت وباستنزال «اللعنة على سكان البيت» جميعًا. وقد لوحظ أيضًا في خلال تلك الأيام الثلاثة أنه كان معرضًا دائمًا لنوبات من التعظيم الذاتي،

ومن ثم كان سريع الغضب لأقل إساءة. وقد ظل كوليا- من جانبه- يؤكد لأمه أن هذه الحالات كلها ناشئة من لهفته على الخمر، أو قد تكون بسبب لبيديف الذي أصبح صديقاً حميماً للجنرال في العهد الأخير، ولكنه كان قد تشاجر معه فجأة، قبل ثلاثة أيام وافترق عنه وهو في حالة عنيفة من الغضب. ويبدو أنه تشاجر مع الأمير على نحو ما أيضاً. وقد طلب كوليا من الأمير أن يفسر له حالة أبيه، ثم بدأ في النهاية يشك في أنه، هو أيضاً، يريد كما يبدو عليه أن يخبره بشيء. ثم إذا كان إيبوليت- كما ظن جانبا بحق- قد تحدث على انفراد مع المسز إيفولجين، فإنه يبدو من العجيب ألا يلتبس هذا الشاب الحقيير «التاجر للشائعات»- كما قال عنه جانبا في مواجهته- نفس الإحساس بالرضى في إطلاع كوليا على السر. وكان من المحتمل جداً ألا يكون إيبوليت ذلك «الثرثار الصغير» الحقيير، كما وصفه جانبا في حديث له مع أخته، وإنما كان حقيراً في نواح أخرى، ومن ثم فلعل من غير المحتمل أن يكون قد أخبر المسز إيفولجين بشيء لاحظته خلصة لكي «يحطم قلبها». ويجدر بنا ألا ننسى أن الحوافز على التصرفات البشرية تكون عادة أكثر تعقيداً وتبايناً بحيث لا يُتاح لنا القدرة على تفسيرها فيما بعد، كما أنه ينذر أن نتمكن من تحديدها بصفة مؤكدة. ولهذا فقد يحسن بالكاتب- في بعض الأحيان- أن يقنع بسرد الأحداث سرّداً روائياً. وهذا ما سوف نفعله في الجانب الباقي من كارثة الجنرال الحالية؛ لأننا مهما حاولنا، فلن يكون لنا مندوحة من أن نضفي على هذه الشخصية الثانوية في قصتنا قليلاً من مزيد العناية والاهتمام أكثر مما نتوي في أول الأمر.

وقد توالى هذه الأحداث بعضها في إثر بعض على النحو التالي:

عندما ذهب لبيديف في رحلته إلى بطرسبرج للبحث عن فيردشكو-

عاد في نفس اليوم مع الجنرال، ولكنه لم يخبر الأمير بشيء معين. ولو لم يكن الأمير مشغولاً إلى حد كبير بشئون أخرى مهمة؛ لأمكنه في أسرع وقت أن يلاحظ أن لبيديف بدلاً من أن يقدم إليه بعض التفسيرات في اليومين التاليين على عودته - كان يبدو عليه أنه يتجنب مقابلته لسبب ما. وعندما أولى الأمير هذا الأمر اهتمامه أخيراً، لم يسعه إلا أن يدهش حين تذكر أنه كلما التقى بليبيديف مصادفة خلال هذين اليومين، وجده في حالة معنوية وذهنية مشرقة، ولا يكاد يفترق عن مصاحبة الجنرال. ذلك أن هذين الصديقين كانا لا يفترقان لحظة أبداً. وكان الأمير أحياناً يسمع أصواتاً مرتفعة لمحادثة حامية، وضحكات عالية، ومناقشات ذات طابع مرح، تصدر كلها من الطابق العلوي. وقد حدث، في ساعة متأخرة من الليل، أن سمع على غير انتظار نغمات أغنية عسكرية فاجرة، ثم سرعان ما تعرف على نبرات صوت الجنرال الجهير الأجلش، ولكن الغناء لم يلبث أن انقطع فجأة، ثم أعقبته محادثة لمدة ساعة كل نبرة صوت فيها كانت تنم عن المرح والنشوة والسكر. وقد كان من الممكن الاستنتاج ببساطة أن الصديقين كانا متعانقين وهما يقضيان هذا الوقت المرح، وأن أحدهما أخيراً انفجر باكياً. ثم أعقب هذا مشاجرة عنيفة لم تلبث أن توقفت بعد ذلك فجأة. وكان كوليّا خلال هذه الفترة كلها شديد القلق. ذلك أن الأمير كان يقضي معظم أيامه في الخارج، ولا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل. ولكن عندما قابله لم يسمع منه شيئاً خاصاً أكثر من أنه غير راض عن حالة الجنرال وتصرفاته في الوقت الحالي. وقال: «إنهما يتسكعان معاً، ويسكران في حانة غير بعيدة عن المنزل. ويتعانقان ثم يتشاجران في الشارع، ويستفز أحدهما الآخر دون أن يستطيع الافتراق عنه، ولما أشار الأمير بأن مثل هذا كان يحدث قبل ذلك كل

يوم تقريباً، ارتج على كوليا فلم يعرف ماذا يقول أو كيف يشرح السبب فيما يخامره من قلق.

وفي صباح ليلة الأغنية الفاجرة والمشاجرة التي أعقبتها، كان يبدو على الجنرال الانفعال والارتباك عندما اعترض سبيل الأمير فجأة وهو يوشك أن يغادر المنزل في نحو الحادية عشرة صباحاً.

قال له وهو يضغط على يده بعنف يكاد يثير الألم:

- طالما انتظرت الفرصة السانحة لمقابلتك يا عزيزي الأمير، وقد طال انتظاري كثيراً جداً جداً.

ولما طلب الأمير منه أن يجلس، قال:

- لا، شكراً، لن أجلس، وأخشى أن أكون قد عطلتك، فلنؤجل الأمر إلى وقت آخر، ولكنني أنتهز هذه الفرصة لأهنتك على تحقيق أمنية قلبك.
- أية أمنية قلب؟

وشعر الأمير بالارتباك. وكان قد بدا له، كما يبدو عادة للكثيرين في مثل ظروفه.. أنه ليس هناك من رأى أو استنتاج أو فهم شيئاً.

وعاد الجنرال يقول:

- أوه، لا عليك يا سيدي! لا تنزعج. إنني لن أجرح.. أجرح مشاعرك المرهفة جداً. لقد مررت أنا نفسي بهذه التجربة، ومن ثم أعرف كيف يكون شعور الإنسان عندما يحشر رجل غريب أنفه في شأن لا يعنيه. إنني أحس بهذا في كل صباح. ولكنني كنت أريد أن أحدثك في أمر آخر، مهم، أعني الأمر.. إنه أمر مهم جداً جداً أيها الأمير.

ومرة أخرى طلب الأمير منه أن يجلس، ثم جلس هو أيضًا ينصت إليه وهو يقول:

- آه، حسنًا! ربما أمكث معك لحظة واحدة.. فقد جئت ألتبس النصيحة. وأنا أخشى أن أقول يا سيدي، إنني بلا هدف واقعي في الحياة. ولكن بما أنني أحترم نفسي.. و.. ومقدرتي العملية التي تنقص الروسيين، بصفة عامة، فإني.. أحب أن أضع نفسي وزوجتي وأبنائي في مركز.. أو.. بالاختصار، إنني ألتبس النصيحة يا سيدي الأمير.

وأعرب الأمير بحماسة عن موافقته على هذه الرغبة- ولكن الجنرال أسرع بقطعه قائلاً:

- حسنًا يا سيدي. إن هذا كله لغو فارغ. فليس هذا ما أردت حقًا أن أقول. ولكنني أردت أن أقول شيئًا آخر، شيئًا مهمًا. لقد قررت أن ألجأ إليك يا سيدي العزيز بصفتك رجلًا أثق أشد الثقة في إخلاصه وكرمه ونبل مشاعره.. آه، إنك لست مدهوشًا من كلامي يا سيدي، أليس كذلك؟

وكان الأمير يرقب زائره، إن لم يكن بدهشة شديدة، فباهتمام غير عادي على كل حال. وكان الجنرال العجوز شاحب الوجه قليلًا، وشفته ترتعدان خفيًا في بعض الأحيان، كما بدا على يديه أنهما لا يجدان مكانًا تستقران عليه. ورغم أنه لم يكن قد مضى على جلوسه غير دقيقتين، فقد أمكنه أن ينهض عن مقعده فجأة مرتين، وأن يعود ويجلس فجأة مرتين أيضًا دون أن يبدو عليه أنه مهتم بما يفعل. وكان على المائدة بضعة كتب فتناول كتابًا منها وهو مستمر في الحديث، ونظر إلى الصفحة المفتوحة، ثم عاد وأغلقه فورًا وأعادها إلى مكانه. ثم اختطف كتابًا آخر وأمسكه بيده اليمنى طيلة الوقت دون أن يفتحه، وراح يلوح به في الهواء أثناء الحديث.

وفجأة صاح:

- كفى! في مقدوري أن أرى يا سيدي أنني أزعجك.
- لا.. لا أبداً يا سيدي، بالعكس، إنني منصت إليك بكل انتباه. وسوف يسرني أن أعرف ماذا تريد أن تقولي لي.. استمر، أرجوك.
- إنني أتمنى يا سيدي الأمير أن أجعل نفسي في مركز له احترامه. إنني أحب يا سيدي أن أحترم نفسي و.. وحقوق.
- إن الرجل الذي له مثل هذا الهدف السامي جدير بكل احترام لهذا السبب فقط.

وكان الأمير قد نطق بهذه العبارة التقليدية، وهو واثق تماماً بما سيكون لها من تأثير قوي. لقد شعر بغريزته عندئذ أن مثل هذه العبارات اللطيفة المشجعة تؤدي - عند استعمالها في الوقت المناسب - إلى إرضاء وتهئية ذهن رجل كهذا، لا سيما إذا كان رجلاً في مركز الجنرال. وقد كان ضرورياً، على أية حال، أن يصرف مثل هذا الزائر بقلب مستريح، وهذا ما كان يحاوله جاهداً.

وأطرت هذه العبارة الجنرال، فعلاً، ولمست شغاف قلبه. وأسعدته إلى حد كبير، فإذا هو يتأثر فجأة أعماق التأثر، وإذا لهجة حديثه تتغير فوراً، وإذا به يستغرق في تفسيرات طويلة بهيجة. ولكن الأمير رغم كل محاولاته، وكل ما بذله في الإنصات بانتباه، لم يستطع أن يفهم كلمة واحدة. وظل الجنرال يتحدث عشر دقائق بحماسة وسرعة كأنما يخشى ألا ينفصح الوقت للتعبير عن كل ما يتزاحم في رأسه. وعندما اقترب من نهاية حديثه تألقت الدموع في عينيه، ومع ذلك ظل الحديث عبارة عن جمل بلا بداية أو نهاية، وعن

كلمات وآراء مفاجئة كانت تنطلق بسرعة فيتعثر بعضها ببعض.

وفجأة صاح مختتمًا حديثه وهو ينهض:

- كفى! لقد فهمت ما أريده، وهذا يكفيني. فإن قلبًا مثل قلبك يا سيدي لا يمكن أن يفشل في فهم رجل يمر بمحنة. إنك أيها الأمير أنموذج للنبل! فأني رجل يمكن أن يكون مثلك؟ ولكنك في مرحلة الشباب، وإني لأباركك. وإن كل ما أرجوه منك أن تحدد موعدًا لتبادل معك فيه حديثًا مهمًا. وهذا هو أمني الأساسي يا سيدي. إنني لا ألتمس غير المواساة والمصادقة أيها الأمير. ولم يحدث أبدًا أنني استطعت أن أكافح أمنية قلبي هذه.

- ولكن لماذا لا يكون الحديث الآن يا سيدي، فإني مُنصت إليك.

فقاطعه الجنرال قائلاً بحرارة:

- لا أيها الأمير.. لا! ليس الآن. إن «الآن» حلم ضائع! والأمر مهم جدًا، نعم، مهم جدًا! وإن هذه الساعة من الحديث يا سيدي ستكون ساعة القرار النهائي. لسوف تكون ساعة حياتي يا سيدي. وأنا لا أحب أن أقاطع في مثل هذه اللحظات المقدسة بدخول أي أحد، أي شخص وقح، ومن المحتمل أن يكون شخصًا وقحًا..

ثم انحنى فجأة على الأمير واستطرد قائلاً بصوت هامس خفي يكاد الخوف يسري في نبراته:

- شخص يبلغ من الوقاحة بحيث لا يستحق أن يفك رباط حذائك يا عزيزي، يا عزيزي الأمير! أوه، إنني لا أقول رباط حذائي أنا. أرجوك أن تلاحظ هذا بصفة خاصة. إنني لم أقل رباط حذائي؛ لأن احترامي الشديد لنفسي يجعلني ألا أتحدث بمثل هذه الصراحة. ولكنك وحدك فقط الذي

تستطيع أن تدرك أنني إذا حركت رباط حذائي فلعلي أعني إظهار كل ما في كبريائي من وقار. ولن يفهم هذا أحد غيرك، ولا سيما هو. إنه لا يفهم شيئاً أيها الأمير. ليست له القدرة إطلاقاً على فهم مشاعر الغير. فلا بد للإنسان أن يكون له قلب لكي يفهمها!

وكاد الأمير في النهاية أن ينزعج، فحدد موعداً لمقابلة الجنرال في مثل تلك الساعة من اليوم التالي. وانصرف الجنرال في حالة نفسية طيبة كادت أن تعيد إليه ثقته في نفسه. وفي الساعة السابعة مساءً، أرسل الأمير إلى ليبيديف يستدعيه وليتحدث معه قليلاً.

وأقبل ليبيديف على الأمير بسرعة غير عادية قائلاً في غير توان وهو يدخل، إنه يعتبر هذه الدعوة «شرفاً عظيماً». ولم يعرف في تصرفاته عن أية لمحة تدل على أنه كان مختفياً ثلاثة أيام. وأنه كان حريصاً خلالها على تجنب اللقاء مع الأمير. وجلس على حافة المقعد بوجه يتراقص عليه الابتسام، وبعينين صغيرتين ترقبان وتضحكان، ثم راح يفرق يديه في سمت الإنسان الذي ينتظر، براءة شديدة، أن يسمع أنباء على جانب كبير من الأهمية، أنباء كان يتوقع سماعها منذ فترة طويلة، ويعرف مضمونها استنتاجاً منذ فترة طويلة أيضاً. وجفل الأمير مرة أخرى. ذلك أنه قد وضع له أن كل شخص قد راح فجأة يتوقع منه شيئاً، وأن كل شخص ينظر إليه كأنما يريد أن يهنئه على شيء بحركات وابتسامات وإيماءات خفية. وكان كيللر قد رغب بضع مرات أن يراه لمدة لحظات والواضح أنه كان هو أيضاً، يريد أن يهنئه.. وفي كل مرة كان يبدأ في أن يقول شيئاً بهيجاً غامضاً، ولكنه كان يتوقف فجأة، ولا يتم حديثه «لأنه كان قد أسرف في الشراب في مكان ما أخيراً، وبح صوته وهو يرفع عقيرته في قاعة للعب البلياردو» حتى كوليا، فبرغم اكتسابه، قد

حاول مرة أو مرتين أن يبدأ حديثاً غامضاً عن شيء يريد أن يخبر به الأمير.
وسأل الأمير لبيديف في صراحة وتوفز عصبي عن رأيه في حالة
الجنرال الراهنة، وعن سبب ما يشعر به من قلق. ثم حدثه بعبارات قليلة عن
اللقاء الذي تم بينه وبين الجنرال في ذاك الصباح.

فقال لبيديف بشيء من الجفاف:

- إن لكل إنسان متاعبه يا سيدي الأمير، لا سيما في عصرنا هذا العجيب
المتقلب. نعم، يا سيدي...

ثم أمسك عن الحديث فجأة في سمت الرجل المتألم الذي يشعر بخيبة
أمله فيما كان ينتظر.

وقال الأمير ضاحكاً:

- يا لها من فلسفة.

- إن الفلسفة ضرورية يا سيدي. وينبغي أن تكون ضرورية بصفة خاصة
في عصرنا هذا يا سيدي. أعني أنها من العلوم التطبيقية العملية. ولكن
المشكلة أنها موضع الاحتقار. وبقدر ما يهمني الأمر يا سيدي - وبرغم
أن لي الشرف في أن أكون موضع ثقتك في موضوع معين تعلمه، إلا أن
هذه الثقة تنتهي عند نقطة لا يصح تجاوزها بسبب الظروف المحيطة بهذا
الموضوع وإنني لأدرك مقصدك تماماً يا سيدي، ولست أشكو من شيء.

- إنك لست غاضباً مني يا لبيديف، أليس كذلك؟

فصاح لبيديف في حماس وهو يضع يده على قلبه:

- لا أبداً يا سيدي العزيز وبا أيها الأمير المعظم. لا، أبداً. بل على

العكس، فقد أدركت فوراً أنه لا بمركزي في هذا العالم، ولا بمؤهلاتي الذهنية والعاطفية ولا بالأموال المكدسة، ولا بتصرفاتي السابقة- ودعك من حكمتي- أكون جديرًا بثقتك الغالية التي تجاوزت كل آمالي. وإذا كان في مقدوري أن أقوم لك بخدمة ما، فإنما أقوم بها كعبد فقط، أو كأجير، ولا شيء أكثر من هذا. إنني لست غاضبًا يا سيدي، وإنما أنا حزين فقط.

- مهلاً يا لبيديف، مهلاً!

- لا شيء غير هذا يا سيدي! وهذا هو نفس الوضع في الحالة الراهنة! فقد قلت لنفسي بعد التقائي بك ورعايتي لك بكل جوانحي «إنني لست جديرًا بأية وشائج من الصداقة يسبغها عليّ. ولكن بصفتي صاحب منزلة، فربما أستحق في الوقت المناسب، أو في موعد مقبل أن أنال بعض الاهتمام، أو على الأكثر أن أكون موضع سره في ظرف معين وأوضاع منتظرة..

وكان لبيديف وهو يقول هذا، يركز عينيه الصغيرتين الحادثتين على الأمير الذي كان ينظر إليه في دهشة وهو لا يزال يأمل أن يسمع ما يرضي حبه للاستطلاع.

إلا أنه، أي الأمير، لم يلبث أن صاح وهو في حالة قريبة من الغضب:

- إنني لا أستطيع أن أفهم شيئاً من حديثك.

ثم أردف قائلاً وهو ينفجر فجأة ضاحكاً في جزل وابتهاج شديد:

- ثم إنك متآمر من نوع رهيب.

وسرعان ما انفجر لبيديف ضاحكاً أيضاً، رغم بريق عينيه على أن أمنيته قد تحققت، وبشكل مزدوج حقاً.

واستطرد الأمير قائلاً:

- أتعلم يا ليبيديف ماذا أنوي أن أقول لك؟ إنني فقط أرجوك ألا تغضب مني، إلا أنني مندهش من بساطتك، وليست بساطتك وحدك فقط! إنك تتوقع أن تسمع مني شيئاً في هذه اللحظة بالذات وبمثل هذه البساطة بحيث لا يسعني إلا أن أشعر بالأسى والأسف لأنه ليس لديّ من الأقوال ما يرضيك. ولكنني أقسم أنه ليس لديّ ما أقوله لك مع علمي بأنك لن تصدقني بسهولة.

ثم ضحك الأمير مرة أخرى.

واتخذ ليبيديف لنفسه سمت الوقار. وإذا كان يبدو في بعض الأحيان مملاً وساذجاً بسبب فضوله، إلا أنه في الوقت نفسه رجل ماهر مراوغ، وفي بعض الأحيان داهية صموت. وقد كاد الأمير أن يثير عداوة لكثرة صده له ورفضه لطلباته. ولكن صد الأمير له لم يكن بسبب احتقاره لشأنه، وإنما لأن موضوع فضوله كان من المواضيع الحساسة الرقيقة. وقد كان الأمير منذ أيام قليلة مضت، ينظر إلى بعض أحلامه الخاصة على أنها جريمة. هذا بينما كان ليبيديف، من ناحية أخرى، يعتبر صد الأمير له دليلاً على نفور شخصي وعدم الثقة به، ومن ثم انسحب وملء قلبه الألم والغيرة لا من كوليا وكيلر فقط، وإنما من ابنته فيرا أيضاً. بل وحتى في هذه اللحظة كان في مقدوره أن يخبر الأمير ببعض الأنباء ذات الأهمية البالغة له، وقد كان في قرارة نفسه يتمنى أن يخبره بها، ولكنه استغرق في خضم من الاكتئاب والصمت، فلم يذكر له شيئاً.

وأخيراً قال بعد فترة صمت وجيزة:

- ماذا يمكن أن أفعل من أجلك يا عزيزي الأمير وقد أرسلت في استدعائي الآن؟

فقال الأمير فجأة وقد تنبه من أفكاره أيضًا:

- إن الأمر بشأن الجنرال .. و.. وبشأن تلك السرقة التي حدثتني ..

- ماذا تعني يا سيدي؟

- أوه، ويحي، كأني بك لا تستطيع أن تفهمني الآن! يا للسماء
يا لبيديف؟ لماذا تبدو دائمًا كأنك تمثل دورًا؟ إنني أعني بالسرقة المال..
المال.. أربعمائة الروبل التي فقدتها في ذلك اليوم من حافظة نقودك والتي
جئت وحدثتني عنها في الصباح قبل رحيلك إلى بطرسبرج- هل فهمت
الآن؟

فقال لبيديف ببطء وكأنما لم يفهم إلا في تلك اللحظة ماذا يريد أن
يصل إليه الأمير في حديثه:

- أنعني أربعمائة الروبل؟ شكرًا يا سيدي الأمير على مواساتك الطيبة،
وإنك لتطريني أشد الإطراء باهتمامك بهذا الأمر، ولكنني في الواقع قد
وجدت المبلغ، منذ.. منذ مدة طويلة..

- وجدته؟ حسنًا، الحمد لله.

- صدقت يا سيدي، صدقت، إن سمحت لي بأن أقول هذا؛ لأن أربعمائة
الروبل ليست بالأمر البسيط بالنسبة لرجل فقير يعيش من عرق جبينه ويعول
أسرة كبيرة من أولاد يتامى الأم.

فقال الأمير في سرعة وهو يحاول تصحيح كلامه:

- إنني لم أقصد هذا، وأنا بطبيعة الحال مرتاح لأنك وجدت النقود.
ولكن كيف.. كيف وجدت المبلغ؟

- بكل بساطة يا سيدي .. وجدته تحت المقعد الذي ألقيت عليه معطفي ،
ولا بد أن حافظة نقودي قد انفلتت من الجيب وسقطت على الأرض .

- تحت المقعد؟ هذا مستحيل ! لقد قلت لي بنفسك إنك بحثت عنها
في كل مكان . فكيف أمكنك أن تغفل البحث في أقرب الأماكن إليك ؟

- إنك الآن تسألني يا سيدي ! حسنًا ، لقد نظرت تحت المقعد طبعًا ،
وأنا أذكر هذا تمامًا . لقد كنت أزحف على أطراف الأربعة وأتحسس المكان
بيدي ، وأزيع المقعد عن موضعه وأنا لا أكاد أصدق عيني . ولكنني لم أر
شيئًا ، وإنما مجرد مكان خال ، أملس ، كصفحة اليد يا سيدي . ورغم هذا فإني
لم أكف عن البحث ، وهذا نوع من الضعف الذي يدفع الإنسان - يا سيدي -
إلى الاستغراق في البحث عن شيء ثمين أو مهم كلما أتاحت له الفرصة .
فرغم أنه لا يرى شيئًا إلا مكانًا خاليًا ، فإنه لا يكف عن البحث عشرات
المرات .

- حسنًا . ولكن كيف عثرت عليها رغم هذا كله ؟ أخشى أن أقول إنني
لا أفهم شيئًا .

ثم أردف الأمير قائلاً بنفس الصوت المغمغم :

- إنك تقول إنها لم تكن هناك ، تحت المقعد ، إنك بحثت عنها كثيرًا في
ذلك المكان ، فكيف ظهرت فجأة ؟

- نعم يا سيدي ، لقد ظهرت فجأة .

فأرسل الأمير إلى ليبيديف نظرة غريبة ، ثم سأله فجأة :

- والجنرال ؟

- ماذا تعني بقولك هذا يا سيدي ؟

- يا إله السماء! أيها الرجل، إنني أسألك ماذا قال الجنرال عندما عثرت على حافظة النقود تحت المقعد؟ لقد سبق أن بحثتما عنها معاً؟ أليس كذلك؟

- أجل يا سيدي. لقد بحثنا عنها معاً من قبل. ولكنني أخشى أن أقول إنني لم أقل له شيئاً هذه المرة. فقد خطر ببالي أنه لا يحسن أن أخبره بأنني عثرت بمفردي على الحافظة.

- ولكن.. لماذا؟ والمبلغ؟ هل كان كله بها؟

- أجل يا سيدي. لقد فتحت الحافظة فوجدت المبلغ كله فيها، حتى آخر روبل.

فقال الأمير في شيء من الاهتمام:

- كنت أتمنى لو أنك جئت وأخبرتني بهذا.

- خشيت أن أزعجك وأنت في خضم مشاغلِكَ الخاصة التي قد تكون ذات أهمية بالغة. وعدا هذا فأنا قد تصرفت تصرف الذي لم يعثر على شيء. وإنما فتحت الحافظة فقط، واطمأنت على المبلغ فيها، ثم أعدتها إلى مكانها تحت المقعد.

- لماذا؟

فضحك ليسيديف فجأة وقال وهو يفرك يديه:

- بدافع من الفضول فقط على ما أظن يا سيدي.

- إذن فهي لا تزال في مكانها هناك منذ أول أمس؟

- لا يا سيدي، لقد بقيت هناك مدة يوم واحد؛ لأنني أردت يا سيدي أن

أجعل الجنرال يعثر عليها؛ لأنني ما دمت وجدتها أخيراً، فلماذا لا يجدها الجنرال وهي تكاد تكون تحت أنفه، بارزة من تحت المقعد؟ لقد حركت المقعد بضع مرات حتى تبدو الحافظة واضحة لكل ذي عينين، ولكن لم يبد على الجنرال أبداً أنه لاحظ وجودها. وظل الحال هكذا يوماً كاملاً. وإنه ليبدو عليه في الآونة الحاضرة أنه شارد الذهن - أعني الجنرال. إن الإنسان لا يستطيع أن يفهمه إطلاقاً يا سيدي. إنه يكثر الكلام، ويسرد الأقاصيص، ويضحك بل يقهقه بالضحك في الواقع، ثم إذا به يغضب مني فجأة أعنف الغضب. ولست أدري لماذا. وأخيراً انصرفنا معاً من الغرفة وتركت بابها عن قصد.. حسناً يا سيدي. ورأيت أنه يتردد برهة كأنما يريد أن يقول شيئاً، ولا بد أنه كان يخشى أن نترك حافظة تحتوي على كل هذا المبلغ الكبير في غرفة مفتوحة الباب، ولكنه انفجر غاضباً، ولم يقل شيئاً، بل لم ينطق يا سيدي بكلمة. ثم ما إن وصلنا إلى الشارع حتى تركني وسار في اتجاه مختلف. ثم لم نلتق إلا مساءً في الحانة.

- ولكنك في النهاية التقطت الحافظة بنفسك من تحت المقعد؟

- لا يا سيدي. لقد اختفت في تلك الليلة ذاتها من تحت المقعد.

- إذن أين هي الآن؟

فضحك ليبيديف فجأة وهو ينهض واقفاً وينظر بابتسام إلى الأمير:

- إنها هنا يا سيدي! لقد ظهرت فجأة هنا، في قاع معطفي، انظر يا سيدي

يمكنك أن تتحسسها بأصابعك.

والواقع أنه كان ثمة جانب متنفخ بعض الشيء في قاع المعطف من الناحية اليسرى ولم يكن على الإنسان أن يتحسس موضع الانتفاخ حتى

يدرك أنه ناشئ من سقوط حافظة نقود داخله عن طريق جيب مثقوب.

وعاد ليبيديف يقول:

- وتناولتها يا سيدي ونظرت فيها واطمأنت على وجود المبلغ كله بداخلها، وأعدتها إلى مكانها، وبقيت أتحرك على هذا النحو منذ صباح أمس، حاملاً الحافظة في قاع المعطف حيث لا تكف عن الاصطدام بساقي.

- ومع ذلك فأنت لا تهتم بأمرها؟

- لا يا سيدي، لا أهتم بأمرها. ها، ها! ثم لا تنس يا عزيزي الأمير - وإن كان الأمر أبسط من لفت النظر إليه - أن جيوب معطفي لم تكن مثقوبة أبداً. ثم إذا بي أجد على حين غرة ثقباً واسعاً في الجيب الأيسر في تلك الليلة، ولما فحصته بعناية، بدا لي كأن شخصاً ما قد مزق الجيب بمدينة من الداخل. إن الإنسان لا يكاد يصدق هذا يا سيدي أليس كذلك؟

- و.. والجنرال؟

- كان غليظاً معي جداً أمس واليوم، كما كان يبدو شديد القلق لسبب ما.. وهو في لحظة تراه شديد الابتهاج، رافعاً عقيرته بأغنية ماجنة، ثم إذا هو في لحظة أخرى يبدو شديد التأثر مسرفاً في البكاء، وفجأة ينفجر في غضب شديد مفزع - أجل، لقد كان يفزعني بغضبه هذا وأيم الله. ولا تنس يا سيدي أنني لست رجلاً عسكرياً. لقد كنا أمس جالسين في الحانة معاً، وكان طرف المعطف المنتفخ بالحافظة بارزاً تحت أنفه تقريباً، كالجبل. وظل هو يختلس النظر إليه بطرف عينه والغضب يستبد به. وكان في ذلك الحين لا يستطيع أن يواجهني بنظراته مباشرة إلا إذا كان سكران أو متأثراً عاطفياً. ولكنه أمس حدجني مرتين بنظرات وحشية جعلت البرودة تسري

في ظهري. وأنا على كل حال أنوي غداً أن أعثر على الحافظة، ولكنني سوف أستمتع بسهرة أخرى معه في هذه الليلة.

فهتف الأمير قائلاً:

- ولماذا تعذبه بهذا الشكل؟

فصاح لبيديف قائلاً بحماسة:

- إنني لا أعذبه أيها الأمير، نعم، إنني لا أعذبه. إنني أحبه بإخلاص واحترمه يا سيدي، بل إنه الآن - وصدّقني أو كذّبني - أعز عليّ من ذي قبل. أجل يا سيدي إنني أشدّ تقديرًا له عما كنت من قبل.

قال لبيديف هذا في جد وإخلاص مما جعل الأمير يهتف مستنكرًا:

- تحبه ثم تعذبه هكذا؟ لقد أراد بإعادته للمبلغ إلى مكانه تحت المقعد ثم إلى قاع معطفك حيث يمكن أن تجده بسهولة، أقول قد أراد بهذا أن يبين لك في وضوح أنه لم يشأ أن يخدعك، وأنه بكل براءة وبساطة قلب، يطلب منك الصفح والغفران. أسمع؟ إنه يطلب غفرانك. ولا شك من ثمّ في أنه يعتمد على رقة مشاعرك، ولا شك من ثمّ في أنه يؤمن بصدافتك له. هذا بينما أنت لا تتردد في إذلال مثل هذا الرجل الشريف جدًا.

فقال لبيديف مكرراً الجملة الأخيرة وقد توهجت عيناه:

- الشريف جدًا أيها الأمير، الشريف جدًا؟ إن رجلاً مثلك فقط أيها الأمير النبيل، رجلاً فقط مثلك هو الذي يستطيع أن ينطق مثل هذه الكلمة الصادقة. إن هذا هو سر ولائي لك. هذا هو سبب تقديسي لك برغم كل أنواع الرذائل التي أفسدتني. حسنًا يا سيدي. إنني سوف أجد حافظة نقودي الآن، في هذه اللحظة، وليس في الغد. وهأنذا يا سيدي أتناولها أمامك.

وها هي ذي والمبلغ فيها لم يمس. خذها أيها الأمير النبيل، خذها واحتفظ بها حتى الغد، ولسوف آتي لأخذها غدًا أو بعد غد- ولعلك تعرف أيها الأمير أن هذه الحافظة لا بد قد أخفيت في مكان ما تحت حجر بالحديقة في الليلة الأولى من ضياعها. فما رأيك؟

- اسمع، إنني لا أريد أن تخبره صراحة أنك وجدت الحافظة. دعه ير بنفسه أنه لا يوجد شيء في قاع المعطف، وسوف يفهم الموقف بنفسه.

- هل أنت واثق من هذا؟ أليس من الأفضل أن أخبره بأنني وجدتتها، ثم أظاهر بأنه لم يخطر ببالي أبدًا أين كانت حتى هذه اللحظة؟

فقال الأمير بعد لحظة تفكير:

- لا.. لا. لقد فات الوقت الآن، وأصبح أشد خطرًا. ومن ثم يحسن بك ألا تقول شيئًا الآن. أرجوك أن تكون به شفيقًا. ولكن لا تسرف. وأنت تعرف ماذا ينبغي أن تفعل.

- إنني أعرف يا سيدي الأمير، أعرف. أعني أنني أعرف أن من المحتمل جدًا أن أسرف في عواطفني؛ لأنني أعتقد أنه ينبغي- في موقف كهذا- أن يكون للإنسان قلب مثل قلبك. وعدا هذا فهو متوفر الأعصاب ومن السهل أن يغضب بسرعة. وقد بدأ أخيرًا يعاملني باحتقار شديد أحيانًا. فهو في وقت ما يعانقني ويتودد إليّ، ثم إذا هو في اللحظة التالية يهينني ويسخر مني. حسنًا. لسوف أجعله يرى طرف معطفي الأسفل فقط ليدرك أنني وجدت الحافظة. ها، وداعًا يا سيدي الأمير، فأنا أرى أنني أعطتك وأشغلك عن أطيب مشاعرك..

- أرجوك بحق السماء أن تكون فطنًا كعهدي بك..

- برفق يا سيدي .. برفق ..

ورغم أن الأمر انتهى عند هذا الحد، فقد بدا الأمير أكثر انشغالاً عن
ذي قبل، وراح ينتظر في صبر نافذ مقابلته مع الجنرال في صباح اليوم التالي.



الفصل الرابع

وتحدد موعد المقابلة في الساعة الثانية عشرة ظهرًا، ولكن الأمير تأخر عن هذا الموعد رغمًا عنه. فلما عاد إلى البيت، وجد الجنرال في انتظاره. وقد لاحظ من أول نظرة أنه مستاء، ربما لأنه ترك منتظرًا فترة ما. واعتذر له الأمير وبادر إلى الجلوس. ولكنه شعر على نحو ما بالوجل وكأنما الجنرال قد صُنع من خزف رقيق، فهو يخشى عليه في كل لحظة أن ينكسر. والعجيب أنه لم يسبق له أبدًا أن شعر بالوجل أمام الجنرال. بل لم يخطر بباله أبدًا أنه سيشعر به أمامه ذات يوم. وسرعان ما تبين الأمير - من ثمَّ.. أنه أمام إنسان يختلف تمامًا عما كان في اليوم السابق. فبدلًا من أن يبدو مرتبًا ومضطربًا، إذا به يبدو على جانب كبير من الحذر والتحفظ مما يجعل الإنسان يعتقد أنه أمام رجل استقر عزمه على شيء. ولكن ثباته كان مظهرًا أكثر منه حقيقة. ومهما يكن من الأمر فإن الجنرال كان يبدو غير مكترث مع شيء من التحفظ الوقور. وكان في الواقع يعامل الأمير، بادئ ذي بدء، في ترفع ملحوظ، وهذا في بعض الأوقات بشأن المتكبرين الذين يشعرون بأنهم أهينوا ظلمًا وبلا سبب فيجدون الراحة في عدم الاكتراث. وكان يتحدث بتلطف دون أن تخلو نبرات صوته من لمسات حزن.

وأشار إلى كتاب جاء به معه وضعه على المائدة ثم قال:

- هذا هو الكتاب الذي استعرتة في ذلك اليوم، شكرًا لك.

فقال الأمير وقد سره أن تبدأ المحادثة بموضوع لا علاقة له بالأمر

الآخر:

- آه، نعم، هل قرأت القصة يا جنرال؟ ما رأيك فيها؟ قصة ممتعة، أليس

كذلك؟

- أظن أنها ممتعة، ولكنها بدائية، وغريبة في أحداثها بطبيعة الحال، ولا

عجب إذا ظهر أنها كلها أكاذيب.

وكان الجنرال يتحدث بثقة تامة في نفسه، بل وفي لهجة بطيئة. أما

الأمير فقال:

- أوه، ولكنها قصة واقعية عن جندي كان شاهد عيان لاحتلال

الفرنسيين لموسكو. وهي لا تخلو من أشياء جميلة. وعدا هذا فإن كل ما

جاء على لسان شاهد العيان له قيمته أيًا كان ذلك الرجل. ألا ترى هذا؟

- لو كنت أنا الناشر، لما قبلت نشرها. أما عن أقوال شاهد العيان، فإن

الناس أسرع إلى تصديق رجل يكذب بلباقة من تصديقهم لرجل اشترك

في تلك الحرب. وأنا أعرف بعض أحداث عام ١٨١٢ التي.. لقد استقر

رأيي نهائياً يا سيدي الأمير، استقر على رحيلي عن هذا البيت، بيت المستر

ليبيديف..

ثم أرسل نظرة لها دلالتها إلى الأمير الذي قال في حيرة:

- إن لديك مسكنك الخاص في بافلوفسك.. عند.. ابتك.

وتذكر عندئذ أن الجنرال جاء يلتبس منه النصيحة في أمر مهم يتوقف عليه مصيره.

وقال الجنرال:

- عند زوجتي يا سيدي. أو بمعنى آخر بيتي وبيت ابنتي..

- إنني آسف.. كنت..

- إنني راحل عن بيت ليبيديف هذا يا عزيزي الأمير؛ لأنني قد نفضت يدي من صداقة ذلك الرجل. لقد قطعت صلتي به في الليلة الماضية، وإنني لآسف لأنني لم أفعل هذا من قبل، وأنا أيها الأمير أطلب بأن يعاملني الجميع باحترام، بل إنني أنتظر أن أعامل باحترام حتى من أولئك الذين أمنحهم قلبي. وأنا دائماً أيها الأمير أمنح قلبي للناس، ولكنهم يخدعونني باستمرار تقريباً. وإن ذلك الرجل غير جدير بمنحتي له.

فقال الأمير في حذر:

- أخشى أن أقول إنه رجل بلا مبادئ، ويتميز بمؤهلات معينة.. ولكن الإنسان مع هذا كله لا يعدم أن يجد بينها قلباً طيباً، وذكاءً ماكراً وفي بعض الأوقات مسلياً.

وشعر الجنرال بالإطراء وهو يسمع هذه التعبيرات المهذبة ونبرات الاحترام في صوت الأمير، وذلك رغم أنه كان ينظر إليه بين الحين والآخر في شيء من الارتباب المفاجئ. ولكن صوت الأمير كان في جملته طبعياً وصادقاً بحيث يستحيل على السامع أن يرتاب فيه.

وأسرع الجنرال يقول:

- لقد كنت أول من اعترف بما يتمتع به من صفات طيبة عندما أوشكت

أن أسبغ عليه صداقتي. ولكنني في غير حاجة إلى بيته أو ضيافته لي ما دامت لي أسرتي. وأنا لا أبرر سقطاتي، إني مفرط في الشرب؛ وقد سكرت معه، ولعلي الآن نادم على هذا. ولكنني يقيناً يا سيدي لم أصادقه من أجل الشراب وحده، أيعقل هذا؟ أرجوك يا سيدي أن تغفر ما قد يكون في صراحة رجل محنت من غلظة وخشونة. والواقع أن ما استهواني فيه هي صفاته تلك. ولكن اللعنة على كل شيء يا سيدي إذا بلغت به الوقاحة أن يقول في مواجهتي إنه فقد وهو طفل ساقه اليسرى في عام ١٨١٢ وإنه دفنها في مقبرة فاجانكوفسك بموسكو. إنه بقوله هذا يتمادى في عدم احترامه لي وفي استخفافه بأمرى.

- لعلها فكاهة أراد أن يضحك بها الحاضرين؟

- نعم يا سيدي، ولكن الأكذوبة البريئة التي تضحك الناس قد تكون جافية بعض الشيء، ولكنها لا تؤلم القلب البشري. وإن بعض الناس يكذبون بدافع من الصداقة- أعني ليهجوا الأصدقاء الذين يتحدثون إليهم. ولكن إذا كان ثمة أقل ظل من عدم الاحترام يا سيدي، وإذا كان صديقك يمثل هذا اللون من عدم الاحترام يريد أن يعرب عن ضجره من صداقتك، فلن يكون ثمة مفر أمام الإنسان المهذب إلا أن ينسحب ويقطع علاقته بذلك الصديق لكي يضعه في مكانه المناسب.

وبلغ من انفعال الجنرال أن اضطرم وجهه. هذا بينما قال الأمير:

- ولكن ليس هناك أي احتمال أبداً في أن ليبيديف كان في موسكو عام ١٨١٢. إنه أصغر سنّاً من هذا بكثير، والأمر على هذا النحو غريب وشاذ.

- هذا من ناحية. ولكن حتى لو افترضنا أنه ولد في ذلك الحين، فكيف يمكن أن يؤكد لي في وجهي، أن مدفعياً فرنسياً صوّب مدفعه نحوه وأطاح

بساقه لمجرد التسلية والترفيه؟ وأنه.. أكثر من هذا، التقط ساقه وعاد بها إلى البيت، ثم دفنها بعد ذلك في مقبرة فاجانكوفسك. بل لقد تمادى وادعى أنه أقام عليها نصباً تذكاريًا نقش على أحد جانبيه «هنا ترقد ساق السكرتير الجامعي لبيديف» وعلى الجانب الآخر نقش هذه العبارة «ارقد بسلام أيها التراب الحبيب، حتى يوم القيامة» وأنه - أخيرًا - كان يقيم لها صلوات دينية بانتظام «وهذا بلا شك نوع من الإلحاد» وأنه يذهب إلى موسكو كل مرة لهذه المناسبة. ولكي يثبت أقواله، طلب مني أن أذهب معه إلى موسكو واعدًا إياي أن يريني المقبرة، بل والمدفع نفسه الذي أطاح بالساق، بعد الاستيلاء عليه من الفرنسيين - معروضًا في الكرملين. وهو يؤكد لي أنه المدفع الحادي عشر من ناحية البوابة، وهو مدفع فرنسي من الطراز القديم.

وضحك الأمير قائلاً:

- ومع ذلك فإن له كما يرى الجميع ساقين. ولهذا أؤكد لك أنها فكاهة بريئة. أرجوك ألا تغضب يا سيدي.

- ولكن دعني أعبر عن رأيي في هذا الشأن يا سيدي - أعني عن ساقه اللتين يراهما الجميع. فإن هذا ليس صحيحًا كما تظن؛ لأنه قال لي إنه يستعمل ساقًا صناعية حصل عليها من كيرفوزنيتوف.

- آه، فهمت، لقد سمعت أن ساق كيرفوزنيتوف الصناعية يمكن الرقص بها.

- إنني أعلم هذا تمامًا يا سيدي. فعندما اخترع كيرفوزنيتوف هذه الساق، أسرع بها إليّ ليطلعني عليها. ولكن ساق كيرفوزنيتوف اخترعت بعد عام ١٨١٢ بكثير. وعدا هذا أخبرني لبيديف أن زوجته المتوفاة لم

تفطن - طيلة حياتهما الزوجية إلى أن له - هو زوجها - ساقًا صناعية. وقد قال لي «ولو كنت أنت أحد خدم نابليون في عام ١٨١٢ لما امتنعت عن السماح لي بدفن ساقِي في مقبرة فاجانكوفسك».

فقال الأمير:

- ولكن هل كنت واحدًا من ...!

ثم أمسك عن إتمام العبارة في ارتباك.

وبدا الارتباك أيضًا على الجنرال، ولكنه راح في الوقت نفسه ينظر إلى الأمير في اشمئزاز واضح، بل وفي سخرية مريرة، ثم قال ببطء وهدوء:

- استمر أيها الأمير. أكمل ما كنت تنوي أن تقول، فهذا لا يهمني في قليل أو كثير. أخبرني بكل شيء. اعترف بأن الأمر كله يبدو مخالفًا للعقل في نظرك. أعني أمر رؤيتك لرجل أمامك الآن في حالته المهينة بعد أن أصبح لا نفع فيه. أما وقد سمعت أن هذا الرجل قد شاهد بنفسه أحداثًا تاريخية عظيمة، فإني أرجو ألا يكون قد أخبرك بأية حال من الأحوال بفضائح مزعومة عني..

- لا يا سيدي، إنني لم أسمع شيئًا من ليبيديف، إذا كان هو من تعنيه بحديثك.

- أوه، لقد ظننت غير هذا. والواقع أن مناقشتنا أمس بدأت بسبب تلك المقالة العجيبة الموجودة في «المحفوظات». فقد علقّت على غرابتها وشذوذ ما ورد فيها. ولما كنت أحد شهود العيان.. إنك تبسّم يا سيدي الأمير وأنت تحملق في وجهي..

- لا.. لا.. لا..

فقال الجنرال ببطء:

- إنني أبدو أصغر من سني، ولكنني في الواقع أكبر سنًا مما يبدو عليّ. وقد كنت في عام ١٨١٢ صبيًا في العاشرة أو الحادية عشرة من العمر. وأخشى أن أقول إنني لا أعرف سني على وجه التحديد. فإن سني في سجلات الجيش أقل من الحقيقة. ويؤسفني أن أقول إنني كنت طيلة حياتي أحب أن أبدو أصغر سنًا مما أنا.

- وأنا أؤكد لك يا جنرال أنني لا أجد غرابة في قولك إنك كنت في موسكو عام ١٨١٢، وإنك تستطيع بطبيعة الحال، أن تخبرنا عما كان يجري يومذاك، تمامًا كأني شخص آخر كان هناك. وأذكر أن أحد الكتّاب بدأ كتابًا عن تاريخ حياته بعبارة قال فيها إن الجنود الفرنسيين كانوا يطعمونه الخبز وهو طفل بين ذراعي أمه في عام ١٨١٢ بموسكو.

فقال الجنرال وهو يعلن عن موافقته في شيء من الترفع:

- آه، حسنًا، ولكن الأمر معي كان غير عادي، ولكنك لن تجد فيه شيئًا شاذًا. والحقيقة يا سيدي تبدو في كثير من الأحوال مستحيلة الوقوع. أنا أحد الخدم؟ إن هذا قد يبدو عجيبيًا بلا شك. ولكن مغامرات صبي في العاشرة من عمره قد يمكن تفسيرها بما له من سن. فلو أنني كنت في الخامسة عشرة من عمري يومذاك، لما حدث شيء من هذا القبيل لي. وهذا ما كان ينبغي تمامًا أن يحدث؛ لأنني لو كنت في الخامسة عشرة لفررت من منزلنا الخشبي بشارع بازمانايا في يوم دخول جيوش نابليون موسكو. كنت أفر عندئذ من أمي التي تأخرت في الرحيل عن موسكو فبقيت فيها ترتعد خوفًا. ولو أنني كنت في الخامسة عشرة، لاستبد الخوف بي أنا أيضًا، ولكن حادثة سني جعلتني لا أخشى شيئًا وأنا أشق طريقتي بين الجماهير إلى مدخل القصر في

نفس اللحظة التي ترجل فيها نابليون عن جواده.

فقال الأمير في لهجة تأكيد وهو يخشى أن يضطرم وجهه احمراراً في
أية لحظة:

- إنك مُصيب تمامًا يا سيدي في قولك إن الصبي في العاشرة ما كان
ليخاف عندئذ.

- بلا شك يا سيدي. وقد حدث كل شيء بطريقة طبيعية بسيطة كما
تحدث الأشياء في الحياة. ولو حاول أحد الروائيين أن يصف ما حدث،
لعمد إلى تلفيق الشيء الكثير من الأحداث الخرافية الشاذة.
فهتف الأمير قائلاً:

- صدقت يا جنرال. فقد خطرت لي أنا أيضًا مثل هذه الفكرة منذ عهد
قريب. فأنا أعرف شيئاً عن جريمة قتل حقيقية حدثت بسبب ساعة وأخبارها
في الصحف الآن، ولو أن أحد الروائيين كتبها من خياله، لصاح النقاد وخبراء
الحياة الريفية في بلادنا بأنها خرافية مستحيلة الوقوع. ولكنك حين تقرأها
في الصحف على أنها حقيقة، لا يسعك إلا الشعور بأن مثل هذه الحقائق
تتيح لك النفاذ إلى قلب الحياة الروسية.

ثم اختتم الأمير حديثه بحماسة قائلاً وهو شديد السعادة؛ لأنه وجد ما
يعتذر به عن اضطرام وجهه:

- لقد أحسنت التعبير يا جنرال.

فصاح الجنرال وقد تألقت بالسروور عيناه:

- أحقاً؟ أحقاً؟ إن صبيّاً صغيراً، لا يدرك معنى الخطر يشق طريقه
في زحمة الجماهير ليرى الموكب الفاخر، والملابس الرسمية، وحاشية

الإمبراطور، ثم أخيراً الرجل العظيم نفسه الذي كثيراً ما سمع حديث الناس عنه. ذلك أن الناس لم يكن لهم حديث إلا عنه لمدة أعوام متوالية. وكان اسمه على كل لسان في العالم وأنا، من ناحيتي، قد رضعت اسمه مع لبن أُمِّي. وقد حدث أن لمحني نابليون وهو يمر على بعد خطوات مني، وكنت مرتدياً زي أبناء السادة، إذ كان أهلي دائماً يعنون بملايسي وقد كنت الطفل الوحيد في ذلك الحشد، فلا يسعك إلا..

- لا شك أن وجودك فاجأه، وجعله يجد فيه الدليل على أن كل سكان موسكو لم يرتحلوا عنها، وأنه لا يزال فيها بعض السادة مع أبنائهم.

- تماماً، تماماً، لقد أراد أن يكتسب السادة إلى جانبه، وعندما ركز نظراته الصقرية عليّ، أعتقد أن نظراتي تجاوبت معه. ولما سألني قائلاً: «ها هو ذا طفل يقظ جداً، ابن من أنت؟» أجبتة على الفور وبأنفاس لاهثة بالانفعال قائلاً: «ابن جنرال مات وهو يحارب من أجل بلاده». وعندئذ قال نابليون: «إن أبناء السادة والنبلاء يمتازون بالشجاعة ويصلحون للعسكرية، وأنا أحب النبلاء، وأحبك أيها الصغير» وكانت إجابتي على هذا أنني قلت بسرعة: «إن القلب الروسي قادر على إدراك قيمة الرجل العظيم حتى لو كان عدواً لبلاده» وإذا شئت الحقيقة فأنا لا أذكر تماماً هل كانت هذه هي الكلمات نفسها التي استعملتها في الحديث أم لا - فقد كنت طفلاً - ولكنني واثق أن هذا هو المعنى الذي عبرت عنه. ودهش نابليون، ثم فكر برهة قال بعدها لحاشيته: «إنني أحب كبرياء هذا الطفل، ولكن إذا كان الروسيون لهم مثل هذا التفكير إذن..» ولم يكمل عبارته، وإنما دخل القصر. أما أنا فقد بادرت إلى الاندماج في حاشيته، والإسراع وراءه. وقد أفسح لي ضباط الحاشية مكاناً بينهم واعتبروني صفيّاً من أصفائهم. ولكن هذا كله لم

يستغرق أكثر من دقيقة؛ لأن كل ما أتذكره هو أنني حين دخلت الغرفة الأولى رأيت الإمبراطور يقف أمام صورة زيتية للإمبراطورة كاترين وينظر إليها في تأمل فترة طويلة، ثم يقول أخيرًا: «كانت تلك امرأة عظيمة» ثم استأنف مسيره. وفي خلال يومين أصبح كل من في القصر ومن في الكرملين يعرفني ويدعونني باسم «النبيل الصغير». وكنت لا أذهب إلى البيت إلا للنوم. وكان جميع من في البيت يكادون يفقدون عقولهم. وبعد يومين آخرين، مات وصيف نابليون، البارون دي بازנקور بعد أن عجز عن مقاومة شذائد الغزو. وتذكرني نابليون، وإذا برجاله يأخذونني ويحملونني إلى القصر دون أن يذكروا لي شيئًا، ثم أخذوا يقيسون عليّ ملابس الوصيف السابق، وكان غلامًا في الثانية عشرة، وأخيرًا قدموني - بملابسي الرسمية - إلى الإمبراطور الذي أومأ لي برأسه. وعندئذ قيل لي إني حظيت بشرف القبول، وعينت وصيفًا لجلالته. وغمرني السرور؛ لأنني كنت أشعر، لمدة طويلة، بالحب له. حسنًا، ثم كان هناك عدا هذا كله، كما ترى، الحلة الرسمية الفاخرة التي كانت تعني الشيء الكثير في نظر طفل. وكانت ملابسني الرسمية تتكون من سترة طويلة ذات لون أخضر داكن موشاة بالذهب على الكُمَيْن، ونبيقة «ياقة» منشأة عالية مفتوحة مطرزة بالذهب أيضًا، كما كان ثمة تطريز ذهبي على قلابتيّ السترة من أمام، ثم حزام أبيض من جلد الشمواه، وبنطلون محكم، وصديرية من الحرير الأبيض، وجوارب حريرية، وحذاء محكم بأبريم. وإذا كنت بين حاشية الإمبراطور كلما خرج في جولة على صهوة جواده، ارتديت حذاء الركوب الفاخر. ورغم أن حالة الجيش الفرنسي كانت أبعد شيء عن التحسن والاستقرار، ورغم الكوارث الضخمة التي كانت متوقعة له، فقد كان الجميع يحرصون على آداب السلوك، وكانوا يزدادون حرصًا عليها

كلما ازداد توقعهم للكوارث المنتظرة.

وغمغم الأمير قائلاً وهو يشعر بالحرج الشديد:

- نعم، طبعاً. إن ذكرياتك يمكن أن تكون ممتعة إلى حد كبير.

وكان الجنرال بطبيعة الحال يكرر فقط ما كان قد قاله لليبيديف في اليوم السابق، ولهذا كان يتحدث بسلاسة وفصاحة، إلا أنه حين وصل إلى هذه المرحلة من الحديث، اختلس نظرة شك إلى الأمير. وأخيراً قال بكبرياء مضاعفة:

- ذكرياتي؟ هل أكتب ذكرياتي؟ لا يا سيدي، ليس هناك ما يغريني لأن أفعل هذا. وإذا أردت أن تعلم، فاعلم أن ذكرياتي مكتوبة فعلاً ولكنها.. ملقاة في درج مكتبي. ولينشرها من يريد بعد أن أوارى الثرى، لينشرها من يريد؛ لأنها سوف تترجم بدون شك إلى اللغات الأجنبية، لا لقيمتها الأدبية.. أبداً يا سيدي وإنما لأهمية الأحداث التاريخية التي شهدتها بنفسي رغم أنني لم أكن غير طفل يومذاك. بل إن حادثة سني في الواقع كانت السبب في أن أنفذ إلى أسرار غرفة نوم «الرجل العظيم». وقد سمعته ذات ليلة وهو يتوجع ويتأوه فيبدو «عظيماً حتى في آلامه»؛ لأنه لم يكن يخجل من التوجع بل ومن البكاء أمام طفل مثلي، رغم أنني كنت قادراً على أن أعرف أن سر آلامه وأحزانه كان بسبب صمت الإمبراطور إسكندر.

فأوماً الأمير وقال بصوت متردد:

- نعم، لقد كتب نابليون إليه رسائل كثيرة- يعرض فيها مقترحات للسلام، أليس كذلك؟

- والواقع يا سيدي أننا لا نعرف أي نوع من المقترحات كان يعرضها،

ولكنه كان يكتب كل يوم، وكل ساعة، الرسالة بعد الأخرى. وكان في حال اضطراب عنيف. وأذكر ذات ليلة ونحن منفردان أنني ألقىت بنفسي على صدره باكيًا «وكنت أحبه» ثم صحت قائلاً له: «أرجوك.. أرجوك أن تلمس من الإمبراطور إسكندر أن يعفو عنك» وقد كان الواجب، كما ترى، أن أقول له «اعقد الصلح مع الإمبراطور إسكندر» ولكنني كطفل عبرت عن رأيي بطريقة ساذجة. وقد أجاب قائلاً وهو يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً «أوه، ولدي.. أوه ولدي». ولم يكن يبدو في ذلك الحين أنه كان يلاحظ أنني مجرد طفل في العاشرة، وإنما كان يجب أن يتحدث إليّ. وقد استطرد في حديثه قائلاً: «أوه، ولدي، إنني مستعد أن أقبل قدمي الإمبراطور إسكندر، أما ملك بروسيا وإمبراطور النمسا، فإني لا أشعر نحوهما إلا بالحق الأبدى، ولكن.. ولكنك لا تعرف شيئاً عن هذه المسائل السياسية». وبدا كأنما تذكر فجأةً أنه يحادث طفلاً، فالتزم الصمت، ولكن عينيه ظلتا تقدحان الشرر مدة طويلة بعد ذلك. حسنًا يا سيدي، إذا كان عليّ أن أصف هذه الحقائق، وقد كنت شاهد عيان لأحداث ضخمة، فهل يتحتم عليّ أيضًا أن أنشرها الآن مع وجود كل هؤلاء النقاد، وكل هؤلاء المتأدبين الفارغين المغرورين، وكل هذه المنافسات القائمة على الغيرة، وكل هذه الأحزاب السياسية.. لا يا سيدي، لست أنا الذي يفعل هذا.

فقال الأمير بهدوء بعد فترة صمت وجيزة:

- إنك على حق طبعًا فيما قلت عن الأحزاب وأنا أتفق معك في هذا الشأن تمامًا، فمنذ أيام قليلة فقط قرأت كتابًا عن معركة واترلو بقلم تشاراس. وكان يبدو عليه بوضوح أنه كتاب منهجي، وأنه- في رأي الخبراء- مكتوب بقلم مؤلف واسع الاطلاع غزير المعرفة. ولكنك تستطيع في كل صفحة

أن تشعر ببهجة المؤلف لكل ما أصاب نابليون من هزيمة وإذلال، وأنه كان يتمنى، لو استطاع، أن يشكك في عبقرية نابليون في كل معركة حربية أخرى. وأنا واثق أن تشاراس كان يسعده جداً أن يفعل هذا. وهكذا تفسد روح التحزب مثل هذه الأعمال الأدبية الجادة. و.. هل كنت كثير المشاغل أثناء خدمتك ل... للإمبراطور؟

وأحس الجنرال بالسرور، ذلك لأن عبارة الأمير الأخيرة التي قالها بكل جد وبساطة طردت كل آثار باقية من الشك في نفسه. وقد أجاب قائلاً:

- تشاراس؟ آه. لقد أغضبني بكتابه هذا. وأذكر أنني كتبت له في ذلك الحين رسالة، ولكنني، ولكنني لا أتذكر الآن ماذا قلت له فيها. وأنت تسألني هل كنت كثير الشواغل أثناء خدمة الإمبراطور؟ أوه، لا. لقد كنت وصيفاً له كما يسمونني، ولكنني لم أنظر إلى هذا الأمر نظرة جادة يومذاك. وعدا هذا كان نابليون قد أدرك بسرعة أنه فقد كل أمل في انتصاره على الروسيين، فكان من المحتمل جداً أن ينسى كل شيء عني؛ لأنه لم يضمني إلى حاشيته إلا بدافع سياسي، إن لم يكن بسبب ميله الشخصي إليّ. وأنا أقول هذا الآن بكل صراحة. أما يومذاك فلا يسعني إلا الاعتراف بأنني أحبته، ولم تكن عليّ واجبات معينة، وإنما كان عليّ أن أحضر إلى القصر، وأن أصحب الإمبراطور أحياناً عند خروجه للنزهة أو للتفتيش. كان هذا هو عملي فقط. وكنت أحسن ركوب الخيل. وكان من عادته أن يقوم بجولة على صهوة جواده قبل وجبة الغداء تصحبه فيها حاشية مكونة من دافوست، وأنا والمملوك رستانت^(١).

فقال الأمير مصححاً رغماً عنه:

- تعني كونستانت؟

(١) يقصد المملوك رستم. (المترجم)

- لا، لم يكن كونستانت موجودًا يومذاك؛ لأن الإمبراطور كان قد أرسله بخطاب إلى الإمبراطورة جوزفين، وقد احتل مكانه جنديان للمراسلة وبعض الفرسان البولنديين. نعم، كانت هذه هي الحاشية كلها، فيما عدا طبعًا الجنرالات والماريشالات الذين كان نابليون يصحبهم لمشاهدة الأرض ومواقع الجيوش ويعقد معهم الاجتماعات الاستشارية. وكان دافوست لا يكاد يفارقه لحظة. إنني أتذكره جيدًا، فقد كان رجلًا ضخم الجسم، عارم القوة، متزن التفكير، يضع النظارة على عينيه اللتين كان لهما نظرات ذات مغزى عجيب. وكان الإمبراطور يستشيريه في حالات عديدة أكثر من غيره؛ لأنه كان شديد التقدير لرجاحة عقله. وأتذكر أنهما كانا يعقدان اجتماعات استشارية استمرت أيامًا عديدة. وكان دافوست يأتي في الصباح وفي المساء، وكثيرًا ما كنت أسمعهما يتناقشان ويتقارعان بالحجج. وأخيرًا لاح أن الإمبراطور أخذ برأيه. وكانا منفردين في غرفة المكتب، وكنت موجودًا معهما، ولكنهما لم يعيراني أي التفات. ثم تصادف فجأة أن وقعت أنظار نابليون عليّ، فالتمعت عيناه بوميض عجيب وقال لي فجأة: «ما رأيك يا ولدي لو أنني اعتنقت مذهب اليونان الأرثوذكس وأطلقت سراح الأسرى والعبيد، فهل يتعاون الروسيون معي حينئذ أم لا؟» فصحت باستنكار: «هذا مستحيل» فدهش نابليون ثم قال: «إن الوطنية تتألق في عيني هذا الطفل، وإنني أرى فيهما حكم الشعب الروسي كله عليّ. وعلى هذا يكون كل ما قلته يا دافوست قائمًا على الأوهام. فلنسمع إذن مشروعك الآخر».

وهنا قال الأمير في اهتمام واضح:

- ولكن ذلك المشروع أيضًا كان ينطوي على فكرة رائعة. إذن فقد كان دافوست في رأيك هو صاحبه؟

- لا يسعني إلا القول إنهما كانا يتناقشان معًا. ولكن الفكرة بلا شك كانت فكرة نابليون، فكرة النسر. وكان المشروع الآخر ينطوي أيضًا على فكرة جيدة، إنها الفكرة المشهورة باسم «عرين الأسد» كما أطلقه نابليون عليها، وهي من أفكار دافوست. وكانت تدور حول بقاء نابليون داخل الكريملين مع جميع وحدات جيشه، وإقامة الثكنات والاستحكامات داخلها، وذبح أكبر عدد ممكن من الخيول وتجفيف وتمليح لحومها، ثم الحصول على أكبر قدر ممكن من الحبوب والقمح، بالسلب والنهب وبوسائل أخرى، ثم قضاء فصل الشتاء حتى يأتي الربيع. وعندئذ يستأنف نابليون زحفه ويشق طريقه في خطوط الروسيين. وأعجبت نابليون هذه الفكرة جدًا. ومن ثم تعودنا أن نطوف كل يوم، على صهوات الجياد، حول أسوار الكريملين حيث كان يبين لمن حوله أين يهدمون هذا الجانب أو ذاك ليشيدوا جدرانًا أقوى تحتوي على ثغرات لضرب النار، أو ليقيموا بعض السواتر، أو مجموعة من الحصون. وكان الأمر لا يكلفه أكثر من نظرة، ثم قرارًا سريعًا، فيتم كل شيء. وأخيرًا استقر الرأي على هذا المشروع، ولكن دافوست أصر على اتخاذ قرار نهائي. واجتمعًا معًا مرة أخرى، وكنت ثالثهما، وعاد نابليون يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا وقد عقد يديه وراء ظهره. ولم أستطع أن أحول نظراتي عن وجهه وقلبي يخفق بعنف. وقال دافوست: «إنني ذاهب» فسأله نابليون قائلاً: «إلى أين؟» فقال دافوست: «لأملح لحوم الجياد» وجفل نابليون قليلًا وهو يرى مصيره قد تحدد. وفجأة قال لي: «ما رأيك يا ولدي في هذا المشروع؟» وكان يسألني طبعًا بروح الرجل النابغة الذي يرى أحيانًا أن يلجأ إلى الحظ في اتخاذ قرار نهائي. وبدلاً من أن أجيب على نابليون، التفتُ إلى دافوست وقلت له وكأنما قد أوجي إليّ: «اخرج

أيها الجنرال». ورفض نابليون المشروع، وهز دافوست كتفيه وهمس قائلاً وهو ينصرف «إه! إنه يعتمد على الخرافات» وفي اليوم التالي صدر الأمر بالتقهقر.

وقال الأمير بصوت خافت:

- إن هذا كله مثير جداً...

ثم أردف قائلاً بسرعة كأنما يريد أن يصحح موقفه:

- هذا جد شائق إذا كان قد حدث حقاً...

فصاح الجنرال قائلاً وقد استغرق في قصته بحيث لم يعد قادراً - كما يبدو - على التوقف عن الاستمرار في هذه الحماقات الصارخة:

- أوه، أتقول أيها الأمير «هذا إذا كان قد حدث حقاً» أؤكد لك أن هناك ما هو أكثر من ذلك. أكثر جداً من ذلك! إن كل ما ذكرت الآن مجرد حقائق سياسية تافهة. وأكرر القول إنني كنت شاهد عيان لدموع الرجل العظيم وتأوهاتة وهذا ما لم يره أحد غيري. وأنا أعترف أنه لم يعد يبكي أخيراً، لأنه لم يعد ثمة مزيد من الدموع، وإنما كان يتأوه في بعض الأحيان. إلا أن وجهه كان يزداد اكتئاباً حيناً بعد حين، وكأنما كانت الأبدية ترفرف عليه بأجنحتها السوداء. وكنا في بعض الأحيان نقضي الليل معاً في صمت تام لمدة ساعات عديدة. وكنت أسمع غطيط المملوك رستانت «رستم» يعلو من الغرفة المجاورة. ولشد ما كان نوم ذلك الرجل عميقاً. ولكن نابليون كان معتاداً أن يقول عنه: «ولكنه شديد الإخلاص لي ولأسرتي الحاكمة» وقد حدث أنني كنت في حالة حزن شديد، وفجأة لاحظ الدموع في عيني، فنظر إليّ بتأثر شديد وهتف: «أحزين أنت من أجلي؟ أنت، الطفل! وربما

هناك طفل آخر سوف يحزن من أجلي، إنه ابني ملك روما، أما الباقون جميعاً فهم يكرهونني.. جميعهم، وسوف يكون إخوتي أول الخاذلين لي في محنتي» وانفجرت باكياً، وألقيت بنفسي على صدره، ثم إذا هو ينهار ويبكي، وتعانقنا، وامتزجت قطرات دموعنا. وقلت له باكياً: «اكتب رسالة إلى الإمبراطورة جوزفين» ودهش نابليون، ثم فكر برهة، ثم قال لي: «لقد ذكرتني بقلب آخر يحبني، شكرًا لك يا صديقي»، ثم جلس وكتب رسالة إلى جوزفين أرسل بها في اليوم التالي مع كونستانت.

وهنا قال الأمير للجنرال:

- لقد أحسنت صنعاً؛ لأنك أثرت في نفسه المشاعر الطيبة بينما كانت الأفكار السوداء تعصف برأسه.

فصاح الجنرال في نشوة وقد تألقت - للعجب - الدموع في عينيه:

- صدقت يا سيدي الأمير، ثم ما أجمل تفسيرك للموقف. ولكن هذا ليس بالشيء الكثير على رجل له مثل قلبك الطيب. نعم، نعم، لقد كان منظرًا رائعاً! وقد كدت أن أعود معه إلى باريس، وأن أشاركه، بطبيعة الحال، منفاه في تلك «الجزيرة الاستوائية» ولكن القدر - وأأسفاه - فرّق بيننا. فسار كل منا في طريق مختلف: هو إلى الجزيرة الاستوائية وربما تذكر وهو هناك ولو مرة واحدة أثناء شعوره بالحزن العميق دموع ذلك الطفل الصغير المسكين الذي عانقه وغفر له في موسكو. وأرسلت أنا إلى الكلية الحربية حيث لم أجد فيها غير التدريبات العسكرية، وغير الزملاء الأجلاف. وهكذا تحول كل شيء - للأسف - إلى رماد وتراب! لقد قال لي في يوم بدء التقهقر: «إنني لا أريد أن أبعدك عن أمك، ولهذا فلن أصحبك معي». ثم أردف قائلاً وهو يمتطي صهوة جواده: «ولكنني كنت أريد أن أصنع لك شيئاً» فقلت له في

خبجل وأنا أراه على تلك الحال من الاضطراب والاكثاب: «اكتب لي عبارة تذكارية في إضمامة أختي» فراجع وطلب قلمًا، وتناول الإضمامة «الألبوم» وسألني قائلاً وهو يشرع القلم على الورق: «كم عمر أختك» فقلت: «ثلاثة أعوام» فقال: «يا لها من طفلة صغيرة» ثم كتب بسرعة في صفحة الإضمامة ما يلي:

«لا تكذب أبداً».

«حبيبك المخلص نابليون».

- فتصور هذه العبارة، في مثل تلك اللحظة أيها الأمير؟

- نعم، إنها شيء عجيب.

- لقد ظلت هذه الصفحة من الألبوم موضوعة في إطار ذهبي، ومعلقة في أجمل مكان من غرفة الاستقبال في مسكن أختي حتى آخر يوم من عمرها. وقد ماتت أثناء الوضع. وأين هي الآن؟ لا أدري. ولكن، يا الله! لقد بلغت الساعة الآن الثانية بعد الظهر، وإنني آسف إذ عطلتك هكذا أيها الأمير. إن ما فعلته لا يُغتفر.

ونهض الجنرال عن مقعده، ولكن الأمير غمغم قائلاً:

- لا، بالعكس. لقد أنستني كثيرًا، وإن حديثك لمتع حقًا. ومن ثم فإنني شاكر لك هذا الفضل.

فقال الجنرال وهو يضغط مرة أخرى على يد الأمير بعنف مؤلم، ويحملق في وجهه بعينين متألقتين وكأنما استجمع نفسه ثم فوجئ بفكرة ما:

- إنك أيها الأمير من الطيبة والبساطة بحيث لا يسعني إلا الشعور بالأسف من أجلك أحيانًا، وإنني لأتأثر جدًا كلما نظرت إليك. أوه،

فليباركك الله، وعسى أن تبدأ حياة جديدة مزدهرة يباركها الحب - إن حياتي
أوشكت على النهاية، فأرجو أن تغفر لي.

وانصرف بسرعة وهو يغطي وجهه بيديه، ولم يستطع الأمير أن يشك في
صدق انفعالاته. وقد أدرك أيضًا أن الرجل العجوز قد انصرف وهو أسعد ما
يكون بنجاحه ومع ذلك فلم يسعه إلا أن يشعر بأن الجنرال ينتمي إلى هذه
الطبقة من الكذابين الذين يرتابون - رغم حماسهم في الكذب واستغراقهم
فيه - في أن المستمعين إليهم قد لا يصدقونهم، وفي أنهم لا يمكن حقًا
أن يصدقهم أحد، وإن الجنرال في هذه الحالة قد يسترد اتزانته، فيستبد به
الشعور بالخجل، ويشك في أن الأمير يرثي له في نفسه، فيحس عندئذ
بالمهانة. وسأل الأمير نفسه في قلق: «ترى هل أنا ارتكبت خطأ أشد حين
تركته يتمادى في هذه الأكاذيب إلى هذا الحد؟» وفجأة لم يستطع أن يكبح
نفسه، فانطلق يضحك ضحكًا عاليًا متصلًا. ثم بدأ يؤنب نفسه على ضحكه
إلا أنه لم يلبث أن تبين أنه ليس هناك ما يدعو إلى تأنيبه لنفسه؛ لأنه في الواقع
شديد الأسف من أجل الجنرال.

وثبت أن هواجسه كانت على أساس. إذ تلقى في المساء رسالة عجيبة،
موجزة، ولكنها واضحة، وقد ذكر له الجنرال فيها أنه سيفترق عنه إلى الأبد،
وأنه يحترمه ويعترف بجميله، ولكنه لا يستطيع أن يقبل «لمسات العطف»
حتى منه لأن هذه اللمسات تعتبر تجريحًا لكرامة رجل لا يزال يعاني الشقاء
في الحياة. ولما علم الأمير أن الجنرال عاد للحياة مع زوجته، أحس بالرضى
لهذا السبب. ولكننا قد عرفنا فعلاً أن الجنرال قد أثار بعض المنازعات
الخطيرة مع المسز إيبانشين أيضًا. ونحن هنا لا نستطيع أن ندخل في
التفاصيل، ولكن يمكن أن نقول بإيجاز إن أخطر ما في المقابلة أنه أفرع

المسز إيبانشين وأثار استنكارها بحملته القاسية على جانبا، مما جعلهم يطردونه من البيت. وكان ذلك هو السبب في قضائه مثل ذلك الصباح، ومثل تلك الليلة مما انتهى به أخيراً إلى الانفجار والاندفاع إلى الشارع وهو أقرب ما يكون إلى الجنون.

أما كوليا فلم يكن قد أدرك تماماً حقيقة الوضع مع والده، ومن ثم خامره الرجاء في أنه قد يستطيع إصلاح الأمر بالشدة. ومن ثم قال له:

- بحق السماء يا جنرال! إلى أين تظن أن في مقدورنا أن نمضي الآن؟ إنك لا تريد أن تذهب إلى الأمير، وقد تشاجرت مع ليبيديف، وليس لديك شيء من المال، وأنا لم يحدث أن كان معي مال قط، وهكذا نجد أنفسنا هنا في الطريق بلا مال أو مأوى.

فقال الجنرال بعنف:

- إنني أفضل ألا أكون بلا مال أو مأوى على أن أكون بلا كرامة أو كبرياء. وقد كان.. لهذه.. العبارة.. دوي كبير.. في متدى.. متدى الضباط. عام اثنين وأربعين ألف.. وثمانمائة. اثنين وأربعين - نعم يا سيدي، لقد نسيت في أي عام كان هذا - أوه، لا تذكرني - لا تذكرني.. «أين راح شبابي، أين ذهبت نظارتي».. من قال هذه الكلمات يا كوليا؟

فأجاب كوليا وهو يختلس نظرة قلق إلى أبيه:

- إنه جوجول، يا أبي، في روايته «النفوس الميتة».

- النفوس الميتة! أوه، أجل الميتة. عندما تدفنونني، اكتبوا على شاهد قبري هذه العبارة (هنا ترقد نفس ميتة).. «إن العار يلاحقني» من قال هذا يا كوليا!

- لا أدري يا أبي.

وهنا صاح الجنرال في احتياج شديد وقد توقف لحظة في الطريق :

- ليس لإيروبيجوف وجود؟ إيروشكا إيروبيجوف؟ ثم تقولون إن هذا ابني، ومن دمي ولحمي؟ إيروبيجوف، الذي كان كأخ شقيق لي مدة أحد عشر شهرًا، والذي من أجله اشتبكت في مبارزة مع الأمير فيجوريتوسكي، قائد حاميتنا الذي قال لي أثناء جلوسنا للشراب ذات ليلة «اسمع يا جريشا، كيف حصلت على وسام سانت آن، أخبرني..» فصحت قائلاً: «لقد حصلت عليه وأنا أخوض المعارك من أجل وطني، هذه هي كيفية حصولي عليه» وانتهى الأمر بيننا إلى مبارزة، ثم تزوج فيما بعد ماريا بتروناسو - سوتوجين، ثم قتل وهو في خضم المعركة، لقد انزلت الرصاصة فوق الوسام المعلق على صدري وأصابته في الجبين مباشرة، وعندئذ صاح وهو يسقط ميتاً: «لن أنسى أبداً». لقد خدمت وطني بشرف يا كوليا، ولكن العار - العار يلاحقني - ولسوف تأتي أنت ووالدتك إلى قبري، والدتك المسكينة نينا! لقد تعودت أن أنادبها هكذا من قبل. منذ.. منذ مدة طويلة جداً يا كوليا.. منذ الأيام الخوالي، ولشد ما كانت تحبني نينا.. نينا! أي حطام قد جعلت من حياتك! ولأي شيء يمكن أن تحبيني الآن أيتها الروح الصابرة، إن لأملك روح ملاك يا كوليا، أسمعني؟ ملاك.

- أنا أعرف هذا يا أبي. أبي يا أبي العزيز، هلم نعد إلى أمي. إنها تجري وراءنا. لماذا تقف هنا؟ وكأنني بك لا تفهم شيئاً! عجباً! لماذا تبكي؟

وكان كوليا نفسه يبكي ويقبل يدي والده الذي قال له:

- إنك تقبل يدي.. يدي؟

- أجل، يديك.. يديك يا أبي. ما وجه العجب في هذا؟ حسنًا! ولماذا تقف هكذا في الطريق وتصيح وأنت تسمي نفسك جنرالًا، وجنديًا؟! هلم.. هلم نعد.

- ليباركك الله، يا ولدي العزيز، على احترامك لرجل عجوز جلله العار، نعم جلله العار، هو أبوك، وعسى أن يمنحك ابنًا مثل - ملك روما.. ولتنزل اللعنة.. اللعنة على هذا البيت.

وهنا صاح كوليا بغضب مفاجئ:

- ما هذا الذي يحدث هنا بحق السماء؟ لماذا لا تريد العودة إلى البيت الآن؟ لماذا خرجت عن نطاق العقل والصواب؟

- لسوف أشرح لك، سوف أشرح لك الأمر. سأخبرك بكل شيء. لا ترفع صوتك هكذا وإلا سمعوك - ملك روما؟ أوه، إنني سقيم، إنني شقي «أيتها الممرضة، أين مثواك؟» من قال هذا يا كوليا؟

- لا أدري.. لا أدري من قال هذا. هلم إلى البيت الآن.. الآن لسوف أضرب جانبا علقه إذا لزم الأمر. عجبًا! إلى أين أنت ذاهب؟

ولكن الجنرال كان يحجره معه نحو الدرجات الأمامية لأحد البيوت وهو يغمغم قائلاً:

- احن رأسك.. احن رأسك.. سأخبرك بكل شيء - يا للعار. احن رأسك. هات أذنك.. أذنك. لسوف أهمس به في أذنك.

فهتف كوليا بانزعاج شديد وهو ينحني على أبيه الذي كان كل جسمه يرتعد وهو يهمس قائلاً:

- ملك روما.

- ماذا؟ ماذا تريد من ملك روما؟ ماذا؟

فعاد الجنرال يهمس وهو يزداد تشبثاً بكتف ولده:

- أنا.. أنا أريد أن أقول لك كل شيء.. ماريا.. ماريا سو- سوتوجين.

وانتزع كوليا نفسه من قبضة أبيه، ثم أمسك به من كتفيه، وحملق في وجهه بوحشية. وشحب وجه الرجل العجوز، وازرقت شفتاه، وطافت الاختلاجات السريعة بوجهه، وفجأة مال إلى الأمام وراح يتهادى ببطء بين ذراعي كوليا.

وصاح كوليا وقد أدرك أخيراً ما ألم بوالده.

- إنه الفالج!



الفصل الخامس

الواقع أن فاريا كانت قد بالغت بعض الشيء، أثناء حديثها مع أخيها، بشأن الشائعات التي انتشرت حول خطبة الأمير لأجلايا إيبانشين. ولعلها تكهنت - بذكائها وشفافية نفسها - بما هو خليق بأن يحدث في المستقبل القريب. أو لعل شعورها بالاستياء لأن حلمها «الذي لم تكن هي في الواقع تؤمن به» لم يتحقق، مما جعلها - وهي نفس بشرية - تأبى أن تحرم نفسها من متعة المبالغة في الحديث عن الكارثة، وذلك عن طريق سكب القليل من الحقد في أذن أخيها الذي كانت - مع هذا كله - تحبه بكل إخلاص وحنان. وعلى أية حال لم يكن في مقدورها أن تستقي معلومات دقيقة من أصدقائها آل إيبانشين، وإنما كل ما حصلت عليه لا يعدو إيماءات وتلميحات وكلمات مبتورة والتزام للصمت وميل للحديث في غموض وسرية. ولكن هل بنات إيبانشين قد تعمدن الإدلاء ببعض المعلومات التي ما كان ينبغي الإدلاء بها في تلك الظروف حتى يظفرن بدورهن بشيء مما تعلمه فاريا. ومن المحتمل كذلك أنهن لم يصبرن على حرمان أنفسهن من متعة العبث قليلاً بصديقة لهن، وذلك رغم أن صداقتهن لها تمتد منذ الطفولة. ولا شك أنهن قد أدركن - بحكم هذه الصداقة العتيقة - شيئاً مما سوف تفعله.

ومن ناحية أخرى، فعلى الرغم من أن الأمير كان على صواب تام في تأكيده لليبيديف أنه ليس ثمة ما يخبره به، وأنه لم يحدث له شيء بصفة خاصة، إلا أنه قد يكون مخطئاً أيضاً. والواقع أن شيئاً ما غريباً قد حدث - كما يبدو - للجميع، إن شيئاً ما في الواقع لم يحدث، ومع ذلك، وفي الوقت نفسه، قد حدث الشيء الكثير. هذه الحقيقة الأخيرة هي التي استنتجتها فاريا بغريزتها الأنثوية.

وعلى أية حال فإنه يبدو من العسير أن نشرح بطريقة منتظمة كيف حدث أن فرداً في بيت آل إيبانشين قد أدرك عن يقين أن شيئاً ما على جانب كبير من الأهمية قد حدث لأجلاليا وأن مستقبلها - أو مصيرها - قد تحدد. ولكن ما إن ومضت الفكرة في أذهان الجميع، حتى أخذوا يؤكدون جميعاً وفي وقت واحد، أنهم كانوا يعرفون منذ أمد بعيد ما سوف يحدث، وأن الشك في الواقع لم يخامر أذهانهم أبداً في هذا الشأن، وأن الأمر كان جد واضح لهم منذ قراءة قصيدة «الفارس المسكين» بل وقبل ذلك أيضاً، إلا أنهم كانوا يأبون أن يصدقوا شيئاً بعيداً عن العقول كهذا. وهذا ما كان يدور بأذهان بنات إيبانشين. وكانت المسز إيبانشين أيضاً قد تنبأت وعرفت هذا الأمر قبل أي شخص آخر، وأن قلبها كان «يأكلها» منذ مدة طويلة - ولكن سواء عرفت بهذا الأمر منذ فترة طويلة أو لم تعرف - فإنها الآن لا تستطيع أن تحتمل مجرد التفكير في الأمير لأن هذا كله، ببساطة، قد قلب كل تقديراتها رأساً على عقب. لقد أصبحت الآن في مواجهة مشكلة تحتاج إلى علاج حاسم سريع. ولكن المسكينة المسز إيبانشين ليست عاجزة عن علاجها فحسب، بل إنها، رغم جميع محاولاتها، قد وجدت نفسها أيضاً عاجزة عن فهم هذه المشكلة فهماً واضحاً كاملاً. وبدت المسألة في نظرها على جانب كبير من

الصعوبة «هل الأمير كفاء للزواج بابنتها أم لا؟ وهل الأمر في جملة خير أم لا؟ فلو أنه لم يكن خيرًا «وهذا احتمال ممكن» فلماذا هو ليس خيرًا؟ ولو أنه كان خيرًا «وهو أمر محتمل» فلماذا كان خيرًا؟ وكان رب الأسرة، الجنرال إيبانشين، طبعًا أول من دهش حين بلغه الخبر، ولكنه اعترف فيما بعد قائلاً على حين غرة: «أقسم أن شيئًا من هذا القبيل قد خطر ببالي، ولكن في غموض» وكنت كلما طردته من ذهني، إذا به يعود مرة أخرى» ثم صمت فورًا عندما لمح نظرات زوجته الحازمة مركزة عليه. ولكن هذا كان في الصباح، أما في المساء، عندما جلس مع زوجته على انفراد ووجد أنه مضطر لأن يقول شيئًا مرة أخرى، فقد اندفع فجأة، وفي جراحة عجيبة، يقدم عددًا من الآراء المثيرة للدهشة. ماذا حدث رغم كل شيء «صمت» إن هذا كله - إن صح - عجيب غريب بطبيعة الحال. وأنا لا أجادل فيه ولكن.. «صمت مرة أخرى». وإذا شئنا أن نكون منصفين، من ناحية أخرى - فإن الأمير شخص ممتاز في الحقيقة إلى أقصى حد. و.. و.. وعدا هذا لا ننسى الاسم.. إنه اسم عائلتنا.. وهذا كله يعني أننا سنحتفظ باسم عائلتنا لنا. وهذا وحده يعتبر في العالم، أعني - إذا نظرنا إليه من ناحية المجتمع الراقي - وأنا أعني أن أقول، المجتمع الراقي، والمجتمع الراقي هو المجتمع الراقي. ثم، عدا هذا، فإن.. فإن الأمير ليس بالرجل الفقير - وإن كان هذا.. لا يعني.. أنه واسع الثراء جدًا، فإن لديه.. إن.. و.. و..

وتوقف الجنرال أخيرًا عن الحديث «صمت طويل وانهايار كامل». أما مسز إيبانشين، فبعد أن أنصتت في صبر، فقدت زمام أعصابها في النهاية تمامًا.

إن كل ما حدث، في رأيها، «لا يمكن أن يغتفر، بل ويعتبر حماقة

إجرامية، ونوعاً من الكابوس الثقيل الشاذ الذي لا معنى له» فأولاً: هناك الحقيقة بأن الأمير الصغير البائس كان أبله مريضاً، وثانياً فهو أحرق «لا يعرف شيئاً من شئون هذا العالم وليس له مكان فيه». فإلى من يمكن أن يقدم؟ وأين يمكن للإنسان أن يجد له منصباً مناسباً؟ ثم.. ثم.. ثم ماذا تقول الأميرة بيلوكوفسكي؟ ثم هل كان هذا هو الزوج الذي طالما تخيلوه وتمنوه لأجلايا؟ وكانت هذه الحجة الأخيرة هي الأساسية؛ ذلك لأن قلب الأم انتفض فجأة عند التفكير فيها، وأحست به يدمي ويبيكي، وإن كانت قد أحست في الوقت نفسه بشيء يتململ في أعماقه ويقول لها فجأة: «ولماذا لا يكون الأمير هو الرجل المناسب لابتك» والواقع أن اعتراضات قلبها هذه هي التي كانت تشيع الاضطراب في نفس المسز إيبانشين.

ولسبب ما أعجبت أختا أجلايا بفكرة زواجهما بالأمير. بل إنها لم تبد لهما غريبة أو شاذة. وعلى الجملة كان من المحتمل جداً أن تقفا بجانبه تماماً في الوقت المناسب. إلا أن كلاً منهما قررت ألا تقول شيئاً؛ ذلك لأنه قد أصبح من المعتاد بين أفراد أسرة إيبانشين أنه كلما ثارت مناقشة ما، فإن المسز إيبانشين تزداد عناداً وإصراراً كلما ازدادت المعارضة أمامها، ولكن أفراد الأسرة كانوا يعلمون في الوقت نفسه أن إسرافها في العناد والإصرار كان يدل على قرب موافقتها ورضائها. ولكن ألكسندرا لم تستطع أن تلتزم الصمت إطلاقاً. ذلك أن أمها التي سبق منذ أمد بعيد أن اختارتها مستشارة لها- كانت تلجأ إليها بين الحين والآخر لتعرف رأيها، وتجعلها- بوجه خاص- تتذكر كيف حدث هذا كله منذ بادئ ذي بدء، ولماذا لم يتنبأ أحد بحدوث ما حدث. ثم ما معنى الحديث المزعج عن «الفارس المسكين» ولماذا يقع على عاتقها هي وحدها- المسز إيبانشين- عبء الانشغال

بكم جميعاً والتنبؤ بما قد يحدث لكم، هذا بينما تقفون جميعاً تحملقون ولا تفعلون شيئاً- وهكذا، وهكذا. وكانت ألكسندرا في أول الأمر شديدة الحذر، فلم تذكر أكثر من أن والدها- في رأيها- لم يخطئ كثيراً في اعتقاده بأن الناس قد ينظرون إلى اختيار الأمير ميشكين ليكون زوجاً لإحدى بنات إيبانشين على أنه اختيار موفق، ثم أضافت- وهي تتحمس تدريجياً - قولها بأن الأمير ليس «أحمق» بأية حال، وأنه لم يكن كذلك في يوم ما، أما عن مركزه الاجتماعي، فمن ذا يستطيع أن يؤكد هل المركز الاجتماعي للرجل المهدب في روسيا سيظل بعد بضعة أعوام معتمداً على المنصب الحكومي الذي لا يزال يعد جوهرياً، أم على شيء آخر، وعندئذ ترد أمها عليها قائلة بعبارات ملتوية إنها- أي ألكسندرا- «متحررة في تفكيرها» وأن هذا التحرر ناشئ عن هذه القضية البغيضة «قضية المرأة». وبعد نصف ساعة من هذا الحوار رحلت الأم إلى المدينة، ومنها إلى جزيرة كاميني لزيارة الأميرة بيلوكوفسكي التي حدث- لحسن الحظ- أنها كانت تقيم في بطرسبرج يومذاك، وإن كانت على وشك الرحيل عنها. وكانت الأميرة تعتبر الأم الروحية لأجلاليا.

وأخذت «السيدة العجوز» تنصت إلى حديث المسز إيبانشين الذي كانت تلقيه بحماسة وانفعال دون أن يختلج لها- أي للسيدة العجوز- جفن وهي ترى دموع الأم المنزعجة. بل إنها كانت تنظر إليها في شيء من التهكم. وكانت الأميرة من الطراز الاستبدادي الغشوم، فهي لا تطيق أن تكون على قدم المساواة مع أية صديقة، حتى لو كانت صديقة قديمة. ومن ثم كانت تنظر إلى المسز إيبانشين على أنها ربيبة لها، كما كانت تفعل قبل ذلك بخمسة وثلاثين عاماً، كما لم يكن في مقدورها أن تعترف بأنه أصبح لها، أي

للمسر إيبانشين، شخصيتها المستقلة ومكانتها في المجتمع. وإنما هي ترى أن أصدقاءها جميعاً قد تهادوا في التحرر، وأنهم أصبحوا يجعلون من الحبة قبة. وأنها مهما حاولت أن تنصت بانتباه إلى المسر إيبانشين، فإنها لا تستطيع أن تقنع نفسها بأن شيئاً ما خطيراً قد حدث حقاً، وأنه من الأفضل أن ينتظروا أن يحدث شيء فعلاً، وأن الأمير - في رأيها - شاب لطيف وإن كان مريضاً أو غريب الأطوار بعض الشيء. ولكن أسوأ ما فيه هو علاقاته النسائية. وهنا أدركت المسر إيبانشين أن الأميرة تعاملها ببعض الجفاء بسبب فشل إيفيني بافلوفيتش - الذي قدمته إلى الأسرة - وهكذا عادت المسر إيبانشين إلى ضاحية بافلوفسك وهي أشد اضطراباً وتوفراً عما كانت قبل سفرها، ثم لم تلبث أن صبت على رأس كل واحد من أفراد الأسرة بعض رأيها فيه؛ لأنهم جميعاً «فقدوا عقولهم» ولأن مثل هذه الأحداث لا تقع إلا في بيتهم دون بيوت الناس جميعاً، ثم ما وجه هذا التسرع واللهفة؟ ماذا حدث؟ إنها حتى هذه اللحظة لا ترى شيئاً قد حدث! لماذا لا ينتظرون حتى يحدث شيء؟ وماذا لو أن الجنرال قد تخيل حدوث شيء ما؟ ولماذا نصنع من الحبة قبة؟ وهكذا.. وهكذا..

ومن ثم بدا أن كل ما ينبغي أن يفعلوه، هو أن يلتزموا الهدوء، وأن ينتظروا في ثبات. ولكن هذا الهدوء - للأسف - لم يستمر أكثر من عشر دقائق، فإن أول ضربة عصفت بجو الهدوء كانت بسبب ما سمعت من أخبار ما حدث أثناء غيابها في جزيرة كاميني «لقد بدأت رحلة المسر إيبانشين إلى تلك الجزيرة في صباح الليلة التي دخل فيها الأمير بيتهم بعد منتصف الليل وهو يحسب أن الوقت لم يتجاوز التاسعة مساءً» وأخذت الأخوات يجبن بالتفصيل الدقيق عن أسئلة أمهن الحامية، وقد أجبن في أول الأمر بأنه

لم يحدث شيء خطير أثناء غيبتها، وأن الأمير قد حضر، وأن أجلايا تركته ينتظر نصف ساعة، ثم إذا هي تطلب منه أن يلعبها الشطرنج، وأن الأمير لم تكن لديه أية فكرة عن لعب الشطرنج، ومن ثم غلبته أجلايا فوراً، وأنها كانت في حالة معنوية عالية، وأنها قالت للأمير إن عليه أن يخجل من نفسه لأنه لا يعرف كيف يلعب الشطرنج، وأنها تمادت في السخريه منه بحيث شعر الجميع بالخجل لمجرد النظر إليه. ثم اقترحت عليه أن يلعبا الورق، وأنهما لعبا لعبة «المغفلين» ولكن حدث عندئذ ما لم يكن أحد يتوقعه، إذ ثبت أن الأمير كان بطلاً في هذه اللعبة، بل أستاذًا؛ لأنه كان يلعبها بطريقة ممتازة، وأنه رغم كل ما بذلته أجلايا من محاولات لخداعه، أو لتغيير الورق أو لسرقته أمام عينيه، فإنها لم تستطع أبدًا أن «تستغفله» وإنما «استغفلها» هو خمس مرات متوالية. ومن ثم استبد الغضب بأجلايا، وانفلت منها زمام أعصابها تمامًا، فوجهت إليه عبارات رهيبة جعلته يتوقف عن الضحك، ثم جعلت وجهه كالورقة البيضاء شحوبًا عندما قالت له إنها لن تضع قدمها في هذه الغرفة ما دام موجودًا بها، وأنه كان ينبغي أن يخجل من نفسه وهو يزورهم هكذا في منتصف الليل، لا سيما بعد كل ما حدث، ثم غادرت الغرفة بعد ذلك وشفقت الباب وراءها، وانصرف الأمير من البيت وكأنه خارج من جنازة وذلك رغم كل محاولاتهم لمواساته والتخفيف عنه. وفجأة، بعد ربع ساعة، أقبلت أجلايا تجري نحو الشرفة بسرعة لم تتمكن معها من مسح دموعها التي كانت تبلل عينيها، وكان سبب إسراعها في الهبوط أن كوليا أحضر معه قنفذًا. وأخذ الجميع يتأملون هذا القنفذ ويسألون كوليا عنه، وقد أجاب بقوله إنه لا يملكه وإنه كان يمر أمام البيت مع صديق له هو كوستيا ليبيديف - وهو زميله في المدرسة - وإنه تركه ينتظر في الشارع؛ لأنه يخجل

من الحضور لأنه يحمل معه فأساً صغيرة، وأنهما قد اشتريا كلاً من القنفذ والفأس من فلاح التقيا به. وكان الفلاح يعرض القنفذ للبيع، فاشترياه منه بخمسين كوبكا، ولكنهما ظلا يغريانه ببيع الفأس حتى رضي أخيراً؛ لأنها فأس جيدة في الواقع. ثم إذا أجلايا تتحمس فجأة وتبدأ في الإلحاح على كوليا لبيعها القنفذ، حتى لقد راحت تناديه بكلمة «عزيزي» بعد أن استبدت بها الحماسة، وظل كوليا يرفض بيعه مدة طويلة، ولكنه وافق أخيراً، فاستدعى كوستيا لبيديف الذي جاء يحمل الفأس ويبدو في أشد حالات الارتباك. ثم إذا بهم يتبينون فجأة أن القنفذ ليس ملكاً لكوليا وكوستيا إطلاقاً، وإنما هو ملك للغلام ثالث يدعى بتروف، وكان هذا قد أعطاهما مبلغاً من المال لشراء كتاب التاريخ لكلوسر من غلام رابع كان ينوي أن يبيعه بثمان بخس لشدة حاجته إلى المال، وأنهما ذهبا لشراء كتاب التاريخ، ولكنهما لم يستطيعا مقاومة الرغبة في شراء القنفذ، ومن ثم فإن القنفذ والفأس هما في الواقع ملك للغلام الثالث الذي سيحملانهما إليه بدلاً من كتاب التاريخ. ولكن أجلايا ظلت تلح عليهما إلحاحاً شديداً حتى وافقا أخيراً وباعاهما لها. وبمجرد أن حصلت أجلايا على القنفذ، وضعتة - بمساعدة كوليا - في سلة وغطته بفوطة مائدة، ثم بدأت ترجو كوليا لكي يأخذه نيابة عنها ويمضي به إلى الأمير ويطلب منه أن يتقبله على أنه «دليل احترامها الشديد له» ووافق كوليا بسرور على تحقيق رجائها، ووعداها بأن يأخذ القنفذ إلى الأمير، ولكنه بدأ يلح عليها بدوره لكي تشرح له السبب، فقال: «ما معنى إرسال القنفذ كهدية للأمير». فأجابت أجلايا بأن هذا ليس من شأنه، فقال لها إنه واثق تماماً بأن في الأمر رسالة خفية. وغضبت أجلايا وقالت له بحدة إنه غلام أحمق؛ فرد كوليا عليها قائلاً إنه لو لم يكن يحترمها كسيدة أو يحترم مبادئه؛ لأثبت لها

فوراً كيف يمكن أن تكون إجابته على مثل هذه الإهانة. وانتهى الأمر - على كل حال - بأن حمل كوليا القنفذ بسرور بالغ، وانصرف، وأسرع كوستيا لبيديف وراءه. ولما رأت أجلايا - من مكانها بالشرفة - أن كوليا يطوح بالسلة في يده أكثر مما ينبغي، هتفت قائلة: «أرجوك يا عزيزي كوليا أن تحافظ عليه» وكأنما لم تكن قد تشاجرت معه قبل ذلك بلحظات، وعندئذ توقف كوليا، ورد بسرعة وكأنما هو أيضاً لم يتشاجر معها منذ لحظات، فقال: «لسوف أحافظ عليه يا أنسة أجلايا، فلا تنزعجي» ثم انطلق يجري بأسرع ما يستطيع. وانفجرت أجلايا بعد ذلك في ضحك متصل عريض، ثم اندفعت صاعدة إلى غرفتها وهي جد راضية عن نفسها، ثم ظلت طيلة اليوم وهي أسعد ما تكون حالاً.

وصُدمت المسز إيبانشين بهذه الأنباء صدمة عنيفة. ولكن هذه الصدمة لم تكن لتؤدي إلى شيء ما، وإنما كل ما حدث أنها شعرت بالانزعاج. وقد بلغ انزعاجها حدّاً كبيراً، ولا سيما بسبب القنفذ، إذ أخذت تسأل نفسها: ما معنى إرسال القنفذ إليه؟ أي نوع من التفاهم بينهما بشأنه؟ أي سر يكمن وراء هذه الرسالة؟ أي نوع من الدلالات؟ أي نوع من الرسائل؟ وأكثر من هذا فإن الجنرال إيبانشين المسكين الذي حدث أن كان موجوداً أثناء هذا الاستجواب أفسد كل شيء بإجابته. فقد قال إنه لا يوجد - في رأيه - أية رسالة في هذا الأمر، وأن القنفذ ليس أكثر من قنفذ، ولا شيء غير هذا، إلا أنه يعني - بالإضافة إلى ذلك - نوعاً من الصداقة، ورغبة في دفن الأحقاد - أو في إيجاز - مجرد دعابة بريئة يمكن في كل حال من الأحوال أن تُغتفر!

ويمكننا أن نلاحظ - بين قوسين - أنه أصاب في استنتاجه، فإن الأمير الذي عاد إلى البيت مطروداً مهاناً من أجلايا، ظل جالساً نحو نصف ساعة

وهو أشد ما يكون بأسًا، ثم إذا كوليا يقبل إليه فجأة بالقنفذ. وسرعان ما صفت السماء في حياة الأمير الذي بدا كأنما هو قد بُعث حيًّا. وراح يسأل كوليا بدقة ويتعلق بكل مشاعره على كل كلمة ينطق بها الغلام، وكان يكرر السؤال عليه المرة بعد الأخرى وهو يضحك في جزل كطفل، ويضغط على يدي الغلامين اللذين كانا يضحكان أيضًا ويحملقان إليه بأعين براقة. لقد بدا له بوضوح أن أجلايا صفحت عنه، وأنه يستطيع أن يذهب لزيارتها مرة أخرى في ذلك المساء، وأن هذا هو أهم شيء بالنسبة له.. أهم شيء.

وصاح أخيرًا في حماسة ونشوة:

- إننا ما زلنا جميعًا أطفالًا يا كوليا.. فما أجمل أن نبقي دائمًا أطفالًا!

فقال كوليا في لهجة جادة:

- معنى هذا ببساطة أنها تحبك أيها الأمير، ولا شيء غير هذا.

واضطرم وجه الأمير، ولم يقل شيئًا هذه المرة. أما كوليا فقد ضحك وصفق، وما هي غير لحظة حتى ضحك الأمير أيضًا، وأمضى فترة ما بعد الظهر وهو ينظر في ساعته كل خمس دقائق ليرى كم بقي من الوقت حتى المساء.

أما المسز إيبانشين، فقد غلب عليها مزاجها الحاد، ولم تستطع أن تحتمل الموقف أكثر مما فعلت. فاستسلمت لنوبة موقوتة من الانفجار العصبي. ولم تحفل باعتراضات زوجها وابتيتها، وإنما أرسلت تستدعي أجلايا لتوجه إليها سؤالًا صريحًا تظفر منها بإجابة صريحة، ولكي «أضع حدًا لهذا الأمر بصفة قاطعة، وأنفض يدي منه فلا أعود إلى شغل ذهني به، وإلا فإنني سأموت قبل أن يحل المساء» هكذا أعلنت للجميع. وهنا فقط

أدركوا إلى أي حد أوقعوا أنفسهم في مأزق حرج، ولكنهم لم يستطيعوا أن يظفروا من أجلايا بشيء أكثر من دهشة مصطنعة واستنكار مفتعل، وضحك متصل، وسخرية من الأمير ومن الذين يسألونها عنه. وأوت المسز إيبانشين إلى فراشها، ولم تهبط إلا لتناول الشاي عندما كان الجميع ينتظرون حضور الأمير. وأخذت تنتظر وهي ترتعد وتتوجس، حتى إذا حضر الأمير كادت أن تقع مغشيًا عليها.

وأقبل الأمير في شيء من التوجس أيضًا، بل كان كالذي يتحسس طريقه وهو يبتسم في خجل، وينظر في عيون الجميع، كأنما يسألهم عن شيء ما. وسرعان ما شعر بالانزعاج حينما لم يجد أجلايا بالغرفة. ولم يكن ثمة زائرون غيره في ذلك المساء، أي لم يكن هناك غير أفراد الأسرة فقط. ذلك أن الأمير «س» كان لا يزال غائبًا في بترسبرج بسبب انشغاله بموضوع عم إيفيني بافلوفيتش. وقد قالت المسز إيبانشين في أسف لغيبته: آه لو أنه كان هنا ليقول شيئًا! وجلس الجنرال إيبانشين في سمت الرجل المشغول الذهن جدًا. أما الأختان فقد كانتا جادتين وكأنما قررتا أن تلتزما الصمت لغرض معين. ولم تدر المسز إيبانشين كيف تبدأ الحديث. وأخيرًا انفجرت في حملة عنيفة على السكك الحديدية وهي تنظر إلى الأمير في تحد.

ولكن أجلايا، للأسف، ظلت غائبة عن الغرفة، وانتاب الأمير إحساس بالضيق التام. ورغم أنه كان ينتزع الكلمات من شفثيه انتزاعًا، فقد راح يعرب عن رأيه في أنه من الأفضل للسكك الحديدية أن تهتم بما يصيب قطاراتها من خلل، ولكن أديليدا ضحكت فجأة، فالتزم الأمير الصمت وهو أشد ما يكون خجلًا. وفي تلك اللحظة ذاتها، دخلت أجلايا الغرفة في سمت من الهدوء والعظمة وانحنت للأمير بلباقة، واتخذت بكل وقار أبرز مكان

من المائدة المستديرة. ولما نظرت إلى الأمير في تساؤل، أدرك الجميع أن اللحظة الحاسمة التي ستضع حدًا لحيرة الجميع، قد حانت.

سألته قائلة بحزم وبشيء من الغلظة:

- هل استلمت القنفذ الذي أرسلته لك؟

فقال الأمير وقد اضطرم وجهه وغاص قلبه:

- نعم.

- هل تسمح الآن وتعرب لنا عن رأيك في هذا الموضوع؟ إن لهذه المسألة أهميتها لتهدئة نفس والدتي، ونفوس أفراد الأسرة جميعًا.

وهنا قال الجنرال إيبانشين وقد أحس فجأة بالقلق الشديد:

- اسمعي يا أجلايا..

وصاحت المسز إيبانشين التي أحست بالانزعاج المفاجئ:

- إن هذا.. إن هذا أبعد مما يتصوره أحد..

فأجابت الابنة فورًا وبحدة:

- إنه ليس أبعد من أي شيء يا أماء. لقد أرسلت إلى الأمير قنفذًا اليوم، وأريد أن أعرف رأيه في هذا الموضوع. تكلم أيها الأمير.

- أي موضوع تعنين يا آنسة أجلايا؟

- موضوع القنفذ!

- أظن.. أعتقد أن ما تريدين أن تعرفيه هو كيف - أعني - كيف تلقيت القنفذ، أو على الأصح كيف اعتبرت الأمر، أعني كيف نظرت إلى إرسالك لي قنفذًا - أقصد أنه إذا كان هذا ما تريدين، فإني - أظن، أن.. أن.. أن.. الأمر

بإيجاز..

ثم اختنق صوته، ولزم الصمت.

وقالت أجلايا بعد أن انتظرت بضع دقائق:

- يجب القول إنك لم تذكر شيئاً كثيراً. حسناً، إنني موافقة على التغاضي عن موضوع القنفذ، ولكنني مسرورة لأنه قد أصبح في مقدوري أن أضع حداً لكل الاحتمالات والأقاويل. وأنا أريد الآن للمرة الأولى والأخيرة أن أعرف منك شخصياً: هل تنوي أن تخطبني أم لا؟

فهتفت المسز إيبانشين باندهاش:

- يا أله!!

وجفل الأمير وتراجع إلى الوراء قليلاً، وتسمر الجنرال في مكانه كمن أصيب بضربة على رأسه. وقطبت الأختان جبينيهما..

وعادت أجلايا تقول:

- لا تكذب عليّ أيها الأمير. اصدقني القول، فإنني أعرض بسببك لأعجب الأسئلة. فهل هناك أي أساس لهذه الأسئلة؟ تحدث.

فقال وقد تحمس فجأة:

- إنني لم أتقدم لخطبتك يا آنسة أجلايا، ولكنني أعتقد أنك تعرفين كم أحبك وكم أوّمن بك.. حتى الآن..

- إن ما أطلب معرفته منك هو: هل تطلب يدي أم لا؟

فقال الأمير وقلبه يغوص بين جنبيه:

- إنني أطلبها.

وسرت في الغرفة همهمة انفعال عامة، ثم قال الجنرال إيبانشين في تأثر شديد:

- إنني آسف. ولكن الأمر كله خطأ في خطأ يا صديقي العزيز. إن الأمر على هذا النحو يا أجلايا مستحيل تمامًا.. إنني آسف يا عزيزي الأمير. إنني آسف أشد الأسف يا صديقي العزيز..

ثم استدار نحو زوجته يلتمس عفوها وهو يقول:

- يجب يا عزيزتي أن تحاولي فهم الموقف..

فصاحت المسز إيبانشين قائلة وهي تلوح بذراعيها:

- إنني أرفض.. إنني أرفض.

وهنا قالت أجلايا:

- أرجوك يا أماه أن تدعيني أتكلم؛ لأنه ينبغي أن يكون لي رأيي وقد حانت اللحظة الحاسمة في حياتي - لقد قالت أجلايا هذه الجملة ذاتها- وأحب أن أعرف الحقيقة بنفسي، وعدا هذا، فإني سعيدة لأن هذا كله يحدث أمام الجميع. والآن أرجوك أيها الأمير أن تسمح لي لكي أسألك إذا كانت «مقاصدك شريفة» كيف تنوي أن تجعلني سعيدة في حياتي؟

- يؤسفني أنني لا أعرف كيف أجيب عن هذا السؤال.. فما هي الإجابة التي تتوقعين أن أقدمها.. ثم.. ثم هل من الضروري هذا؟

- يبدو أنك مرتبك لاهث الأنفاس. تريث واستجمع شتات نفسك. وإليك هذا الكوب من الماء، ولا تهتم بشيء. فإنهم سوف يقدمون لك الشاي بعد قليل.

- إنني أحبك يا أجلايا.. أحبك أشد الحب. وأنت الوحيدة التي أحبها.
وأرجو ألا تجعللي من هذا الشعور موضعاً للفكاهة، فإني أحبك حباً شديداً.
- ومع ذلك فما زلت تعرف أن هذه مسألة كبيرة الأهمية، ونحن لسنا
أطفالاً، ولهذا يجب أن ننظر إلى الأمر من زاوية واقعية. فهل تسمح الآن
وتخبرني ما هي قيمتك؟

فدمدم الجنرال قائلاً في استنكار:

- يا أله يا أجلايا! ما هذا الذي تقولينه؟ ما هكذا ينبغي أن تجري
الأمر، لا، لا..!

وقالت المسز إيبانشين في همس مرتفع:

- يا للعار!

وهتفت ألكسندرا بنفس الصوت الهامس المرتفع:

- إنها مجنونة.

وقال الأمير متسائلاً:

- ما قيمتي؟ هل تعنين ما هي ثروتني؟

- أجل. تماماً.

فغمغم الأمير قائلاً وقد احمر وجهه:

- إنني.. إنني أمتلك الآن مائة وخمسة وثلاثين ألف روبل.

فصاحت أجلايا بصوت ينم عن دهشة واضحة صريحة:

- أهذا المبلغ فقط؟ حسناً، لا بأس به على كل حال لا سيما إذا حاولنا

أن نقصد في معيشتنا. وهل تنوي أن تلتحق بخدمة الحكومة؟

- كنت أفكر في أن أظفر بإجازة للتدريس الخاص.
- سيكون هذا جميلاً؛ لأنه - بطبيعة الحال - سيزيد دخلنا. إنك لا تفكر في أن تكون تشريفاتيًا بالبلاط الملكي؟ أليس كذلك؟
- تشريفاتي بالبلاط الملكي! أخشى أن أقول إنني لم أفكر في هذا.. ولكن..

ولكن الأختين، عند هذا، لم تستطيعا أن تتمالكا نفسيهما، فانفجرتا بالضحك. وكانت أدليدا قد لاحظت لفترة طويلة على وجه أجلايا المختلج أمارات تنم عن ضحك مكتوم كانت تحاول بقدر ما تستطيع أن تسيطر عليه. وحملت أجلايا برهة إلى أختيها، ثم لم تلبث هي أيضاً أن عجزت عن امتلاك زمام نفسها فانفجرت في ضحك عريض متصل يكاد يبلغ حد الضحك العصبي. وأخيراً وثبت واقفة وغادرت الغرفة مسرعة.
وقالت أدليدا:

- كنت أعرف أن الأمر لم يكن غير دعاة.. من أوله، منذ إرسالها القنفذ. وانفجرت المسز إيبانشين قائلة في غضب وهي تندفع خارج الغرفة وراء أجلايا:

- لا، إنني لن أسمح بهذا.. لن أسمح به.
وانطلقت الأختان وراءها فوراً ولم يبق في الغرفة غير الأمير ورب الأسرة الذي صاح بعنف وهو - كما يبدو - لا يعرف ماذا يريد أن يقول:
- إن هذا - إن هذا.. هل يمكن أن تتصور شيئاً كهذا أيها الأمير؟ أقصد شيئاً كهذا بصفة جدية؟

فقال الأمير بحزن:

- أرى أن الأنسة أجلايا تسخر مني.

- انتظرني لحظة يا صديقي العزيز، لسوف أمضي وأرى معنى هذا كله،
انتظرني هنا لأنني، أعني، هل تستطيع إذا سمحت أن تشرح لي كيف وصلت
الأمر إلى هذا الحد، وما معنى هذا كله إذا نظرنا إليه في جملة. فأنت تعلم
يا صديقي العزيز أنني أبوها.. أعني.. أنني أبوها، أليس كذلك؟ ومع هذا فإني
لا أعرف لهذا الموضوع رأساً من ذنب. فهل يمكن أن تشرحه لي؟

- إنني أحب أجلايا يا سيدي، وهي تعرف هذا، وأعتقد أنها تعرفه منذ
مدة طويلة.

فهز الجنرال كتفيه وقال:

- هذا عجيب؟ عجيب.. و.. وهل تحبها كثيراً؟

- أجل، كثيراً جداً.

- حسناً! إن هذا كله يبدو لي غريباً. وأعني بذلك مثل هذه المفاجأة،
ومثل هذه الصدمة. وأنت تعلم يا ولدي العزيز أن المسألة ليس لها علاقة
بالمال «وإن كان ينبغي أن أقول إن لديك من المال أكثر مما قلت» وإنما
الذي يهمني هو سعادة ابنتي - أعني هل أنت قادر على أن تجعلها - على ما
هي عليه.. سعيدة؟ ثم ما معنى ما حدث؟ هل هي دعابة من جانبها، أم هي
جادة، أعني جادة لا من ناحيتك، وإنما من ناحيتها؟

وجاء صوت ألكسندرا من وراء الباب تنادي أباه، فقال هذا للأمير:

- انتظرني هنا يا ولدي، أرجوك! انتظرني قليلاً وفكر في الأمر. ولسوف
أعود حالاً.

ثم أسرع يغادر الغرفة مستجيباً لألكسندرا في شيء من الخوف.

ووجد زوجته وابنته أجلايا متعانقتين وهما تبكيان بحرارة. وكانت دموعهما تعبر عن البهجة والعاطفة العذبة والمصالحة. ذلك أن أجلايا كان تقبل يدي أمها وخديها وشفتيها وكلتاها متعانقتان أشد العناق.

وقالت المسر إيبانشين لزوجها:

- انظر إلى هذه الحبيبة الصغيرة الآن. ها هي ذي على حقيقتها.

ورفعت أجلايا وجهها الجميل السعيد المخضّل بالدموع عن صدر أمها، ونظرت إلى أبيها، ثم أرسلت ضحكة عالية، ثم وثبت إليه وعانقته بقوة وقبلته كثيراً، ثم اندفعت عائدة إلى أمها، وطمرت وجهها تماماً في صدرها بحيث لم يعد يستطيع أحد أن يراه، ثم شرعت تبكي مرة أخرى. وغطتها أمها بطرف مطرفها، ثم قالت لها بصوت ينم هذه المرة عن البهجة وكأنما قد استطاعت أخيراً أن تتنفس بحرية وراحة:

- انظري إلى ما تفعلينه بنا الآن أيتها الطفلة القاسية؟ نعم، هذه هي الحقيقة رغم كل شيء.

فانفجرت أجلايا قائلة وهي تضحك رغم دموعها:

- قاسية، أجل، قاسية. وتافهة، ومدللة.. قولي هذا كله لأبي. أوه، ولكنه هنا، ألسنت هنا يا أبي؟ أسمع ما يقولونه عني؟

فقال الجنرال مقبلاً يدها وقد سطع وجهه بالسعادة:

- يا حبيبتى، يا معبودتي، «ولم تسحب يدها منه» إذن فأنت تحبين.. تحبين هذا الشاب.. أليس كذلك؟

فصاحت أجلايا وهي تشمخ برأسها بعد أن نفذ صبرها فجأة:

- لا، لا، لا.. إنني لا أطيق صاحبك الشاب هذا. وإذا تجرأت وقلت هذا مرة أخرى - إنني جادة، أسمع.. جادة!

وكانت تتحدث جادة، بل إن وجهها في الواقع كان مضطربًا، وعينيها كانتا متوهجتين، وجزع والدها وقرر أن يجاريها، ولكن المسز إيبانشين أشارت إليه من وراء أجلايا، وقد فهم معنى إشارتها «لا تلقي عليها أسئلة». وقال لابنته وهو بدوره يغمز بعينه لزوجته:

- إذا كان الأمر كذلك يا عزيزتي، فمن حقلك بطبيعة الحال أن تفعلي ما تشائين، ولكنه ينتظر في غرفة الاستقبال بمفرده، وينبغي أن نخبره بلباقة لكي ينصرف. أليس كذلك؟

- لا، لا. لا داعي لهذا إطلاقًا، لا سيما إذا كان في الأمر «لباقة». يحسن أن تعودوا جميعًا إليه، وسوف آتي بعدكم بقليل. فإني أريد أن أعتذر لهذا الشاب لأنني جرحته مشاعره.

فأمن الجنرال إيبانشين على حديثها هذا بقوله بلهجة جادة:

- نعم، جدًّا.

- حسنًا. إذا كان الأمر كذلك، فيحسن أن تبقى هنا، وسأذهب إليه أولاً بمفردي، ثم تأتون أنتم ورائي، بعدي بلحظة واحدة. فإن هذا أحسن.

وكانت قد وصلت إلى الباب عندئذ. ولكنها استدارت وعادت تقول بحزن:

- ويحي، لسوف أضحك.. لسوف أموت من الضحك!

إلا أنها، في نفس اللحظة استدارت مرة أخرى واندفعت في طريقها إلى الأمير.

وسأل الجنرال إيبانشين بسرعة قائلاً:

- حسنًا! ما معنى هذا كله؟

فأجابت المسز إيبانشين بنفس السرعة:

- إنني لا أحب أن أقولها، ولكنني أعتقد أن الأمر واضح.

- وهذا رأيي أيضًا. إنه واضح كضوء النهار. إنها تحبه.

فقالت ألكسندرا:

- إنها ليست تحبه فقط وإنما هي غارقة في حبه.. في حب رجل كهذا!

فقالت المسز إيبانشين وهي ترسم الصليب على صدرها بحماسة:

- ليباركها الله إذا كان هذا ما ينبغي أن يكون.

فوافقها الجنرال قائلاً:

- حسنًا، إن كان هذا ما ينبغي أن يكون، فليكن. فالإنسان لا يستطيع أن

يهرب من مصيره.

ثم مضوا جميعًا إلى غرفة الاستقبال حيث كانت في انتظارهم مفاجأة أخرى.

لقد تقدمت أجايا من الأمير - وهي أبعد ما تكون عن الضحك كما

كانت تخشى، وقالت له في وداعة وهي تأخذ يده بعد العبارة الأولى:

- أرجوك أن تصدقني

حين أقول إننا جميعًا نحترمك أشد الاحترام. وإذا كنت قد جرؤت على

استغلال قلبك الطيب الجميل للعبث بك، فأرجو أن تصفح عني كما يمكن أن تصفح عن طفلة مشاغبة. إنني آسفة على ما قمت به من سخافة، أرجو ألا يكون لها بطبيعة الحال أبسط النتائج.

وكانت أجلايا تنطق الكلمات الأخيرة بتأكيد خاص.

وقد أمكن للأب والأم والأختين أن يصلوا إلى الغرفة في الوقت المناسب الذي استطاعوا أن يسمعوا فيه هذا كله. وقد اندهشوا لهذه الكلمات «سخافة أرجو ألا يكون لها بطبيعة الحال أبسط النتائج...». ولكن لقد ازدادت دهشتهم وهم يسمعون صوت أجلايا الجاد وهي تتحدث عن هذه «السخافة». ومن ثم تبادل الجميع نظرات التساؤل، ولكن الأمير، كما يلوح، لم يفهم معنى هذه الكلمات، فقال بوجه مشرق بالسعادة:

- لماذا تتحدثين هكذا؟ لماذا.. لماذا تطلبين الصفح مني؟

بل لقد أراد أن يقول إنه غير جدير بأن تطلب الصفح منه. ومن يدري، فلعله كان يعرف معنى هذه الكلمات «سخافة أرجو ألا يكون لها بطبيعة الحال أبسط النتائج» ولكن بما أنه كان شخصية من نوع عجيب، فلعله شعر بالابتهاج لهذه الكلمات. ولم يكن ثمة شك إطلاقاً في أن مجرد السماح له بالحضور لزيارة أجلايا كلما أراد، والتحدث إليها والجلوس معها والخروج في صحبتها، كان كافياً لأن يملأ قلبه بسعادة غامرة. ومن يدري، فلعله يقنع بهذا طيلة المرحلة الباقية في حياته ولعل أن تكون هذه هي القناعة التي كانت المسز إيبانشين تفرع منها سرّاً. ذلك أنها كانت تستشف دخيلة نفسه وترى فيها أشياء كثيرة تفرع منها سرّاً وإن كانت لا تستطيع التعبير عنها بالكلمات. وإنه من العسير أن نصف ما أحس به الأمير في تلك الليلة من نشوة

وسعادة، فقد بلغ من إحساسه بالهناء أن الإنسان لا يملك إلا أن يشاركه هذا الإحساس عندما ينظر إليه كما قالت أختا أجلايا فيما بعد. إنه لم يتوقف عن الحديث لحظة، وهذا ما لم يحدث له منذ ستة أشهر، أي منذ التقى بآل إيبانشين لأول مرة في ذلك الصباح. وقد لوحظ عليه عند عودته إلى بطرسبرج أنه كان متحفظاً عن عمد، كما قال في الآونة الأخيرة للأمير «س» أمام الجميع إن عليه أن يتمالك نفسه وأن يتجنب الحديث لأنه ليس من حقه أن يحط من شأن فكرة كان يضمنها الألفاظ، أما في هذا المساء فكان الوحيد تقريباً الذي تحدث بلا انقطاع، لقد سرد عليهم الكثير من القصص، وأجاب عن أسئلتهم بوضوح وبهجة وإسهاب. ولكن لم يكن في حديثه من قريب أو بعيد أية إشارات عن الحب ذلك أن الأفكار التي عبر عنها كانت جادة كل الجدة، بل وعميقة إلى حد الغموض. ولقد تمادى إلى حد أن راح يحدثهم عن بعض آرائه الخاصة، وعن ملاحظاته الذاتية بحيث كان من الممكن أن يثير هذا كله ضحكهم لولا أنه «أحسن التعبير» كما شهد بذلك فيما بعد جميع الذين سمعوه. ورغم أن الجنرال وزوجته كانا يحبان الأحاديث والموضوعات الجادة، إلا أنهما لم يسعهما غير التفكير في أن أحاديث الأمير كانت أعمق بعض الشيء من أن يفهماها، ومن ثم شعر كل منهما عند نهاية الجلسة بشيء من الاكتئاب. غير أن الأمير اختتم أحاديثه بسرد بعض الأقاصيص الفكاهية التي كان هو أول من ضحك لها، مما جعل الآخرين يضحكون لضحكه أكثر مما يضحكون لفكاهاته. أما أجلايا فإنها لم تلفظ بكلمة تقريباً طيلة السهرة، وإنما ظلت معلقة على كلمات الأمير، بحيث كان تحملق فيه أكثر مما تستمع إليه.

وقد قالت المسز إيبانشين فيما بعد لزوجها في هذا الشأن:

- لقد ظلت تحدد النظر إليه دون أن تحول عينيها عنه، معلقة المشاعر على كل كلمة قالها، محاولة أن تلتقطها.. تلتقطها! ولكن إذا قلت لها إنها تحبه فلن تنجو من لسانها..

فهز الجنرال كتفيه وقال العبارة التالية الأثيرة لديه التي راح يكررها دائماً:

- أجل، إنه القدر!

ويمكننا أن نضيف إلى هذا أن الجنرال، كرجل أعمال، كان يجد في هذا الموقف الحالي جوانب كثيرة لا ترضيه، وكان يعترض بصفة خاصة على ما يكتنفه من غموض. غير أنه قرر في ذات نفسه ألا يقول شيئاً في ذلك الحين، وهكذا اكتفى بالتحديق في عيني زوجته.

ولم يستمر جو السعادة، الذي رفر ف على الأسرة، مدة طويلة، ذلك أن أجلايا تشاجرت مع الأمير في اليوم التالي، وهكذا استمر الحال بينهما أياماً عديدة بلا أي تحسن في الموقف. وكانت تتخذ من الأمير، لمدة ساعات طوال، موضعاً للعبث والتهكم، وتكاد أن تجعل منه مهرجاً. ولكن هذا لا يمنع من القول إنهما في الواقع كانا يقضيان - بين الحين والآخر - ساعة أو ساعتين جالسين معاً في الجانب الصيفي من الحديقة، إلا أن الملاحظ في تلك الفترات أن الأمير كان يقضيها في قراءة بعض الصحف أو الكتب لأجلايا.

وقد حدث ذات مرة أن قالت له أجلايا وهي تقطع عليه قراءته في إحدى الصحف:

- أتعرف أي لاحظت عليك أنك غير مثقف بشكل مزعج! إنك لا

تعرف شيئاً أبداً على وجهه الصحيح. وإذا لجأ أحد إليك في طلب بعض المعلومات، فأنت لا تعرف أبداً من هو المسئول عنه، أو في أي عام حدث ما حدث، أو أي نوع من المعاهدات، وإن محصولك من الكلمات ليدعو إلى الأسف.

فأجاب الأمير قائلاً:

- لقد قلت لك إنني لم أتلق الكثير من العلم.

- إذن بماذا تمتاز إن لم تكن متميزاً بهذا؟ وكيف تنتظر مني أن أحترمك بعد ذلك؟ حسنًا، استمر في قراءتك. لا، لا.. تتوقف عن القراءة..

ومرة أخرى في ذلك المساء قالت شيئاً بدا للجميع غامضاً. ذلك أن الأمير «س» كان قد عاد من بطرسبرج، وراحت أجلايا تتلطف معه جداً، وتسأله كثيراً عن إيفيني بافلوفيتش «ولم يكن الأمير قد وصل بعد في ذلك المساء». وفجأة غامر الأمير «س» ولمح في الحديث بأن «تطوراً جديداً سوف يحدث في محيط الأسرة» وكان قد اعتمد في هذا على كلمات قليلة انفلتت من المسز إيبانشين عن احتمال تأجيل زواج أدليدا حتى يمكن أن يتم عقد الزوجين في وقت واحد. ولما سمعت أجلايا هذا استشاطت غضباً من هذه «الافتراضات الحمقاء» بحيث دهش الجميع، وأخيراً فاجأتهم بهذه العبارة العجيبة الغامضة، فقالت إنها يقيناً: «لا أنوي أن أحل محل عشيقة أحد».

أدهشت هذه الكلمات الجميع، ولا سيما والدها. وهنا أصرت المسز إيبانشين - بعد أن تشاورت سرّاً مع زوجها - على أن يحصل من الأمير على تفسير واضح محدد لموقفه من ناستاسيا فيليبوفنا.

وأقسم الجنرال إيبانشين على أن الأمر لا يعدو أن يكون «سورة» ناشئة من «خجل» أجلايا، ولو أن الأمير «س» لم يشر في حديثه إلى «الزواج» لما كانت هذه «السورة». ذلك لأن أجلايا نفسها كانت تعرف، وتعرف عن يقين، أن كل ما يُقال عن علاقة الأمير بناستاسيا ليس إلا شائعات مفتراة، يذيعها قوم أشرار، وأن ناستاسيا سوف تتزوج روجوجين، وأن الأمير لا شأن له بها، وأنه على وجه اليقين لم يكن حبيبها يومًا إن شاء أحد أن يعرف الحقيقة كاملة.

وفي خلال هذا كله لم يكن يبدو على الأمير أنه يشعر بالقلق لشيء ما، فاستمر مستغرقًا في سعادته، إلا أنه كان، طبعًا، يلاحظ بين الحين والآخر نوعًا من أمارات الاكتئاب والضيق تطل من عيني أجلايا، ولكنه كان يزداد إيمانًا بأن لهذه الأمارات سببًا آخر، وعندئذ لا يلبث أن يراها تختفي. وكان إذا آمن بشيء، فلن يزعجه عنه شيء آخر. ولعله كان هادئًا مطمئن النفس أكثر مما ينبغي قليلًا، أو هذا على الأقل ما ظنه إيبوليت عندما التقى به مصادفة في الحديقة العامة.

قال له وهو يتقدم نحوه ويقف أمامه:

- ها..! ألم أكن على حق عندما أخبرتك في تلك الليلة أنك أسير الحب!

ومد الأمير يده إليه وهنأه على مخايل الصحة التي بدت عليه. وكان إيبوليت نفسه يبدو متفائلًا كما هو شأن المرضى بداء الصدر عادة وسار مع الأمير قليلًا وهو ينوي أن يوجه إليه بعض عبارات من التهكم لما يبدو عليه من السعادة، ولكنه سرعان ما أهمل هذا الموضوع ثم راح يتحدث عن نفسه. وقد بدأ الحديث بالشكوى، ثم استطرد فيها بعبارات متلعثمة مضطربة،

وأخيرًا اختتم حديثه بقوله:

- إنك لا تستطيع أن تتصور مبلغ ما هم عليه هنا جميعًا من توفز عصبي، وتفاهة وغرور وأنانية وسوقية. هل تصدق هذا؟ إنهم قبلوني بينهم بشرط أن أموت حتمًا بأسرع ما يكون، وهم الآن ناثرون غضبًا عليّ لأنني لم أمت، ولأنني - على العكس - أشعر بالتحسن، إنها مسرحية هزلية من صميم الحياة! وأنا أراهن أنك لا تصدقني.

وأحس الأمير بأنه لا يريد أن يجيب على هذا بشيء، ومن ثم استطرد
إيوليت قائلاً:

- إنني أفكر أحيانًا في أن آتي وأعيش معك مرة أخرى. آه، إنني أفهم أنك لا تصدق بأنهم لا يمكن أن يستضيفوا أحدًا على شرط أن يموت في أسرع وقت ممكن.

- لقد ظننت أنهم دعوك للإقامة معهم لأسباب أخرى.

- أوه! عجبًا! إنك لست بهذه البساطة التي يظنك عليها الناس! وقد حان الآن الوقت الذي أخبرك فيه بشيء عن العزيز جانيا وآماله. إنهم يتآمرون عليك أيها الأمير، وبلا رحمة أيضًا و.. وإنه لمن المؤلم جدًا أن أراك مطمئنًا على هذا النحو رغم ذلك. ولكن والأسفاه، إنني لا أعتقد أن في استطاعتك أن تفعل غير هذا.

فضحك الأمير قائلاً:

- إذن فهذا هو الذي يثير القلق في نفسك. أو تظن حقًا أنني أكون أسعد حالًا إذا كنت أقل اطمئنًا؟

- إنه من الأفضل كثيرًا أن تكون شقيًا وتعرف ما يدبر لك، على أن

تكون سعيداً وفي الوقت نفسه مخدوعاً. أنت لا تصدق أن لك في هذا الميدان منافساً. أليس كذلك؟

- أخشى أن أقول إن حديثك عن «المنافس» ينطوي على شيء من السخرية يا إيبوليت. ويؤسفني ألا يكون لي الحق في الإجابة عليك. أما عن جانبا فينبغي أن تعترف بأنه لن يكون من المنتظر أبداً أن يبدو هادئاً بعد كل هذا الذي فقده- هذا إذا كانت لديك أية فكرة ما عن شئونه الخاصة. ويلوح لي أنه من الأفضل أن تنظر إلى الأمر من هذه الزاوية، وإن لديه ما يكفي من الوقت لأن يتغير، وإن السنوات لا تزال ممتدة أمامه، والحياة موفورة الخصب- ولكن.. ولكن..

وارتبك الأمير فجأة ثم استطرد يقول:

- أما عن المؤامرات فأخشى أن أقول إنني لا أكاد أفهم شيئاً مما تقول في هذا الشأن، ويحسن من ثم أن نتجنب الحديث في هذا الموضوع يا إيبوليت.

- أجل. لتجنبه في الوقت الحاضر. وعدا هذا فمن السخف أن يتوقع الإنسان منك أن تتصرف بلا شرف. أجل أيها الأمير.. يكفي أن تلمس الأمر بأصبعك حتى ترفض أن تصدق مرة أخرى ها.. ها..! وهل تحتقني كثيراً جداً الآن- فما رأيك؟

- لماذا؟ لأنك عانيت من الحياة، ولا تزال تعاني أكثر مما نعاني جميعاً؟

- لا، وإنما لأنني غير جدير بما أعانيه.

- إن الذي يعاني كثيراً، هو أكثر جدارة بالمعاناة، وعندما قرأت الآنسة أجلايا اعترافتك أرادت أن تراك، ولكن..

فقاطعه إيبوليت قائلاً وكأنما هو متلهف على تغيير الموضوع:

- ولكنها توجل المقابلة إلى حين؛ لأنها لا تستطيع - وأنا أفهم موقفها، أفهمه. وبهذه المناسبة قيل لي إنك قرأت بنفسك عليها هذا الهديان الذي كتبه. وقد كتبه في الواقع وفرغت منه وأنا في حالة هذيان، ولكنني لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن تبلغ بإنسان ما الصبانية التافهة والحد - ولا أقول القسوة «لأن في هذا القول مذلة» بحيث يؤخذني على هذا الاعتراف، ويتخذ منه سلاحاً ضدي، لا تجزع، فأنا لا أقصدك..

- ولكن يؤسفني أنك تتنكر لاعتراك هذا يا إيبوليت؟ إنه صادق التعبير. بل إن أسخف الأجزاء فيه - كما تعرف - وهي كثيرة «وهنا لوى إيبوليت شفتيه» يمكن التماس العذر لها بما عانيته من آلام؛ لأن الاعتراف بقوة تعبيرك عنها يستلزم الاعتراف بما عانيته فعلاً، وهذا يحتاج إلى مقدار كبير من الشجاعة كذلك. وإن الفكرة التي أوحى إليك بكتابة هذه الاعترافات لا شك في أن أسسها شريفة أيًا كان رأي الناس فيها. وإني أقسم لك أن هذا كله يزداد وضوحاً أمامي كلما مرت الأيام.

وأنا لا أحكم عليك أو لك، وإنما أقول لك هذا فقط لأخبرك برأيي في الأمر وإني لأسف لأنني لم أقل هذا في الوقت..

واضطرم وجه إيبوليت، وظن برهة أن الأمير يصطنع معه هذا الموقف لكي يكشف عن حقيقة نفسه، ولكنه عندما أمعن النظر إلى وجهه لم يسهه إلا الإيمان بإخلاصه، وهنا سطع وجهه بالرضى وهو يقول:

- ولكنني مع هذا كله لا بد أن أموت، وأنت لا تستطيع أن تتصور مدى تعذيب جانبا لي، فمثلاً قال لي إنه من المحتمل أن يموت ثلاثة أو أربعة من

الذين استمعوا إلى اعترافاتي قبل أن أموت أنا. فما رأيك في هذا؟ إنه يعتقد أنني سأجد في هذا القول عزاء. ها ها!! فأولاً لم يمت أحد بعد، وحتى إذا مات أحد، فأني عزاء هذا الذي يظن أنني سأجده في موته! وقد ذهب إلى أبعد من ذلك! بل إنه الآن يشتمني. يقول إن الرجل المهذب إذا كان في مكاني، فإنه يعمد إلى الموت بهدوء، وأنه - أي جانبا - يرى أن عدم موتي يرجع إلى أنايتي! فما رأيك في هذا؟ ثم ما رأيك في أنايته هو؟! ترى أي نوع من الأنانية المهذبة، أو على الأصح من الأنانية الغليظة البهيمية التي تستبد بشخص مثله لا يستطيع أبداً أن يرى داخل نفسه! هل سبق أن قرأت أيها الأمير عن موت شخصية معينة هي شخصية المدعو ستيفان جلييوف في القرن الثامن عشر؟ لقد حدث أنني قرأت عنه أمس..

- أي ستيفان جلييوف؟

- لقد مات على الخازوق في عهد بطرس الأكبر.

- يا للسماء، أجل، إنني لا أعرف! لقد ظل على الخازوق، في وسط الصقيع، ولا يرتدي غير معطف فراء، خمس عشر ساعة حتى فاضت روحه. وقد مات وهو لا يحمل ضغينة لأي إنسان. نعم، لقد قرأت عنه طبعاً، ماذا تقصد من الحديث عنه؟

- لماذا يمنح الله هذا النوع من الموت لبعض الناس، ولا يمنحه لنا؟ ولكن لعلك تظن أنني غير قادر على أن أموت مثل جلييوف! أم تراني قادراً؟ فقال الأمير مرتباً:

- أجل، أجل.. إن كل ما أردت أن أقول هو أنك.. أعني هو أنك ما كنت لتغدو مثل جلييوف، وإنما كنت في ذلك العهد تغدو أقرب إلى..

- آه فهمت، أقرب إلى أوسترمان، لا إلى جليوف. أليس هذا ما كنت تنوي أن تقول؟

فغمغم الأمير قائلاً وقد ارتبك فجأة:

- أوسترمان! الدبلوماسي أوسترمان؟ بيتر أوسترمان؟ ومضت برهة وكل منهما ينظر إلى الآخر مدهوشاً.

وبعد لحظة قال الأمير فجأة في بطة:

- أوه، لا؟ لم أكن أعني أن أقول هذا. إنني لا أظن أنك ستكون أبداً مثل أوسترمان.

وقطب إيوليت جبينه، ولكن الأمير استطرد فجأة في حديثه وكأنما يريد أن يضع الأمور في نصابها:

- ولكن، ألا ترى أنني أقول هذا لأن الناس في ذلك العهد «وؤكد لك أنني دائماً أندesh لهذا» ليسوا قط كالناس في أيامنا هذه. إنهم ليسوا من نفس الجنس الذي يعيش الآن. وأؤكد لك بإخلاص أنهم يبدون لي كأنهم من سلالة مختلفة تماماً. إن الناس في تلك الأيام كانوا- كما يبدو لي- يحيون بفكرة واحدة. أما الآن فإنهم أكثر توترًا في الأعصاب، وأكثر تطورًا، وأكثر حساسية. إنهم - كما يلوحون لي - يحيون بفكرتين أو ثلاثة في وقت واحد. والرجل العصري أكثر تشعبًا في نمط حياته. وهذا كما أؤكد لك، ما يمنعه من أن يكون نفس المخلوق البشري الكامل الذي كان في تلك الأيام. إنني أقول هذا وتلك الفكرة في ذهني، وليس..

- إنني أفهم ما تعني.. إنك متلهف على مواساتي الآن لأنك اختلفت في الرأي معي بمثل هذه السذاجة! ها، ها! إنك طفل تمامًا أيها الأمير.

ولكنني مع هذا لا يسعني إلا أن ألاحظ أنك تعاملني كأنني.. كأنني قطعة من الخزف ولكن لا عليك، لا عليك، إنني لست غاضبًا. وعلى كل حال فقد تناولنا حديثًا طريفًا جدًا. وأنت في بعض الأحيان طفل تمامًا أيها الأمير. ولكنني أريدك أن تعرف أنني قد أحب أن أكون شيئًا أفضل من أوسترمان، وأنه لا يساوي شيئًا أن يُبعث الإنسان من الموت ليكون أوسترمان.. وعلى أية حال فأنا أرى أنه ينبغي عليّ أن أموت في أسرع وقت ممكن - وإلا.. حسنًا!! وداعًا! ولكن أرجوك أن تخبرني عن رأيك في أحسن وسيلة مناسبة لي أموت بها! أعني وسيلة يمكن أن أبدأ بها أكثر طهارة وبراءة.. هلم.. أخبرني.

فقال الأمير بصوت خافت:

- امض عنا واغفر لنا سعادتنا.

- ها، ها، ها! هذا ما خطر ببالي؟ لقد توقعت بالتأكيد أن تقول لي شيئًا من هذا القبيل. وعلى كل حال فأنتم.. أنتم.. حسنًا، وأنتم من كبار الفصحاء... وداعًا... وداعًا.



الفصل السادس

كانت فاريا أيضًا على صواب تمامًا فيما قالت له لأخيها عن الحفلة المسائية التي أقامها آل إيبانشين، والتي كانت ستحضرها الأميرة بيلوكوفسكي. وكان من المنتظر أن يحضر المدعوون في ذلك المساء نفسه. ولكنها، مرة أخرى، حملت ذلك الخبر أكثر من دلالاته البسيطة. والواقع أنه اتخذت الترتيبات للحفلة في شيء من السرعة، وفي شيء من الانفعالات التي لا موجب لها، ولكن هذا كله يرجع إلى أن الأمور في بيت آل إيبانشين لا تجري كما تجري في بيوت غيرهم من الناس. ويمكن تفسير هذا كله بنفاد صبر المسز إيبانشين، ذلك لأنها رفضت أن تبقى «في حيرة أكثر من هذا..» كما يمكن تفسيره بالقلق الشديد الذي يحسه الوالدان من أجل سعادة ابنتهما الحبيبة، وعدا هذا، فقد كانت الأميرة بيلوكوفسكي على وشك أن تسافر إلى خارج البلاد فعلاً. ولما كانت رعاية الأميرة لأجلالها لها وزنها الكبير في الوسط الاجتماعي الراقي، ولما كان الوالدان يأملان أن ترحب الأميرة بخطبة الأمير لأجلالها، فقد رأيا أن المجتمع الراقي سوف يتقبل هذه الخطبة من يدي الأميرة العجوز ذات النفوذ الواسع. وإذا خطر ببال أحد أن يعجب منها، فإن

عجبه سوف يقل كثيرًا حين يرى أنها، أي الخطبة، موضع رعاية أميرة كبيرة كهذه. ولكن المشكلة كلها هي أن الوالدين نفسيهما لم يستطيعا أن يقررا هل هناك شيء عجيب في الأمر كله، وفي ما يثير العجب، فإلى أي حد، أو أن الأمر ليس فيه ما يدعو للعجب إطلاقًا! وكان رأي الأشخاص الأكفاء ذوي النفوذ الواسع القائم على أساس من المودة والصراحة، هو ما كان مطلوبًا في الوقت الحاضر، إذ لم يكن قد تقرر شيء نهائيًا. وعلى أية حال فقد كان على الأمير إن أجلاً أو عاجلاً أن يُقدّم إلى المجتمع الراقي الذي لم يكن لديه أية فكرة عنه. وعلى الجملة كان عليه أن يُعرض. وعلى كل حال فقد تقرر أن تكون الحفلة بسيطة لا يُدعى إليها غير عدد قليل من «أصدقاء الأسرة». فقد دُعيت مع الأميرة بيلوكوفسكي سيدة أخرى هي زوجة أحد كبار الملاك الزراعيين، وشخصية حكومية كبيرة، وكان إيفيني بافلوفيتش هو الشاب الوحيد الذي دُعي لمرافقة الأميرة بيلوكوفسكي عند حضورها.

وكان الأمير قد سمع عن دعوة الأميرة بيلوكوفسكي للحفلة قبل موعدها بثلاثة أيام. ولكنه لم يسمع أنها ستكون حفلة رسمية إلا في اليوم السابق عليها. وقد لاحظ طبعًا أن نظرات القلق كانت تطل من عيون أفراد الأسرة، وكذلك أدرك من بعض الكلمات التي التقطها أثناء حديثهم أنهم كانوا يخشون أن يترك أثرًا سيئًا في نفس الأمير. ولكن كل فرد من أفراد الأسرة، بلا استثناء، كان لسبب ما قد قرر أنه رأى الأمير لا يدرك - بسبب بساطته - أنهم يشعرون بالقلق من أجله. وكان هذا هو سبب ما يشيع في نفوسهم من قلق واضطراب كلما نظروا إليه. أما الحقيقة فإنه لم يكن يقيم أهمية كبيرة لما سوف يحدث. وإنما كان مشغولًا بشيء آخر مختلف تمامًا، ذلك أن أجلايا كانت تزداد في كل ساعة تقلب أهواء واكتئابًا - كان هذا ما

أشاع الانقباض في نفسه كثيرًا، ولما علم أن إيفيني بافلوفيتش قد دُعي إلى الحفلة أيضًا، شعر بالابتهاج وقال إنه كان مشوقًا إلى رؤيته منذ أمد طويل، ولكن هذه الكلمات لسبب ما، لم تعجب أحدًا، ومن ثم غادرت أجلايا الغرفة غضبي. إلا أنها في ساعة متأخرة من الليل، أي في نحو الثانية عشرة، عندما همَّ الأمير بالانصراف، انتهزت الفرصة لتقول له بضع كلمات على انفراد أثناء انصرافه.

- إنني أرجو ألا تأتي لزيارتنا طوال يوم غد. تعال في المساء بعد... بعد حضور الزائرين؛ فأنت تعرف أننا في انتظار بعض الزائرين - أليس كذلك؟ وكانت تتكلم بعصبية وبلهجة جادة أكثر مما ينبغي. وكانت تلك أول مرة تشير فيها إلى «الحفلة». وقد لاحظ الجميع أنها هي أيضًا لا تكاد تطيق التفكير فيها. ولعلها كانت تتمنى جدًّا لو استطاعت أن تثير مشاجرة بينها وبين والديها لهذا السبب. ولكن كبرياءها وخجلها منعها من أن تتحدث في هذا الموضوع. وأدرك الأمير فورًا أنها - أيضًا - كانت تشعر بالقلق بسببه «ولكنها لا تريد أن تعترف بهذا» وفجأة استبد القلق والخوف بنفسه أيضًا. وأخيرًا قال:

- نعم، وأنا قد دُعيت أيضًا.

وبدا عليها أنها تجد من الصعوبة الاستمرار في الحديث، ولكنها قالت له وقد استبد بها غضب مفاجئ دون أن تدري لماذا، ودون أن تقوى على السيطرة على نفسها:

- ألا يستطيع الإنسان أن يتحدث معك جدًّا عن شيء ما - ولو مرة واحدة في الحياة؟

فغمغم الأمير قائلاً:

- إنك تستطيعين، وأنا منصت إليك.. بكل سرور.

وصمتت أجلايا برهة، ثم بدأت الحديث بنفور واضح فقالت:

- إنني لا أريد أن أجادلهم في هذا الشأن؛ فإن هناك أوقاتاً لا تستطيع أن تجعلهم يرون الأمور كما ينبغي أن تكون. وكثيراً ما رأيت أن مبادئ أمي تثير التقزز تماماً. وأنا لا أقول شيئاً عن أمي؛ لأنك لا تستطيع أن تتوقع أي شيء منها. وإن أمي بطبيعة الحال سامية العقل. ويمكنك أن ترى ما يحدث لك إذا عرضت عليها شيئاً ضيقاً. ولكنها تتصاغر أولاً وأنا لن أتحدث عن هذه الأميرة بيلوكوفسكي، إنها امرأة عجوز تافهة ذات أخلاق تافهة، ولكنها داهية تعرف كيف تجعل الجميع في قبضة يدها- أو على الأقل متخصصة في هذا النوع من العمل. أوه، يا لوضاعة هذا كله، ويا لسخافته أيضاً؟! إننا دائماً من الطبقة المتوسطة- كما ينبغي أن تكون الطبقة المتوسطة! فلماذا تحاول الصعود إلى الطبقة الراقية؟ إن أختي أيضاً متحمستان لهذا الصعود، وإن الأمير «س» هو الذي أفعم نفسيهما بالحيرة والارتباك. ثم لماذا شعرت بالبهجة لحضور المستر رادوفسكي «إيفيني بافلوفيتش»؟

فقال الأمير:

- اسمعي يا أجلايا، يبدو لي أنك خائفة من أن أرتكب غلطة في ذلك المجتمع الراقى.

فصاحت أجلايا وقد اضطرم وجهها احمراراً:

- أنا خائفة؟ من أجلك؟ ولماذا أخاف من أجلك حتى ولو.. لو جلبت العار على نفسك تماماً، ماذا يهمني أنا؟ ثم ما هذه التعبيرات العجيبة التي

تستخدمها أعني «جنازة» إنها كلمة رهيبة، وتعبير سوقي.

- إنه تعبير كنا نستعمله في المدرسة.

- أجل تعبير صبياني! تعبير رهيب! وأعتقد أنك تنوي استعمال مثل هذه التعبيرات غداً مساءً. ابحث عن المزيد منها في قاموسك الخاص بالبيت. إنني أكاد الآن أتصور الضجة التي سوف تثيرها. إن طريقتك في دخول الغرفة على بعض الحاضرين لشيء يثير الرثاء. فأين تعلمت هذا؟ ثم هل أنت واثق بأنك تستطيع أن تشرب فنجان شاي بطريقة مهذبة بينما الجميع يركزون نظراتهم عليك ليروا كيف تشربه!

- أعتقد أنني أستطيع.

- يا للأسى! لو أنك فعلت غير هذا لانفجرت بالضحك. أرجوك على الأقل أن تكسر الزهرة الخزفية الموجودة في غرفة الاستقبال. إنها ثمينة جداً. أرجوك أن تكسرها؛ لأنها هدية؛ ولأن أُمي سوف تفقد اتزانها وتنفجر بالبكاء أمام الجميع، إنها شديدة الاعتزاز بها، طوح بيديك كما تفعل دائماً، اصطدم بها وحطمها. اجلس بجانبها لهذا الغرض.

- بالعكس، لسوف أحاول أن أجلس في أبعد مكان منها، شكرًا لك على هذا التحذير.

- إذن فأنت تخشى فعلاً، ومنذ الآن، أن تحرك ذراعيك حولك! أليس كذلك؟ وأنا أراهن أنك ستبدأ الحديث فوراً في موضوع جديّ أو موضوع ثقافي عميق، أليس كذلك؟ ما أجمل أن يكون هذا!

- أعتقد أن مثل هذا الحديث سيكون سخيفاً إذا لم يكن له سبب.

فصاحت أجلايا قائلة بصبر نافذ:

- أنصت إليّ للمرة الأولى والأخيرة. إنك إذا بدأت الحديث عن أي شيء مثل عقوبة الإعدام أو المركز الاقتصادي لروسيا أو.. أو «الجمال وكيف ينقذ العالم» فإنني سأبتهج جدًا بطبيعة الحال، وسأضحك كثيرًا. ولكنني في الوقت نفسه أحذرك، إنك إذا فعلت هذا فلا تدعني أرى وجهك مرة أخرى. هل تسمع؟ إنني جادة، إنني جادة هذه المرة.

وكانت في الواقع تنطق بتهديدها بلهجة جادة حتى لقد ترددت في صوتها نبرة جديدة، والتمعت في عينيها نظرة عجيبة - نظرة لم ير الأمير لها مثيلًا من قبل، ومن ثم وجد أن الأمر أبعد ما يكون عن الهزل. وأخيرًا قال:

- حسنًا، لقد تأكدت الآن تمامًا أنني سوف أتحدث في أمر «خطير» وأنني قد أحطم الزهرية. أما أنا فقد كنت منذ لحظة غير خائف من شيء، ولكنني الآن خائف من كل شيء. وبالتأكيد سأرتكب منكرًا في الوسط الراقي.

- إذن لا تتحدث إطلاقًا.. اجلس هادئًا ولا تقل شيئًا.

- أخشى أن أقول إن هذا مستحيل. فلا شك أن الخوف سيدفعني إلى الحديث، وسيجعلني أحطم الزهرية. ولعلي أترحلق على الأرضية الملساء أو أفعل شيئًا من هذا القبيل؛ لأن مثل هذا قد حدث من قبل، ولسوف أحلم به طوال الليل. فما الذي جعلك تتحدثين معي في هذا الشأن؟

فنظرت أجلايا إليه في اكتئاب، وعندئذ قال لها بلهجة أخيرة:

- سأقول لك ماذا ينبغي أن أفعل. إنه يحسن ألا أحضر غدًا إطلاقًا. سأبلغكم أنني مريض، ومن ثم نضع حدًا لهذا الأمر.

فضربت أجلايا الأرض بقدمها واشتد بها الغضب حتى شحب وجهها

ثم قالت:

- يا للسماء، أرايت شيئاً كهذا من قبل؟ إنه لا يريد أن يأتي بينما الحفلة
مقامة من أجله خاصة.. و.. ويحي، ما أبهج الإنسان وهو يتعامل مع.. مع
شخص أبله مثلك.

فقال الأمير بسرعة:

- حسناً! لسوف أحضر، سوف أحضر، وأنا أعدك بكل إخلاص أن
أقضي المساء كله دون أن أفتح فمي بكلمة. أؤكد لك أنني سأفعل هذا.
- وحسناً تفعل. وقد قلت الآن: «سأبلغكم أنني مريض» فمن أين جئت
بمثل هذا التعبير؟ ولماذا تحدث معي هكذا؟ أترك تحاول بكل وسيلة أن
تستفزني؟

- إنني آسف، وهذا أيضاً تعبير مدرسي، ولن أستعمله مرة أخرى. وقد
فهمت الآن تماماً أنك- أنك خائفة من أجلي- لا تغضبي أرجوك، وإنني
لسعيد جداً لهذا السبب. وأنت لا تستطيعين أن تتخيلي مدى ما أشعر به من
فزع الآن، ومبلغ ابتهاجي بما حدثتني به الآن. ولكنني أقسم أن فزعي لن
يكون له أية أهمية. إنه شيء تافه. وأقسم على أنه كذلك يا أجلايا. أما البهجة
فسوف تبقى. وإنني سعيد جداً لأنك طفلة حلوة.. طفلة طيبة لطيفة! فما أروع
ما يمكن أن تكوني يا أجلايا!

وكان المنتظر أن تفقد أجلايا، طبعاً، السيطرة على زمام غضبها، وقد
كادت فعلاً تفقده، ولكن حدث فجأة أن شعوراً طاعياً لم تكن هي تتوقعه
استبد بروحها في تلك اللحظة وجعلها تسأله فجأة:

- هل يعني هذا أنك لن تلومني فيما بعد على غلطتي معك الآن؟

- طبعًا لا، عجبًا! ثم لماذا تستشيطين مرة أخرى؟ إن الكآبة تعلو وجهك ثانية. وإنك لتبدين في بعض الأحيان شديدة الاكتئاب يا أجلايا ولم يحدث قط أنك كنت هكذا من قبل، وأنا أعرف السبب في هذا..

- اسكت! اسكت!

- لا، يحسن أن أقولها الآن. لقد كنت أريد أن أقولها منذ وقت بعيد. وقد قتلها فعلاً، ولكن ما قلت لا يكفي؛ لأنك لم تصدقيني. فإن بيني وبينك لا يزال يقف، شخص ما.

فقاطعته أجلايا وقد أمسكت بيده فجأة وقالت وهي تحملق في وجهه في فرع:

- اسكت! اسكت! اسكت! اسكت!

وفي تلك اللحظة سمعت من ينادي عليها، فافترت عنه وكأنا نجت من شيء ما، وانصرفت بسرعة.

وأَمْضَى الأمير ليلته محمومًا. ومن العجيب أنه أَمْضَى ليالي عدة وهو محموم ولكن حدث في هذه المرة أن خطرت الفكرة بباله وهو في حالة نصف هذيان: كيف يكون الحال لو فاجأته نوبة صرع غدًا أمام الجميع؟ ألم يحدث أن تعرض لهذه النوبات وهو بين الناس قبل ذلك؟ ذُ و سرت الرعدة الباردة في بدنه لهذه الفكرة. وظل طيلة الليلة وهو يتخيل نفسه بين جماعة من الناس الشواذ العجيبين، بينهم أشخاص غرباء. ولكن الشيء العجيب أنه «بدأ يتحدث». وكان يعرف أنه لا ينبغي عليه أن يتحدث، ولكنه استمر في الحديث طيلة الوقت. وكان يحاول أن يدفعهم بحديثه إلى أن يفعلوا شيئًا ما. وكان إيفيني بافلوفيتش وإيوليت بين الحاضرين، وقد لاحظ

أنهما على وفاق تام.

واستيقظ من النوم في التاسعة صباحًا برأس مصدع، مزدحم بالأفكار المضطربة والتعبيرات العجيبة. ولسبب ما أحس برغبة عارمة لرؤية روجوجين، لرؤيته والتحدث إليه طويلاً. وإنه لا يعرف ماذا يمكن أن يفعل، ثم قرر أخيراً أن يمضي لرؤية إيبوليت. وأحس بقلبه مفعماً بالهواجس الغامضة. ورغم أن أحداث ذلك الصباح قد تركت في نفسه أعمق الأثر، إلا أنه شعر بأن شيئاً ينقصها على نحو ما. وكانت إحدى هذه الأحداث تتعلق بمقابلته مع لبيديف. لقد أقبل عليه لبيديف مبكراً، بعد التاسعة مباشرة. وكان في حالة تقرب من السكر التام. ورغم أن الأمير لم يكن في العهد الأخير قوي الملاحظة، فإنه لم يسعه إلا أن يلاحظ في الأيام الثلاثة الأخيرة - أي منذ رحيل الجنرال إيفولجين - أن لبيديف كان سيئ السلوك جداً. لقد أصبح فجأة على شيء كثير من القذارة والإهمال، كما كانت كرافته ملتوية دائماً وبنيقة معطفه ممزقة. وكان في الجانب الخاص به من منزله لا يكف عن الصياح والثورة، وكان هذا كله يسمع عبر الفناء الصغير. وقد أقبلت فيرا عليه ذات مرة والدموع في عينيها وأخبرته بشيء مما حدث. أما لبيديف فإنه - عند حضوره الآن - قد بدا يتحدث حديثاً عجباً وهو يضرب على صدره ويلوم نفسه على شيء ما. وأخيراً اختتم حديثه قائلاً بلهجة حزينة:

- لقد نلت جزائي الكامل على خيانتني - وحقارتي - لقد تلقيت الصنع على وجهي.

- صُفعت على وجهك؟ ومن الذي صفحك؟ وكيف حدث هذا في مثل هذه الساعة المبكرة؟

فقال لبيديف وهو يتسم في تهكم:

- في هذه الساعة المبكرة؟ ما علاقة الوقت في أمر كهذا- حتى لو كان الأمر عقابًا بدنيًا؟ ولكنه عقاب معنوي.. لقد تلقيت صفقة معنوية، وليست بدنية.

ثم جلس فجأة، وبغير مبالاة، وبدأ يسرد قصته. وكانت قصة مضطربة غامضة. ولوى الأمير وجهه وأوشك أن ينصرف، ولكنه فوجئ بشيء قاله لبيديف. لقد أخرسته المفاجأة وأذهلته، ذلك أن لبيديف كان يقص عليه حديثًا عجيبًا.

وكان الواضح في أول الأمر أنه أخذ يتحدث عن خطاب ما، ثم ذكر في حديثه اسم أجلايا، ثم بدأ يحمل على الأمير بمرارة وعنف. وقد أمكن أن يفهم من حديثه أنه مستاء من الأمير. قال إن الأمير جعله في أول الأمر موضع ثقته فيما يتعلق بشخصية ما «ناستاسيا فيليوفنا». ولكنه أبعد فيما بعد، بل وطرده في شيء من القسوة والخشونة، حتى أنه أبى في المرة الأخيرة أن يجيب عن (سؤاله البريء فيما يختص بالتغيرات المقبلة التي ستحدث في البيت) واعترف لبيديف بدموع مخمورة قائلاً: (إنني بعد هذا لن أستطيع أن أحتمل أكثر مما احتملت، لا سيما وأنني قد عرفت الشيء الكثير- الشيء الكثير جدًا، من روجوجين، ومن ناستاسيا فيليوفنا، ومن صديقة ناستاسيا، ومن فاريا أيضًا- بل وحتى من أجلايا إيبانشين، فهل يمكن أن تتصور هذا يا سيدي؟ وذلك عن طريق فيرا، عن طريق ابنتي الحبيبة فيرا- طفلي الوحيدة يا سيدي، وإن كانت في الحقيقة ليست طفلي الوحيدة؛ لأن لي ثلاثًا. ثم من الذي ظل يزود المسز إيبانشين بالمعلومات عن طريق المراسلة؟ وفي شيء كثير من السرية؟ ها، ها؟ من الذي كان يكتب لها عن كل ما يحدث- وعن تحركات ناستاسيا فيليوفنا؟ ها، ها، ها؟ من هو؟ إنني أسألك؟ من هو ذلك

المراسل المجهول؟

فصاح الأمير قائلاً:

- إنه لست أنت بالتأكيد!

فأجاب السكير قائلاً بوقار:

- بل أنا.. أنا يا سيدي. وفي هذا اليوم أيضاً، في الثامنة والنصف صباحاً، أي منذ نصف ساعة، لا يا سيدي، بل منذ ثلاثة أرباع الساعة، أخبرت سيادتها أن لديّ - لديّ معلومات مهمة عن - موضوع معين. لقد اتصلت بها عن طريق رسالة سلمتها لإحدى الخادמות بالباب الخلفي. وقد وافقت على استقبالي.

فقال الأمير وهو لا يكاد يصدق أذنيه:

- هل كنت في زيارة المسز إيبانشين الآن؟

- أجل، رأيتهما هذا الصباح ونلت منها صفقة على وجهي - صفقة معنوية. لقد أعادت إليّ رسالتي - أَلقت بها - في الواقع - على وجهي دون أن تفتحها، ثم تلقي بي - معنوياً أيضاً بقضي وقضيي إلى الخارج، هذا رغم أنه ينبغي الاعتراف أنها كادت تطردني بيديها فعلاً - ولو أنني تأخرت لحظة لفعلت!

- أية رسالة أَلقت بها على وجهك دون أن تفتحها؟

- عجباً، ها، ها، ها! ألم أخبرك؟ لقد ظننت أنني أخبرتك فعلاً. أترى؟
لقد تلقيت رسالة خاصة بها تعليمات معينة لكي أسلمها إلى..

- رسالة ممن، وإلى من؟

ولكن كان من الصعب أن تفهم بعض - إيضاحات - لبييدف أو تعرف لها رأسًا من ذنب. إلا أن الأمير استطاع - على كل حال - أن يفهم أن الرسالة سُلمت في بكور الصباح إلى فيرا لبييدف بواسطة خادمه لكي تسلم إلى السيدة التي تحمل عنوانها - تمامًا كما حدث من قبل عندما كانت تحمل الرسائل إلى شخصية معينة من سيدة معينة بذاتها - وأنا أصف إحداهما بعبارة إحداهما «شخصية معينة» والأخرى بعبارة «سيدة معينة» للتفريق بينهما يا سيدي. ولتمييز إحداهما عن الأخرى؛ لأن هناك فارقًا ضخمًا بين فتاة بريئة كريمة المحتد هي ابنة جنرال، وبين - وبين سيدة ليست سمعتها فوق الشبهات يا سيدي. ومن هذا تعلم يا سيدي أن الرسالة كانت من «شخصية» يبدأ اسمها بالحرف (أ).

فصاح الأمير:

- كيف يمكن هذا؟ إلى ناستاسيا فيليوفنا؟ هراء.

- إن هذا ممكن يا سيدي! ممكن. وإذا لم تكن الرسالة موجهة لها، فهي موجهة إلى روجوجين إذن يا سيدي، والأمر في هذا سواء يا سيدي. رسالة خاصة به من الشخصية التي يبدأ اسمها بالحرف (أ).

ثم غمز لبييدف بعينه وابتسم.

ولما كانت عادته دائمًا أن ينتقل من موضوع إلى آخر، ناسيًا الموضوع الذي بدأ الحديث فيه، فقد رأى الأمير أن يبقى دائمًا هادئًا ويدعه يفرغ من حديثه كله. ولكن الأمر مع هذا كان أبعد شيء عن الوضوح في مسألة هل نقل الرسائل لبييدف أو فيرا. وإذا كان - كما قال - إن الأمر في رأيه سواء أكانت الرسالة معنونة باسم روجوجين أم ناستاسيا فيليوفنا، فإن الاحتمال

هنا يبدو أكثر ترجيحًا في أن هذه الرسائل لم تكن تنتقل عن طريقه هو، هذا إذا كانت هناك رسائل على الإطلاق. أما كيف وصلت هذه الرسالة إليه، فإن الأمير لم يستطع قط أن يعرف هذا السر. وكان التفسير المحتمل هو أنه حصل عليها بطريقة ما من فيرا، ثم حملها إلى المسز إيبانشين لغرض خاص به. هذا ما استطاع الأمير أن يفهمه في النهاية. ومن ثم صاح قائلاً في انفعال:

- لا بد أنك مجنون؟

فأجاب ليبيديف بصوت لا يخلو من الخبث:

- إلى حد ما، أيها الأمير، إلى حد ما. لقد كنت أنوي - في الواقع - أن أقدمها لك، أن أضعها بين يديك، كدليل على المودة، يا سيدي، كدليل على المودة، ولكن لم يسعني إلا التفكير في أن مودتي سوف تلقى هناك تقديرًا أكثر. ومن ثم قررت أن أجعل سيادتها تعرف كل شيء، لا سيما وقد سبق أن أخبرتها بهذا الأمر بخطاب خال من التوقيع. ولما كتبت إليها هذا الصباح أرجوها أن تقابلني في الثامنة والثلث وقعت على الرسالة بهذه العبارة «المراسل المجهول» وقد سُمح لي بالدخول فورًا. فورًا يا سيدي، وبأسرع ما يمكن من الباب الخلفي إلى سيادتها، الأم..

- حسنًا!

- حسنًا يا سيدي، وحدث كما قلت لك الآن أنها كادت تضربني؛ ولهذا أعني أنها أوشكت أن تضربني، ولهذا يمكن القول إنها ضربتني تقريبًا. ثم أُلقت بالرسالة على وجهي. والواقع أنها في أول الأمر أرادت أن تحتفظ بها، لقد رأيت هذه الرغبة في عينيها يا سيدي، ولاحظتها، ولكنها لم تلبث أن غيرت رأيها وأُلقت بها في وجهي وقالت: «إذا كانوا قد عهدوا بها إلى

مخلوق مثلك لتسلمها، فيجب أن يتسلمها» نعم، لقد كانت شديدة الاستياء حقًا؛ لأنها ما دامت لم تخجل من أن تصارحني برأيها في شخصي، فهذا دليل على أنها جد مستاءة. ويا لها من سيدة سريعة الغضب!

- وأين الرسالة الآن؟

- عجبًا! إنني لا زلت محتفظًا بها. ها هي ذي يا سيدي.

ثم سلم الأمير الرسالة التي كتبتها أجلايا إلى جانيا، والتي كانت أخته قد أطلعت عليها بابتهاج منذ ساعتين. وقال الأمير له:

- إن هذه الرسالة لا يمكن أن تبقى معك.

فصاح ليبيديف بحماس قائلاً:

- إنها لك، إنها لك! إنني جئت بها من أجلك يا سيدي. وأنا الآن رجلك يا سيدي، رجلك، خادمك المخلص بكل كياني يا سيدي، بعد خيانتني الصغيرة، انفذ إلى قلبي ودع لحيتي كما قال توماس مور في إنجلترا- في بريطانيا العظمى.

«إنها غلطتي، إنها غلطتي» لما يقول البابا الروماني، أقصد بابا روما ولكنني أسميه البابا الروماني.

وقال الأمير وقد بدت عليه أمارات الاضطراب:

- يجب أن ترسل هذه الرسالة فورًا.. لسوف أسلمها بنفسي.

- ولكن أليس من الأفضل أيها الأمير الشهم، أليس من أن الأفضل أن..

أن تفعل هذا يا سيدي؟

ثم لوى ليبيديف ملامح وجهه الخبيث، وتململ بعنف في مقعده وكأنما

شكه أحد بإبرة فجأة، ثم أخذ يغمز يده، ويؤدي يديه حركات وإشارات لا معنى لها. ومن ثم سأله الأمير بصوت حازم:

- ماذا تعني؟

فهمس قائلاً في لهجة المخلص الودود:

- لماذا لا تفتحها أولاً يا سيدي؟

فوثب الأمير في غضب شديد جعل لبيديف يعدو كالظليم، ولكنه توقف عند الباب وانتظر حتى تهدأ نفسية الأمير وتلين.

وبعد برهة قال له الأمير في حزن:

- أوه، لبيديف! كيف تنحدر إلى هذا الحضيض؟

فسطع وجه لبيديف وقال وهو يتقدم نحو الأمير ويضرب على صدره قائلاً:

- إنني سافل، إنني سافل.

- عجباً إن هذا أمر بغیض جداً.

- نعم يا سيدي، بغیض، هذه هي الصفة الحقيقية له.

- ثم ما أعجب هذه العادة التي اعتدتها- أعني أن تتصرف على هذا النحو العجيب؟ إنك بهذا التصرف لا تعدو أن تكون جاسوساً! ثم لماذا ترسل الخطابات التي بلا توقيع وتملاً بالقلق قلب مثل هذه السيدة الكريمة ذات القلب الطيب؟ ومع هذا كله لماذا لا يكون للآنسة أجلايا الحق في أن تكتب لمن تريد؟ هل ذهبت هناك اليوم لتشكرها؟ ماذا كنت تأمل هناك؟ وما الذي جعلك مخبراً؟

فغمغم لبيديف قائلاً:

- لقد فعلت هذا لمجرد إرضاء فضولي .. و.. وبدافع من رغبة كريمة مفاجئة لأداء خدمة لك، نعم يا سيدي. إنني الآن ملك يديك بكل كياني مرة أخرى. افعل بي ما تشاء.

فسأله الأمير في شيء من حب الاستطلاع المفاجئ:

- هل ذهبت لمقابلة المسز إيبانشين وأنت في هذه الحالة؟

- لا يا سيدي، كنت أكثر انتعاشاً، وأكثر احتراماً. إنني لم أصل إلى هذه الحالة يا سيدي إلا بعد.. إلا بعد إهانتي..

- حسناً! انصرف عني الآن.

وكان على الأمير أن يكرر هذا الرجاء بضع مرات قبل أن يقرر لبيديف الانصراف أخيراً. ولكنه بعد أن فتح الباب، عاد مرة أخرى على أطراف أصابعه إلى وسط الغرفة، ثم راح ثانية يؤدي بيديه حركات وإشارات يبين بها كيفية فتح الرسالة. إلا أنه، على أية حال، لم يستطع أن يصوغ نصيحته بالكلمات. وأخيراً انصرف وعلى شفثيه ابتسامة راضية.

كان هذا مؤلماً على سمع الأمير؛ ذلك أن كل دلالة فيه كانت تشير إلى حقيقة معينة- وهي أن أجلايا في حالة قلق شديد، وتردد بالغ، وأنها لسبب ما تعاني من عذاب فكري قاس «من الغيرة، كما همس الأمير لنفسه». وكان من الواضح أيضاً أنها تعاني الشيء الكثير من أهل السوء. والواقع أنه كان من دواعي العجب الأكيد أن تشدد ثقته بهم إلى هذا الحد الكبير. لا شك أن رأسها ذلك المترفع القليل التجارب، كان مختبئاً بكل أنواع الأفكار العجيبة التي قد تختمر لكي تغدو خطيرة أو شاذة مستحيلة التحقيق.. وأحس الأمير

من ثم بأشد الانزعاج، ولم يعد يدري - بسبب ارتبائه - ماذا يفعل . لقد كان عليه أن يفعل شيئاً ليمنع وقوع كارته، هذا ما شعر به . وراح مرة أخرى ينظر إلى العنوان المكتوب على الرسالة المغلقة، أوه، إنه لا يشعر بأي شك أو بأي قلق من هذه الناحية؛ لأنه يثق فيها . ولكن شيئاً ما كان يثيره قلقه بشأن هذه الرسالة؛ لأنه لم يكن يستطيع أن يثق في جانبا، ومع ذلك قرر أن يسلمه الرسالة بنفسه، بل لقد غادر المنزل ليفعل هذا، ولكنه غير رأيه في الطريق . حتى إذا بلغ باب منزل بيتسين ساعده الحظ فالتقى بكوليا، فطلب منه أن يسلم الرسالة لأخيه وكأنما هي قد جاءت من أجلايا رأساً، ولم يوجه كوليا إليه أية أسئلة، وإنما سلمها لأخيه فوراً، ومن ثم لم يخطر ببال جانبا أن الرسالة تنقلت بين كل هذه الأيدي . ولما عاد الأمير إلى بيته، أرسل يستدعي فيرا حيث قال لها في إيجاز ما ينبغي أن يُقال عن الرسالة في مثل تلك الظروف، ومن ثم هُدى من روعها؛ لأنها كانت تبحث عنها طيلة ذلك الوقت وهي لا تكف عن البكاء . وكان الفزع قد استبد بها حين علمت أن أباها قد حمل الرسالة معه، «علم الأمير منها فيما بعد أنها كانت تحمل سرّاً الرسائل من روجوچين إلى أجلايا وبالعكس أكثر من مرة، هذا دون أن يخطر ببالها قط أنها تضر بذلك مصالح الأمير» .

وقد بلغ من اضطراب الأمير أنه .. بعد ساعتين، أي حين أرسل إليه كوليا من أنباء بمرض أبيه - لم يستطع أن يعرف للأمر كله رأساً من ذنب . ولكن هذا الحدث - أي مرض الجنرال إيفولجين - أعاد إليه اتزانته؛ لأنه شغله كثيراً عن أمر الرسالة . وظل مائتاً في بيت المسز إيفولجين «حيث حمل الرجل المريض بطبيعة الحال» إلى المساء . وقد كان طيلة إقامته بلا نفع تقريباً، ولكن ثمة أناساً يحب الإنسان أن يراهم، لسبب ما بجانبه أثناء المحنة . وكان كوليا

في حالة انزعاج شديد على أبيه، وكان يبكي بحزن مرير. إلا أنه لم يكن يكف عن القيام بما يطلب منه. لقد أرسل لاستدعاء طبيب، فجاء بثلاثة، وأسرع إلى الصيدلي، ثم إلى الحلاق. وكان الجنرال قد استرد بعض حيويته، ولكنه لم يفق من غشيته. وكان الأطباء قد أعلنوا أنه - على كل حال - «في حالة خطيرة من المرض». أما فاريا والمسز إيفولجين فإنهما لم تفترقا لحظة عن مكانهما بجوار المريض، وصدم جانبا بما حدث صدمة عنيفة، وأهمه مرض أبيه إلى حد كبير، ولكنه لم يصعد إليه، بل لقد شعر بالخوف من رؤيته. وبقي في الطابق الأول يضرب كفاً بكف، ويتحدث إلى الأمير في اضطراب شديد، إلا أنه استطاع أن يعبر عن استيائه لوقوع هذه الكارثة في مثل هذا الوقت بالذات! ولم يسع الأمير إلا أن يدرك ماذا كان يعني جانبا من حديثه عن «هذا الوقت بالذات». أما إيوليت فإن الأمير لم يجده في بيت بيتسين. وأما ليبديف الذي أمضى النهار كله نائماً بعد (إيضاحاته) في الصباح، فقد جاء في ساعة متأخرة بعد الأصيل. وكان قد أفاق تقريباً من السكر، ومن ثم راح يذرف الدمع غزيراً بجانب المريض وكأنما الجنرال شقيقه الحبيب. وكان يؤنب نفسه بصوت مرتفع دون أن يذكر - على كل حال - السبب فيما حدث، وأنه المسئول الوحيد عما حدث، وأن السبب فيما حدث كان «مجرد فضول مقبول». إن المتوفي «هكذا كان ليبديف يصر على تسمية الجنرال رغم كونه على قيد الحياة» كان في الحقيقة «رجلاً موفور العبقرية». ثم ظل يؤكد «عبقرية» الجنرال وكأنما يعتقد أنها ذات نفع كبير في تلك اللحظة. ولما رأت المسز إيفولجين دموعه الصادقة قالت له أخيراً بدون أدنى ظل من العتاب، بل وفي لهجة تنم عن المودة: «كفى كفى، لا تبك، إن الله سيغفر لك»، وقد بلغ من دهشة ليبديف من كلماتها ولا سيما من نبرات

صوتها ما جعله يرفض الانصراف طيلة المساء «وقد أنفق الأيام التالية من الصباح إلى المساء، في بيت الجنرال حتى يوم وفاته» وفي أثناء اليوم الأول من المرض جاء إلى المسز إيفولجين رسول من لدن المسز إيبانشين مرتين للسؤال عن صحة الجنرال، ولما أقبل الأمير على غرفة الاستقبال في منزل آل إيبانشين في الساعة التاسعة من ذلك المساء، وكان جميع المدعوين قد حضروا، أخذت المسز إيبانشين في الحال تسأله عن حالة الجنرال المريض مع إبداء العطف وطلب المزيد من التفاصيل. وكانت تجيب في وقار بالغ عن أسئلة الأميرة بيلوكوفسكي التي كانت تستفسر بها عما يكون المريض وعمن تكون المسز إيفولجين. وقد أعجب ذلك الأمير كثيرًا. وكان الأمير وهو يجيب عن أسئلة المسز إيبانشين بشأن حالة الجنرال «يتحدث حديثًا جميلًا» كما قالت أختنا أجلايا فيما بعد، كان يتحدث بوداعة وهذوء، وبلا كلمات لا داعي لها، وبلا إشارات، وإنما بتؤدة ووقار، وكذلك كان رائعًا في دخوله الغرفة، فاخرًا في ملابسه، كما أنه «لم يسقط منزلًا على الأرضية» كما كان يخشى أن يفعل في الليلة السابقة، بل بدا أنه ترك في نفوس جميع الحاضرين أطيب الأثر.

أما من ناحيته، فإنه بعد أن جلس وتلفت حوله، لاحظ فورًا أن الحاضرين في الحفلة لا يشبهون أبدًا تلك «الأشباح الرهيبة» التي أزعته بها أجلايا في الليلة السابقة، ولا علاقة بينهم وبين تلك الشخوص المفزعة التي ملأت أحلامه بالرعب طوال الليل. لقد رأى لأول مرة في حياته ركنًا صغيرًا مما يعرف بهذا الاسم الرهيب «المجتمع الراقى». لقد كان منذ أمد بعيد شديد الشوق لاقتحام هذا الوسط «الجذاب» ومن ثم كان شديد الاهتمام بهذا التأثير الأول الذي سبتركه في نفسه.

لقد كان التأثير الأول خلافاً؛ ذلك أنه شعر فوراً، وعلى نحو ما، أن هؤلاء الحاضرين جميعاً يبدون له وكأنما ولدوا ليكونوا معاً، وأن آل إيبانشين لم يقيموا حفلاً في ذلك المساء، وأنهم لم يدعوا ضيوفاً من الكبراء، وأن الحاضرين ليسوا إلا «أناساً عاديين» وأنه نفسه كان منذ أمد بعيد صديقهم المحبوب الذي طالما اتفق معهم في الآراء، والذي غاب عنهم قليلاً ثم عاد إليهم. وكانت عذوبة السلوك الرقيق، والبساطة، والصفاء الواضح تكاد تبلغ كلها حد السحر. إنه لم يكن يخطر بباله أن كل هذا الصفاء، وكل هذا النبل، وكل هذا الوقار القائم على الذكاء والبراعة لم يكن غير مظهر من المظاهر الفنية البراقة. ذلك أنه على الرغم من المظهر المهيّب، فإن معظم الحاضرين كانوا من ذوي العقول الفارغة الذين لم يستطيعوا أن يدركوا - وهم يحيون في ترف واستقرار - أن الجانب الأكبر من أبهتهم ليس إلا قشرة براءة ليسوا هم المسئولين عنها؛ لأنهم اكتسبوها بلا وعي بالوراثة. ولكن الأمير الذي خلب لبه سحر الانطباعات الأولى، لم يستطع أن يدرك هذه الحقيقة. فمثلاً رأى ذلك الرجل الهرم، ذلك السياسي الخطير، الذي يصلح بحكم سنه أن يكون جده، لم يتردد عن قطع حديثه لكي ينصت إليه هو - الشاب قليل التجربة - وهو لم يكتف بالإنصات إلى الحديث فحسب، بل بدا أنه يقدر آراءه كل التقدير، كل هذا في رقة وروح طيبة صادقة رغم أنهما غريبان يلتقيان لأول مرة في حياتيهما. لعل هذه المجاملات المبهذبة هي التي تركت ذلك التأثير الشديد في نفسية الأمير الحساسة. ولعله هو كان مذهلاً ومعدداً لأن ترتسم في أعماق نفسه مثل هذه الانطباعات الطيبة.

ومع ذلك فإن هؤلاء الناس جميعاً، رغم كونهم - بطبيعة الحال - «أصدقاء للأسرة» ولبعضهم البعض، فإنهم في الواقع لم يكونوا أصدقاء

حميمين للأسرة ولا لبعضهم البعض كما ظن الأمير عندما قدم إليهم. فقد كان بعضهم لا يمكن أبدًا، وبأية حال من الأحوال، أن يعترفوا بأن آل إيبانشين يقفون على قدم المساواة معهم. وكان بينهم أشخاص يحتقر أحدهم الآخر أشد الاحتقار. فقد كانت الأميرة العجوز بيلوكوفسكي طوال حياتها (تحتقر) زوجة «السياسي العجوز» التي كانت بدورها أبعد ما تكون ميلًا إلى المسز إيبانشين. وإن هذا «السياسي» الذي كان - لسبب ما - يرعى الجنرال إيبانشين وزوجته منذ شبابهما فصاعدًا، والذي كان أهم شخصية بين الحاضرين، كان يعتبر في نظر الجنرال شخصية على جانب كبير من العظمة والسمو بحيث لم يكن يشعر في حضرته إلا بالرهبة والخشوع. والواقع أنه ما كان ليتردد في احتقار نفسه بكل إخلاص لو اعتبره بأية حال من الأحوال مساويًا له وليس أحد كبير آلهة الأولمب. وكان بينهم أشخاص لم يتلاقوا منذ أعوام عديدة، ولم يكن أحدهم يهتم بالآخر في قليل أو كثير - هذا إذا لم يكرهه فعلاً - ومع ذلك فقد حيّا كل منهم صاحبه الآن وكأنما كانا في اليوم السابق معًا على خير ما تكون المودة والصداقة. وعلى كل حال لم يكن عدد المدعوين كبيرًا. فقد كان هناك أولاً - عدا الأميرة بيلوكوفسكي والسياسي العجوز الذي كان خطيرًا في مركزه حتمًا، وزوجته - جنرال رزين برتبة بارون أو كرونت ويحمل اسمًا ألمانيًا، وكان رجلًا قليل الكلام إلى أقصى حد، ومعروفًا بوفرة معلوماته في شئون الدولة، كما كان مشهورًا أيضًا بالعلم الغزير، أي واحدًا من أولئك الإداريين (الكبار ذوي المراتب العليا) الذين يعرفون كل شيء (إلا روسيا نفسها) إنه رجل ألقى في خلال خمس سنوات عبارة اعترف الجميع بأنها «رائعة بعمق معناها - وأنها - يقينًا - ستغدو مثلاً، وستسمو إلى أعلى الأوساط». إنه واحد من أولئك الرسميين الكبار الذين

يموتون- بعد مدة طويلة جدًا في الخدمة- وقد بلغوا أعلى المراكز، وأفخر المناصب، وجمعوا من الثروات أضخمها، وإن كانوا في الواقع لم يقوموا بعمل عظيم، بل لعلهم كانوا ينصبون العداء لكل عمل عظيم. كان هذا الجنرال هو الرئيس المباشر للجنرال إيبانشين في العمل. وكان الجنرال إيبانشين بدافع من شعوره العميق بالجميل، بل وبسبب لون عجيب من ألوان الغرور والزهو ينظر إلى هذا الجنرال باعتباره صاحب الفضل عليه. أما هذا الجنرال، إنه لم يكن بأية حال من الأحوال يعتبر نفسه راعيًا للجنرال إيبانشين، بل كان في الواقع يعامله بلا أية أهمية أو تقدير، كما كان على استعداد تام- رغم كل ما أداه إليه الجنرال إيبانشين من خدمات- أن يضع في منصبه موظفًا آخر إذا اقتضت الضرورات، أيًا كانت بساطتها. وكان بين الحاضرين أيضًا رجل كهل يبدو أن له أهمية يقال إنه يُمَتُّ بوشائج القربى للمسر إيبانشين، وإن لم تكن هذه هي الحقيقة. وكان رجلًا رفيع المكانة، خطير المنصب، موفور الثراء، ينحدر من أسرة أرستقراطية، متين الجسم، موفور الصحة، لبق الحديث، يكاد يشتهر بأنه رجل ناغم ساخط (بكل ما في هذه الكلمة من معاني الولاء) وأنه من ثم رجل غضوب (وهذه الصفة كانت مقبولة فيه) وأنه يتمسك بالتقاليد الإنجليزية الأرستقراطية، وبالذوق الإنجليزي (مثل تناول لحم البقر المشوي غير الناضج، واستخدام التشريفاتية، وغير ذلك) وكان على صداقة وطيدة بالسياسي الكبير الذي كان يسليه. وعدا هذا كله فقد كانت المسر إيبانشين تؤمن- لسبب ما- بفكرة عجيبة، وهي أن هذا السيد الكهل (الخفيف الظل المعروف بأنه من أشد المعجبين بالجنس اللطيف) قد يقرر فجأة أن يسعد ألكسندرا بطلب يدها للزواج.

ويلي هذه الطبقة الشامخة الشَّمَاء من المدعوين، طبقة أخرى من

الشبان الذين يتمتعون هم أيضًا بأبهى الصفات. فعدا الأمير «س» والمستمر رادوفسكي «إيفيني بافلوفيتش» نجد أن الرجل المعروف والساحر الجذاب المشهور الأمير «ن» ينتمي إلى هذه الطبقة. وقد كان ذات يوم يعتبر قاهر قلوب النساء في القارة الأوروبية كلها. أما الآن فهو رجل في الخامسة والأربعين وإن لم يزل وسيم المظهر، ساحر الحديث، موفور الثراء رغم أن شئونه المالية في حالة اضطراب. وكان بحكم العادة يقضي معظم وقته خارج البلاد. وأخيرًا كان بين الحاضرين عدد من المدعوين الذين بدا أنهم ينتمون إلى طبقة ثالثة خاصة لا تعتبر في مجموعها جزءًا من «الطاقم الفاخر». وكان آل إيبانشين المتمتعون بإحساس لطيف في التناسق والتميز، وهو إحساس يعتبر أساسيًا في الوسط الراقي، يحبون في مثل هذه المناسبات النادرة التي يقيمون فيها حفلًا مهمًا أن يجمعوا بين أفراد من أرقى طبقة مع أفراد ينتمون إلى طبقة أدنى مع ممثلين مختارين للطبقة المتوسطة. والواقع أن آل إيبانشين كانوا يُمتدحون على هذا التصرف الحسن، ويُعتبرون من ذوي اللباقة والكياسة الذين يعرفون أين مكانهم في المجتمع وكانوا - أي آل إيبانشين - جد فخورين بهذا الذي يقال عنهم. وكان أحد ممثلي الطبقة المتوسطة في ذلك المساء مهندسًا بالجيش برتبة كولونيل، وكان رجلًا جادًا أو صديقًا حميمًا للأمير «س» وكان في مثل هذه المجتمعات يميل إلى الصمت، يزين أصبعه السياسية بخاتم كبير ذي جوهرة من فرائد الماس، من المرجح أنه قدم هدية إليه. وكان أخيرًا بين الحاضرين أديب، شاعر ينحدر من أصل ألماني، ولكنه يعتبر شاعرًا روسيًا، وأكثر من هذا، شخصًا جديرًا بكل احترام، ومن ثم أصبح في الإمكان أن يُقدم إلى مثل هذه المجتمعات الراقية بلا أدنى خوف، وكان له مظهر سار ولكنه لأمر ما يثير الكراهة والنفور

في وقت واحد، لا عيب في ملابسه، ويبلغ من العمر الثامنة والثلاثين تقريباً. وكان ينتمي إلى أسرة ألمانية ثرية من الطبقة المتوسطة، ولكنها أيضاً تتمتع بكل احترام. وكان يعرف كيف ينتهز كل فرصة سانحة، وكيف يشق طريقه بين عظماء الرجال الذين يمكن أن يستفيد منهم مع الاحتفاظ بمودتهم. وكان في وقت ما قد ترجم شعراً إحدى القصائد الألمانية المشهورة، وقد عرف يومذاك كيف يختار الشخصية التي يهدي إليها القصيدة المترجمة، وكيف يزهو بصداقته لشاعر روسي مشهور، متوفى «إن هناك عدداً كبيراً من الكتاب الذين يحبون أن يكتبوا دائماً عن صداقاتهم لكبار الأدباء الموتى». وكان قد قدم منذ عهد قريب إلى آل إيبانشين بواسطة زوجة أحد «السياسيين الكهول». وكانت هذه السيدة مشهورة برعايتها للأدباء والمفكرين. وقد استطاعت في الواقع أن تظفر لواحد أو اثنين منهم بمعاش دائم عن طريق شخصيات ذات مراكز مهمة كان لها بعض النفوذ عليها. والواقع أنه كان لها نفوذ من نوع ما. وكانت امرأة في الخامسة والأربعين من عمرها «أي زوجة شابة جداً بالنسبة لزوجها الهرم» وقد كانت ولم تزال تتمتع بجمال باهر، وكأية امرأة في الخامسة والأربعين كانت مجنونة بالإسراف في الحرص على أناقة الملابس. ولم تكن ذكية إلى حد ملفت للنظر، كما أن ثقافتها الأدبية كانت موضع شك، إلا أن حبها لرعاية رجال الأدب كان نوعاً من الهوس كهوسها في حب الملابس الأنيقة الفاخرة. فلا عجب أن أهدي إليها بعض الأدباء الكثير من أعمالهم في التأليف والترجمة، كما أن كاتبين أو ثلاثة استأذنوها في نشر الرسائل التي كتبوها لها من موضوعات ذات أهمية كبرى... ذلك هو الوسط الاجتماعي الذي كان الأمير يحسبه شيئاً أصيلاً: ذهباً خالصاً بلا شوائب. إلا أن هؤلاء الحاضرين كانوا في هذه

الليلة بالذات - وكأنما يجمعهم هدف مشترك - في أحسن حالاتهم الفكرية، ويخيم عليهم جو عميق بالرضى عن النفس. ذلك أن كل واحد منهم كان يدرك أنه يسبغ على آل إيبانشين شرفاً كبيراً بحضوره. ولكن الأمير، وأأسفاه لم يكن يدرك شيئاً من هذه التيارات الخفية. فهو مثلاً لم يشك في أن آل إيبانشين وقد قرروا اتخاذ مثل هذه الخطوة الضخمة لحسم الأمر بالنسبة لمستقبل ابنتهم، ما كانوا ليجرؤوا على الامتناع عن تقديمه - وهو الأمير ليو نيكولايفيتش ميشكين - إلى السياسي العجوز المعترف به راعياً للأسرة. ومن ناحية أخرى فإن هذا السياسي العجوز الذي كان من الممكن أن يلقي أنباء أسوأ كارثة تحل بآل إيبانشين بكل هدوء واطمئنان، ما كان ليغفر لهم في الوقت نفسه موافقتهم على خطبة ابنتهم دون استشارته أو على الأصح دون موافقته. أما الأمير «ن» ذلك الرجل الجذاب الحاضر البديهة الصريح، فقد كان مؤمناً أشد الإيمان بأنه شيء كالشمس وقد سطعت في سماء آل إيبانشين في تلك الليلة. إذ كان ينظر إليهم على أنهم أقل منه كثيراً بلا شك، وقد جعلته هذه الفكرة الصريحة الواضحة يشعر بالمودعة نحوهم، وبالراحة الممتعة وهو بينهم. وكان يعرف تماماً أنه إذا أراد أن يبهج الحاضرين، فما عليه إلا أن يسرد عليهم قصة في ذلك المساء. ومن ثم راح يستعد لها بتجميع شتات إلهامه. وبعد أن استمع الأمير ميشكين إلى هذه القصة أحس أنه لم يسمع في حياته بقصة تماثلها في الفكاهة الحلوة، والخفة الرائعة، والأصالة الممتعة، والتأثير العجيب والأداء المدهش من هذا الدون جوان الأمير «ن». ولكن أي شعور كان يخامر له أنه علم مدى قدم هذه القصة وتعنفها، ومبلغ حفظ الأمير «ن» لها عن ظهر قلب، وشدة إحساس جميع أفراد الطبقة الراقية في المدينة بالسأم منها لكثرة سماعهم لها، وأنها ما كانت لتتمر إلا في

بيت آل إيبانشين البسطاء، على أنها شيء رائع، أصيل، مدهش صادر عن رجل متألق الذكاء! وحتى الشاعر الألماني، فإنه على رغم سلوكه الحميد، وتواضعه الشديد، وحسن أدبه، كان يشعر أنه يسدي بحضوره للأسرة شرفاً كبيراً. ولكن الأمير لم يلاحظ أبداً الجانب الآخر من هذا الوضع كله. لم ير التيارات التحتية لما يجري أمامه. وكانت هذه هي الكارثة التي غفلت عنها أجلايا. وكانت في ذلك المساء تبدو بارعة الجمال إلى حد مثير ملفت للنظر. وكانت الأخوات الثلاث يرتدين ملابس جميلة مناسبة وإن لم تكن بالغة الأناقة، كما كانت شعورهن مصففة بعناية خاصة. وكانت أجلايا جالسة مع المستر رادوفسكي تتحدث إليه وتضحك معه في أتم سمات المودة. وكان رادوفسكي يتصرف بثبات واتزان أكثر كثيراً مما عُرف عنه، ولعل السبب في هذا يرجع إلى احترامه للشخصيات الكبيرة الحاضرة. إلا أنه كان معروفًا في الوسط الراقي منذ وقت طويل، أي أنه لم يكن غريباً عليه، رغم أنه لم يزل في رقب الشباب. وكان قد وصل إلى بيت آل إيبانشين في ذلك المساء وعلى قبعته شريط من الحرير أثنت على جماله الأميرة بيلوكوفسكي. ولكن لم يكن رجل من رجال المجتمع ليرتدي شارة الحداد على وفاة مثل ذلك العم عم المستر رادوفسكي أو إيفيني بافلوفيتش. (وكذلك كانت المسز إيبانشين معجبة بالشريط الحريري) ولكنها - في جملتها - كانت مشغولة بالحفلة إلى حد كبير. ولاحظ الأمير أن أجلايا ركزت نظراتها عليه مرتين، وظن أنها راضية عنه. وبدأ تدريجياً يشعر بالسعادة. وبدأ له هواجسه الخيالية الأخيرة (بعد حديثه مع ليبيديف) لا معنى لها كلما تذكرها المرة بعد الأخرى. وإنما لاحت له مستحيلة كأنها حلم شاذ! (لقد كان على أية حال، ودون أن يشعر، يتمنى طيلة اليوم أن يبذل كل ما في وسعه لكي يكذب هذا الحلم). وكان

حديثه قليلاً يكاد يقتصر على إجابة ما يوجه إليه من أسئلة ثم التزم في النهاية الصمت التام. وجلس ينصت وقد بدا عليه أنه مستمتع بكل ما حوله إلى أقصى حد. ثم إذا بشيء كالإلهام يتراكم ويتجمع في أعماق نفسه شيئاً فشيئاً حتى أصبح معداً للاشتغال في اللحظة المناسبة.

وبدأ الحديث بطريق المصادفة البحتة، وكان حديثه إجابة عن سؤال، وبلا أي غرض معين..



الفصل السابع

بينما كان الأمير مستغرقاً في إعجابه بأجلالها، محدقاً النظر إليها وهي تتحدث بسرور مع الجنرال والأمير «ن» والمستر رادوفسكي «إيفيني بافلوفيتش» إذا بالكهل المتجزلز «المحب للإنجليز» الذي كان يسامر السياسي الهرم ويحدثه في اهتمام وحماسة عن شيء ما في ركن بالغرفة، إذا به ينطق باسم نيكولاي أندريفيتش بافليشيف وعندئذ التفت الأمير بسرعة إلى ذلك الاتجاه وراح ينصت.

كانوا يتناقشون في الطرق الجديدة لإدارة المزارع بعد صدور قوانين الإصلاح الزراعي الأخيرة، وفي المأزق الذي وضع أنفسهم فيه بعض أصحاب الضياع في إقليم معين. ويبدو أن أحاديث المتجزلز الكهل كانت مسلية؛ لأن السياسي الهرم أخذ يضحك أخيراً مما حاق بالمتحدث. ذلك أن المتجزلز كان يشرح في سهولة ويسر، والكلمات ممطوطة، وبلهجة يغلب عليها الغضب، وبالتأني في نطق الأحرف المتحركة، كيف اضطر بسبب قوانين الإصلاح الزراعي الأخيرة إلى بيع ضيعة فاخرة كان يمتلكها في ذلك الإقليم بنصف ثمنها، مع أنه لم يكن في حاجة ملحة إلى المال، ثم ذكر كيف احتفظ في الوقت نفسه بضيعة كانت قد تخربت وبارت حتى أصبح يخسر

المال فيها بدلاً من أن يربح منها. ثم قال في معرض الحديث: «ولكي أتجنب الخروج على القانون بشأن ميراثي في مزرعة بافليشيف، هربت منها. ولو أنني ورثت مزرعة أو اثنتين من هذا النوع مرة أخرى لخرب بيتي. ولولا هذا لأصبحت الآن مالكا لتسعة آلاف فدان تقريباً من أجود الأراضي».

وهنا قال الجنرال إيبانشين هامساً وقد ظهر فجأة بجوار الأمير بعد أن لاحظ اهتمامه الشديد بالحديث:

- إن.. إن المتنجلز هذا هو.. هو إيفان بروفيتش، وهو قريب للمستمر بافليشيف المتوفى كما تعلم. لقد كنت كما أعتقد تبحث عن أقارب للمستمر بافليشيف.

وكان الجنرال إيبانشين حتى ذلك الحين مشغولاً بالحفاوة بالجنرال الخطير، رئيسه في العمل، ولكنه حين لاحظ العزلة الكاملة التي أمسى فيها الأمير بين الحاضرين، شعر بالقلق، ورغب في أن يجعله يشترك في المناقشة لكي يعرضه للمرة الثانية ويلفت إليه أنظار الشخصيات العظيمة من الحاضرين. ومن ثم قال وهو يواجه نظرات إيفان بروفيتش «المحب للإنجليز»:

- لقد كان الأمير ليو نيكولايفيتش في وصاية المستمر بافليشيف بعد وفاة والديه.

فقال إيفان بروفيتش:

- إنني سعيد برؤيتك. أجل! إنني أذكر هذا تمامًا، فعندما عرف الجنرال إيبانشين أحدنا بالآخر في هذا المساء، عرفت في الحال. أجل. إن وجهك غير غريب عليّ بالتأكيد. لقد تغيرت قليلاً رغم أنني لم أرك منذ أن كنت

طفلاً. أظن أنك كنت في العاشرة أو الحادية عشرة يومذاك وأن في ملامحك شيئاً جعلني أذكرك بسرعة.

فسأله الأمير قائلاً في دهشة غير عادية:

- أرايتني وأنا طفل؟

فاستطرد إيفان بتروفيتش قائلاً:

- أجل، منذ أمد بعيد.. في زلاتوفركوف حيث كنت تقيم مع ابنتي عمي. وكان من عادتي أن أزور زلاتوفركوف كثيراً في ذلك الحين. ألا تتذكرني؟ من المحتمل جداً أنك لا تتذكرني! فقد كنت يومذاك تعاني - تعاني.. من مرض ما. وقد حدث ذات مرة، كما أذكر، أنني فوجئت بمظهرك لهذا السبب.

فقال الأمير بحماسة:

- إنني لا أذكر شيئاً.

وبعد عبارات إيضاحية قليلة قال بعضها إيفان بتروفيتش بهدوءه الشديد، وقال الأمير بعضها الآخر في انفعال بالغ، ظهر أن السيدتين - العجوزين العانسين، قريبتى بافليشيف اللتين كانتا تقيمان في مزرعة بزلاتوفركوف واللتين تولتا تنشئة الأمير - كانتا أيضاً قريبتين لإيفان بتروفيتش، ولم يستطع هذا، كما لم يستطع غيره، أن يشرح الأسباب التي دفعت بافليشيف إلى بذل كل هذا الاهتمام بالأمير الصغير الذي تبناه. وقد قال في معرض الحديث: «إذا شئت الحقيقة، فأنا لم أكن شديد الاهتمام بهذا الأمر يومذاك» ولكن بدا، مع هذا كله، أنه كان يتمتع بذاكرة ممتازة؛ لأنه تذكر كيف كانت ابنة عمه الكبرى مارفا نيكيتشنا حازمة في معاملتها مع الصبي الصغير «ومن ثم فقد

أنبتها ذات مرة بسبب طريقتها في تعليمك وتربيتك، وقلت لها: لماذا تثقلين دائماً على طفل مريض؟ يجب أن تخففي قبضتك بعض الشيء...» وكذلك تذكر كيف كانت ابنة عمه الصغرى ناتاليا نيكيتشنا - من جهة أخرى - شديدة الرقة والعطف في معاملتها للصبي المسكين. واستطرد إيفان بتروفيتش في شرحه للأمر قائلاً: «وهما الآن تقيمان في الريف حيث ترك لهما بافليشيف ضيعة صغيرة جميلة. إلا أنني لا أدري على وجه التحديد هل هما على قيد الحياة أم لا. وأعتقد أن مارفا نيكيتشنا كانت تريد أن تلتحق بالدير. ولكنني، مرة أخرى، غير متأكد من هذا. فربما كانت فتاة أخرى غيرها هي التي أرادت هذا.. نعم، فقد سمعت هذا عن زوجة طبيب منذ عهد قريب..»

وكان الأمير ينصت إلى هذا بعينين متألفتين بالانفعال، والبهجة. ثم أعلن في حماسة شديدة أنه، من جانبه، لن يغفر لنفسه عدم انتهازه الفرصة أثناء الشهور الستة التي أمضاها في التنقل خلال الأقاليم الوسطى للبحث عن هاتين السيدتين وزيارتهما. وكان ينوي أن يفعل هذا كل يوم، ولكن الظروف كانت في كل مرة تمنعه. أما الآن فقد قرر بكل تأكيد - نعم، بكل تأكيد، أن يقوم بهذه الزيارة في أقرب فرصة. ثم قال لإيفان بتروفيتش: «إذن فأنت تعرف ناتاليا نيكيتشنا حقاً! يا لها من سيدة رائعة كالقديسة! وكذلك مارفا نيكيتشنا أيضاً! إنني آسف، ولكنني أعتقد أنك أخطأت في حديثك عنها! حقاً إنها كانت حازمة - ولكن، إن الإنسان لا يستطيع أن يلومها إذا هي اشتدت في معاملتها لطفل أبله كما كنت يومذاك، ها، ها، ولكن.. ولكنك رأيتني يومذاك فكيف حدث أنني لا أتذكرك؟ إذن فأنت؟ يا للسماء! إذن فأنت قريب للمستتر بافليشيف؟»

فقال إيفان بتروفيتش وهو يتأمل الأمير باسمًا:

- أوه.. أؤكد لك أنني قريبه.

- أوه، أرجوك، معذرة، إنني لا أقول هذا بدافع من الشك! إن من المستحيل أن يشك أحد في أمر كهذا، أليس كذلك؟ ها، ها! أعني أنه ليس ثمة ظل من الشك! أليس كذلك؟ ها، ها! لقد قلت هذا فقط لأن المستر بافليشيف كان رجلاً عظيمًا.. رجلاً على جانب كبير من الشهامة؛ أؤكد لك! وكان الأمير يبدو فائض النفس بالعطف الإنساني أكبر مما يبدو مبهور النفس على حد تعبير أدليدا لخطيبها الأمير «س» في اليوم التالي.

وضحك إيفان بتروفيتش قائلاً:

- عجباً! ليغفر الله لنا! ألا يمكن أن أكون قريباً لرجل عظيم شههم! فصاح الأمير قائلاً وقد بدا عليه الارتباك وأصبح يتحدث بسرعة متزايدة وانفعال يشتد لحظة بعد أخرى:

- ويحي! أخشى أن أكون قد قلت شيئاً سخيفاً مرة أخرى! - وهذا ما لا.. ما لا.. ينبغي - أن يكون؛ لأنني.. لأنني.. لأنني.. ولكن لا داعي لهذا. ثم من أكون أنا، أرجوك أن تخبرني، من أكون أنا بجانب مثل هذه الشؤون المهمة.. الشؤون المهمة جداً، ومن أنا بالمقارنة مع مثل هذا الرجل الشهم العظيم؛ لأنه كان، أؤكد لك، رجلاً عظيمًا شهماً! ألا تعتقد هذا؟

وكان الأمير يرتعد من رأسه إلى أخمص قدميه. وقد كان من العسير أن يعرف أحد لماذا اشتد انفعاله هكذا فجأة، ولماذا ألقي بنفسه في خضم هذه الحالة النفسية الصاخبة بلا سبب واضح وبدون أن يكون في موضوع المحادثة ما يدفع إلى هذا كله. كل ما حدث أنه وجد نفسه في هذه الحالة النفسية، وأنه شعر في تلك اللحظة بأعظم العرفان لشخص ما لسبب ما، بل

ربما حتى لإيفان بتروفيتش ولكل شخص في الغرفة تقريباً. كان «ثماً بخمر السعادة». وقد بدأ إيفان بتروفيتش أخيراً يحملق فيه بإمعان متزايد. وكذلك راح «السياسي» يركز نظراته عليه. وحدثت الأميرة بيلوكوفسكي النظر إليه في غضب وزمت شفيتها. وقطع الأمير «ن» والمستر رادوفسكي، والأمير «س» والبنات أحاديثهم وشرعوا ينصتون، وبدت أمارات الخوف على أجلايا. أما المسز إيبانشين فقد فقدت ببساطة السيطرة على أعصابها. وكانوا أيضاً- الأم والبنات- شخصيات غريبة الأطوار. فقد كن، هن، اللاتي اقترحن وقررن أنه من الأفضل أن يبقى الأمير صامتاً طيلة المساء. ومع ذلك فعندما رأيته جالساً بمفرده، سعيداً بنفسه تماماً، أحسسن بالقلق يملأ نفوسهن. وكانت ألكسندرا على وشك أن تتسلل إليه وتصحبه عبر الغرفة لينضم إلى مجموعتها: مجموعة الأمير «ن» بالقرب من الأميرة بيلوكوفسكي. أما الآن، وقد بدأ الأمير يتحدث، فإن إحساسهن بالقلق أخذ يزداد.

وقال إيفان بتروفيتش بلهجة تنم عن التأثر دون أن يستمر في الابتسام:
- إنني أتفق معك على أنه كان رجلاً عظيماً حقاً. أجل.. أجل.. كان بكل تأكيد رجلاً عظيماً.

ثم أضاف قائلاً بعد برهة صمت:

- رجلاً عظيماً وجديراً بكل..

ثم أردف بمزيد من التأثر بعد المرة الثالثة من الصمت:

- جديراً بكل إجلال.. و.. وينبغي أن أقول إنني سعيد برؤيتك و..

وعندئذ قال «السياسي» الكبير بلهجة الذي يحاول أن يتذكر شيئاً:

- أليس هو نفسه بافليشيف الذي كانت له علاقة بقصة عجيبة مع - مع

الأب- أجل.. مع الأب- أخشى أن أكون قد نسيت اسم هذا الأب. ولكنني أذكر أنها كانت على كل لسان في ذلك الحين.

- فقال إيفان بتروفيتش مذكراً:

- مع الأب جوريو، وهو من الجيزويت.. أجل يا سيدي، هكذا كان رجالنا العظماء الأجلاء. فقد كان بافليشيف رجلاً ينحدر من أسرة عربية موفورة الثراء، واشتغل ياوراً في البلاط الملكي، ولو أنه استمر في خدماته لبلاده لأصبح... ولكنه فضل أن يعتزل الخدمة وكل شيء، وأن يعتنق مذهب الكاثوليك الرومان ويصبح واحداً من جماعة الجيزويت، بل لقد أقدم على هذا علناً وفي لون من التعصب العنيف. وأظن أنه أحسن صنعاً بموته - نعم.. هذا ما قاله الجميع يومذاك.

وصاح الأمير في فزع وقد فقد السيطرة على أعصابه:

- بافليشيف؟ بافليشيف يعتنق الكاثوليكية؟ هذا مستحيل؟

فغمغم إيفان بتروفيتش قائلاً:

- أعتقد أن كلمة «مستحيل» عنيفة بعض الشيء في هذا المجال، ألا ترى هذا يا عزيزي الأمير؟ وعلى أية حال فإنك على حق في تقديرك البالغ لذلك الرجل، لأنه كان حقاً كريماً عظيماً، كما كان في رأيي، السبب فيما وصل إليه الثعلب الماكر العجوز جوريو من نجاح. ولكن يحسن أن تسألني، يا سيدي، عن المتاعب وألوان القلق التي عانيت بها بسبب ذلك الموضوع فيما بعد، ولا سيما مع ذلك الشخص جوريو!

ثم أردف فجأة وهو يوجه الحديث إلى السياسي الهرم:

- تصور؟ لقد حاولوا أن يطعنوا في صحة التوصية.. و.. وقد لجأت

إلى اتخاذ أعنف الإجراءات، لا.. للانتصار عليهم، ذلك لأنهم أساتذة في هذا النوع من العمل! إنهم أوغاد دهاة حقًا. ولكن حمدًا لله.. لقد حدث هذا كله في موسكو، لقد.. لقد ذهبت رأسًا إلى الكونت.. و.. وأعدناهم إلى جادة الصواب.

فصاح الأمير قائلاً:

- إنك لا تدري إلى أي حد صدمتني وأزعجتني!

- إنني آسف، ولكن إذا شئت الحقيقة، فإن هذا كله، من الناحية الجدية.. لغو وهراء، وإنه ما كان لينتهي إلى شيء كما هو الشأن دائماً في مثل هذه الحالات. وأنا واثق من هذا. فقد حدث في الصيف الماضي..

ثم استدار مرة أخرى ليووجه الحديث إلى السياسي الهرم واستطرد قائلاً:

- إن الكونتيسة «ك» - كما قيل لي - قد التحقت أيضاً بأحد الأديرة الكاثوليكية في الخارج. ويبدو أن مواطنينا، على نحو ما، لا يستطيعون أن يواصلوا المقاومة إذا حدث ووقعوا في براثن هؤلاء.. هؤلاء الأوغاد، لا سيما في خارج البلاد.

فغمغم الهرم قائلاً في ثقة وتأکید:

- كل هذا بسبب... بسبب ضعفنا في رأيي. ثم.. ثم لا تنسى رسائلهم في التبشير أيضاً؟ إنها رسائل رائعة، وخاصة بهم. ثم إنهم يعرفون كيف.. كيف يملئون قلوب الناس بالخشية من الله. لقد حاولوا أن يفزعوني أنا أيضاً، أوكد لك، وكان ذلك في مدينة فيينا عام ١٨٣٢. ولكنني هربت منهم، ها. ها.. نعم.. لقد هربت منهم جرياً.

وفجأة تدخلت الأميرة بيلوكوفسكي قائلة:

- لقد بلغني يا سيدي العزيز أنك اعتزلت منصبك في فيينا يومذاك
وهربت إلى باريس مع الكونتيسة الجميلة ليفنسكي، وليس من مطاردة
راهب الجيزويت لك.

فصاح الهرم قائلاً وهو يضحك ابتهاجاً بالذكري:

- أجل، أجل يا سيدتي، ولكنني كنت على كل حال هارباً من الجيزويت
طوال الوقت. نعم، كان الهرب من الجيزويت فعلاً.

ثم أردف قائلاً للأمير بلهجة لطيفة:

- يبدو أنك شديد التدين، وهذا شيء نادر بين شبابنا في الوقت الحاضر.
وكان الأمير ينصت إلى هذا كله فاغر الفم، لا يقول شيئاً من فرط
الصدمة التي تلقاها. وكان يبدو على الرجل الهرم أنه متوق إلى أن يتعرف
على الأمير.

وقال الرجل الهرم برفق ودون أن يفقد اتزانة:

- يخيل لي أن ما حدث للمستتر بافليشيف صاحب الفضل عليك أيها
الأمير كان صدمة عنيفة على نفسك. ولعل إفراطك في الانفعال يرجع إلى
أنك تحيا وحيداً. فإذا أنت أكثر من الحياة بين الناس، فأنا أرجو أن يرحب
بك المجتمع الراقي كشاب ممتاز، وعندئذ ستكون أقل انفعالاً، كما ستعرف
أن هذا كله أبسط ما تظن، وأن مثل هذه الحالات النادرة، في رأيي، تحدث
لأننا متخمون من جهة، ومن جهة أخرى لأن السأم يملأ نفوسنا...

فصاح الأمير قائلاً:

- أجل، أجل، إنك على حق تماماً، وإن هذا الرأي لرائع! أجل من
السأم- مما يعترينا من السأم، وليس من التخمة- وإنما على العكس- من

الظماً، لا من التخمّة. وهنا الخطأ في حديثك! وليس الأمر من الظماً فقط، وإنما من الحمى، من التعطش المحرق، ثم - ثم لا تظن أن هذه مسألة بسيطة يمكن الضحك منها. إنني آسف، ولكن على الإنسان أن يتنبأ بالنتائج. فبمجرد أن نصل - نحن الروسيين - إلى الشاطئ، وبمجرد أن نتأكد أنه الشاطئ، فإننا من فرط ابتهاجنا نفقد كل إحساس بالتنسيق والتنظيم. فلماذا يحدث هذا؟ في مقدوري أن أرى أنكم مدهوشون لتصرف بافليشيف. إنكم ترجعون كل شيء إلى جنونه أو إلى طبيته، ولكنكم مخطئون! فلسنا نحن فقط الذين يدهشنا تركيزنا العاطفي في مثل هذه الحالات، وإنما هذه حالة شائعة في كل أوروبا. فإذا تحول روسي إلى الكاثوليكية، فلا بد أن يصبح جزويتياً. إنه اهتدى أخيراً إلى الوطن الذي طالما بحث عنه، إلى الوطن الذي انتقده هنا، ومن ثم امتلأ بالسعادة، لقد عثر أخيراً على الشاطئ، على الأرض، فهو من ثم يندفع ويقبلها! إنها ليست دوافع الغرور فقط، لا ولا المشاعر الرديئة التافهة هي التي تدفع بالروسيين إلى مذهب الجيزويت، وإنما هو العذاب الروحي، والظماً الروحي، واللهفة إلى مثاليات أعلى، إلى أرض ثابتة، إلى وطن لم يعودوا يؤمنون به لأنهم لم يعرفوه قط. تلك هي مشكلة وطننا «إن الذي لا أرض له ثابتة تحت قدميه، لا إله له أيضاً» وليست هذه كلماتي، إنما هي كلمات تاجر من تجارنا، من قدامى المؤمنين، التقيت به في إحدى رحلاتي. إنه لم يقل هذه الكلمات حقاً كما ذكرتها، وإنما قال: «إن الذي ينكر وطنه، ينكر أيضاً ربه» فهل يمكن أن نتصور أن بعض كبار شبابنا المثقفين قد أصبحوا أيضاً سياطين^(١)! ولكن أي فرق مع هذا بين

(١) نسبة إلى السوط: «السياطون فئة دينية ظهرت في إيطاليا وكان من رأيها أن يسير أفرادها عرايا ويضربون أنفسهم بالسوط». (المترجم)

السايطان وبين العدميين أو الجيزويت؟ إنهم قد يكونون أكثر تعمقًا. ولكن إحساسهم بالرؤى والجزع هو الذي دفع بهم إلى هذه الحالة. أظهر لزملاء كولمبوس الظالمين المنهكين شواطئ «العالم الجديد»؟ أظهر للروسي حقيقة «الدنيا» الروسية، دعه يجد الذهب والكنوز المخبوءة عنه في غياهب الأرض، أظهر له نهضة الجنس البشري كله في المستقبل، وربما بعثه من جديد عن طريق الفكر الروسي فقط، وعندئذ سوف نرى كيف ينهض العملاق الروسي قويًا، أمينًا، حكيمًا، لطيفًا أمام أظفار العالم المدهوش- المدهوش الخائف- لأنه لن ينتظر منا غير السيف، السيف والعنف- لأن أهله- وهم يحكمون علينا بأفكارهم- لا يستطيعون حتى أن يتخيلوا شعبًا متحررًا من الهجمية. ذلك ما كان يحدث دائمًا حتى الآن، وما سوف يستمر على هذا النحو باطراد ما دامت الأمور باقية على ما هي عليه...

ولكن حدث في تلك اللحظة ما قطع حديث المتحدث بطريقة لم يكن يتوقعها أحد.

ذلك أن كل هذا السيل العارم من الهذيان، كل هذا التدفق من الكلمات المضطربة الحماسية، والأفكار الغيبية المتقطعة التي بدت كأنها تتزاحم وتندافع ويتساقط بعضها فوق بعض في اضطراب... كان هذا كله يشير إلى شيء خطير.. شيء خاص بالحالة العقلية لذلك الشاب الذي انفعل بشدة مفاجئة بلا أي سبب واضح على الإطلاق. ومن ثم استبد العجب الممزوج بالخوف والإشفاق بأولئك الذين يعرفون الأمير بين الحاضرين «وقد أحس بعضهم بالخجل أيضًا» لهذه السورة التي لم تكن تتفق مع هدوئه المعتاد، بل مع وداعته المعروفة، ومع لباقة الفريدة النادرة، ومع شعوره الغريزي بما ينبغي من أدب ووقار. ولم يستطع أحد أن يفهم كيف حدث هذا. ذلك

أنه من غير الممكن أن يكون السبب هو ما قيل عن بافليشيف. وأخذت السيدات ينظرن إليه على أنه إنسان فقد صوابه. وقد اعترفت الأميرة بيلوكوفسكي أنها كانت - لو استمر في هذا الحديث لحظة أخرى - على وشك «الفرار بحياتها» أما السياسي الهرم فقد استبدت به في أول الأمر دهشة عارمة. وأما الجنرال - رئيس الجنرال إيبانشين - فقد راح ينظر إلى الأمير - من مكانه - في صرامة واستياء. وتسمر الكولونيل المهندس في مكانه بلا حراك. وشحب وجه الشاعر الألماني الصغير الجسم وإن ظلت الابتسامة الجوفاء مرتسمة على شفتيه وهو يتلفت إلى الآخرين ليرى تأثير هذا كله عليهم. إلا أنه كان من الممكن أن تنتهي هذه «النصيحة المؤقتة» بطريقة عادية طبيعية، بعد لحظة أخرى، وكان الجنرال إيبانشين - الذي دهش جدًّا، والذي استطاع أن يتمالك نفسه قبل أي شخص آخر في الغرفة، قد حاول أن يوقف الأمير بضع مرات، فلما فشل، أخذ الآن يتقدم نحوه ليتخذ معه إجراءً حاسمًا، ولو لزم الأمر - بعد لحظة أخرى، لربما كان قرر أن يقود الأمير إلى خارج الغرفة بطريقة ودية زاعمًا أنه مريض، وهو زعم ربما كان صحيحًا، وربما كان الجنرال أكثر الناس إيمانًا به.. ولكن الأمور سارت في اتجاه مختلف تمامًا....

كان الأمير في بادئ الأمر، وبمجرد أن دخل الغرفة، قد جلس في أبعد مكان ممكن من الزهرية الخزفية الثمينة التي أفرعته أجلايا بسببها كثيرًا. ولكن ما حدث بدا عجيبيًا مستحيلًا، ذلك أنه بعد الذي قالته له أجلايا في الليلة السابقة، استبد به نوع من اليقين الثابت.. نوع من التوجس العجيب الغريب، بأنه لا بد من أن يحطم الزهرية. وهذا في اليوم التالي، وظل هذا الإحساس قائمًا رغم حرصه على الابتعاد عنها ورغم كل محاولاته لتجنب

الكارثة! ولكن هذا ما حدث. ففي أثناء الحفلة، أخذت تستبد به إحساسات أخرى أقوى وأبهج، وقد تحدثنا عنها فعلاً. وهكذا نسى هواجسه. حتى إذا سمع اسم بافليشيف يتردد، ثم عندما مضى به الجنرال إيبانشين وقدمه مرة أخرى إلى إيفان بتروفيتش، غير مقعده وجلس على المقعد الكبير الوثير بجانب الزهرية الخزفية الضخمة الرائعة التي كانت فوق قاعدة تقع وراءه قليلاً وبالقرب من مرفقه.

وفيما هو ينطق بكلماته الأخيرة، نهض من مقعده، ولوح بذراعه في غير وعي، وحرك كتفه على نحو ما، ثم إذا بشهقة عامة من الفزع تسري في الغرفة كلها! لقد تمايلت الزهرية أولاً كأنما تفكر في هل تقع على رأس أحد السادة المتقدمين في السن! ثم إذا هي تحط فجأة على الجانب الآخر في اتجاه الشاعر الألماني القصير الذي وثب بعيداً عن طريقها في فزع، ثم تتحطم على الأرضية. وكان الدويّ، وشهقة الفزع، والشظايا الثمينة المتناثرة على السجادة، والاستياء الشديد، والدهشة البالغة - أوه، إنه من العسير، بل إنه لا حاجة بنا إلى وصف ما شعر به الأمير في تلك اللحظة! ولكن ينبغي أن نذكر ببساطة أن لوناً غريباً من الإحساس قد غمره في تلك اللحظة وخرج به فجأة بعيداً عن زحام بقية الإحساسات الأخرى الرهيبة المعلقة. إن ما صدم نفسه عندئذ أكثر من غيره، لم يكن الشعور بالخجل، ولا بالعار، ولا بالخوف، ولا بمناجاة هذا كله، وإنما الشعور بأن النبوءة قد تمت فعلاً، ولم يستطع أن يفسر لنفسه الشر الذي جعل مثل هذه الفكرة تذهله إلى هذا الحد، وإنما أحس فقط أن الصدمة نفذت إلى القلب فوقف في مكانه متسماً برعب خفي. وبعد لحظة بدا كل شيء يتمدد وينبسط أمامه. وتحول الإحساس بالفزع إلى نور من السعادة والانتشار، ولهث

أنفاسه. ولكن اللحظة مرت بسرعة. حمداً لله! إنها ليست نوبة الصرع!
وتنفس بعمق، وتلفت حوله.

وبدا أنه، لفترة طويلة، لا يدرك معنى لهذه الموجة من النشاط والحركة التي كانت تجري حوله، أو لعله أدركها ورأى كل شيء ثم ظل متسماً في مكانه وكأنه رجل آخر لا شأن له بالأمر، أو كأنه الرجل الخفي - الأسطورة - قد دخل الغرفة وراح ينظر إلى أشخاص لا يعرفهم ولكنه وجدهم مثاراً للتسلية والإمتاع. لقد رآهم يلتقطون القطع الخزفية المحطمة. وسمعهم يتبادلون الحديث فيما بينهم بسرعة. ورأى أجاليا، شاحبة الوجه، تنظر إليه في عجب.. عجب شديد! ولكن لم يكن ثمة كراهية في عينيها، لا ولا أي أثر من الغضب، وإنما كانت ترسل إليه نظرات فيها من الخوف، وفيها أيضاً من أمارات الحب، ما جعل قلبه يخفق فجأة بالضنى العذب لا سيما حين رأى نفس هذه النظرات وهي ترسل كالشرر إلى الآخرين! ولشد ما كانت دهشته حين رأى أخيراً أنهم عادوا جميعاً إلى أماكنهم، وراحوا يضحكون كأنما لم يحدث شيء! وبعد لحظة ازدادت ضحكاتهم ارتفاعاً. إنهم الآن يضحكون منه.. من ذهوله الكامل. ولكن ضحكاتهم كانت تنم عن المودة والمرح. وتحدث إليه كثير منهم.. تحدثوا في مودة ولطف. وكانت المسز إيبانشين أكثرهم تودداً وتلفاً. لقد كانت تتحدث إليه ضاحكة، وتقول له عبارات كلها الرقة والكرم. ثم إذا هو يدرك فجأة أن الجنرال إيبانشين يربت على كتفه بطريقة تنم عن المودة. وكان إيفان بتروفيتش يضحك أيضاً، ولكن الرجل الهرم كان أكثرهم لطفاً وعطفاً. لقد تناول يد الأمير وضغط عليها برفق وربت بيده الأخرى خفيفاً، ورجاه أن يجمع شتات نفسه، وكأنما هو طفل خائف، مما أسعد الأمير إلى حد كبير، وأخيراً جعله

يجلس بجواره، وحملتق الأمير في وجهه بسرور، ولكنه ظل عاجزًا، على نحو ما، عن الحديث وكأنما خذلتة أنفاسه. ولكنه، على كل حال، أحب وجه ذلك الرجل الهرم أشد الحب.

وأخيرًا غمغم قائلاً:

- هل تغفرون لي حقًا؟ وأنت أيضًا يا مسز إيبانشين؟

وتعالت الضحكات، وطفرت الدموع إلى عيني الأمير، ولم يستطع أن يصدق عينيه لما أحس به من نشوة وابتهاج.

وقال إيفان بتروفيتش:

- لقد كانت الزهرية جميلة جدًا طبعًا. ويمكنني أن أتذكر وجودها هنا منذ خمسة عشر عامًا، نعم، خمسة عشر...

وهنا قالت المسز إيبانشين بصوت مرتفع:

- حسنًا! وما قيمة هذا الآن؟ إن الإنسان نفسه لا بد أن ينتهي يومًا، ثم لماذا كل هذه الضجة حول إناء خزفي!

ثم أردفت قائلة وهي توجه الحديث إلى الأمير في شيء من التوجس:

- إنك لست شديد الانزعاج لهذا السبب! أليس كذلك؟ إن ما حدث لا أهمية له إطلاقًا. لقد أفرغتني حقًا يا ولدي العزيز.

فقال الأمير وهو ينهض عن مقعده:

- إذن فقد غفرت لي كل شيء.. كل شيء فضلًا عن الزهرية؟

وأعادته الرجل الهرم إلى مقعده؛ لأنه لم يكن راغبًا في انصرافه، ثم قال لإيفان بتروفيتش عبر المائدة بصوت هامس ولكنه واضح بحيث سمعه

الأمير:

- إنه عجيب جدًا، ولكنه وقور جدًا!

- إذن فأنا لم أغضب أحدًا منكم، إنكم لا تتصورون إلى أي حد أنا سعيد لهذا السبب! ولكن هذا ما ينبغي أن أكون. إذ كيف يمكن أن أغضب أيًا منكم هنا؟ إنني لو فكرت في هذا لأغضبتكم مرة أخرى..

- هدى نفسك يا صديقي العزيز، إنك تبالغ في الأمر مرة أخرى. فليس هناك ما يدعو لأن تشكرنا عليه. إنه شعور طيب جدًا طبعًا، ولكنني أخشى أن أقول إنك تبالغ فيه.

- إنني لا أشكركم، وإنما أعرب عن إعجابي بكم. بل إنني سعيد لمجرد النظر إليكم. ولعل ما أقوله لغو وهراء، ولكن لا بد أن أقوله - لا بد أن أشرح الأمر، حتى ولو بدافع من احترامي لكم.

وكان كل شيء يصدر عنه قاطعًا، مضطربًا، محمومًا. ولعل الكلمات التي كان ينطق بها لم تكن هي الكلمات التي أراد أن يقولها. وكان يلوح في عينيه أنه يلتمس الإذن للحديث، وأخيرًا تركزت نظراته على الأميرة بيلوكوفسكي، فقالت له:

- لا عليك يا سيدي العزيز، استمر في حديثك. استمر، ولكن لا تدع أنفاسك تلهث. لقد بدأت الآن بأنفاس لاهثة، فانظر ماذا فعلت! ولكن لا تخش أن تتحدث، فإن الموجودين هنا رأوا ما هو أغرب منك منظرًا. ومن ثم فإنك لن تدهشهم، وأيًا كانت براعتك، فقد استطعت أن تحطم الزهرية وتفرعنا جميعًا لحظة.

وأنصت الأمير إليها باسمًا، ثم قال فجأة وهو يوجه الحديث إلى الهرم:

- لقد كنت أنت يا سيدي، أليس كذلك؟ كنت أنت الذي أنقذ الطالب بدكوموف والموظف شابرين من النفي إلى سيبيريا.

فاضطرم وجه الهرم ثم غمغم طالبًا من الأمير أن يحاول تهدئة نفسه. ولكن الأمير التفت إلى إيفان بتروفيتش وقال:

- أأست أنت يا سيدي الذي سمعت عنه أنه وزع أخشاب البناء على عماله الزراعيين عندما احترقت قريتهم، وذلك رغم أنهم تحرروا من السخرة وأثاروا لك الكثير من المتاعب!

فقال إيفان بتروفيتش وقد بدا عليه سرور خفي بالغ:

- حسنًا! ولكن في هذا مبا... لغة-!

وكانت المبالغة على كل حال حقيقية هذه المرة؛ لأن الشائعة التي بلغت مسامع الأمير في هذا الشأن كانت كاذبة.

وقال الأمير للأميرة بيلوكوفسكي بابتسامة مشرقة:

- أأست أنت يا سيدتي الأميرة التي استقبلتني في بيتك بموسكو منذ ستة أشهر وكأني ابنك العزيز لمجرد أن قدمت إليك خطاب تزكية من المسز إيبانشين، ثم قدمت إليّ نصيحة لن أنساها وكأني حقًا ابنك العزيز! فهل تذكرين؟

فصاحت الأمير بيلوكوفسكي في استياء:

- إلهي! لماذا كل هذه الجلبة! إنك شاب طيب، ولكنك غريب الأطوار. لو أن أحدًا أعطاك قرشين لأخذت شكره وكأنه أنقذ حياتك. إنك تظن هذا شيئًا لطيفًا، ولكن دعني أقول لك إنه شيء يثير الاشمئزاز.

وكانت على وشك أن تغضب منه غضبًا جادًا، ولكنها انفجرت ضاحكة على حين غرة، وكانت ضحكتها هذه المرة تنم عن الرضى والابتهاج. وأشرق وجه المسز إيبانشين أيضًا، وتألّق الابتسام على وجه الجنرال إيبانشين الذي غمغم في نشوة سعيدة وهو يكرر كلمات الأميرة بيلو كوفسكي التي أدهشته.

- لقد قلت لك إن الأمير رجل - رجل.. على الجملة - لو أنه فقط لا يتحدث بسرعة تقطع النفس كما قالت الأميرة...

وكانت أجلايا فقط هي التي بدت محزونة. إلا أن وجهها كان مضطربًا بالاحمرار، ربما، من فرط الحق والاستياء.

وعاد الرجل الهرم يقول لإيفان بتروفيتش:

- إنه في الحقيقة شاب لطيف جدًّا.

واستطرد الأمير في حديثه وهو يزداد انفعالًا بين لحظة وأخرى، كما كانت سرعته في الكلام تزداد تدريجيًّا مع ازدياد إحساسه بالبهجة والانتعاش:

- لقد حضرت هنا والألم يملأ قلبي - كنت - كنت خائفًا منكم، وكنت أيضًا خائفًا من نفسي - وكان خوفي من نفسي أشد وأقسى. وكنت قد قررت عند عودتي من الخارج إلى موسكو، أن أرى رجال الصدارة في بلادي، الرجال ذوي المراكز العالية، والرجال الذين ينتمون إلى أعرق العائلات التي أنتمي إليها أنا. رجال أكون بينهم في مركز الصدارة بحكم منبتي. ذلك لأنني الآن جالس بين أمراء مثلي، ألسن كذلك؟ وأنا أريد أن أعرفكم؛ لأن هذا أمر ضروري، أمر ضروري جدًّا! وكنت قد سمعت عن سيئاتكم أكثر جدًّا مما سمعت عن طيباتكم. سمعت عن أنانيتكم وتفاهة اهتماماتكم، وعن رجعتكم، ونقص تعليمكم، وغرابة عاداتكم.. أوه، ما أكثر ما قيل وما

كُتِبَ عنكم! وقد جئت اليوم وأنا مفعم بالفضول، وبالخوف، وبالارتباك، وكان عليّ أن أرى بنفسى وأكوّن فكرتي عما إذا كانت هذه الطبقة العليا من المجتمع الروسي تافهة حقًا، وأنها تعيش في غير زمانها، وأنها قد استُهلكت لطول ما عاشت، وأنه لم يعد يلائمها إلا أن تموت.. ولكنها ترفض أن تموت دون أن تبذل مقاومة تافهة مبعثها الغيرة ضد رجال.. رجال المستقبل، فتعطل خطواتهم دون أن تلاحظ أنها في الوقت نفسه تلفظ أنفاسها. وكنت من قبل لا أؤمن بها أبدًا؛ لأنه في الواقع ليس لدينا في روسيا طبقة عليا إطلاقًا، إلا التشريفية، ربما، وذلك عن طريق ملابسهم الرسمية أو المصادفة. وقد اختفت الآن تمامًا. أليس كذلك؟

فقال إيفان بتروفيتش وهو يضحك متهكمًا:

- لا، ليس الأمر كذلك إطلاقًا.

ولم تستطع الأميرة بيلوكوفسكي أن تمنع نفسها من أن تقول:

- ويحي، لقد عاد إلى الهديان!

وقال الهرم يحذرهم مرة أخرى بصوت خافت:

- مهلاً أيها الأعزاء.. إن جسمه كله يرتعد.

وكان الأمير قد بلغ ذروة الانفعال وهو يستطرد قائلاً:

- فماذا أرى الآن؟ أرى أشخاصًا لطافًا، معتدلي المزاج، أذكاء، أرى

رجلاً هرمًا محترمًا ينصت بانتباه إلى صبي مثلي ويسبغ عليه عطفه. أرى

أشخاصًا يعرفون كيف يفهمون غيرهم ويغفرون، مواطنين روسيين، لهم

قلوب طيبة، تكاد تبلغ في طيبتها وحسن مودتها قلوب أولئك الذين عرفتهم

في الخارج. ويمكنكم أن تتصوروا مبلغ دهشتي وابتهاجي عندئذ! أوه،

دعوني أقول لكم هذا! لقد سمعت الشيء الكثير، وأنا نفسي قد آمنت أن كل ما في المجتمع الراقي ليس إلا مظهرًا زائفًا، وليس إلا غلافًا براقًا، ولا شيء حقيقيًا في داخله. ولكن يمكنني أن أرى بنفسي الآن أن هذا لا يمكن أن يكون بيننا. ربما كان هذا الزيف في مكان آخر، ولكنه ليس هنا. ومن المؤكد أنه لا يمكن أن تكونوا جميعًا يسوعيين وأدعياء! لقد كنت الآن فقط أنصت إلى الأمير «ن» ألم يكن حديثه ينطوي على طيبة إحساس، وفكاهة ملهمة؟ أليس هذا دليلًا على الطبيعة الطيبة؟ أيمن أن تصدر مثل هذه الكلمات من رجل - ميت.. من رجل مات قلبه وجفت مواهبه؟ هل يمكن للموتي أن يعاملوني كما عاملتموني؟ أليس في هذا كله مادة للمستقبل.. للأمل؟ أيمن لرجال كهؤلاء أن يعجزوا عن فهم حقائق الحياة، وأن يتخلفوا عن مسيرة الزمن؟

فعاد السياسي الهرم يقول للأمير باسمًا:

- أرجوك، مرة أخرى، أن تهدئ نفسك يا صديقي العزيز. لسوف نتحدث عن هذا في وقت آخر، وسأكون سعيدًا بالحديث عندئذ.

وغمغم إيفان بتروفيتش بكلمة غامضة، واستدار في مقعده، وتململ الجنرال إيبانشين بقلق، وكان رئيسه يتحدث مع زوجة السياسي الهرم دون أن يولي الأمير أي اهتمام. ولكن زوجة السياسي الهرم ظلت تنصت إلى الأمير وتنظر إليه.

وعاد الأمير يقول بحرارة وانفعال متزايد وهو يوجه الحديث إلى السياسي الهرم في لون خاص من الثقة به:

- لا يا سيدي، أرى أنه يحسن أن أتكلم. لقد طلبت مني أجلايا أمس

أن أمتنع عن الكلام، بل قد ذكرت الموضوعات التي لا ينبغي أن أخوض فيها؛ لأنها تعرف كيف أبدو سخيًّا حين أناقشها! وأنا الآن في السابعة والعشرين من عمري، ولكنني أعرف أنني مجرد طفل. وأني ليس لي حق في أن أعرب عن آرائي، لقد قلت دائماً هذا. لقد تحدثت فقط بصراحة مع روججين في موسكو. وقرأنا بوشكين معاً - كل مؤلفاته. وكنت دائماً أخشى أن أقلل من أهمية الرأي أو الفكرة الأساسية بطريقتي السخيفة. إن كل إيماءاتي خطأ. إنها دائماً تدل على نقيض ما أقول، وهذا بدوره يشير الضحك ويحط من الفكرة. إنني محروم من موهبة الموازنة والتنسيق، وهذا هو العيب الأساسي، أجل، هذا هو أهم شيء.. وأنا أعرف أنه من الأفضل لي كثيراً أن أجلس ساكناً ولا أقول شيئاً. وعندما أصر على أن أبقى هادئاً، فإنني أبدو شخصاً معقولاً، وعدا هذا، فإنني أجد الفرصة للتأمل والتفكير. أما الآن، فإنه يحسن أن أتكلم. وقد شجعني على الحديث أنكم جميعاً تنظرون إليّ بمودة ولطف. وأنت يا سيدي تتمتع بوجه لطيف ودود! وكنت قد وعدت الآنسة أجلايا أمس أن ألتزم الصمت والهدوء هذه الليلة.

فابتسم الرجل الهرم قائلاً:

- حقاً.

- ولكن هناك لحظات لا يسعني فيها إلا أن أرى أنني مخطئ فيما أرى..

إن الأمانة أهم كثيراً من الإيماءات السخيفة! ألا ترى هذا؟

- أحياناً.

- إنني أريد أن أشرح كل شيء.. كل شيء!! كل شيء.. أجل، إنكم

تظنون أنني رجل مثالي.. رجل خيالي! أوه، لا، أؤكد لكم أن جميع آرائي

بسيطة جداً. إنكم لا تصدقوني! إنكم تبتسمون! إنني أحياناً حقير لأنني أفقد ثقتي بنفسي. إنني الليلة فقط كنت أقول لنفسي وأنا في طريقي إلى هنا: «كيف بحق السماء سأحدث إليهم؟ كيف أبدأ الحديث بحيث يستطيعون على الأقل أن يفهموا شيئاً؟» أوه، لشد ما كنت خائفاً! ولكنني كنت أكثر خوفاً من أجلكم، جداً، جداً! ومع ذلك كيف يمكن أن أكون خائفاً؟ أليس من العار أن أكون خائفاً؟ ماذا يهم لو كان هناك آلاف الرجال الرجعيين الأشرار أمام رجل تقدمي واحد؟ أترون أن السبب الذي أسعدني الآن هو أنه لا يوجد بينهم آلاف على الإطلاق، وإنما توجد مادة تبشر بالخير! كما أنه ليس هناك قط ما يدعوننا إلى القلق والاضطراب لأننا غريبو الأطوار! أليس كذلك؟ إننا في الحقيقة سخفاء وغريبو الأطوار وتافهون! وإن لنا عاداتنا السيئة، وإننا ملولون بحيث لا نعرف كيف نتأمل أي شيء أو نفهم أي شيء. إننا كلنا هكذا.. كلنا، أنتم وأنا وكل شخص آخر! إنكم غير مستائين لأنني أقول لكم بصراحة أنكم سخفاء، أليس كذلك؟ وإذا صح هذا، أليس في ذلك الدليل على أنكم مادة تبشر بالخير! إنه لشيء لطيف جداً، في رأيي كما تعلمون، أن يكون الإنسان غريب الأطوار حقاً. إن هذا أفضل كثيراً في الواقع؛ لأنه يجعل من السهل علينا جداً أن يغفر بعضنا لبعض وأن يشعر كل منا بالدعة والتواضع. إن الإنسان لا يمكن أن يبدأ حياته بالكمال.. فلنصل إلى الكمال يجب أولاً ألا تكون لنا القدرة على فهم أشياء كثيرة؛ لأننا لو فهمنا الأشياء بأسرع مما ينبغي، فربما عجزنا عن فهمها كما ينبغي. إنني أقول هذا لكم أنتم يا من أمكنكم أن تفهموا أشياء كثيرة فعلاً، ويا من عجزتم عن فهم أشياء كثيرة أيضاً. إنني لم أعد الآن خائفاً من أجلكم. وأنتم لستم غاضبين من صبي مثلي لأنه قال مثل هذه

الأشياء لكم. أليس كذلك؟ طبعًا لا! لسوف يكون في مقدوركم أن تنسوا وأن تغفروا للذين أساءوا إليكم وللذين لم يفعلوا شيئًا للإساءة إليكم؛ ذلك لأنه من الصعب أن تغفروا لأولئك الذين لم يسيئوا إليكم لا شيء إلا لأنهم لم يسيئوا إليكم فعلًا، ولأن شكواكم منهم - من ثم - لا أساس لها. هذا ما كنت أتوقعه من رجال موفوري الذكاء، وهذا ما كنت أتوق لأخبرهم به وأنا في طريقي إلى هنا، ولكنني كنت خائفًا لأنني لم أكن أعرف كيف أفعل... إنك تضحك يا إيفان بتروفتيش؟ إنك تظن أنني كنت خائفًا من أجل الآخرين.. وأنا المتحدث بلسانهم، وأنا نصير الديمقراطية والمبشر بالمساواة.. ثم ضحك الأمير بعصية، وكان يقطع حديثه في كل لحظة بنوبة مفاجئة من الضحك العريض. وأنا خائف من أجلكم، من أجلكم جميعًا، ومن أجلنا جميعًا أيضًا؛ لأنني أمير أنحدر من أسرة عريقة، وأجلس بين أمراء.. إنني أقول هذا لأنظركم جميعًا؛ لأمنع طبقتنا من التلاشي - سدى - في طيات الظلام، ودون أن تحقق شيئًا، وإنما بعد أن تفسد كل شيء، وتفقد كل شيء. لماذا ينبغي أن نخفي ونترك مكاننا لغيرنا، بينما يمكننا أن نبقي في مقدمة الصفوف، وأن نكون قادة للرجال، هلم نبق في المقدمة، ونكن قادة، هلم نكن خدامًا لنصبح قادة.

وحاول الأمير أن ينهض عن مقعده، ولكن الرجل الهرم أعاده مرة أخرى إلى مكانه وإن كان قد أخذ ينظر إليه في قلق متزايد.

واستطرد الأمير حديثه قائلاً:

- اسمعوا، إنني أعرف أنه لا جدوى من الحديث، وأنه من الأفضل أن أضرب المثل.. من الأفضل جدًا أن نبدأ في التنفيذ.. وقد بدأت فعلًا و.. وهل يمكن للإنسان ألا يكون سعيدًا حقًا؟ أوه، ما قيمة أحزاني ومتاعبي إذا

كانت لديّ القدرة على أن أكون سعيدًا؟ أترون! إنني لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لإنسان أن يمر بجوار شجرة ثم لا يسعد بمنظرها! أو أن يتحدث إلى رجل ثم لا يسعد بحبه! أوه، إنني آسف لأنني لا أستطيع أن أعبر عن أفكاري بالكلمات، ولكن.. ولكن، انظروا كم عدد الأشياء الجميلة التي نجدها في كل خطوة، أشياء لا يمكن حتى لأتعمس الناس إلا أن يراها جميلة! انظروا إلى الطفل، انظروا إلى غروب الشمس، انظروا إلى العشب كيف ينمو، انظروا إلى العيون التي ترنو إليكم وتحبكم.

وكان الأمير يتحدث وهو واقف فترة من الوقت، بينما كان الرجل الهرم ينظر إليه في قلق. وهتفت المسز إيبانشين قائلة: «يا إلهي» لأنها كانت قد أدركت حقيقة الوضع قبل غيرها، ومن ثم رفعت ذراعيها في هلع. وأسرعت أجلايا إليه، وبلغته في الوقت المناسب لتمسك به بين ذراعيها، ثم سمعت في فزع وبوجه كله الألم صيحة الشاب البائس «المصروع» ورقد المريض على السجادة، وأسرع أحدهم إلى وضع وسادة تحت رأسه.

ولم يتوقع أحد هذا. وبعد ربع ساعة حاول الأمير «ن» وإيفيني بافلوفيتش والرجل الهرم أن يشيعوا الحيوية في الحفل، ولكنهم لم يلبثوا جميعًا أن انصرفوا بعد نصف ساعة.

وأعربوا جميعًا عن أسفهم، وذكر بعضهم آراءهم عن الأمير. فقال إيفان بتروفيتش فيما قال: «إن الشاب سلافي النزعة أو شيء من هذا القبيل، ولكن لا خطر في هذا» ولم يعرب الرجل الهرم عن رأي خاص. إلا أنهم في الواقع قد أبدوا استياءهم مما حدث فيما بعد، بعد يومين أو ثلاثة، حتى إيفان بتروفيتش شعر بالاستياء، ولكن ليس إلى حد كبير، وظل رئيس الجنرال إيبانشين يعامله ببرود فترة من الوقت. أما السياسي الهرم «راعي الأسرة»

فقد غمغم بشيء على سبيل النصيحة لرب الأسرة، مشيرًا في الوقت نفسه، وبأسلوب لطيف إلى أنه في الواقع شديد الاهتمام بمستقبل أجلايا. وكان في الحقيقة رجلًا شفيقًا. ولكن كان من بين الأسباب التي جعلته يهتم بالأمير أثناء الحفل، علاقة الأمير السابقة بناستاسيا فيليبوفنا. لقد سمع شيئًا عن هذه العلاقة واهتم بها اهتمامًا بالغًا، بل كان ينوي أن يوجه بعض الأسئلة بشأنها. أما الأميرة بيلوكوفسكي، فقد قالت للمسز إيبانشين قبل أن تغادر الحفل:

- حسنًا يا عزيزتي، إنه صالح وسيء، ولكنه أقرب إلى السوء منه إلى الصلاحية. ويمكنك أن تري بنفسك أي نوع من الرجال هو.. رجل مريض. وكان رأي المسز إيبانشين الأخير أن الأمير «لا يصلح أبدًا» كخطيب، ومن ثم عاهدت نفسها في تلك الليلة ألا يكون زوجًا لأجلايا ما دامت هي - أي المسز إيبانشين - باقية على قيد الحياة. ونهضت في صباح اليوم التالي وهي مصممة على التمسك بقرارها. ولكنها لم تلبث أن ناقضت نفسها بطريقة جد عجيبة أثناء وجبة الغداء في الساعة الواحدة ظهرًا.

إن أجلايا في إجابتها على سؤال متحفظ لأختيها، قالت في برود وكبرياء وكأنما أرادت أن تضع حدًا لمثل هذه الأسئلة في المستقبل:

- إنني لم أعد قط بشيء، ولم يحدث قط في حياتي أنني نظرت إليه على أنه خطيبي! إنه بالنسبة لي كأي شخص آخر غريب.

وهنا استشاطت المسز إيبانشين غضبًا وقالت بحدة:

- هذا ما لم أكن أنتظره منك. إنه حقًا لا يمكن أن يصلح زوجًا لك، كما أعلم، وحمدًا لله أن الأمور انتهت إلى هذه النهاية الطيبة، ولكنني لم

أكن أتوقع أن أسمع هذه الكلمات تصدر عنك! كنت أنتظر أن أسمع شيئاً
يختلف عن هذا. لقد كدت أن أطرد كل واحد من الحاضرين أمس ما عداه،
فهذا هو نوع الرجل الذي...

وهنا توقفت عن الحديث فجأة وقد فزعت مما قالت في تلك اللحظة.
ولكن لو أنها فقط علمت كيف ظلمت ابنتها عندئذ! ذلك أن كل شيء كان
قد استقر في ذهن أجلايا، وكانت هي أيضاً تنتظر اللحظة المناسبة لاتخاذ
قرارها النهائي، ومن ثم كانت كل عبارة تعريض أو كل لمحة تأنيب تحز في
قلبها كالسكين.



الفصل الثامن

وكان ذلك الصباح قد بدأ بالنسبة للأمير أيضًا بتوجسات مؤلمة. وكان من الممكن تفسيرها بحالة صحته السيئة. إلا أن تلك الهواجس كانت شائعة لا حدود لها، وكان ذلك ما جعلها أشد إيلامًا له، حقًا لقد كان يواجه حقائق حاسمة مؤلمة مهينة، إلا أن هواجسه تجاوزت كل شيء تذكره أو فكر فيه. ومن ثم أدرك أنه لن يستطيع أن يجعل عقله يستقر على وضع ما. وشيئًا فشيئًا أخذ يؤمن تمامًا بأن شيئًا ما خاصًا، وحاسمًا، سوف يحدث له في ذلك اليوم نفسه، وكانت نوبة صرعه في اليوم السابق خفيفة نوعًا. ففيما عدا إحساسه بالانقباض، وبعض الشعور بالثقل في رأسه، وبعض الآلام في أطرافه، فإنه لم يشعر بأعراض أخرى سيئة. لقد كان ذهنه يفكر بطريقة طبيعية وإن كان قلبه محزونًا، وكان قد نهض من نومه متأخرًا بعض الشيء، ثم تذكر من فوره بوضوح كل ما حدث في الليلة السابقة وكذلك تذكر، وإن لم يكن بنفس الوضوح، أنه حُمل إلى بيته بعد نصف ساعة من النبوة. ثم علم أن آل إيبانثين قد أرسلوا يسألون عن صحته. وفي الحادية عشرة والنصف أرسلوا يسألون مرة أخرى عنها، وقد سره هذا. وكانت فيرا ليبيديف من بين أوائل الذين جاءوا للاطمئنان عليه وللقيام على خدمته.

وفي اللحظة التي رآته فيها، بدأت فجأة في البكاء، ولكن عندما طمأنها الأمير انفجرت ضاحكة. ومن ثم أدرك فجأة قوة تلك العاطفة التي تحملها له الفتاة، فأمسك بيدها وقبلها، واضطرم وجهها احمرارًا وهي تهتف في هلع وتنتزع يدها من يده بسرعة:

- لا، لا تفعل هذا أرجوك.

ولم تلبث أن انصرفت، وقد بدا عليها الارتباك الشديد، إلا أنها كانت قد استطاعت أن تقول له إن أباهما أسرع ذاهبًا مع شروق الشمس إلى «الميت» كما كان يسمى الجنرال إيفولجين، ليعرف هل مات أثناء الليل، وأنها سمعت أن من المنتظر أن يموت عاجلاً جدًا. وفي نحو الثانية عشرة عاد لبيديف بنفسه إلى البيت، ومضى رأسًا لرؤية الأمير «لمجرد لحظة أو اثنتين ليسأل عن صحته الغالية... إلخ» وأيضًا لكي «يشرب كأسًا أو كأسين» ولكنه لم يفعل شيئًا من هذا، وإنما راح يتأوه ويتوجع ويشكو، ومن ثم سمح له الأمير بالانصراف ولكن لبيديف حاول أن يعرف من الأمير شيئًا عن نوبة الصرع التي فاجأته في الليلة السابقة، وذلك رغم أنه كان يبدو عليه بوضوح أنه يعرف كل شيء مفصلاً. وبعد انصرافه أقبل كوليا مسرعًا ليقضي معه لحظة أو لحظتين أيضًا. ولكن كوليا كان فعلاً متعجلاً جدًا، كما كان يبدو عليه القلق والاضطراب. وقد بدأ حديثه بأن راح يسأل الأمير، بصراحة ووضوح، لكي يشرح له كل هذا الذي كانوا يخفونه عنه «بشأن أبيه» مردفًا القول إنه قد عرف بنفسه كل شيء في اليوم السابق، وكانت صدمته شديدة.

وراح الأمير بكل ما له من قدرة على المشاركة الوجدانية يحدث كوليا

بالقصة كلها تمامًا كما حدثت، دون أن يخفي حقيقة واحدة، ومن ثم ذهل الغلام وكأنما ضُرب على أم رأسه. فراح يبكي في صمت دون أن يلفظ بكلمة واحدة، وأحس الأمير أن ما حدث سيكون أحد الانطباعات التي ستخلد في نفسية الغلام وتكون نقطة تحول في هذه المرحلة المراهقة من العمر. ومن ثم أسرع يشرح له وجهة نظره في الموضوع، مضيفاً إلى هذا رأيه في أن قرب وفاة والده العجوز قد يكون راجعاً إلى الفزع الذي أحسه بسبب فعلته، وأنه ليس كل إنسان قادراً على أن يشعر بمثل هذا الوازع النفسي. وكانت عينا الغلام متوهجتين وهو ينصت إلى كل هذا كله. وأخيراً قال:

- إن جانبا وفاريا وبيتسين أشخاص تافهون! وأنا لن أتشاجر معهم، ولكن لن يكون بيني وبينهم في المستقبل شأن ما. أوه، أيها الأمير، لقد عانيت الكثير منذ أمس، وسوف يكون هذا درساً لي! وأنا أرى أن من واجبي الآن أن أعول أُمي أيضاً، هذا وإن كانت مطمئنة في حياتها مع فاريا، إلا أن الأمر يختلف...

ثم وثب واقفاً وقد تذكر أنه على موعد، وسأل الأمير بسرعة عن صحته، فلما أجابه، أردف قائلاً:

- هل أنت واثق أيها الأمير أنه ليس ثمة شيء آخر؟ لقد سمعت أمس - ولكن ليس من حقي طبعاً.. إلا أنه إذا كنت في حاجة إلى خادم وفي للقيام بأي شيء، فإنه مائل أمامك الآن. وإنه ليلوح لي أن كلاً منا غير سعيد. أليس كذلك؟ ولكن.. إنني لا أطلب منك أن تخبرني بأي شيء...

وانصرف الغلام، وبقي الأمير مستغرقاً في أفكاره بعد أن وجد أن كل شخص يتنبأ بحدوث كارثة، وأنه قد انتهى إلى رأي أخير في الأمر، وأن

الجميع أخذوا ينظرون إليه وكأنهم يعرفون شيئاً لا يعرفه هو. لقد حاول ليبيديف أن يظفر منه ببعض المعلومات، ولمح كوليا عن شيء ما تلميحاً واضحاً. وعمدت فيرا إلى البكاء. وأخيراً طرد كل هذه الهواجس في استياء وهو يقول لنفسه: «إن هذا كله نابع من شكوكي اللعينة». ولم يلبث وجهه أن أشرق بالرضى، بعد الساعة الواحدة مباشرة؛ حين رأى آل إيبانشين الذين جاءوا لزيارته «لمدة دقيقة» والواقع أنهم جاءوا ليمكثوا «دقيقة» حقاً. ذلك أن المسز إيبانشين أعلنت - بعد أن فرغت من طعام الغداء - أنهم سوف يخرجون ليمشوا معاً. وكانت هذه الرغبة قد صدرت في لهجة أمرة حاسمة جافة بلا إيضاح أو تفسير. وخرجوا جميعاً - أي الأم والبنات والأمير «س». ولم تلبث المسز إيبانشين أن سارت في طريق آخر يختلف عن الطريق الذي اعتادوا أن يمشوا فيه كل يوم، ومن ثم أدركوا جميعاً ماذا يدور بخلدها ولكنهم التزموا الصمت خوفاً من استفزازها، وأما هي فقد سارت في المقدمة دون أن تلتفت وراءها وكانما تتجنب كل اعتراض أو احتجاج. وأخيراً قالت أدليدا إنهم إذا كانوا قد خرجوا للتمشية، فلا داعي للإسراع هكذا، كما أنه من المستحيل أن يسيروا بنفس سرعة أمهن. وعندئذ استدارت نحوهم وقالت فجأة:

- إننا الآن نسير أمام بيته، وأيّاً كان رأي أجلايا، ومهما قد يحدث في المستقبل، فإنه ليس غريباً عنا، وعدا هذا فهو الآن مريض بئس. ومن ثم فسوف أذهب أنا - على أية حال - وأرى كيف حاله. ويمكنكم إذا شئتم أن تأتوا معي. وإلا فيمكنكم أن تمضوا، فليس هناك من يمنعكم.

ودخلوا جميعاً لزيارة الأمير بطبيعة الحال، وراح هو، كما كان منتظراً، يعتذر مرة أخرى عن تحطيمه للزهريّة، وعن الفضيحة التي أثارها.

فقالت له المسز إيبانشين:

- أوه، لا عليك من هذا، فأنا لست آسفة على الزهرية، وإنما آسفة بسببك، إذن فقد أدركت الآن أنك أثرت فضيحة! وهذا على ما أعتقد معنى «البكاء على ما فات»، ولكن لا أهمية لهذا أيضًا؛ لأنه أصبح في مقدور كل إنسان الآن أن يرى أنه لا جدوى من توجيه اللوم إليك. حسنًا.. وداعًا. وإذا وجدت أنك أحسن حالًا، فقم بجولة قصيرة ثم عد للنوم، فهذه هي نصيحتي. وإذا أحسست بالرغبة في زيارتنا، فافعل كالمعتاد. فأنا أريد منك أن تعرف، للمرة الأولى والأخيرة، أنه مهما حدث، ومهما قد يحدث، فسوف تبقى دائمًا صديقًا لأسرتنا، أو على الأقل صديقًا لي؛ لأنني على أية حال أستطيع أن أضمن لك هذا.

وخضع الجميع لهذا التحدي وأعربوا عن موافقتهم على رغبة الأم. ثم انصرفوا أخيرًا. ولكن كان يكمن وراء هذه الرغبة الحميدة في توجيه شيء طيب مشجع، الشيء الكثير المتسم بالقسوة، والذي لم تكن المسز إيبانشين تدركه في ذلك الحين. وكان في دعوتها له «للحضور لزيارتهم كالمعتاد» وفي قولها «أو على الأقل صديقًا لي» شيء ينم عن الشر الذي قد يتوقع حدوثه في أية لحظة. وحاول الأمير أن يستعيد في ذهنه منظر أجلايا. حقًا لقد وجهت إليه ابتسامة رائعة عند دخولها، وعند انصرافها، ولكنها لم تقل كلمة واحدة حتى عندما أخذ الجميع يؤكدون صداقتهم له، وذلك رغم أنها ركزت نظراتها عليه مرتين. وكان وجهها أكثر شحوبًا من المعتاد، وكأنما كان نومها مضطربًا في تلك الليلة. وقرر الأمير أن يذهب لزيارتهم في ذلك المساء «كالمعتاد» ومن ثم راح ينظر ملهوفًا إلى ساعته. وأقبلت فيرا عليه بعد انصراف آل إيبانشين بثلاث دقائق تمامًا.

قالت له:

- لقد أعطتني الأنسة أجلايا، سرًّا، رسالة لك.

وارتعد الأمير بعنف وهو يقول:

- رسالة!

- نعم، رسالة شفوية. ولم يكن في الوقت متسع حتى لهذه. إنها ترجوك كل الرجاء ألا تغادر بيتك لحظة واحدة حتى الساعة السابعة هذا المساء، أو حتى الساعة التاسعة، فلست أدري أي الوقتين على وجه التحديد..

- ولكن.. ولكن لماذا؟ ما معنى هذا؟

- إنني لا أدري البتة. كل ما قالته هو أنني يجب ألا أنسى تبليغك هذه الرسالة.

- هل قالت لك يجب ألا تنسي؟

- لا، إنها لم تقل هذا بنفس هذه الكلمات؛ لأن الوقت لم يكن ليتسع حتى للرسالة الأصلية. ولكنني، لحسن الحظ، أسرعت إليها بنفسني، واستطعت أن أفهم من تعبيرات وجهها ماذا أرادت أن تقول. لقد نظرت إليّ بطريقة جعلت قلبي يكاد يتوقف عن النبض.

وبدأ أسئلة أخرى قليلة، ازداد الأمير بعدها انفعالا رغم أنه لم يعرف من فيرا أكثر مما قالت. ولما ترك بمفرده، رقد على الأريكة وراح يفكر مرة أخرى قائلاً لنفسه: «لعلهم يتوقعون زيارة أحد لهم حتى التاسعة، ومن ثم فهي تخشى أنني قد ارتكب حماقة أخرى أمام الزائرين» وبدأ ينتظر حلول المساء بفارغ الصبر وهو ينظر إلى ساعته بين لحظة وأخرى. ولكن السر لم

يلبث أن عُرف قبل المساء بمدة طويلة، وعن طريق زائر جديد. ولكن معرفة السر أدت إلى سر آخر جديد مؤلم! فبعد نصف ساعة تمامًا من انصراف آل إيبانشين، أقبل إيبوليت وقد بدا عليه الإرهاق والتعب بحيث تهالك جالسًا في أقرب مقعد إليه وكأنه في حالة إغماء تام. دون أن يلفظ بكلمة تعرضه فورًا لنوبة عنيفة من السعال. وظل يسعل حتى انبثق الدم من فمه. وتألقت عيناه، وسطعت على خديه علامتان حمراوان. وغمغم الأمير قائلاً شيئًا له، ولكن الفتى لم يجب وإنما ظل فترة طويلة وهو يلوح للأمير لكي يتعد عنه. وبعد أن استرد أنفاسه قليلًا، استطاع أن يقول بصوت أجش:

- إنني ذاهب.

فنهض الأمير قائلاً:

- لسوف أصحبك إلى البيت إذا شئت.

ثم توقف فجأة وقد تذكر أن أجلايا طلبت منه عدم مغادرة البيت.

وضحك إيبوليت، ثم قال وهو يلهث بين نوبات قصيرة من السعال:

- إنني لست ذاهبًا عنك، بل على العكس، لقد رأيت من الضروري أن آتي لزيارتك، ولشأن من الشئون أيضًا، وإلا لما أثقلت عليك. إنني ذاهب إليهم، وأنا في هذه المرة ذاهب لأمر مهم. ومن ناحيتي فقد انتهيت، وأنا لم آت هنا التماسًا للعزاء، صدقني.. لقد رقدت في العاشرة من هذا الصباح وأنا أنوي ألا أنهض. ولكنني غيرت رأيي ونهضت لأتي إليك.. لقد كان عليّ أن أفعل هذا، كما ترى.

- إنني آسف إذ أراك مريضًا هكذا! كان يحسن أن تستدعيني إليك، بدلًا من أن تشق على نفسك بالحضور.

- حسناً! إن الأمور كما ينبغي إذن. لقد قلت إنك آسف، وفي هذا ما ينبغي أن يرضي أي إنسان مهذب. أوه، لقد نسيت. كيف حالك أنت؟

- إنني بخير، ولكنني في الليلة الماضية لم أكن.. لم أكن..

- أنا أعرف.. أعرف. لقد تحطمت الزهرية تمامًا! ويؤسفني أنني لم أكن معكم. وقد جئت إليك اليوم لأمر ما. أولاً كان لي شرف رؤية جانبا وأجلالاً في هذا الصباح. لقد تقابلا عند المقعد الأخضر، ولشد ما عجبت لما رأيت على وجه جانبا من أمارات الحماسة والغباء. لقد قلت هذا لأجلالاً بعد انصراف جانبا.. ولكن يبدو لي أنك لست مدهوشاً من أي شيء أيها الأمير..

ثم أردف قائلاً وهو يحملق في شك إلى وجه الأمير الهادئ:

- يقال إن من أمارات الذكاء البالغ ألا يدهش الإنسان من أي شيء. ولكن هذا في رأيي قد يكون من أمارات الغباء المطبق. إنني آسف، فأنا لا أعنيك، ويبدو أنني اليوم غير موفق في التعبير عن نفسي. وأخشى..

- لقد علمت أمس أن المستر إيفولجين.. أعني جانبا..

وتوقف الأمير فجأة عن إتمام الحديث، وراح ينظر بارتباك إلى إيبوليت الذي كان مستاء من عدم دهشة الأمير، والذي قال:

- هل علمت؟ هذه مفاجأة لي! ولكن ربما كان الأفضل ألا تخبرني، لأنك لم تشهد لقاءهما في الموعد اليوم، أليس كذلك؟

- ما دمت كنت أنت هناك، فإنك قد رأيت أنني لم أكن هناك طبعاً.

- أوه، ولكن ربما كنت جالساً وراء بعض الشجيرات. وعلى كل حال،

فإنني سعيد من أجلك طبعًا؛ لأنني بدأت أعتقد أن جانبا هو.. المحبوب.
- إنني أرجوك يا إيبوليت ألا تتحدث معي في هذا الشأن، وبمثل هذه
اللهجة.

- لا سيما وأنت تعرف كل شيء فعلاً!

- إنك مخطئ، إنني لا أكاد أعرف شيئًا، والآنسة أجلايا تعلم عن يقين
أنني لا أعرف شيئًا. بل إنني لا أعلم شيئًا حتى عن هذا اللقاء. أتقول إنه كان
بينهما لقاء؟ حسنًا! لنترك الأمر عند هذا الحد.

- ماذا تعني؟ أنت تعرف وأنت لا تعلم! إنك تقول «حسنًا» و«لنترك
الأمر عند هذا الحد». أوه، لا تكن على هذا النحو من الثقة! لا سيما إذا
كنت لا تعرف شيئًا. إنك واثق لأنك لا تعرف شيئًا. فهل تعلم ماذا ينوي أن
يفعلا هذان الاثنان - الأخ والأخت؟ إنك لا تشك في شيء، أليس كذلك؟
ثم أردف قائلاً بسرعة حين رأى الضيق يبدو على وجه الأمير:

- حسنًا، حسنًا، لنترك هذا الموضوع، ولكنني جئت لأمر خاص من
أموري، وأنا أحب أن أتبادل معك الحديث في شأنه. اللعنة على كل شيء،
ألا يستطيع الإنسان حتى أن يموت دون أن يقدم كل أنواع التفسيرات؟ إن
كثرة الإيضاحات التي يجب أن أقدمها لأمر مفزع. فهل يهملك أن تسمع؟
- استمر في حديثك، إنني منصت.

- أوه، ويحي، أخشى أن أكون قد غيرت رأيي مرة أخرى. لسوف
أبدأ على كل حال بجانبيا. وأنا أعرف أنك لن تصدقني. ولكن لقد كنت
أنا أيضًا على موعد لقاء عند المقعد الأخضر في هذا الصباح. وأنا لا أريد

أن أكذب على كل حال! لقد ألححت في تحديد هذا الموعد، لقد طالبت به واعدًا أن أكشف عن سر ما. ولكنني لا أدري هل ذهبت قبل الموعد المحدد بوقت طويل «ويبدو أن هذا ما حدث» لأن ما حدث هو أنني ما كدت أجلس بجانب أجلايا حتى رأيت جانيا وأخته فاريا يقتربان وذراع أحدهما مشتبك بذراع الآخر، وكأنهما خارجان يتمشيان. وأعتقد أن كلاً منهما دهش عند رؤيتي أكبر الدهشة. لقد كانا بالتأكيد لا يتوقعان رؤيتي، ومن ثم بدا عليهما الارتباك بوضوح. وصدق أو لا تصدق حين أقول لك إن أجلايا نفسها اضطربت أشد الاضطراب واحمر وجهها. ولست أدري هل حدث هذا لها لأنني كنت موجودًا معها أم لمجرد رؤيتها لجانيا؛ ذلك لأنه كما تعلم على جانب كبير من الوسامة. أيًا كان الأمر فقد احمر وجهها بشدة، وأنهت الموضوع في لحظة، وكان موقفها هذا طريفًا جدًا أيضًا، فقد نهضت وردت على تحية جانيا وأخته لها بابتسامة عذبة، ثم إذا هي تقول فجأة في تلعنم لجانيا: «لقد طلبت منك الحضور لأعرب لك عن مدى تقديري لعواطفك الودية المخلصة، ولأؤكد أنني إذا حدثت وكنت في حاجة إلى هذا الإخلاص، فثق..» وهنا انحنت لهما، ثم لم يلبثا أن انصرفا. ولست أدري هل انصرفا وهما في حيرة من الأمر، أم يخامرهما شعور ببهجة النصر، ولكن العزيز جانيا لا بد قد أخذته الحيرة البالغة؛ لأنه لم يستطع أن يفهم شيئًا. ومن ثم احمر وجهه حتى أصبح كالجمبري المسلوق. أما فاريا فأعتقد أنها فهمت المقصود من هذا الحديث، وهو أنه ينبغي أن يكف جانيا عن ملاحقته لأجلايا، ومن ثم جذبته بعيدًا. إنها في رأي أبرع منه وأذكى. وأعتقد أنها مزهوة الآن. وكنت أنا قد أردت بحديثي مع أجلايا أن أنفق معها على موعد لمقابلة ناستاسيا فيليبوفنا..

- ناستاسيا فيليبوفنا؟

- أوهو! أعتقد أنك ستخرج من برودك وتبدأ في إظهار دهشتك. إنني سعيد جدًا إذ أراك قد أخذت تبدو كمخلوق بشري في النهاية. ولهذا السبب سوف أمتعك حين أخبرك أن هذا هو جزاء الذي يحاول أن يخدم السادة الشبان والآنسات المترفات. لقد نلت منها اليوم صفقة على وجهي...

ولم يسع الأمير إلا أن يسأله قائلاً:

- صفقة أدبية أو معنوية؟

- نعم.. ليست صفقة حقيقية. فأنا لا أظن أن هناك من يستطيع أن يرفع يده على شاب مثلي، حتى المرأة، لا تستطيع أن تصفعني الآن. بل إن العزيز جانيا لا يستطيع أيضًا! وذلك رغم أنني ظننت أمس، لمدة لحظة، أنه سوف يشب عليّ. وأنا أراهن على أنني أعرف ماذا يدور بذهنك الآن. إنك تقول لنفسك: «أوافق على أنه لا يصح أن يضرب، ولكن يمكن أن تكتم أنفاسه بوسادة أو بقطعة قماش مبللة في أثناء نومه.. حقًا هذا ما يجب أن يكون» إنه مكتوب بوضوح على وجهك أن هذا هو ما تفكر فيه الآن.

فقال الأمير في تقزز:

- إنني لم أفكر أبدًا في شيء كهذا.

- هذا ما لا أعرفه. لقد حلمت أمس أن شخصًا ما قد كتم أنفاسي بخرقه مبللة. أوه، لعل من الأفضل أن أخبرك من هو. إنه روجوجين. فما رأيك؟ هل من الممكن خنق رجل بخرقه مبللة؟

- إنني لا أدري.

- لقد سمعت أن هذا ممكناً. حسناً. دعنا من هذا الآن. ولكن أخبرني لماذا أنا من هوة نشر الشائعات، أي أفاك. لماذا قالت لي اليوم إنني أفاك. ثم لا تنس، لقد قالت لي هذا بعد أن سمعت كل ما كان لديّ من أقوال. بل لقد جعلتني أكرر أقوالاً معينة. حقاً هكذا النساء! لقد اتصلت من أجلها فقط بزوجين، ويا له من شاب عجيب! ومن أجل مصالحتها فقط أعددت مقابلة بينها وبين ناستاسيا فيليوفنا. ترى أقالت هذا لأنني جرحت مشاعرها بتلميح عن سرورها في الحصول على «فضلات» ناستاسيا. ولكنني أكدت لها أن هذا كله من أجل مصالحتها. وأنا لا أنكر أنني كتبت لها في هذا المعنى خطابين والخطاب الثالث اليوم هذا اللقاء - لقد قلت لها في هذا الصباح إن هذا كله من دواعي الإذلال والمهانة لها. وعدا هذا فإن كلمة «فضلات» لم أقلها أنا، وإنما قالها شخص آخر. أو هذا على الأقل ما يقوله كل شخص في بيت جانيا. وقد أكدت هي لي ذلك بنفسها، فلماذا بحق السماء تتهمني بأني من مروجي الشائعات؟ آه، أرى أنك مستمتع جداً بحديثي كما يبدو عليك الآن، وأراهن أنك تطبق هذه الكلمات البلهاء على حالتي:

- إن غروب شمس حياتي الحزين..

قد يخدعني عن قسيمة الوداع في حبها..

ها، ها، ها..

وانفجر إيبوليت في ضحك عصبي متواصل انتهى بنوبة أخرى من السعال، ثم عاد يقول وهو يشهق بأنفاس لاهثة:

- أرجوك أن تلاحظ حقيقة نفسية جانيا وهو يتحدث عن «البقايا».

ولكن ماذا ينتظر منه أن يفعل غير هذا؟

ومرت لحظة طويلة دون أن يقول الأمير شيئاً. ذلك أنه لم يستطع أن يتحدث لفرط ما شعر به من فزع. وأخيراً قال:

- هل قلت إن ثمة لقاء بين ناستاسيا فيليوفا وأجلايا؟

- ويحي، ألا تعرف حقاً أنه سوف يتم اللقاء بينهما اليوم؟ عجباً، لقد استدعيت ناستاسيا فيليوفا من بطرسبرج خاصة، بوساطة روجوجين، وبدعوة من أجلايا، وبفضل مجهوداتي. وهي مقيمة الآن مع روجوجين في مكان قريب منك.. في بيت داريا ألكسينا، وهي سيدة ليست سمعتها فوق الشبهات، كما أنها صديقة لناستاسيا. وإلى هذا البيت ذي السمعة السيئة سوف تذهب أجلايا اليوم لتبادل حديثاً ودياً مع ناستاسيا في سبيل حل الكثير من المشكلات المختلفة. إنهما تريدان أن تتعلما الحساب، ألا تعرف حقاً؟

- إن هذا لا يمكن تصديقه!

- أوه، حسناً! إنه غير ممكن تصديقه. ومع ذلك كيف عرفت شيئاً عنه؟ يكفي أن تظن ذبابة بالقرب من إنسان حتى يعرف الجميع هنا ما حدث. هذا هو المكان الرائع الذي نعيش فيه الآن. ولكنني قد حذرتك، وربما اعترفت بجميلي في هذا الشأن. حسناً، وداعاً الآن حتى نلتقي، كما أظن، في العالم الآخر، وهناك أمر آخر، فرغم أنني قد أسأت التصرف معك، فإني لا أدري لماذا أتنازل عما هو من حقي! أخبرني أرجوك! أمن أجلك؟ لقد أهديت «اعترافاتي» إليها، «وأنت لا تعرف هذا، أليس كذلك». وآه لو أنك عرفت كيف تلقتها! ها، ها. ولكنني لم أكن وغداً في سلوكي معها. إنني لم أسئ

إليها بأية حال من الأحوال. وإنما هي التي أساءت إليّ وخدعتني. وعلى كل حال فإنني لا أظن أنني أسأت إليك أنت أيضًا. وإذا كنت قد تحدثت هناك عن «الفضلات» وقلت ما هو أكثر من ذلك؛ فإنني سأخبرك الآن عن اليوم، والساعة، والمكان الذي سيلتقيان به. وأنا إذ أكشف لك عن هذا كله فإنما أفعل هذا بدافع من الحقد، وليس بدافع من النخوة. وداعًا.. وأنا آسف إذا كنت ثرثارًا مثل الثأثاء أو مثل المريض بالتدرن الرئوي. لا تنس أن تتخذ كل الإجراءات اللازمة، وفي أسرع وقت ممكن إذا كنت جديرًا بأن تكون رجلًا. لسوف يتم اللقاء في هذا المساء على وجه اليقين!

وسار إيبوليت في طريق الانصراف. ولكن الأمير نادى عليه، فوقف عند الباب. وقال له الأمير وقد تصاعدت الدماء إلى خديه وجهته:

- إذن فالآنسة أجلايا- كما تقول- سوف تذهب بنفسها لرؤية ناستاسيا فيليبونا اليوم.

فقال إيبوليت وهو يستدير قليلًا نحو الأمير:

- لست أدري على وجه اليقين. ولكنني أعتقد هذا. فليس من المعقول أن يكون الأمر بالعكس. فليس من المنتظر أن تذهب ناستاسيا فيليبونا إليها. أليس كذلك! كما أنه ليس من المعقول أن تتقابلًا في بيت جانيا؛ لأن والده هناك يكاد يكون في حالة وفاة. ما رأيك في الجنرال؟

فصاح الأمير قائلاً:

- هذا وحده يجعل الأمر مستحيلًا. إذ كيف يمكنها أن تغادر البيت حتى لو أرادت هذا؟ إنك لا تعرف تقاليد ذلك البيت. إنها لا تستطيع أن تغادر البيت بمفردها لزيارة ناستاسيا فيليبونا. إن هذا كلام فارغ.

- حقًا أيها الأمير إنه لا يوجد إنسان يغادر بيته بالوثوب من النافذة. ولكن إذا اشتعلت النار في البيت، فإن أحسن سيد أو أحسن سيدة لن يتردد في القفز من النافذة. وهذا يعني أن الإنسان قد يضطر، عند الضرورة، إلى القفز من النافذة. وعلى هذا النحو سوف تذهب الآنسة أجلايا لزيارة ناستاسيا فيليوفنا. ثم... ألا تسمحون لهن بالذهاب إلى أي مكان، أعني فتياتك الشابات؟

- لا، ليس هذا ما أعني، ولكن..

- حسنًا، إذا لم يكن هذا ما تعنيه، فإن كل ما عليها أن تفعله، هو أن تخرج من الباب الأمامي، وتمضي في طريقها، ولا حاجة بها لأن تعود مرة أخرى. فإن هناك حالات قد يحرق فيها الإنسان مراكبه حتى لا يعود إلى البيت مرة أخرى. إن الحياة لا تقتصر فقط على وجبات الغداء والعشاء، والأمير «س» وأمثاله. وأكبر يقيني أنك تظن أجلايا مجرد فتاة شابة أو تلميذة في مدرسة. لقد قلت لها هذا ووافقتني عليه، وما عليك إلا أن تنتظر حتى الساعة السابعة أو الثامنة.. ولو كنت في مكانك، لأرسلت شخصًا للمراقبة. لكي يكون في نفس المكان عندما تغادر البيت. ويمكنك أن ترسل كوليا، وأعتقد أنه سيتهج كثيرًا حين يقوم بدور الجاسوس - أعني جاسوسك. ويمكنك أن تتأكد من هذا لأن كل شيء يمكن أن يكون نسبيًا. ها، ها...

وانصرف إيوليت. ورأى الأمير أنه في غير حاجة لأن يطلب من أحد أن يكون جاسوسًا له، حتى لو كان في مقدوره أن يفعل شيئًا كهذا. لقد استطاع الآن أن يعرف لماذا طلبت منه أجلايا أن يبقى في البيت، فلعلها

تريد أن تأتي وتصحبه معها. أو لعلها، حقًا، لا تريد أن يذهب لزيارتها في البيت، ومن ثم طلبت منه أن يبقى، قد يكون الأمر هذا أو ذاك. وأحسن من ثم برأسه يدور وتدور معه الغرفة كلها، فرقد على الأريكة، وأغمض عينيه. وأيًا كان الأمر، فقد رأى أن عليه أن يستقر على رأي نهائي. لا، إن الأمير لا يظن أجلايا مجرد فتاة شابة أو تلميذة في مدرسة. لقد شعر الآن أنه كان يخشى هذا منذ وقت طويل... كان يخشى حدوث شيء من هذا القبيل. ولكن لماذا تريد أن تراها؟ إن الرعدة الباردة تسري في جسم الأمير كله، ثم إذا بالحمى تهاجمه مرة أخرى.

لا، إنه لم يظنها أبدًا مجرد طفلة، بل لشد ما كان فزعه من بعض النظرات التي وجهتها إليه في الآونة الأخيرة، ومن بعض العبارات أيضًا. وكان في بعض الأحيان لا يملك نفسه من الشعور بأنها تريد أن تكبت عواطفها أكثر مما ينبغي، وأنها تشد أعصابها إلى حد كبير خطير، وإنه ليذكر كيف أثار هذا كله الجزع في نفسه. حقًا لقد طرد عنه أفكاره السوداء، ولكن ماذا يكمن في أعماق روحها؟ لقد أزعجه هذا السؤال مدة طويلة وإن كان شديد الثقة في روحها. أما الآن، فلا بد أن تستقر هذه الأوضاع كلها وتخرج إلى النور اليوم. وومضت بذهنه فكرة رهيبة.. «تلك المرأة» مرة أخرى! لماذا يلوح له دائمًا أن «تلك المرأة» تظهر في حياته دائمًا في آخر لحظة لكي تقطعها نصفين وكأنها خيط بال! وأنه دائمًا يخامر هذا الشعور - وهو على استعداد لأن يقسم على صحته - وذلك رغم كونه في حالة نصف إغماء - وإذا كان قد حاول أن ينساها أخيرًا، فإنما كان يفعل هذا لسبب واحد، وهو خوفه منها. حسنًا! هل هو يحب تلك المرأة، أو يكرهها! إنه لم يوجه هذا السؤال إلى نفسه قط قبل اليوم، ذلك أن ضميره كان مطمئنًا تمامًا في هذا

الشأن؛ لأنه يعرف على وجه التحديد من يحب. ومن ثم فهو ليس خائفاً من لقاء الاثنين، أو من غرابته، أو من أسبابه أو من نتائجه أيّاً كانت. وإنما كان خوفه من ناستاسيا فيليوفنا ذاتها. وهو يذكر بعد ذلك، بعد أيام قليلة، أنه كان خلال تلك الساعات المحمومة يرى عينيها، ونظراتها ويسمع كلماتها.. كلماتها العجيبة، وإن لم يحتفظ ببعضها في ذاكرته بعد أن مرت تلك الساعات الأليمة المحمومة. فهو مثلاً لا يكاد يذكر أن فيرا أحضرت له طعام الغداء، وأنه تناوله. وهو لا يتذكر ما إذا كان قد نام بعد الغداء أم لا. إن كل ما عرفه هو أنه أخذ يقدم لنفسه حساباً واضحاً عن كل شيء حدث في تلك الليلة منذ اللحظة التي تقدمت فيها أجلايا فجأة إلى الشرفة، والتي فيها وثب من الأريكة وسار إلى وسط الغرفة ليستقبلها. وكانت الساعة عندئذ السابعة إلا ربعاً. وكانت أجلايا بمفردها، يدل مظهرها على أنها ارتدت بسرعة ملابس بسيطة فوقها رداء خفيف. أما وجهها فكان شاحباً، كما كان في ذلك الصباح، وعيناها متألقتان بضوء براق بارد. ولم يكن قد سبق له أن رأى مثل هذا التعبير في عينيها قط. وبعد أن فحصته بإمعان، قالت بهدوء تام:

- إنك مستعد تماماً.. مرتد ملابسك، والقبعة في يدك، إذن فقد بلغك الأمر- وأنا أعرف الذي أبلغك، إنه- إيبوليت.

فغمغم الأمير قائلاً وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة:

- نعم. لقد أبلغني.

- هلم نمض إذن. فأنت تعرف أن عليك أن تصحبني إلى هناك. وأظن أن حالتك الصحية تسمح بالخروج..

- نعم، نعم، ولكن.. ولكن أهذا ممكن؟

وأمسك عن الحديث فجأة، ولم يعد يستطيع أن ينطق بكلمة أخرى. وكانت تلك هي محاولته الوحيدة لوقف الفتاة المجنونة عند حدها. وبعد ذلك تبعها كالعبد؛ ذلك لأنه كان يدرك تمامًا- رغم اضطراب تفكيره- أنها سوف تذهب إلى «هناك» سواء معه أو بمفردها، وأن عليه من ثم أن يتبعها على كل حال. لقد أحس بقوة تصميمها، ولم يكن هو بالرجل الذي يقاوم مثل هذا التصميم العنيف. وسارا معًا في سكون دون أن يتبادلا حديثًا في الطريق كله. إلا أنه لاحظ فقط أنها تعرف الطريق جيدًا. ولما اقترح أن يقوم بدورة في الطريق تضمن لهما البعد عن الأنظار. أنصتت إليه في صبر نافذ، ثم قالت بلهجة حاسمة:

«الأمر بالنسبة لي سواء».

ولما وصلا إلى بيت داريا ألكسينا، وكان بيتًا كبيرًا من الخشب، رأى الأمير سيدة في ملابس فاخرة ومعها فتاة شابة تهبطان الدرجات الأمامية لمدخل البيت، ثم استقلت الاثنتان مركبة فاخرة كانت في الانتظار عند نهاية الدرجات. وكانتا تضحكان وتحدثان بصوت مرتفع دون أن تحاولا مجرد إلقاء نظرة على الأمير وأجلايا. ودون أن يبدو عليهما أنهما رآياهما حتى انطلقت المركبة. وبمجرد انطلاقتها، فتح الباب مرة أخرى وظهر روجوبين الذي كان في انتظارهما، وبعد أن دخلا أغلق الباب وراءهما ثم قال بصوت مرتفع وهو يرمق الأمير بغرابة:

- ليس في المنزل غيرنا نحن الأربعة:

وكانت ناستاسيا فيليوفا جالسة في انتظارهما بأول غرفة دخلها.

وكانت أيضًا مرتدية ملابس بسيطة جدًا، كلها سوداء. وقد نهضت واقفة بمجرد أن دخلا، ولكنها لم تبتسم بل ولم تحاول أن تمد يدها للأمير.

كانت نظراتها المتعمدة الحائرة مركزة في ضيق وقلق على وجه أجلايا. ثم جلست كل منهما بعيدة عن الأخرى، أجلايا على الأريكة في ركن الغرفة، وناستاسيا عند النافذة، ولم يجلس الأمير وروججين، لا ولا طلب أحد منهما الجلوس. وراح الأمير ينظر إلى روججين في دهشة وألم، ولكن هذا لم يفعل أكثر من أنه راح يبتسم كعادته السابقة. وهكذا استمر الصمت بضعة دقائق.

وأخيرًا طافت بوجه ناستاسيا فيليبونا سحابة تنذر بالشر. وتألقت في عينيها نظرات عنيدة، باردة، تكاد تنم عن الحقد، مركزة بثبات على أجلايا. وكان يبدو على أجلايا بوضوح أنها مرتبكة، ولكن لم يكن يلوح عليها أي أثر للخوف. وكانت عند دخولها الغرفة قد ألقت نظرة سريعة على غريمتها، ولكنها، بعد ذلك، جلست مطرقة النظرات، وكأنها مستغرقة في أفكارها. وقد حدث مرة أو مرتين أن ألقت - وكأنما بطريقة المصادفة - نظرة في جوانب الغرفة. وكانت تبدو على وجهها أمارات الاشمزاز وكأنما تخشى من التلوث في هذا المكان. وعدلت ثوبها بطريقة آلية، بل وغيرت مكانها مرة في ضجر وتحركت إلى نهاية الأريكة. وكان من المحتمل أنها تقوم بهذه الحركات في غير وعي، إلا أن هذه الحركات غير الواعية كانت تنم عن الاحتقار. وأخيرًا نظرت في ثبات إلى عيني ناستاسيا فيليبونا، وسرعان ما قرأت كل المرارة المكبوتة والغضب الدفين في نظرات غريمتها. والمرأة تفهم المرأة. وتنهدت أجلايا..

وأخيرًا قالت أجلايا في صوت خافت وهي تتوقف بين الحين والآخر
في أثناء عباراتها القصيرة:

- أنت تعرفين طبعًا لماذا طلبت رؤيتك؟

فقالت ناستاسيا في صوت جاف قاطع:

- لا، لا أعرف شيئًا.

واضطرم وجه أجلايا، ولعلها أدركت فجأة أن من دواعي العجب
والغربة أن تجد نفسها جالسة هنا مع هذه المرأة، في بيت «تلك المرأة» وأن
تنتظر إجابتها في قلق. وما إن سمعت النبرات الأولى من صوت ناستاسيا
فيلبيوفا حتى سرت في جسدها كله رعدة باردة. وكانت «تلك المرأة» قد
لاحظت هذا كله تمامًا بطبيعة الحال.

وقالت أجلايا بصوت قريب من الهمس وهي تفضي بنظراتها:

- إنك تدركين كل شيء، ولكنك.. ولكنك تتظاهرين - عن قصد -
أنك لا تدركين شيئًا.

فسألتها ناستاسيا وعلى شفيتها ابتسامة خفيفة:

- ولماذا أفعل هذا؟

فقالت أجلايا في شيء من الاضطراب والارتباك:

- إنك تريد أن تستفيدي من الموقف.. أعني.. من وجودي في
بيتك.

فقالت ناستاسيا بغضب مفاجئ:

- أنت المسئولة عن موقفك لا أنا. فأنا لم أدعك للحضور، وإنما أنت

التي طلبت رؤيتي - وما زلت حتى الآن لا أدري لماذا.

فرفعت أجلايا رأسها في كبرياء وقالت:

- أمسكي لسانك أيتها السيدة. إنني لا أستطيع أن أحاربك بمثل سلاحك..

- أوه، لقد جئت إذن «لمحاربتي»! لقد كنت أظنك كما تعلمين أبرع.. من ذلك..

وأخذت كل منهما تنظر إلى الأخرى في حقد واضح. وكانت إحداهما حتى الآونة الأخيرة تكتب إلى الأخرى رسائل كلها مودة. ولكن هذا كله لم يلبث أن تلاشى عند أول لقاء بينهما وعند أولى الكلمات التي تبادلتهما. ولكن لماذا لا يحدث هذا؟ إن كلاً من الأربعة الجالسين في الغرفة في تلك اللحظة، لا يرى كما يبدو عليه، أن في هذا ما يدعو للعجب، وإن الأمير الذي ما كان حتى اليوم السابق ليعتقد أن مثل هذا يمكن أن يحدث حتى في الحلم، قد وقف الآن يرى ويسمع وكأنما كان يتنبأ بهذا كله من قبل. إن أعجب وأعرب حلم قد تحول فجأة إلى حقيقة واضحة ساطعة محددة المعالم. إن إحدى الفتاتين كانت تحتقر الأخرى أشد الاحتقار في تلك اللحظة، وكانت ملهوفة لأن تقول لها هذا فعلاً «ولعلها لم تأت إلا لهذا الغرض» كما قال روجوجين في اليوم التالي. أما الثانية، فمهما كانت عجيبة غريبة الأطوار بعقلها المضطرب ونفسيها المريضة، فإنها ما كانت لتستطيع أن تواجه الاحتقار العنيف القاسي التي تحمله لها غريمتها أيًا كانت أهدافها الأساسية. وكان الأمير واثقًا تمامًا أن ناستاسيا فيليوفنا لن تذكر أجلايا بالخطابات التي كانت تكتبها إليها. وكان يرى من بريق

عينها أنها الآن جد آسفة على كتابتها. وشعر أنه مستعد أن يدفع نصف حياته لكيلا تشير أجلايا إلى هذه الخطابات أيضًا.

ولاح أن أجلايا قد جمعت شتات نفسها، واستردت هدوءها ثم قالت:

- أخشى أن تكوني قد أسأت فهمي. إنني لم آت لأتنازع معك وإن كنت لا أحبك. لقد جئت لأتحدث معك حديث إنسان لإنسان. فعندما طلبت أن أراك كنت قد قررت ما سوف أقوله لك، وأنا لن أهرب الآن من قراري هذا حتى لو لم تفهميني إطلاقًا. فإن هذا سيضيرك ولن يضيرني أنا في شيء. لقد أردت أن أجيب عما كتبت إليّ، وأن أجيب بنفسي، لأن هذه كما يلوح لي هي الطريقة الأنسب والأفضل. وأرجو الآن أن تسمعي إجابتي عن كل خطاباتك: لقد شعرت بالأسى من أجل الأمير ليو نيكولايفيتش ميشكين عندما تعرفت به أول مرة، ثم عندما سمعت بعد ذلك بما حدث في الحفل الذي أقمته أنت. لقد شعرت بالأسى والأسف من أجله لأنه رجل بسيط، وهو ببساطته هذه يعتقد أن في مقدوره أن يكون سعيدًا مع امرأة.. امرأة لها مثل طبيعتك. وقد حدث فعلاً ما كنت أخشاه عليه. إنك لا يمكن أن تبادليه الحب لأنك شديدة الكبرياء - لا.. آسفة، بل لأنك شديدة الغرور، لا، ولا هذا أيضًا؛ لأنك شديدة الأنانية، ولأن حبك لنفسك يبلغ حد الجنون، وخطاباتك تثبت هذه الحقيقة. إنه لا يمكن أن تبادلي الحب رجلاً على مثل هذه البساطة، بل أستطيع القول إنك تحتقرينه في قرارة نفسك وتسخرين منه. إن كل ما يمكنك أن تحبيه هو عارك والفكرة المسيطرة عليك بأنك فضحت وذللت. ولو كان عارك أقل، أو لو أنك لم تفضحي أبدًا، لكنك أقل سعادة مما أنت عليه الآن «كان الإحساس بالبهجة يغمر أجلايا وهي تنطق بهذه الكلمات التي كانت تنساب بفصاحة من شفيتها، والتي أنفقت

وقتًا طويلًا في إعدادها والتفكير فيها - التفكير فيها في وقت لم تحلم فيه بمثل هذا اللقاء - ومن ثم راحت ترقب بعينين شامتتين تأثيرها على وجه ناستاسيا فيليبونا الذي كان يتلوى بالألم المرير «واستطردت أجلايا قائلة: «وأنت تذكرين أنه كتب إليّ خطابًا عندئذ. وقد أخبرني أنك تعرفين أمر هذا الخطاب، وقد قرأته، أليس كذلك؟ ومن هذا الخطاب فهمت كل شيء وفهمته على الوجه السليم. وقد أكد لي منذ ذلك الحين كل هذا بنفسه. أعني أكد لي كل الذي أقوله الآن، كلمة كلمة، وبعد ذلك الخطاب أخذت أنتظر. وأدركت أنك سوف تحضرين حتمًا، لأنك بدون بطرسبرج لا يمكنك الحياة، فأنت ما زلت في ميعة الصبا ورونق الجمال بحيث لا يمكنك الحياة في الأقاليم.

ثم أضافت قائلة وقد اضطرم وجهها احمرارًا، ولم تفارق الحمرة هذا الوجه حتى نهاية الحديث:

- ولكن هذه ليست كلماتي. ولما التقيت بالأمير مرة أخرى أحسست بأشد الألم والأسى من أجله. لا تضحكي؛ لأنك لو ضحكت، فلن تكوني جديرة بأن تفهمي..

فقالت ناستاسيا بصوت حازم حزين:

- في مقدورك أن تري أنني لا أضحك.

- هذا لا يهمني على كل حال. يمكنك أن تضحكي ما شاء لك الضحك. فعندما بدأت أسأله بنفسي، قال لي إنه لم يعد يحبك منذ أمد بعيد، بل إن ذكرى هذا الحب أصبحت تؤلمه، وإنه حزين فقط من أجلك، وإنه كلما فكر فيك أحس كأن شيئًا ما «يخترق قلبه إلى الأبد» وينبغي أيضًا

أن أقول لك إنني لم ألتق قط في حياتي برجل له مثل هذه البساطة الكريمة في التفكير وفي الثقة التي لا حد لها بالناس. لقد أدركت بعد الذي قاله لي إن أي شخص يستطيع - إذا أراد - أن يخدعه، وأنه مهما يكن أمر الذي خدعه، فإن الأمير لا يتردد في أن يغفر له فيما بعد، وهذا ما جعلني أحبه.

وأمسكت أجلايا فجأة عن الحديث وكأنما صدمت بما قالت، أو كأنما لا تستطيع أن تصدق أن في مقدورها النطق بتلك الكلمات. ولكن عينيها في نفس الوقت تقريباً تألقتا بكبرياء لا حد لها، وبدأ أنها لم تعد تهتم في كثير أو قليل بأمر «تلك المرأة» إذ انفجرت ضاحكة عندما انفلت ذلك الاعتراف من لسان أجلايا التي قالت أخيراً:

- لقد أخبرتك بكل شيء، وأعتقد أنك الآن، تفهمين ماذا أريد منك.

فأجابت ناستاسيا قائلة بصوت رقيق:

- ربما أفهم ولكن أخبريني بنفسك.

فارتد وجه أجلايا بالغضب. ولكنها قالت ببطء وحزم:

- أريد أن أعرف منك بأي حق تتدخلين في عواطفه نحوي؟ بأي حق تجرئين على إرسال تلك الخطابات؟ بأي حق لا تكفين عن القول لي وله إنك تحببته بعد أن تركته و.. وبعد أن هربت منه بمثل هذه الطريقة المهينة... الفاضحة!

فقالت ناستاسيا فيليبونا بشيء من الجهد:

- إنني لم أقل له أو لك قط إنني أحبه.

ثم أضافت قائلة فيما يشبه الهمس:

- وأنت.. وأنت على حق تمامًا - فقد هربت منه فعلاً.

فصاحت أجلايا قائلة:

- ماذا تعنين بقولك إنك لم تقولي له أو لي قط! ثم ماذا عن خطاباتك؟ من طلب منك أن تكوني واسطة خير، وأن تغريني بالزواج منه! ألم يكن هذا للتأثير فينا؟ ثم لماذا تقحمين نفسك علينا؟ لقد ظننت في أول الأمر، بالعكس، أنك أردت أن تجعليني أحقره وأشمئز منه بسبب تدخلك في شئوننا، فتكون النتيجة أن أتخلى عنه. ولكنني لم أدرك إلا فيما بعد الهدف الذي تسعين إليه. إنك ببساطة تتخيلين أنك تقومين بتوضيحات ضخمة عن طريق هذه المواقف والتصرفات وإلا فكيف يمكنك أن تحبيه إذا كنت تحبين غرورك إلى هذا الحد؟ لماذا لا ترحلين عن هنا ببساطة بدلاً من كتابة تلك الخطابات السخيفة إليّ؟ لماذا لا تتزوجين الآن هذا الرجل الكريم الذي يحبك كل هذا الحب، والذي شرفك بطلب الزواج منك؟ أوه، إن هذا واضح جداً، أليس كذلك؟ إنك إذا تزوجت روجوجين، فلن يبقى لديك ما تشكين منه، أليس كذلك؟ عجباً! إن زواجك بروجوجين سيكون شرفاً كبيراً لك! وقد قال إيفيني بافلوفيتش إنك قرأت الكثير من الشعر، وإنك «أكثر ثقافة من.. مركز»، وإنك امرأة كثيرة الاطلاع، وإنك لم تؤدي قط في حياتك عملاً لتقيمي أودك. فإذا أضفت إلى هذا غرورك، عرفنا التفسيرات الحقيقية لبواعثك..

- وأنت، هل قمت في حياتك بعمل ما؟

وكانتا قد وصلتا إلى هذا التطور غير المنتظر بسرعة بالغة، وبغلظة أكثر مما ينبغي. وكان على غير انتظار لأن ناستاسيا فيليوفا كانت وهي

في طريقها إلى بافلوفسك لا تزال تحلم بالقيام بعمل ما وإن كانت بطبيعة الحال قد توقعت أن تتطور الأمور إلى الأسوأ لا إلى الأحسن. أما أجلايا- من ناحية أخرى- فقد انسأقت تمامًا مع انفعالاتها وكأنما هي تتهاذى من فوق مرتفع شاهق بحيث لم تعد تستطيع أن تمنع نفسها من الاستمتاع بلذة الانتقام. والواقع أن ناستاسيا تعجبت وهي ترى أجلايا على هذا النحو؛ ومن ثم راحت تنظر إليها وكأنما لا تستطيع أن تصدق عينيها، وهكذا أصبحت في حيرة من أمرها منذ اللحظة الأولى. وسواء كانت امرأة قرأت كثيرًا من الشعر- كما قال إيفيني بافلوفيتش- أو امرأة مجنونة كما يعتقد الأمير، فإنها- رغم سوء تصرفاتها وميلها إلى السخرية في بعض الأحيان- كانت في الواقع أكثر- مما قد يخطر ببال إنسان- خجلًا، ورقة ووداعة وثقة. حقًا كان يبدو عليها أنها امرأة تعيش في عالم الخيال والحب والأوهام، ولكنها كانت أيضًا لا تخلو من الشيء الكثير من القوة والعمق.. وكان الأمير يدرك هذا كله وكانت ترسم على وجهه عندئذ أمارات ألم شديد. ولاحظت أجلايا هذه الأمارات، وارتعد جسمها بالكراهية.

وقالت في كبرياء لا توصف ردًا على ملاحظة ناستاسيا:

- كيف تجرؤين على أن تتحدثي معي هكذا؟

فأجابت ناستاسيا في دهشة:

- لا شك أنك أسأت فهم كلماتي. وإلا فبأية كيفية قد تحدثت معك؟

وفجأة قالت أجلايا بلا مناسبة أو سبب:

- إذا كنت أردت أن تكوني امرأة شريفة فلماذا لم تتركي غاصبك

توتسكي بغير ضجة ومظاهر مسرحية؟

فقالت ناستاسيا فيليوفا وقد فوجئت بهذا السؤال وشحب وجهها
شحوبًا عنيفًا:

- ما الذي تعرفينه عن ظروفى حتى تجرؤى على الحكم عليّ!
- أنا أعرف أنك لم تنفصلي عنه لكي تعولي نفسك بعمل ما، وإنما
ذهبت مع رجل ثري مثل روججين ولتمثلى دور الملاك الساقط. ولا
يدهشنى الآن إذا حاول توتسكى الانتحار لينجو من هذا الملاك الساقط.
فهتفت ناستاسيا قائلة فى اشمئزاز وكأنما جرحت عواطفها جرحًا
عميقًا:

- كفى. إنك فهمت هذه الأمور كما فهمتها خادمة داريا ألكسينا التي
أقامت الدعوى على خطيبها لأنه فسح خطبته معها. ولعلها أكثر فهمًا
منك..

- أعتقد أنها فتاة شريفة تكتسب رزقها بعرق جبينها، فلماذا تتحدثين
بمثل هذا الاحتقار عن خادمة؟

- إننى لا أتحدث باحتقار لنوع العمل، وإنما احتقارًا لك أنت عندما
تتحدثين عن العمل.

- لو أردت أن تكونى امرأة شريفة، لما ترددت فى العمل غاسلة ثياب.
ونهضت الاثنتان، وراحت كل منهما تنظر إلى الأخرى بوجه شاحب.
وصاح الأمير قائلاً فى حزن عميق:

- أجلايا.. كفى! هذا ليس من الإنصاف فى شيء.
ولم يعد روججين يتسم، وإنما راح ينصت بشفتين مزمومتين،

وذراعين معقودتين.

وقالت ناستاسيا وهي ترتعد غضبًا:

- انظروا فقط إليها! انظروا إلى هذه الشابة الكريمة الأصل! لقد ظننتها ذات يوم ملاكًا! أجبّت إليّ بدون مربيّتك يا آنسة أجلايا؟ وهل تريدني مني - هل تريدني مني أن أقول لك بصراحة، وبدون التلاعب بالألفاظ لماذا جئت لزيارتي؟ لقد كنت خائفة - وهذا سر حضورك.

فقالت أجلايا وقد فقدت زمام أعصابها من فرط الدهشة لأن تلك المرأة تجرأت على الحديث إليها على هذا النحو:

- خائفة منك؟

- أجل، مني طبعًا! لو لم تكوني خائفة مني لما قررت الحضور لزيارتي! والإنسان لا يحتقر الشخص الذي يخشاه! ومع ذلك تصوري أنني كنت أحترمك حتى هذه اللحظة! وسوف أخبرك لماذا تخافين مني، وما الذي يشغلك الآن؟ إنك تريدني أن تتأكدي بنفسك هل كان يحبني أكثر منك، لأنك شديدة الغيرة...

واستطاعت أجلايا أن ترغم نفسها على أن تهمس قائلة:

- لقد أخبرني فعلاً أنه يكرهك.

- ربما، ربما أكون غير جديرة به، ولكنني أعتقد أنك تكذبين! إنه لا يستطيع أن يكرهني، ولا يستطيع أن يقول هذا عني! وأنا على استعداد تام لأن أغفر لك رغم أنني - نظرًا لموقفك - ما زلت أحسن الظن بك. لقد ظننتك أكثر ذكاءً بل وأجمل مما أنت - نعم، هكذا كان رأيي حقًا. حسنًا..

خذي كنزك، ها هو ذا.. إنه ينظر إليك، وإنه من فرط الذهول لا يستطيع أن يقول شيئًا. خذيه.. خذيه.. ولكن بشرط واحد. وهو أن تخرجي من هنا حالًا.. في هذه اللحظة.

وتهاكت في مقعد وثير، وانفجرت باكية. ولكن شيئًا ما جديدًا لم يلبث أن توهج في عينيها فجأة، فراحت تنظر في ثبات وإمعان إلى أجلايا، ثم نهضت عن مقعدها قائلة:

- ولكن إذا شئت فيمكنني أن أمره - آ.. مره - فورًا.. هل تسمعين؟ ما عليّ إلا أن أمره فقط، وعندئذ يهجر.. يهجر فورًا، ويبقى معي دائمًا ويتزوجني وتعودين أنت إلى بيتك بمفردك.

وأردفت ناستاسيا قائلة بصوت مرتفع كامرأة مجنونة، وكأنما لم تكن تصدق أن في مقدورها النطق بهذه الكلمات:

- هل تريدان أن أفعل؟ هل تريدان؟

واندفعت أجلايا إلى الباب في فزع، ولكنها توقفت عنده كأنما تسمرت في مكانها وراحت ترهف السمع إلى ناستاسيا وهي تستطرد قائلة:

- ويمكنني إذا شئت أن أطرد روجوجين - فهل أفعل؟ لقد ظننت أنني سأتزوج روجوجين إرضاء لك. أليس كذلك؟ حسنًا لسوف أهتف به الآن أمامك: «اخرج يا روجوجين» وسوف أقول للأمير: «تذكر وعدك لي» يا للسماء! لماذا أذل نفسي أمامهما! ألم تقل أيها الأمير بنفسك إنك لن تهجرني أبدًا، وإنك سوف تتبعني مهما حدث لي، وإنك تحبني، وإنك غفرت لي كل شيء، بل وإنك تحتر - تحتر.. مني. نعم، لقد قلت لك أيضًا: إنني لم أهرب منك إلا لكي أحررك من إساري، ولكنني الآن لا أريد هذا!

فلماذا تعاملني كأنني امرأة منحلة؟ فهل أنا امرأة منحلة؟ اسأل روجوجين -
وسوف يخبرك؟ والآن، وبعد أن أهانتني هكذا وأمامك أيضًا، فهل تتخلى
عني وتمضي معها وذراعك في ذراعها! إذن فلتحل عليك اللعنة؛ لأنك
كنت الإنسان الوحيد الذي آمنت به.

ثم صاحت فجأة وهي لا تكاد تعني ما تقول:

- اخرج من هنا يا روجوجين، فأنت غير مرغوب فيك هنا.

وكانت تنتزع الكلمات من فمها بمشقة، وبوجه ملتوٍ، وبشفيتين جافتين
ودون أن يبدو عليها أنها تصدق كلمة واحدة مما قالت على سبيل الزهو
والتفاخر. ولكنها كانت في نفس الوقت تريد أن تطيل في هذا الموقف -
ولو دقيقة واحدة- حتى تخدع نفسها. وكانت سورتها عيفة بحيث كان
من الممكن أن تقتلها، أو هكذا خطر ببال الأمير على الأقل. وقد صاحت
أخيرًا قائلة لأجلالها وهي تشير إليه:

- ها هو ذا، انظري؟ إنه إذا لم يأت إليّ الآن.. إذا لم يخترني ويتخلى
عنك، فيمكنك عندئذ، أن تأخذه، لسوف أدعك تأخذه؛ لأنني لا أريده
عندئذ.

ووقفت هي وأجلالها في سكون تام وكأنما تنتظران ما سوف يقرره
الأمير، وراحت كلتاها تنظر إليه وكأنما فقدت كل منهما عقلها. ولكن
يبدو أنه لم يدرك قوة وعنف هذا التحدي. بل إنه في الواقع لم يدركه. لقد
رأى أمامه فقط ذلك الوجه المعذب المجنون الذي قال لأجلالها عنه ذات
مرة إن منظره «يخترق قلبي إلى الأبد» ولم يعد يحتمل هذا المنظر أكثر مما
فعل، ومن ثم تحول إلى أجلالها في توسل وعتاب وقال مشيرًا إلى ناستاسيا

فيليوفنا:

- كيف يمكنك؟ إنها... إنها بالغة الشقاء!

وكان هذا ما استطاع أن يقوله عندئذ، ذلك أنه صدم بنظرات أجلايا الرهيبة إليه، نظراتها التي كانت مفعمة في تلك اللحظة بالألم وبالحدق أيضاً، مما جعله يرفع يديه في يأس، ويطلق صيحة قصيرة، ويندفع وراءها. ولكن الفرصة كانت أفلتت؛ لأنها لم تستطع حتى أن تحتمل ترده القصير الأمد، ومن ثم طمرت وجهها بيديها وصاحت «أوه، يا إلهي» ثم اندفعت من الغرفة يتبعها روججين الذي خرج ليفتح لها رتاج الباب الخارجي.

واندفع الأمير أيضاً وراءها، ولكن يدين أمسكتا به عند الباب، وإذا به يرى ناستاسيا فيليوفنا تحمق فيه بوجهها المفعم بالألم والعذاب، وإذا شفتاها - اللتان ازرق لونهما - تتحركان لتسأله:

- أذهب وراءها؟ وراءها؟

ثم سقطت مغشياً عليها بين ذراعيه، فحملها إلى داخل الغرفة، ووضعها على المقعد الوثير، ووقف أمامها لا يدري ماذا يفعل. وكان ثمة قدح من الماء على المائدة فلما عاد روججين إلى الغرفة، اختطفه ونثر الماء على وجهها، ففتحت عينيها، وظلت برهة لا تدري ماذا حدث. إلا أنها تلفتت حولها فجأة، ثم انتفضت واقفة، واندفعت إلى الأمير وهي تصيح:

- إذن فأنت لي.. أنت لي.. إذن فقد رحلت تلك الفتاة المتكبرة، ها،

وراحت تضحك بعصبية:

- ها، ها، ها.. لقد كدت أتخلي عنه من أجل تلك الفتاة؟ لماذا؟ كنت

مجنونة؟ مجنونة؟ اخرج من هنا يا روججين. ها، ها، ها.

وحملق روجوجين إليها برهة، ثم تناول قبعته وغادر الغرفة دون أن يلفظ بكلمة. وبعد عشر دقائق، كان الأمير جالسًا بجانب ناستاسيا فيليبوفنا يرنو إليها بثبات، ويتحسس يدها وكأنما هي طفل صغير. وكان يضحك إذا ضحكت، ولا يتردد في أن يبكي إذا بكت. ولم يلفظ خلال هذه الفترة بكلمة واحدة، وإنما راح ينصت باهتمام إلى حديثها السريع المضطرب المفعم بالبهجة والنشوة وهو لا يكاد يفهم شيئًا، وإنما يبتسم برفق. وكلما أحس أنها توشك مرة أخرى أن تبكي أو تشكو أو تلوم، أسرع يربت عليها ليهدئ من روعها كأنها طفل.



الفصل التاسع

مر أسبوعان على تلك الأحداث التي وصفناها في الفصل السابق، وقد بلغ من تغير ظروف شخصيات قصتنا ما يجعل من العسير جدًا الاستطراد فيها بدون تقديم إيضاحات معينة. ومع ذلك فإننا نشعر أن علينا أن نقتصر على سرد الحقائق المجردة، إذا أمكن، دون إيضاحات خاصة، وذلك لسبب بسيط جدًا وهو أننا- شخصيًا- نجد من العسير جدًا في حالات كثيرة أن نوضح ما حدث. ولا شك أن مثل هذا التقرير من جانبنا يبدو غامضًا وعجيبًا جدًا في نظر القارئ: إذ كيف يمكننا أن نصف شيئًا ليست لدينا عنه فكرة واضحة أو رأي خاص! ولكي نتجنب وضع أنفسنا في مركز أكثر زيفًا، فيحسن أن نحاول شرح ما يدور بذهننا عن طريق ضرب المثل، ولعل القارئ الشفيق يدرك عندئذ طبيعة المشكلة التي تواجهنا لا سيما وأن المثل لن يكون منحرفًا عن سياق القصة، وإنما هو استطراد مباشر لها.

بعد أسبوعين، أو على الأصح، في أوائل شهر يوليو، وخلال هذين الأسبوعين، تحولت قصة بطلنا، لا سيما الحدث الأخير منها، إلى أعجب وأغرب فضيحة علنية أخذت تنتشر تدريجيًا في جميع الشوارع المجاورة لمنازل ليبيديف وبيتسين، وداريا ألكسينا وآل إيبانشين، أو على الجملة

في جميع أنحاء البلدة، بل وفي ضواحيها أيضًا. وكان كل سكانها تقريبًا: أهاليها، والمصيفون فيها، والزائرون اليوميون لها، الذين يحضرون للاستماع إلى الحفلات الموسيقية، قد بدأوا يحدث بعضهم البعض بنفس القصة- وفي آلاف التعبيرات، عن كيف أحب أمير معين امرأة مشهورة سيئة السمعة بعد أن أثار فضيحة في بيت له احترامه ومكانته العالية وبعد أن هجر ابنة أصحاب هذا البيت، وهي الابنة التي كان قد خطبها فعلاً. وإن هذا الأمير قد قطع علاقاته بكل أصدقائه القدامى، ولم يعد يحفل بأي شيء، ولا بأية تهديدات، ولا بأي استنكار للرأي العام، كل هذا لكي يتزوج تلك المرأة ذات السمعة السيئة خلال الأيام القليلة التالية بمدينة بافلوفسك، عياناً بياناً، وبرأس مرفوع، وبنظرات يتحدى بها الجميع. وقد بلغ من كثرة تزويق القصة بالتفاصيل الفاضحة بحيث شملت الكثير من الشخصيات المهمة المعروفة. كما أضيف إليها الشيء الكثير من الحواشي والتهاويل، هذا بينما كانت، من ناحية أخرى تقوم على أسس حقيقية ثابتة بحيث يمكن التماس العذر لجميع الخائفين في الحديث عنها بوجه عام. وكان أهم التفسيرات الخفية البارعة الخاصة بهذه القصة قد تركت ليقوم بها عدد صغير من الأفاكين المتخصصين في هذا النوع من الإفك، والذين ينتمون إلى طبقة من الناس الذين يبدون عقلاء جادين، والذين تجددهم في كل طبقة من طبقات المجتمع يسرعون إلى تفسير كل حدث لأصدقائهم وجيرانهم، ويعتبرون هذا من شئونهم الخاصة، بل وفي أحيان كثيرة من دواعي العزاء في الحياة. وطبقاً لتفسيراتهم، عرف أن شاباً من أسرة عريقة، أمير، يكاد يكون من ذوي الثراء، وُلِد أبله، ولكنه في قرارة نفسه ديمقراطي النزعة وقد فُتن بالمذهب العدمي الحديث- الذي اكتشف أمره المستر ثورجنيف- والذي، أي الأمير،

لا يكاد يستطيع أن ينطق كلمة روسية واحدة، قد أحب ابنة الجنرال إيبانشين، وبلغ به الأمر أن قبلته الأسرة خطيباً لابنتها، ولكنه فعل مثل طالب اللاهوت الفرنسي الذي عرف أمره في قصة نُشرت حديثاً. فطالب اللاهوت الفرنسي بعد أن سمح لنفسه أن يصبح قساً، وبعد أن مر بجميع المراسم والإجراءات والطقوس والتعهدات، إذا به في اليوم التالي يرسل إلى الأسقف خطاباً مفتوحاً، على صفحات الصحف، يقول فيه إنه يعتبر - بسبب عدم إيمانه بعمله - أن ليس من الأمانة في شيء أن يخدع الناس، وأن يرتزق منهم نظير لاشيء، ولهذا فهو يستقيل من هذا العمل ويرسل هذا الخطاب للنشر في صحف الأحرار - نقول إن الأمير - مثلما هذا الملحد - قد قام بخدعة ما من هذا النوع. وقد قيل إنه انتظر عمداً إقامة الأسرة لحفل الخطوبة الكبرى في بيت آل الخطيبة، وهو الحفل الذي حضره عدد كبير من العظماء، لكي يعلن عن آرائه أمام الجميع بصوت مرتفع، وينهال بالسباب على الكبراء والعظماء ثم يقرر فسخ الخطوبة علناً وبأسوأ طريقة ممكنة، وفي أثناء مقاومته للخدم الذين كانوا يحملونه مطروداً إلى الخارج، حطم زهرية خزفية من النوع الفاخر، وقد أضيف إلى هذا أيضاً، كتصوير للأخلاق العصرية الحديثة، أن ذلك الشاب المفتون كان يحب خطيبته حقاً، ابنة الجنرال، وأنه لم يفسخ خطبته لها إلا لأسباب «هدامة» ولإثارة فضيحة علنية، وذلك لكي يتزوج من امرأة ساقطة أمام العالم كله.

وإذا طلب منا الآن أن نقدم أيضاً - لا على أساس المبادئ الهدامة وعلاقتها بهذا الموضوع، أوه، لا، وإنما لنبين إلى أي مدى سوف يُرضي الزواج المتوقع رغبات الأمير الحقيقية، ثم ما هي تلك الرغبات في ذلك الحين، وكيف يمكن تحديد عقلية بطلنا في هذه الآونة، وما إلى هذا كله..

فإنه ينبغي الاعتراف أنه من العسير علينا توضيح هذا كله. إن كل ما نعرفه هو أن الإجراءات قد اتُّخذت فعلاً لإتمام ذلك الزواج، وأن الأمير نفسه قد عهد إلى ليبيديف وكيلر وصديق آخر لليبيديف كان قد قُدم للأمير به، للقيام بجميع الترتيبات اللازمة، سواء من الناحية الدينية أو المدنية، وأنه طلب منهم ألا يخلوا بالإنفاق على هذه الترتيبات، وأن ناستاسيا فيليوفنا أصرت على أن يتم الزواج في أسرع وقت ممكن، وأن كيلر - بناء عن رغبته الملحة - سيكون الشاهد الأول للأمير، وأن بوردوفسكي - الذي قبل المهمة بحماسة - سيكون الشاهد الأول للعروس، وأن موعد الزواج تحدد في اليوم الأول من شهر يوليو. ولكن هناك حقائق أخرى - بجانب هذه الظروف المهمة كلها - معروفة لنا، ولكننا في حيرة تامة من ناحية تفسيرها أو تعليلها؛ لأنها متناقضة تمامًا مع كل هذا الذي ذكرناه آنفًا، لقد خامرنا الشك العنيف بأن الأمير.. وقد عهد إلى ليبيديف والآخرين باتخاذ الترتيبات اللازمة قد نسى أو كاد اليوم المحدد للزواج بكل مراسيمه وطقوسه وشهوده، وأنه إذا كان تعجل في أن يضع كل هذه الترتيبات في أيدي الآخرين، فإنما فعل هذا فقط لأنه لا يريد أن يفكر في هذا الأمر بنفسه، بل لأنه - في الحقيقة - مشوق لأن ينسى كل شيء عنه، إذن فيم كان يفكر في هذه الحالة؟ ماذا كان يريد أن يتذكر؟ وما هذا الذي يسعى إليه؟ إنه لم يكن هناك أي ظل للشك في أن ثمة إلزامًا يقع على أحد الطرفين في هذا الشأن «أو من جانب ناستاسيا فيليوفنا على الأقل» وأن ناستاسيا تريد فعلاً أن يتم الزواج في أسرع وقت، وأنها هي - لا الأمير - التي فكرت في هذا الزواج. ولكن الأمير في الوقت نفسه وافق عليه بمطلق حريته، وإن كان شارد الذهن عندئذ، وكأنما طلب إليه أمر من أبسط أمور الحياة. إن لدينا الكثير من مثل هذه الحقائق العجيبة، ولكنها

لا توضح شيئاً قط، وإنما هي - في رأينا - تزيد أية تفسيرات للأمر صعوبة وغموضاً، مهما قدمنا منها. ولكن هلم نقدم مثلاً آخر.

إننا، مثلاً، نعرف عن يقين أن الأمير خلال هذين الأسبوعين أمضى أمسيات وأياماً كاملة مع ناستاسيا فيليبوفنا، وأنها كانت تصحبه في نزهااتها وفي الإنصات إلى الفرقة الموسيقية بالحديقة العامة، وأنه كان يرافقها في نزهااتها بالمركة كل يوم، وأنه بدأ يشعر بالقلق عليها إذا مرت ساعة دون أن يراها. وكان هذا يعني بطبيعة الحال وفي نظر الجميع أنه صادق الحب لها، وأنه كان يقضي ساعات عديدة ينصت إلى كل ما يمكن أن تقول وهو لا يكاد ينطق بكلمة واحدة، وإنما يكتفي بالإنصات في سكون وابتسام رقيق إلا أننا نعرف أيضاً أنه في تلك الأيام قام فجأة، وفي مرات عديدة في الواقع، بزيارة آل إيبانشين دون أن يخفي ذلك عن ناستاسيا فيليبوفنا التي كانت - كلما علمت هذا - أوشكت على اليأس. ونحن نعرف أيضاً أن آل إيبانشين كانوا - في أثناء إقامتهم في بافلوفسك - يأبون أن يستقبلوه، ويرفضون السماح له برؤية أجليا، وأنه كان ينصرف دون أن ينطق بكلمة، ثم يعيد الكرة في اليوم التالي، وكأنما قد نسى تماماً أنهم رفضوا استقباله في اليوم السابق، وكانوا بطبيعة الحال يكررون الرفض في اليوم التالي أيضاً. وكذلك نعرف أنه بعد انقضاء ساعة على انصراف أجليا من بيت ناستاسيا فيليبوفنا، وربما أقل من ساعة، كان الأمير قد زار آل إيبانشين وهو مطمئن بطبيعة الحال إلى أنه سيجد أجليا هناك، وأن زيارته لآل إيبانشين قد أثارت موجة ضخمة من الاستياء والارتباك في محيط الأسرة؛ لأن أجليا لم تكن قد عادت بعد، ولأنهم علموا منه هو أنها كانت قد ذهبت معه إلى بيت ناستاسيا فيليبوفنا. وقد قيل إن المسز إيبانشين وابتيتها والأمير «س» قد عاملوا الأمير بحفاء

وروح عدائية، وأنهم عندئذ قالوا له بكل صراحة ووضوح أنهم لم يعودوا يرغبون في صداقته أو معرفته، ولا سيما عندما حضرت فاريا فجأة وقالت للمسز إيبانشين إن أجلايا مقيمة عندها منذ أكثر من ساعة، وإنها في حالة نفسية عنيفة، ويبدو أنها تشمئز من العودة إلى البيت. وكان هذا النبأ الأخير صدمة للمسز إيبانشين بصفة خاصة. وكان النبأ حقيقة أكيدة! ذلك أن أجلايا بعد انصرافها من بيت ناستاسيا فيليوفنا كانت تفضل أن تموت على مواجهة أهلها، وأنها من ثم ذهبت رأسًا إلى منزل المسز إيفولجين. وقد رأت فاريا- من جانبها- أن واجبها يحتم عليها فورًا أن تخبر المسز إيبانشين في الحال. وسرعان ما اندفعت الأم والابنتان إلى بيت المسز إيفولجين، يتبعهن الوالد الذي كان قد وصل من توه إلى البيت. وبرغم ثورة الوالد وكلماته العنيفة التي وجهها إلى الأمير، فإن هذا راح يجبر نفسه وراءهم، ولكنه لم يستطع أن يرى أجلايا بناء على أوامر فاريا الحازمة. وكانت خاتمة هذا كله أن أجلايا رأت أمها وأختيها يبكين من أجلها دون أن يوجهن إليها كلمة عتاب واحدة، ومن ثم ألفت بنفسها بين أحضانهن وعادت معهن إلى البيت فورًا. وقد قيل- وإن كانت هذه الشائعة لم تثبت على وجه اليقين- إن جانيا كان أيضًا سيئ الحظ جدًا في هذه المناسبة. ذلك أنه حين وجد نفسه منفردًا بأجلايا- في أثناء ذهاب أخته فاريا إلى آل إيبانشين- ظن أن تلك هي اللحظة المناسبة التي يعلن فيها عن حبه، فكانت النتيجة أن أجلايا- بعد أن أنصتت إليه وهي أشد ما تكون ألمًا وحزنًا- انفجرت ضاحكة على حين غرة، ثم وجهت إليه فجأة سؤالًا عجيبيًا، وهو: هل يمكنه لكي يثبت لها قوة حبه، أن يحرق أصابعه على لهيب شمعة؟ وقد قيل إن جانيا فوجئ بهذا الاقتراح، ولم يعرف ماذا يقول، وبدأ عليه من الارتباك والاضطراب ما جعل أجلايا تنفجر ضاحكة منه

وكانما فقدت زمام أعصابها، ثم انفلتت صاعدة إلى المسز إيفولجين حيث وجدها أبواها. هذه القصة بلغت مسامع الأمير عن طريق إيبوليت في اليوم التالي. ذلك أن إيبوليت الذي أصبح الآن طريح الفراش، قد أرسل يستدعي الأمير لكي يخبره بهذه القصة. أما كيف وصل ما حدث إلى إيبوليت فهذا ما ليس نعرفه. ولكن عندما سمع الأمير موضوع الأصابع والشمعة، انفجر في ضحك متصل جعل إيبوليت يدهش. ثم إذا به - أي الأمير - يرتعد وينخرط في البكاء. وكان خلال هذه الفترة في حالة بالغة من القلق والغموض الشديد مع الارتباك المؤلم، وقد صرح إيبوليت بجرأة أنه فقد عقله. ولكن كان من المستحيل تمامًا أن يتأكد الإنسان من هذه الحقيقة في ذلك الحين.

إننا في تقديمنا لهذه الحقائق مع رفضنا لشرحها أو تفسيرها، لا نريد أبدًا أن نبرر تصرفات بطلنا في نظر القراء. وعدا هذا فإننا على استعداد تام لكي نشارك في الإحساس بموجة الاستنكار التي أثارها بين أصدقائه. بل إن فيرا الليديف قد استنكرت سلوكه فترة من الوقت. وحتى كوليا كان مستنكرًا لتصرفاته، وكذلك كيللر حتى اللحظة التي اختير فيها ليكون الإشيين. ودعك من ليبيديف الذي بلغ من فرط استنكاره لموقف الأمير أنه بدأ يتآمر ضده، وكان شعوره بهذا الاستنكار حقيقياً أصيلاً، ولنرجى الكلام في هذا الموضوع إلى ما بعد، إلا أننا نقول بوجه عام إننا وافقنا فيما بعد كل الموافقة على بعض الملاحظات النفسية الحكيمة التي أبدأها بصراحة وبلا مجاملة إيفيني بافلوفيتش للأمير في اليوم السادس أو السابع بعد الذي حدث في بيت ناستاسيا فيليبوفنا، وينبغي أن نذكر بهذه المناسبة، أن آل إيبانشين لم يكونوا هم فقط الذين قطعوا كل علاقة لهم بالأمير، وإنما هذا حذوهم كل شخص له بهم علاقة مباشرة أو غير مباشرة. فمثلاً كان الأمير «س» يشيح بوجهه إذا

التقى بالأمير دون أن يرد عليه تحيته. ولكن إيفيني بافلوفيتش لم يخش على نفسه من الذهاب لزيارة الأمير، رغم أنه استأنف زيارته لآل إيبانشين كل يوم، ورغم أنهم كانوا يستقبلونه بترحيب واضح متزايد يوماً بعد يوم. لقد ذهب لزيارة الأمير في اليوم التالي من رحيل آل إيبانشين عن بافلوفسك. وكان عند زيارته يعرف كل ما يقال ويشاع، بل لقد عاون هو أيضاً في نشر الأقاويل والشائعات بنفسه. وابتهج الأمير برؤيته وبدأ فوراً يتحدث عن آل إيبانشين. وكانت هذه البداية الصريحة الواضحة للحديث قد سهلت الأمر على إيفيني بافلوفيتش، ومن ثم راح، دون أية مقدمات، يتحدث في صميم الموضوع.

ولما لم يكن الأمير قد عرف برحيل آل إيبانشين، فقد فوجئ بهذا الخبر وشحب وجهه، إلا أنه بعد لحظة هز رأسه، وبدت عليه أمارات الحيرة والارتباك، ثم اعترف بأن «هذا كان لا بد أن يحدث» ثم راح بسرعة يسأل عن المكان الذي رحلوا إليه.

وكان إيفيني بافلوفيتش خلال هذا يرقبه بإمعان. وكان هذا كله، ونعني به أسئلته السريعة، وبساطتها، وأمارات ارتبাকে، وفي نفس الوقت، هذا اللون العجيب من الصراحة، وقلقه، وانفعالاته.. كل هذا أدهش إيفيني إلى حد كبير. ومع ذلك فقد قدم للأمير - بكل رقة وتهذيب - المعلومات التي أرادها بالتفصيل الكامل، ذلك لأنه كانت هناك أشياء كثيرة لم يكن الأمير يعرفها، وكان إيفيني أول شخص يأتي إليه بالأخبار عن آل إيبانشين. لقد أكد له أن أجلايا كانت مريضة جداً، وأن حرارتها كانت مرتفعة، وأنها ظلت ثلاث ليال بلا نوم، ولكنها تحسنت الآن وتجاوزت مرحلة الخطر، إلا أن حالتها العصبية لم تزل على غير ما ينبغي. وقد قال إيفيني: «إنه لأمر حميد أن الهدوء

يسود البيت الآن، وأنهم يحاولون ألا يشيروا إلى الماضي، حتى فيما بينهم وبين أنفسهم، وليس فقط أمام أجلايا. وقد وافق الوالدان فعلاً على سفر الأسرة إلى الخارج في الخريف، بعد زواج أدليدا مباشرة، وقد تلقت أجلايا أنباء هذه الرحلة المقبلة في سكون تام» ويبدو أن إيفيني سوف يسافر إلى الخارج أيضاً. وحتى الأمير «س»، ربما يتبعهم مع أدليدا بعد شهرين «إذا سمحت له ظروف العمل». أما الجنرال إيبانشين فسوف يبقى. وقد ذهبت الأسرة الآن إلى ضيعتها كولمينو التي تبعد خمسة عشر ميلاً من بطرسبرج، حيث يوجد بها منزل ريفي كبير. أما الأميرة بيلوكوفسكي، فإنها لم تكن قد رحلت إلى موسكو بعد، ويلوح أنها في الواقع تخلفت في بافلوفسك عن قصد. وكانت المسز إيبانشين قد أصرت بقوة على أنهم لن يستطيعوا البقاء في بافلوفسك بعد الذي حدث، وقد حرص هو - إيفيني بافلوفيتش - على إرسال الخطابات اليومية إلى الأسرة ليخبرها بما يقال ويدور في البلدة. ويلوح أن الأسرة لم تستطع بعد أن ترحل إلى بيتها الريفي الآخر في جزيرة إيلاجين.

وأضاف إيفيني بافلوفيتش إلى هذا كله، قوله:

- ونحن إذا فكرنا في الأمر، نجد أنه من الواجب أن نعترف بأنهم لم يكونوا قادرين على مواجهة ما حدث أكثر مما فعلوا، لا سيما وهم يعرفون كل ما يجري في بيتك هنا، أيها الأمير، وبعد زيارتك اليومية لهم رغم رفضهم لاستقبالك...

فأوماً الأمير برأسه قائلاً:

- نعم، نعم، نعم. إنك على حق تماماً. ولكنني كنت أريد أن أرى أجلايا...

وهنا صاح إيفيني بافلوفيتش في حماسة وأسف معاً:

- ولكن، يا الله أيها الأمير العزيز! كيف أمكنك - أعني.. كيف سمحت بحدوث هذا؟ أوه، طبعاً، طبعاً، لا بد أن ما حدث لم يكن متوقعاً، ويبدو بوضوح أنك ارتبكت تماماً.. و.. عدا هذا لم يكن في مقدورك أن توقف الفتاة المجنونة.. فما كان هذا في استطاعتك! ولكن كان ينبغي يا صديقي العزيز أن تعرف إلى أي حد كبير خطير كانت تلك الفتاة تحبك. إنها لم ترغب في أن تشاركها امرأة أخرى فيك، فكيف أمكنك.. كيف أمكنك أن تلقي.. أن تحطم كنزاً كهذا؟

فعاد الأمير يقول في حزن رهيب:

- نعم، نعم، إنك على حق. نعم، إنني المسئول عن هذا. وكانت هي فقط، كما تعلم، أجلايا فقط، التي تنظر إلى ناستاسيا فيليوفا على هذا النحو. ولم يكن هناك أحد آخر ينظر إليها هكذا.

فصاح إيفيني بافلوفيتش وقد كاد ينساق مع تيار عواطفه:

- ولكن، ألا ترى؟ ألا ترى أن هذا ما جعل الأمر كله فظيماً؟ إنني آسف يا عزيزي الأمير، ولكنني كنت أفكر فيما حدث وقد فكرت في كل شيء بعناية أيها الأمير. وأنا أعرف كل ما حدث من قبل. أعرف كل ما حدث في الأشهر الستة الأخيرة. ورأيي أن هذا كله ليس إلا فكرة في رأسك مجرد خيال، أضغاث أحلام، أو هام. وأنه ما كان ليتمكن أن ينظر إلى هذا كله على أنه شيء خطير إلا فتاة بريئة تماماً أخرجتها الغيرة عن جادة الصواب.

وعندئذ أخذ إيفيني بافلوفيتش - دون أي اعتبار لمشاعر الأمير - يعرب بعنف شديد عن استنكاره. فراح بوضوح واتزان، وبصيرة نافذة إلى أعماق

النفس البشرية، كما سبق أن ذكرنا، يكشف للأمير عن القصة الكاملة لحقيقة علاقته- أي علاقة الأمير- بناستاسيا فيليبوفنا. وكان إيفيني بطبيعته متحدثًا لبقًا ولكنه بلغ في هذه المناسبة حد البلاغة.

قال:

إن كلاً منكما بدأ الأمر من أوله بأكذوبة لا بد أن ينتهي بمثلها، وذلك هو قانون الطبيعة. وأنا لا أوافق- بل في الواقع- أحس بأشد الاستنكار عندما يقول لك شخص ما، أيًا كان مركزه، إنك أبله. إنك أذكى جدًا من أن يقال لك هذا. ولكن يجب أيضًا أن تعترف أنك غريب الأطوار بحيث لا تبدو كغيرك من الناس. وقد انتهى بي الرأي أخيرًا إلى أن السبب الأساسي لكل ما حدث يرجع في الحقيقة إلى سذاجتك الفطرية «لاحظ هذه الكلمة أيها الأمير: الفطرية» وإلى بساطتك المتناهية وعدا هذا إلى ظاهرة حرمانك من الإحساس بالتناسق «وهذا ما اعترفت به بنفسك مرات عديدة»، ثم إلى هذه الكمية الهائلة من المعتقدات الذهنية التي اعتبرتها- بسبب إخلاصك وبساطتك- أنها معتقدات طبيعية حقيقية صادقة. ويجب أن تعترف أيها الأمير في أن هناك في بدء علاقتك بناستاسيا فيليبوفنا شيئًا من المعتقدات الديمقراطية أو إذا شئنا الدقة في التعبير شيئًا من الافتتان «بقضية المرأة»، إذا شئنا المزيد من الإيجاز. وأنا- كما ترى- أعرف كل تفاصيل ذلك الموقف الفاضح الذي حدث في بيت ناستاسيا فيليبوفنا عندما ذهب إليها روجو جين بالمال. وأستطيع إذا شئت أن أحلل نفسيك تمامًا، أستطيع أن أجعلك ترى نفسك كما لو كنت تنظر في مرآة. فأنا أعرف تمامًا كيف حدث هذا كله، ولماذا تطورت الأمور على هذا النحو! فأنت- كشاب- كنت شديد الشوق إلى وطنك في أثناء إقامتك في سويسرا. كنت ملهوفًا إلى العودة لروسيا

لهفة الإنسان إلى بلد لا يعرفه - إلى أرض الميعاد. وكنت قد قرأت عن روسيا كتبًا كثيرة وربما كانت كتبًا ممتازة، ولكنها أضرت بك. وقد جئت إلى وطنك وأنت مشوق إلى الحركة والعمل، وهذا ما حدث، إذ ألقيت بنفسك في خضم الأحداث منذ اليوم الأول. ثم حدث في نفس هذا اليوم الأول لوصولك أن سمعت هذه القصة المؤلمة التي تمزق القلب عن سيدة أسوء إليها، سمعتها أنت ذو القلب البكر والروح المفعمة بالشهامة، عن امرأة! وقد رأيت هذه المرأة في نفس ذلك اليوم الأول. وافتنت بجمالها.. جمالها المذهل الأسر «وها أنت ترى أنني أعترف بجمالها»، ثم أضفت إلى هذا حالتك العصبية، ونوبات الصرع التي تعانيها، وجليد بطرسبرج الذي يحطم الأعصاب! وأضف إلى هذا كل ما حدث لك في ذلك اليوم، وفي بلد غير معروف لك، وفي مدينة تبدو خيالية في عينيك.. أقول أضف إلى هذا يومًا مليئًا بالمقابلات والمواقف، يومًا تعرفت فيه بأشخاص على غير انتظار. يومًا من الحقيقة التي لم تتوقعها قط.. يومًا رأيت فيه ثلاث أخوات جميلات من آل إيبانشين، من بينهن أجلايا - ثم أضف إلى هذا إحساسك بالتعب وانفعالاتك الضخمة، ثم أضف إلى هذا غرفة الاستقبال في مسكن ناستاسيا فيليبوفنا، وجو تلك الغرفة؟ فماذا كنت تتوقع بعد هذا كله أن يحدث لك في تلك اللحظات؟ وماذا كان تفكيرك عندئذ!

فهز الأمير رأسه وقال وقد أخذت الحمرة تعلو وجهه:

- نعم، نعم، نعم، نعم. - يكاد يكون هذا ما حدث تمامًا. ولعلك لا تعرف أنني في الواقع لم أُنم لحظة في الليلة السابقة بالقطار، وفي الليلة التي قبلها، ومن ثم لم تكن حالتني الصحية كما ينبغي أبدًا.

فاستطرد إيفيني بافلوفيتش قائلاً في انفعال:

- نعم، طبعًا، هذا ما أهدف إليه! فمن الواضح تمامًا أنك- وقد انسقت مع تيار حماستك- انتهزت الفرصة لتعلق أو لتعرب عن آرائك الطيبة وهي أنك- وأنت الأمير المنحدر من أسرة عريقة والشاب النظيف الفاضل- على استعداد لأن تغفر للمرأة الخاطئة لمجرد أنها راحت ضحية أرستقراطي خليع، يا الله! إن هذا جد مفهوم! ولكن ليست هذه هي النقطة المهمة في الموضوع يا عزيزي الأمير. وإنما المهم هو هل كانت عواطفك نحوها صادقة، وهل كانت أصيلة، طبيعية، أم كانت نابعة فقط من حماسك الفكرية! فما رأيك؟ فهل يمكن هذا؟ ألم يخبرك تفكيرك المنطقي بعد ثلاثة أشهر عن حقيقة الموقف؟ فلنفرض الآن أنها بريئة، وأنا لن ألح في هذه النقطة؛ لأنني لا أريد هذا، فهل يمكن أن تبرر تصرفاتها هذه مثل هذه الكبرياء الشيطانية، ومثل هذا الاستهتار العجيب.. ومثل هذه الأنانية الجشعة! إنني أسف أيها الأمير، أخشى أن أكون قد اندفعت كثيرًا، ولكنني..

فغمغم الأمير مرة أخرى قائلاً:

- نعم، ربما يكون الأمر كما تقول، ولعلك أن تكون على حق. فهي في الواقع لا تستقر على حال، إنك على حق، طبعًا، ولكن...

- ولكنها تستحق العطف والثناء، أليس هذا ما أردت أن تقول يا عزيزي الأمير الطيب القلب؟ ولكن كيف يمكنك، بدافع هذا العطف، ورغبة في إرضائها، أن تجلل بالعار فتاة أخرى بريئة طاهرة رقيقة التفكير، وأن تذللها أمام ذات العينين الحاقدتين الكريهيتين؟ إلى أين سوف يقودك العطف والثناء بعد ذلك؟ عجبًا! إن مبالغتك في هذا الشعور أمر غريب شاذ تمامًا! ثم كيف أمكنك أن تذلل فتاة تحبها أمام غريمتها، وتتخلى عنها أمام تلك.. تلك المرأة بعد أن وعدت وعدًا شريفًا بالزواج منها!.. وأنت قد عرضت

عليها الزواج فعلاً.. عرضته في حضور والديها وأختيها! فهل تسمح لي أن أسالك هل تعتقد أنك رجل شريف أيها الأمير بعد هذا؟ و.. وألم تخدع تلك الفتاة الملائكية البريئة حين قلت لها إنك تحبها؟.

فقال الأمير في ألم ممض:

- نعم، نعم، إنك على حق. إنني أشعر أنني.. أنني ملوم...

فصاح إيفيني بافلوفيتش مستنكراً:

- أهذا يكفي؟ أيكفي أن تصيح «إنني ملوم» إنك ملوم، ومع ذلك تصر على موقفك، أين كان قلبك إذن؟ قلبك المؤمن بتعاليم «المسيح»! لقد رأيت وجهها في تلك اللحظة.. أليس كذلك؟ هل كان عذابها أقل من عذاب تلك المرأة؟ المرأة التي دخلت بينكما! كيف أمكنك أن ترى وجهها ثم تسمح بحدوث ما حدث؟

فغمغم الأمير البائس قائلاً:

- ولكنني لم.. لم.. أفعل.

- لم تفعل؟

- أعني لم أفهم حتى الآن كيف حدث هذا كله. لقد هرعت وراء أجلايا ولكن ناستاسيا فيليوفنا سقطت مغشياً عليها، ومنذ ذلك الحين لم يسمحوا لي برؤية أجلايا.

- ليس هذا عذراً. كان ينبغي أن تجري وراء أجلايا رغم إغماء تلك المرأة.

- نعم، نعم، كان ينبغي أن أجري وراءها، ولكن.. ولكن، ألا ترى،

لعلها، أعني ناستاسيا، كانت تموت، أو تقتل نفسها، فأنت لا تعرفها .. وقد ظننت على كل حال أن في مقدوري أن أخبر أجلايا بكل شيء فيما بعد. ثم هأنذا يا عزيزي أستطيع أن أرى أنك لا تعرف كل شيء. فقل لي، مثلاً، لماذا لا يسمحون لي برؤية أجلايا؟ لقد كان في مقدوري أن أشرح لها كل شيء، ذلك أن كلاهما لم تكن تعرف الأشياء التي لها أهميتها في ذلك الحين لا.. ليس كل الأشياء التي لها أهميتها الكبرى. وهذا سبب كل ما حدث. وأخشى أنني لا أستطيع أن أشرح لك الأمر، ولكنني قد أتمكن من شرحه لأجلايا. أوه، ويحي، ويحي.. إنك تتحدث عن وجهها في تلك اللحظة، عندما انطلقت تجري! ويحي! إنني أتذكره.. أتذكره..

ثم صاح الأمير وهو يقفز من مقعده ويمسك بذراع إيفيني يجره فجأة:

- هلم نمض.. هلم نمض.

- إلى أين؟

- إلى أجلايا.. هلم الآن حالاً..

- ولكنني قلت لك إنها ليست في بافلوفسك الآن، ثم لماذا تذهب

إليها؟

فغمغم الأمير قائلاً وهو يشبك أصابع يديه بعضها ببعض في توسل

وابتهال:

- إنها ستفهم.. ستفهم أن الأمر ليس هكذا إطلاقاً، وإنه شيء جد

مختلف، جد مختلف تماماً.

- شيء مختلف تماماً؟ ولكنك تنوي الزواج من تلك المرأة، أليس

كذلك؟ إنك ما زلت مصممًا، أتذكر هذا؟ والآن، هل تتزوج أم لا؟

- نعم، نعم، طبعًا سأتزوج.

- إذن فما معنى ما تقول؟

- أوه، إنني أعني أنه لا أهمية للأمر سواء تزوجت أو لم أتزوج.

- أهكذا؟ أليس لمثل هذا الأمر أية أهمية؟ إنك ستتزوج المرأة التي تحبها لتجعلها سعيدة، وترى أجلايا هذا، وتعلمه؟ فكيف يمكنك القول إن هذا ليس له أهمية؟

- سعيدة؟ لا.. لا. إنني سأتزوجها فقط. هذا كل شيء. إن هذا ما تريدني أن أفعل. ثم ما أهمية الأمر إذا أنا تزوجت؟ أنا.. ولكن ليس لهذا أية أهمية، إطلاقًا. إنها فقط، كما ترى، كانت ستموت حتمًا لو لم أتزوجها. إنني أستطيع أن أرى الآن أن فكرة زواجها من روججين كانت جنونًا! إنني الآن أفهم كل ما لم أكن أفهمه من قبل. حسنًا، أترى؟ إنهما عندما وقفنا وجهًا لوجه، لم أستطع أن أحتمل النظر إلى وجه ناستاسيا فيليبونا، وأنت لا تعرف يا عزيزي...

وخفض الأمير صوته وهو يستطرد قائلاً:

- إنني لم أقل هذا لأحد قط.. حتى لأجلايا؟ ولكنني لم أستطع أن أحتمل النظر إلى وجه ناستاسيا.. وقد صدقت الآن فيما قلت عما حدث في الحفل الذي أقامته ناستاسيا في مسكنها. ولكن فأتك شيء واحد لأنك لم تكن تعرفه. لقد نظرت إلى وجهها في ذلك اليوم.. اليوم الأول، أعني إلى وجهها في الصورة، ولم أستطع أن أحتمل النظر إليه. إن لفير اليبديف، مثلاً، عينيّن مختلفتين..

ثم أردف قائلاً في رعب:

- إنني خائف من وجهها..

- خائف؟

فهمس الأمير قائلاً بوجه شاحب:

- أجل.. إنها مجنونة.

فسأله إيفيني بافلوفيتش باهتمام شديد:

- هل أنت متأكد؟

- أجل، إنني متأكد.. متأكد الآن. لقد تأكدت من هذه الحقيقة تمامًا

خلال الأيام الخمسة الأخيرة.

فصاح إيفيني قائلاً في استنكار:

- إذن ما هذا الذي ستفعله أيها الأمير بحق السماء؟ فأنت ستزوجه

بدافع من الخوف؟ إنني لا أستطيع أن أفهم هذا قط! ولعلك حتى لا تحبها!!

- أوه، لا، إنني أحبها بكل ذرة من كياني! عجباً! إنها.. إنها مجرد

طفلة.. طفلة تمامًا، أوه، إنك لا تعرف شيئاً.

- وفي نفس الوقت أقسمت لأجلايا أنك تحبها!

- أوه، نعم، نعم.

- ولكن كيف يتأتى هذا؟ هل تعني أنك تحبهما معاً؟

- أوه، نعم، نعم..

- يا للسماء؟ ما هذا الذي تقول أيها الأمير؟ أين عقلك؟

- إنني بدون أجلايا- أوه، يجب أن أراها.. يجب! لسوف أموت قريباً

في نومي. لقد ظننت أنني سأموت أثناء نومي في الليلة الماضية. أوه، لو أن أجلايا تعرف فقط.. لو أنها تعرف كل شيء. أعني، كل شيء تمامًا! لأن الإنسان في مثل هذه الحالة يجب، كما ترى، أن يعرف كل شيء، فإن لهذا أهميته الكبرى. لماذا لا نعرف أبدًا كل شيء عن شخص آخر، عندما ينبغي أن يحدث هذا، وعندما يقع اللوم على ذلك الشخص الآخر؟ ولكنني أخشى أنني لا أعرف ماذا أقول الآن، إن كل شيء مختلط بعضه ببعض في نظري. لقد صدمتني بعنف... وإن وجهها لا يبدو في نظري الآن كما كان عندما خرجت تجري من الغرفة. أليس كذلك؟ أوه، نعم، إن اللوم يقع عليّ تمامًا. ومن المحتمل جدًا أن يكون كل ما حدث بسبب خطأ مني وأنا لا أدري كيف. ولكنها غلطتي على كل حال. وإن في هذا الأمر شيئًا لا أستطيع أن أشرحه لك، إنني لا أجد الكلمات المناسبة، ولكن أجلايا سوف تفهم. إنني أعتقد دائمًا أنها تستطيع أن تفهم.

- لا أيها الأمير، إنها لن تستطيع أن تفهم! إن أجلايا أحبت كامرأة.. كمخلوق بشري، وليس كروح بلا جسم! أتعرف ما هو رأيي أيها الأمير؟ إن من المحتمل جدًا أنك لم تحب واحدة منهما..

- إنني لا أدري.. ربما.. ربما.. إنك على حق في كثير من الأشياء.. إنك رجل بارع يا صديقي العزيز، إن رأسي بدأت توجعني مرة أخرى، هلم نذهب إليها، أناشدك الله.. أناشدك الله..

- ولكنني قلت لك إنها ليست في بافلوفسك. إنها الآن في كولمينو.

- إذن لنذهب إلى كولمينو.. لنذهب حاليًا..

فقال إيفيني بافلوفيتش ببطء وهو ينهض:

- هذا مستحيل ..

- اسمع .. سأكتب لها خطاباً .. أحمله معك إليها.

- لا أيها الأمير، أعفني من مثل هذه المهمة. لا أستطيع.

وافترق الاثنان: انصرف إيفيني بافلوفيتش بآراء عجيبة، ذلك أن الأمير في رأيه لم يكن أيضاً سليم العقل تماماً. ثم ما معنى هذا «الوجه» الذي يحبه ويخشاه إلى هذا الحد؟ ومع ذلك فربما مات حقاً إذا حُرِم من أجلايا، وعندئذ لن تعرف أجلايا إلى أي مدى كان يحبها. ها، ها! ثم كيف يمكن لإنسان أن يحب اثنتين في وقت واحد؟ وبنوعين مختلفين من الحب؟ إن هذا شيء غريب حقاً! يا للأبله المسكين! تُرى ما سوف ينتهي به الأمر الآن!



الفصل العاشر

ولم يمت الأمير على كل حال، قبل زواجه، سواء في اليقظة أو «أثناء النوم» كما تنبأ لإيفيني بافلوفيتش. ولعله لم ينم جيدًا، ولعله كان يرى أحلامًا مزعجة، ولكنه في أثناء النهار، ومع الناس، كان يبدو شفيقًا، بل وراضيًا، إلا في بعض الأحيان عندما كان يبدو مستغرقًا في التفكير، ولكن هذا فقط كان يحدث عند انفراده بنفسه. واتخذت إجراءات الزواج بسرعة، وتقرر أن يتم بعد زيارة إيفيني للأمير بأسبوع. وفي مثل السرعة لم يكن في مقدور أخلص أصدقاء الأمير - إن كان له شيء منهم - أن يأملوا في إنقاذ هذا المسكين المخدوع، وقد سرت الشائعات بأن الجنرال إيبانشين وزوجته هما المسؤولان عن زيارة إيفيني للأمير. ولكن حتى لو أنهما - بدافع من طيبة قلبيهما - قد أرادا إنقاذ الأمير المسكين المجنون من هذه الهاوية، فلم يكن أمامهما غير هذه الوسيلة الضعيفة؛ لأنه، لا مركزهما، وربما ولا عطفهما على الأمير أيضًا «وهو أمر طبيعي»، يسمحان ببذل محاولات أكثر جدية من جانبهما. وقد سبق أن ذكرنا أنه حتى أقرب المقربين إلى الأمير قد انقلبوا عليه. ففيرا لبيديف لجأت إلى البكاء كلما انفردت بنفسها، وراحت تقضي معظم وقتها في الجانب المخصص لها بالبيت، وأصبحت ترعى الأمير أقل مما كانت تفعل من قبل. وكان كوليا في ذلك الحين مشغولًا بمراسم جنازة

أبيه. ذلك أن الرجل العجوز مات بنوبة ثانية بعد النوبة الأولى بثمانية أيام. وأظهر الأمير اهتمامًا كبيرًا بمصائب الأسرة، وراح في الأيام القليلة الأولى يقضي ساعات كثيرة كل يوم مع المسز إيفولجين. وكان حاضراً الجناز والصلاة في الكنيسة. وقد لاحظ الكثيرون أن الناس في الكنيسة لم يسعهم إلا أن يتبادلوا الهمس عند وصول الأمير وعند انصرافه، وكان هذا ما يحدث أيضاً في الشوارع والحدائق العامة. فكلما مر بالناس سائراً أو راكباً، بدأوا يتحدثون عنه، ويذكرون اسمه، ويشيرون إليه. وكذلك كان اسم ناستاسيا فيليبوفنا يتردد على نفس الألسنة أيضاً. وقد بحث الناس عنها في الجناز، ولكنها لم تشهده. وكذلك لم تشهده أرملة الكابتن، ذلك لأن ليبيديف استطاع أن يمنع حضورها في الوقت المناسب، وكانت مراسم الجناز قد تركت في نفس الأمير تأثيراً عميقاً. وقد همس لليبيديف - رداً على بعض أسئلته - إن تلك هي المرة الأولى التي يشهد فيها طقوس جناز أرثوذكسي. وأن لديه فقط ذكريات غامضة عن طقوس الجناز في كنيسة القرية وهو طفل صغير.

وقال ليبيديف هامساً في أذنه:

- أجل يا سيدي، إنه لا يبدو - وهو في الكفن - نفس الرجل الذي اخترناه أخيراً ليكون رئيساً للمجلس الإداري.. أتذكر يا سيدي؟ من الذي تبحث عنه يا سيدي؟

- أوه، لا شيء، لقد ظننت..

- أتبحث عن روجوجين!

- أهو هنا؟

- نعم يا سيدي، في الكنيسة.

فغمغم الأمير قائلاً في ارتباك:

- أوه، لهذا خطر لي أنني شعرت بنظراته عليّ. ولكن ماذا.. لماذا هو هنا؟ هل دُعي لحضور المراسم؟

- لا لا يا سيدي. إنهم لم يفكروا قط في دعوته، بل إنهم لا يعرفونه على الإطلاق. ولكن لكل إنسان الحرية في الحضور إذا شاء. عجباً! لماذا أنت مدهوش هكذا؟ إنني كثيراً ما ألتقي به الآن، وقد رأيته على الأقل أربع مرات في هذا الأسبوع هنا، في بافلوفسك.

فغمغم الأمير قائلاً:

- ولكنني لم أره مرة واحدة منذ.. ذلك اليوم.

ولما كانت ناستاسيا فيليوفا لم تذكر له أنها التقت بروججين منذ ذلك «اليوم» فقد انتهى الرأي بالأمير إلى أن روججين يعتمد لسبب ما الاختفاء عن نظره. وقد أمضى ذلك اليوم كله مستغرقاً في أفكاره، أما ناستاسيا فيليوفا فقد كانت - من ناحية أخرى - مريحة طيلة اليوم على غير العادة وحتى في المساء.

واقترح كوليا - الذي كان قد تصالح مع الأمير قبل وفاة أبيه - أن يطلب من كيلر وبوردوفسكي أن يكونا أشبينين ما دام أن الأمر متعجل، وأنه لم يعد هناك مجال لإرجاء مثل هذا القرار. وتعهد بضمان حسن سلوك كيلر، مضيفاً إلى هذا أنه قد يكون ذا «فائدة». أما عن بوردوفسكي، فليس هناك ما يدعو للخوف منه ما دام أنه شاب هادئ وادع. وقد قال ليبيديف والمسز إيفولجين للأمير إنه إذا كان مصرّاً على الاستمرار في اتخاذ إجراءات

الزواج، فليس هناك أي سبب يدعو إلى عقده في بافلوفسك في أوج الموسم وفي مثل هذه العلانية. أليس من الأفضل أن يعقد زواج هادئ في بطرسبرج أو حتى في البيت. وكان الأمير يعرف تمامًا الشيء الذي يخشيانه، ولكنه أجاب بإيجاز وبساطة أن هذه هي رغبة ناستاسيا فيليبوفنا.

وفي اليوم التالي أقبل كيللر - الذي أبلغ أنه اختير ليكون أشبينًا - ليزور الأمير، وتوقف بالباب قبل الدخول، وبمجرد أن لمح الأمير رفع يده اليمنى وكأنما يردد قسمًا، ثم هتف قائلاً:

- أقسم أنني لم أشرب نقطة خمر.

ثم مضى إلى الأمير، وصافح يديه الاثنتين بحرارة، وأعلن أنه حين سمع بأمر الزواج لأول مرة، كان معارضًا له، وقد صرح بمعارضته في قاعات البلياردو؛ وذلك لا لسبب معين إلا ما كان يتمناه له كأخلص صديق وما كان ينتظره يومًا بعد يوم، وهو أن يراه متزوجًا من شخصية لا تقل عن الأميرة دي روان، أو على الأقل الأميرة دي شابو. ولكنه يستطيع أن يرى الآن أن تفكير الأمير أسمى عشر مرات من تفكير كل أصحابه ومعارفه مجتمعين. ذلك أن ما أراده لم يكن الأبهة، ولا الثراء، ولا حتى التشریف، وإنما أراد الحقيقة فقط! إن رقة عواطف العظماء من الناس معروفة، والأمير عظيم بعلمه وثقافته وهما كفيلا أن يرفعه إلى مستوى العظماء! «ولكن الصعاليك وكل أنواع الغوغاء لهم رأي آخر: ففي المدينة، وفي البيوت، وفي المجتمعات، وفي مثابات المصايف، وحول جواسق الفرق الموسيقية، وفي قاعات البلياردو، لا يتحدثون ولا يتصايحون إلا عن الحدث المنتظر. لقد سمعتهم يقولون إنهم سيقومون بمظاهرة ويثيرون ضجة عراك تحت نافذتك، وفي ليلة الزفاف نفسها أيضًا! فإذا أردت مساعدة مسلحة من رجل أمين أيها الأمير،

فإني مستعد أن أتحدى ستة من هؤلاء الأوغاد وأتبادل معهم الطلقات النارية في مبارزة حرة قبل أن تستيقظ من نومك في صباح ليلة زفافك!» وكذلك نصح كيللر الأمير لكي يستحضر آلة إطفاء الحريق ويضعها في الفناء ليستخدمها في تفريق الجموع الحاشدة التي ستتوافد ملهوفة على الخمر المجانية، والتي قد تقتحم البيت بعد الخروج من الكنيسة. ولكن ليبيديف أبى الموافقة على هذه النصيحة قائلاً: «إذا استحضرنا آلة إطفاء حريق، إن الجموع سوف يهدمون البيت حجراً حجراً».

وقال كيللر للأمير:

- إن ذلك المدعو ليبيديف يتآمر ضدك أيها الأمير، واللعنة عليّ إذا لم يكن يفعل هذا! إنهم يريدون أن يحجروا عليك ويضعوك تحت إشراف المحكمة، وبذلك تفقد حرية الاستمتاع بكل شيء، بالمال وبالحرية الشخصية، وهما الشيطان الوحيدان اللذان يميزاننا عن الحيوانات. نعم يا سيدي، لقد سمعت هذا عن يقين، وإن ما أقول هو الحق.

تذكر الأمير أنه هو أيضاً قد سمع شيئاً من هذا القبيل، ولكنه لم يعره التفاتاً بطبيعة الحال. وقد ضحك الآن أيضاً ونسى الموضوع فوراً. وكان ليبيديف في الواقع جد مشغول فترة من الوقت. والمعروف أن مشروعات ذلك الرجل كانت دائماً تنبت في ذهنه على حين غفلة، ثم تزداد تعقيداً وتفرع وتمتد بعيداً عن نقطة البدء كلما ازداد انفعالاً واهتياجاً بشأنها. وهذا سبب إخفاقه في الحياة. ولما جاء في صباح يوم الزواج أو قبله بليلة إلى الأمير ليعترف له بذنبه «لأنه تعود دائماً أن يذهب للاعتراف بذنبه للذين كان يتآمر عليهم، لا سيما عندما تفشل مؤامراته» قال إنه ولد بنفسية تاليران^(١)،

(١) وزير خارجية نابليون - وكان مشهوراً بكثرة مؤامراته.

ولكنه لسبب ما ظل دائماً لبيديف. ثم راح بعد ذلك يكشف عن المؤامرة كلها التي أثارت اهتمام الأمير إلى حد كبير. وبناء على أقواله بدأ هو في التماس معونة شخصيات رفيعة المركز يستطيع أن يعتمد عليها إذا لزم الأمر، ومن ثم ذهب إلى الجنرال إيبانشين، ولكن الجنرال استنكر هذا الأمر وتمنى للأمير الشاب كل خير، وقال: إنه - رغم لهفته على إنقاذ الأمير - فمن غير «اللائق» أن ينقذه بهذه الطريقة. أما المسز إيبانشين فقد أبت أن تستقبله أو تنصت إليه. وطرده كل من إيفيني والأمير «س» بمجرد أن عرفا الأمر. ولكنه - أي لبيديف - لم ييأس، وإنما راح يستشير محامياً واسع الحيلة، وكان رجلاً مسناً يرتبط معه بوشائج الصداقة، بل يكاد يكون صاحب الفضل عليه دائماً، وقد رأى ذلك المحامي أن من الممكن تنفيذ مشروع لبيديف إذا أمكن الحصول على شهود موثوق بهم يقررون أن الأمير لا يتمتع بكل قواه العقلية، بل إنه بلا شك مجنون، وأهم من هذا كله يجب على لبيديف أن يظفر بتأييد شخصيات من ذوي النفوذ في البلاد. ولم ييأس لبيديف مع ذلك، بل استدعى ذات يوم طبيباً كان يصيف في بافلوفسك لزيارة الأمير - وكان الطبيب أيضاً رجلاً مسناً محترماً يحمل وسام سانت آن - وقد طلب لبيديف منه أن يبدأ أولاً باستكشاف الجو، وأن يتعرف بالأمير بصفة غير رسمية وأن يفحصه بطريقة غير مباشرة ثم يخبره - أي يخبر لبيديف - بالنتيجة.

وتذكر الأمير زيارة الطبيب له فعلاً، كما تذكر كيف ظل لبيديف في اليوم السابق على هذه الزيارة يؤكده أنه يبدو مريضاً، ولما أبى الأمير بإصرار أن يسمح له باستدعاء طبيب، إذا به يحضر له الطبيب بنفسه في اليوم التالي زاعماً أنهما - أي لبيديف والطبيب - كانا آتيين من عند إيبوليت الذي كان في حالة شديدة من المرض، وأن الطبيب لديه ما يريد أن يقوله للأمير بشأن

الفتى المريض، وشكر الأمير لبيديف ورحب بالطبيب، ثم بدءا يتحدثان عن إيوليت فورًا. وطلب الطبيب من الأمير أن يذكر له كل ما يعرف عن محاولات إيوليت للانتحار، ولم يلبث الأمير أن خلب لبّ الطبيب تمامًا بأسلوبه الجذاب في الحديث عن هذا الحادث. ثم بدءا بعد ذلك يتحدثان عن جو بطرسبرج، وعن مرض الأمير، وعن سويسرا، والدكتور شنيدر. وقد أثار الأمير كل اهتمام الطبيب بحديثه الممتع عن طريقة الدكتور شنيدر في العلاج، وعن قصصه الطريفة بحيث مكث معه ساعتين مستعينا بتدخين سيجار الأمير الفاخر، وكان لبيديف من جانبه يقدم إليهما أفخر ما لديه من الشراب الذي كانت فيرا تحمله بنفسها إلى المائدة، ورغم أن الطبيب المسن كان رجلاً متزوجاً إلا أنه ظل يسرف في امتداح الفتاة حتى أثار استنكارها. وافترق الاثنان، الطبيب والأمير، صديقين، وقد قال الطبيب - بعد انصرافه عن الأمير - للبيديف إنه إذا كان مثل هذا الأمير يُحجر عليه، فلن يكون هناك أحد يصلح لأن يكون قيماً عليه. ولما حدثه لبيديف عن مأساة الزواج المنتظر، قال الطبيب بعد أن هز رأسه هزة لها دلالتها: إنه على الرغم من أن الزواج «قسمة ونصيب» إلا أنه مع هذا قد سمع أن الفتاة «الفاطنة» المقصودة بالحديث، تتمتع، فضلاً عن جمالها المذهل الذي قد يكفي وحده لأسر رجل ثري، بثروة طائلة ظفرت بها من توتسكي وروججين، هذا عدا اللآلئ والماس والمطارف والمتاع الفاخر. ومن هذا يتبين أن الأمير في هذا الاختيار قد أثبت أنه أبعد ما يكون عن حماقة، وأنه في الحقيقة ذكي ماكر مجرب، وأن النتيجة هي عكس ما كان يرجو لبيديف، بل إنها في صالح الأمير على طول الخط. وقد فوجئ لبيديف بوجهة نظر الطبيب، ثم آمن بها، ثم اختتم حديثه للأمير قائلاً:

- والآن، والآن لن ترى مني إلا الإخلاص والولاء، وإلا الاستعداد لبذل دمي من أجلك، وهذا ما جئت لأقوله لك.

وكذلك إيبوليت، قام أيضًا بدوره في شغل ذهن الأمير خلال تلك الأيام القليلة الأخيرة. إذ كان يرسل لاستدعائه كثيرًا. وكانت أسرته تقيم في بيت صغير قريب. وكان الطفلان الصغيران - أخو إيبوليت وأخته - سعيدين على كل حال بالإقامة في هذه البلدة؛ لأنه كان في مقدورهما الهرب من جوار أخيهما العليل والانطلاق إلى الحديقة. أما أمه المسكينة فكانت طوع بانه وتحت رحمته تمامًا. وكان الأمير يضطر إلى التدخل بينهما والعمل على مصالحتهما كل يوم. وكان إيبوليت يسميه دائمًا «المرضة» ومع ذلك لا يحرم نفسه من متعة الشعور باحتقاره لقيامه بدور حمامة السلام بينه وبين أمه. وقد اشتد في قسوته على كوليا لأنه تأخر عن زيارته في الأيام الأخيرة. ذلك أن كوليا كان يمضي معظم وقته مع أبيه المريض في أول الأمر، ثم مع أمه الأرملة بعد ذلك. وأخيرًا اتخذ رأي إيبوليت - من زواج الأمير المنتظر بناستاسيا فيليبوفنا هدفًا لنكاته ولذعاته ثم، انتهى به الأمر إلى إثارة استياء الأمير، وجعله في النهاية يفقد زمام أعصابه تمامًا. ويتوقف عن زيارته. وبعد يومين جاءت أرملة الكابتن «صديقة الجنرال إيفولجين الراحل وأم إيبوليت» إلى الأمير في الصباح وتوسلت إليه باكية أن يأتي لزيارتهم وإلا فإنه، أي إيبوليت، «سيأكلهم أحياء». ثم أردفت قائلة إن إيبوليت يريد أن يفضي إليه بسر خطير. وذهب الأمير، وانفجر إيبوليت باكيًا على سبيل الاعتذار والندم، ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن عاد بطبيعة الحال إلى طبيعته الحقود، ولكنه كان يخشى أن يصب هذا الحقد على الأمير. وكان المرض قد اشتد به بحيث لم يعد ثمة شك في أن موته غدا وشيكًا. ولم يكن لديه أسرار يكشفها غير رجائه

الحار الذي عبر عنه بأنفاس لاهثة وبانفعال شديد «ربما كان مصطنعاً» وكان هذا الرجاء يدور حول «احذر روجوجين، إنه ليس بالرجل الذي يتخلى أبداً عما يعتقد أنه من حقه. إنه ليس نذاً لك أيها الأمير، أو لي. فهو إذا أراد أمراً فلن يوقفه شيء عن الوصول إليه» وهكذا وهكذا.. وأخذ الأمير يسأله عن التفاصيل محاولاً أن يصل إلى بعض الحقائق، ولكن لم تكن هناك حقائق أكثر من شعور إيبوليت وانطباعاته. إلا أن إيبوليت لم يلبث أن حقق متعته الكاملة عندما استطاع أخيراً أن يثير فزع الأمير تماماً. وكان الأمير في أول الأمر قد رفض أن يجيب عن بعض الأسئلة الخاصة، واكتفى بالابتسام عندما راح إيبوليت ينصحه قائلاً: «اهرب إلى الخارج إذا لزم الأمر، فإن هناك قساوسة روسيين في كل مكان، حيث يمكنك أن تعقد زواجك كما تشاء» ولكن إيبوليت اختتم حديثه في النهاية بهذه الملاحظة «ولكن الذي يثير قلقي هو أمر أجلايا، فإن روجوجين يعرف مبلغ حبك لها. وحب مقابل حب. وما دمت قد حرمتها من ناستاسيا فيليبوفنا، فسوف يقتل أجلايا؛ لأنها وإن لم تكن لك الآن. إلا أن موتها سيكون ضربة قاضية عليك. أليس كذلك؟» وهكذا حقق إيبوليت ما أراد، وجعل الأمير ينصرف وهو في حالة من القلق والحزن الشديد.

كانت هذه التحذيرات بشأن روجوجين قد وصلت مسامع الأمير قبل الزواج بيوم. وفي ذلك المساء، أي لآخر مرة قبل عقد الزواج، ذهب الأمير لزيارة ناستاسيا. ولكنها لم تستطع أن تهدئ من روعه، بل على العكس، لقد جعلته في اليوم أو اليومين الأخيرين يزداد قلقاً واضطراباً. وكانت قبل ذلك بأيام تبذل جهدها للترفيه عنه؛ ذلك أنها كانت خائفة أعنف الخوف من سمات الاكتئاب المرتسمة على وجهه، فأخذت ترفه عنه، بل حاولت أن

تغني له. وأهم من هذا كله حاولت أن تسرد عليه كل ما يعن لها من قصص لطيفة. وكان الأمير يتظاهر دائماً بالاستمتاع الكامل، وفي كثير من الأحيان كان يضحك من أعماقه للطريقة المرحية الأسرة التي تقص بها أقاصيصها في بعض الأحيان عندما تكون معتدلة المزاج، وكثيراً ما كان يحدث هذا. وكانت حين ترى مبلغ استمتاع الأمير بحديثها، ومدى تأثيرها عليه، تشعر بالبهجة ثم تبدأ في الإحساس بالزهو والفخر. أما الآن فإن إحساسه بالكآبة والقلق راح يزداد في كل ساعة تقريباً. وكان رأيه عن ناستاسيا قد استقر تماماً، وإلا لبدا كل شيء عنها بطبيعة الحال غامضاً مبهمًا بالنسبة إليه. ولكنه كان يعتقد في قرارة نفسه بأن الفرصة لا تزال سانحة أمامها لتكون امرأة أخرى مختلفة. وكان صادقاً تماماً في قوله لإيفيني بافلوفيتش إنه يحبها بصدق وإخلاص وإنه في حبه لها كان في الواقع يراها كطفل صغير عليل من الصعب، بل من المستحيل، أن نتركه وشأنه. إنه لم يشرح لكائن من كان عواطفه نحوها، بل كان في الواقع لا يحب الحديث في هذا الشأن، إلا إذا كان من المستحيل تجنب الحديث فيه. وكان هو وناستاسيا- حين ينفردان معاً- لا يتحدثان أبداً عن «عواطفهما» وكأنما كان بينهما اتفاق ضمني بعدم الخوض في هذا الموضوع. وكان في مقدور أي شخص أن يشترك في حديثهما الممتع البهيج. وقد تعودت داريا ألكسينا أن تقول فيما بعد إنه ما من مرة نظرت فيها إليهما إلا وشعرت بالبهجة والسعادة.

إلا أن رأيه عن حالة ناستاسيا فيليبونا العقلية هو الذي أراحه من الانسياق مع مختلف أنواع الحيرة والارتباك. إنها الآن مختلفة تماماً عن المرأة التي عرفها قبل ذلك بثلاثة شهور. إنه الآن لم يعد يعجب مثلاً من السبب الذي جعلها يومذاك تهرب من الزواج به في أسرع وقت ممكن. وقد

قال الأمير لنفسه: «ومن هذا يبدو أنها لم تعد خائفة كما كان شأنها من قبل - من أن يكون زواجها بي دماراً لي. إن مثل هذه السرعة في استردادها الثقة بنفسها لا يمكن أن تكون، في رأيه، طبيعية بالنسبة لها. كما أنه لا يمكن أن تكون هذه الثقة نابعة فقط من كراهيتها لأجلايا. ذلك أن ناستاسيا فيليوفنا كانت أقدر على عمق الإحساس من هذا. وكذلك كان من المؤكد أن هذه الثقة المرتدة لم تكن أيضاً نابعة من خوفها مما سيحدث لها لو أنها تزوجت بروجوجين. وعلى الجملة فإن هذه الأسباب مجتمعة مع غيرها قد تكون من العوامل المساعدة في رد هذه الثقة إليها. ولكن الشيء الذي كان أوضح له من غيره هو ما كان يشك فيه منذ وقت طويل، أي أن عقلها المريض البائس قد انهار تحت ذلك الضغط النفسي. ورغم أن هذا كله قد أراحه من سوء فهم تصرفاتها، إلا أنه في الوقت نفسه كان سبباً لشعوره بالقلق الدائم. وكان في بعض الأحيان يحاول ألا يفكر في أي شيء، وكان يبدو عليه في الواقع أنه ينظر إلى هذا الزواج على أنه إجراء شكلي لا أهمية له؛ ذلك لأنه لم يكن يهتم كثيراً بأمر مستقبله. أما فيما يختص بالاعتراضات والمناقشات - مثل مناقشته مع إيفيني بافلوفيتش - فقد كان يشعر كل الشعور بعجزه التام عن الصمود أمامها، ومن ثم كان يبذل جهده كله ليتجنب مثل هذا النوع من المناقشات.

وكان قد لاحظ، مع هذا، أن ناستاسيا فيليوفنا تدرك وتعرف يقيناً مكانة أجلايا في نفسه. إنها لم تقل شيئاً في هذا الشأن، ولكنه كان يرى «وجهها» عندما كانت تكتشف أحياناً - في بادئ الأمر - أنه ذاهب إلى بيت آل إيبانشين. ولما رحل آل إيبانشين، أخذ وجهها يسطع بالسعادة والابتهاج. ورغم أنه ضعيف الملاحظة، قليل الشك، إلا أنه كان يشعر بالقلق كلما فكر

في أن ناستاسيا فيليبونا ربما تقرر أن تشير فضيحة علنية لإجبار آل إيبانشين على الرحيل من البلدة. ذلك أنها كانت تتعمد - إلى حد ما - أن تشير كل تلك الضجة وذلك اللغط بين المقيمين في بافلوفسك لكي تشير غيظ غريمتها وضيقها بشأن الزواج. ولما كان من العسير عليها أن تلتقي بآل إيبانشين، فقد صحبت الأمير ذات مرة في جولة بالمركبة بأنحاء المدينة، ثم أمرت السائق أن يمر بها أمام نوافذ بيتهم. وكانت تلك مفاجأة مفزعة للأمير؛ لأنه أدرك ما سوف يحدث، ولكن بعد فوات الأوان كالمعتاد، وبعد أن أصبحت المركبة أمام النوافذ فعلاً. ولم يقل لها شيئاً، وإنما أمضى اليومين التاليين مريضاً. ولم تكرر ناستاسيا هذه الفعلة مرة أخرى. وإنما بدأت في الأيام القليلة السابقة على الزواج تستغرق في جو من الاكتئاب، ولكنها عادة كانت تجبر نفسها على طرد هذا الشعور ثم العودة إلى حالة البشر والمرح مرة أخرى، إلا أن مرحها عندئذ كان هادئاً رقيقاً، أي لم يكن صاحباً مفعماً بالسعادة كما كان من قبل. وضاعف الأمير اهتمامه بأمرها. وكان قد تعجب في نفسه من أنها لم تحدثه عن روجوجين أبداً. وإنما حدث ذات مرة فقط - قبل الزواج بخمسة أيام - أن جاءت فجأة رسالة من داريا ألكسينا تطلب منه فيه الحضور على جناح السرعة لأن ناستاسيا تعاني حالة عجيبة، ولما أسرع إليها وجدها في حالة مشرفة على الجنون التام؛ كانت تصيح وترتعد وتصرخ قائلة: إن روجوجين مختبئ في الحديقة - حديقة البيت - وأنها قد رآته من فورها، وأنه سوف يقتلها في تلك الليلة.. سيدبحها! وأبت أن تهدأ طيلة اليوم. ولكن حدث في مساء ذلك اليوم نفسه، عندما كان الأمير في زيارة إيبوليت، أن قالت له أمه - أم إيبوليت، التي عادت من الخارج، بعد قضاء شأن من شئونها - إن روجوجين زارها في مسكنها في ذلك اليوم وسألها عن الأحوال

في بافلوفسك، ثم قالت ردًا على سؤال للأمير: إن روجوجين زارها في نفس الساعة تقريبًا، التي قالت ناستاسيا إنها رأيته فيها بالحديقة. ومعنى هذا أن الأمر كله لم يكن بطبيعة الحال غير وهم. وقد ذهبت ناستاسيا فيليوفنا فيما بعد بنفسها إلى أم إيبوليت، وبعد أن سألتها في تدقيق شديد، اطمأنت تمامًا وهدأت نفسها.

وفي اليوم السابق على الزواج، انصرف الأمير تاركًا ناستاسيا في حالة انفعال شديد من فرط البهجة. ذلك أن ملابس العرس الخاصة بالاحتفال الذي سيقام في اليوم التالي، كانت قد وصلت من صانع أزياء في بطرسبرج - ثوب الزفاف، والخمار، وما إلى هذا - ولم يكن الأمير يتوقع البتة أن يراها تنفعل هكذا بسبب ملابسها! وظل يمتدح كل شيء وجعلها هذا المديح أسعد ما تكون. إلا أنها لم تلبث أن قالت إنها سمعت أن سكان المدينة غاضبون ساخطون، وأن بعض الشبان العابثين سينظمون نوعًا من «المظاهرة» بالآلات الموسيقية وبأغاني منظومة لهذه المناسبة، وأن هذا كله يجري بموافقة المجتمع في بلدة بافلوفسك. وإنها لهذا السبب غدت أكثر شوقًا من أي وقت مضى لأن تشمخ برأسها، وأن تبهرهم بثوب عرسها الفاخر الأبيض. «ليصيحوا ويصرخوا ويسخروا إذا تجرأوا» وكانت عيناها تتألقان احتياجًا كلما فكرت في هذا كله. وكان يراودها حلم خفي آخر لم تتحدث عنه لأحد. كانت تأمل أن تكون أجلايا - أو أي شخص من لدنها - متنكرًا بين الجماهير في الكنيسة، ليرى كل شيء. وكانت تعد نفسها سرًا لمثل هذا الاحتمال. وقد افترقت عن الأمير وهو لا يزال مشغولًا بمثل هذه الأفكار. وكان ذلك في نحو الحادية عشرة مساء. ولكن حدث قبل منتصف الليل أن جاءه رسول يجري من قبل داريا ألكسينا يلتمس منه أن يسرع إليها

فوراً؛ لأنها مريضة جداً. ولما أسرع الأمير، وجد عروسه قد أغلقت على نفسها باب غرفة نومها وراحت تبكي في حالة عصبية و شعور عميق باليأس وظلت فترة طويلة وهي تأبى أن تسمع شيئاً مما كان يقوله لها من وراء الباب. وأخيراً فتحتة، وسمحت للأمير بالدخول، ثم أغلقت بالرتاج من الداخل. ثم ركعت أمامه «هذا على الأقل ما قالته فيما بعد داريا ألكسينا التي استطاعت أن تختلس النظر وتسترق السمع من ثقب الباب».

صاحت ناستاسيا وهي تعانق ساقيه:

- ما هذا الذي سأفعله؟ ما هذا الذي سأفعله؟ ما هذا الذي سأفعله بك؟

وقضى الأمير معها ساعة كاملة. ونحن لا نعرف ماذا قالاً فيها، ولكن داريا ألكسينا قالت إنهما افترقا بعد ساعة وهما متفقان سعيدان، ثم أرسل الأمير في نفس الليلة من يسأل عنها. ولكن ناستاسيا كانت مستغرقة في النوم. وفي الصباح، قبل أن تستيقظ، أقبل رسولان من عند الأمير إلى بيت داريا ألكسينا للسؤال عن ناستاسيا، وفي المرة الثالثة قيل له إن ناستاسيا محاطة بجيش من صنّاع الأزياء ومندوبي محلات التزيين من بطرسبرج، وأنه ليس ثمة آثار لحالة الانهيار العصبي التي عانتها في الليلة السابقة، وأنها جد مشغولة كأية سيدة جميلة حين تشغل بملابسها وزينتها في صباح يوم زواجها، وأن «مؤتمراً» مهماً انعقد في تلك اللحظات لتقرير أية حلي ماسية ينبغي أن تتزين بها، وكيف تتزين بها. وهكذا اطمأن الأمير عليها كل الاطمئنان.

ويلي هذا وصف كامل ورد على ألسنة الذين شهدوا هذا الزواج. ويبدو أنه صحيح في جملته.

لقد تحدد موعد الزواج في الساعة الثامنة مساءً. وقد استعدت ناستاسيا تمامًا في الساعة السابعة. وقبل ذلك بساعة كان عدد كبير من المتفرجين قد شرعوا يتجمعون حول منزل لبيديف، ومنزل داريا ألكسينا بصفة خاصة. وأخذت قاعة الكنيسة تمتلئ ابتداءً من الساعة السابعة، وكان كل من فيرا وكوليا شديد القلق بشأن الأمير. ولكن كان عليهما أن يقوموا بأعمال كثيرة في البيت. كانا مشغولين بالإجراءات اللازمة لاستقبال المدعوين إلى حفل الزواج بجناح الأمير. وكان الرأي قد استقر على إقامة حفلة استقبال كبرى بعد الزواج. فعدا الأشخاص الذين يشتركون في حفل مراسم الزواج، كان لبيديف قد دعا بيتسين وزوجته وجانيا والطبيب حامل وسام القديسة أمه، وداريا ألكسينا. ولما سأل الأمير لبيديف لماذا دعا ذلك الطبيب الذي لا يكاد يعرفه، أجاب لبيديف بكل ثبات: «إنه يا سيدي يحمل وسامًا» وهو رجل محترم جدًا يا سيدي، ولا شك أن وجوده سيركز في النفوس تأثيرًا طيبًا. ولم يسع الأمير إلا أن يتسم. وكان كيللر وبوردوفسكي يبدوان في أحسن حال وهما يرتديان ملابس السهرة والقفازات. وذلك رغم أن كيللر ظل يثير القلق في نفس الأمير، وفي نفوس الذين وضعوا ثقتهم فيه بمحاولاته الدائمة لإثارة المعارك، فكان يحملق بطريقة عدوانية إلى المتفرجين المتجمعين حول البيت. وأخيرًا، في الساعة السابعة والنصف، استقل الأمير المركبة في الطريق إلى الكنيسة. ويمكننا بهذه المناسبة أن نلاحظ أن الأمير كان حريصًا على اتباع كل العادات والتقاليد المعروفة في مثل هذه المناسبة. فكان كل شيء قد تم عيانًا بيانًا «وطبقًا للأصول» وقد استطاع على نحو ما أن يشق طريقه في الكنيسة بين الجموع الذين أقاموا حواجز من الهمسات والتعليقات. ولكن الأمير لم يلبث أن اختفى إلى حين عند أبواب المذبح.

وكان مصحوبًا بكيللر الذي راح يلقي نظرات العداء والتحدي ذات اليمين وذات الشمال. وعاد كيللر ليصحب العروس، وهناك أمام بيت داريا ألكسينا وجد جمعًا حاشدًا من الناس يزيد عدده على ثلاثة أمثال الجمع الذي احتشد أمام بيت الأمير، وفيما كان يصعد الدرجات الأمامية، انهال عليه وابل من التعليقات بحيث لم يعد قادرًا على كبح جماح نفسه، وأوشك أن يخاطب المتجمعين باللغة المناسبة. ولكنه منع - لحسن الحظ - على يد بوردوفسكي وداريا ألكسينا التي كانت قد أسرعت لاستقبالهما. وأمسك الاثنان به وجراه إلى الداخل بالقوة. وكان كيللر متعجلًا مستوفز الأعصاب، ومن ثم نهضت ناستاسيا فيليوفا وألقت نظرة أخيرة على أديم المرأة، ولاحظت «بابتسامة اشمئزاز» - كما ذكر كيللر فيما بعد- أنها شاحبة «كالجثة» ثم انحنت بخشوع أمام أيقونة العذراء، ثم خرجت من البيت. وما كادت تظهر أمام الجمع الحاشد حتى استقبلتها مهمة عالية من الأصوات وقد كانت هذه الأصوات في أول الأمر ضحكات وهتافات بل كاد الأمر يصل إلى حد الصفير، ولكن لم يلبث أن صاح بعضهم بمثل هذه التعليقات:

- يا للجمال.

- إنها ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة.

- إن الزواج يصلح كل شيء أيها الحمقى!

- إنك لن تجد مثل هذا الجمال في أي مكان آخر.

وهنا صاح الواقفون أمام الجمع قائلين:

- يعيش، يعيش، يعيش..

وهتف أحد الموظفين:

- إنها أميرة، وأنا في سبيل هذه الأميرة أبيع روحي.

ثم راح يغني هذا المقطع:

«ليلة من الحب.. أفتديها بحياتي»

وكانت ناستاسيا في الواقع كصفحة الورق شحوبًا عندما خرجت من البيت، ولكن عينيها الواسعتين كانتا تتوهجان كالجمرات وهي تنظر إلى المتجمعين. وتخاذل هؤلاء أمام هذه النظرة؛ وتحولت صيحات الاستنكار إلى هتافات إعجاب وتهليل. وكان باب المركبة قد انفتح، ومد كيللر ذراعه إلى العروس، ولكن هذه صاحت فجأة، واندفعت رأسًا من الدرجات الأمامية إلى الجمع الحاشد. وتسمر جميع الذين كانوا في صحبتها في أماكنهم من فرط الذهول، وأفسح المحتشدون طريقًا لها بينهم، ثم إذا روججين يظهر أمامها فجأة على بعد خمس أو ست خطوات عن الدرجات الأمامية، وإذا هي تندفع نحوه كامرأة ممسوسة. وأمسكت بيديه معًا، وهتفت قائلة:

- أنقذني! امض بي بعيدًا، إلى أي مكان تريد.. الآن!

وأخذها روججين بين ذراعيه، وحملها - أو كاد - إلى المركبة، ثم أخرج من جيبه بسرعة البرق ورقة مالية من فئة مائة الروبل ولوح بها للسائق: - إلى المحطة.. وإذا لحقت بالقطار فلك مائة أخرى.

ثم وثب إلى المركبة بعد ناستاسيا، وأغلق الباب، ولم يتردد السائق لحظة، وإنما انهال بالسوط على الجواد. وقال كيللر فيما بعد إن الذنب فيما حدث يرجع إلى المفاجأة غير المنتظرة. ثم قال بعد أن وصف الحدث:

- وبعد لحظة أخرى عرفت ماذا ينبغي أن أفعل؟ لأنني ما كنت لأسمح بأن يحدث هذا.

والواقع أنه وبوردوفسكي استقلا مركبة أخرى كانت تمر في تلك اللحظة، ولكنه غير رأيه في الطريق إلى المحطة؛ لأنه كما قال: «فات الأوان، ولن يستطيع أحد أن يعيدها بالقوة».

وقال بوردوفسكي الذي كان شديد الاضطراب:

- ما أظن الأمير سيرضى عن هذا أيضًا.

ووصل روجوجين وناستاسيا فيليبوفنا إلى المحطة في الوقت المناسب. وفيما كان روجوجين يهبط من المركبة ويوشك على ركوب القطار، كان لديه من الوقت ما جعله يوقف فتاة كانت ترتدي معطفًا قديمًا ولكنه محترم، وتضع على رأسها منديلًا حريميًا.

قال لها وهو يلوح بورقة مالية أمامها:

- ما رأيك في خمسين روبلاً ثمنًا لهذا المعطف الذي ترتدينه؟

وقبل أن تتاح لها فرصة التعبير عن دهشتها أو إدراك ما يحدث لها، دس الورقة المالية في يدها، وخلع المعطف والمنديل عنها، وألقى بهما على كتف ناستاسيا ورأسها. وهكذا اختفى ثوبها الفاخر ولم يعد يلفت أنظار الركاب في القطار، ولم تدرك الفتاة إلا عندئذ لماذا اشترى ذلك السيد معطفها البالي القديم بمثل هذا الثمن الضخم.

ووصلت أنباء ما حدث إلى الكنيسة بسرعة غير عادية، فأثارت ضجة من التعليقات المختلفة، واندفع عدد كبير من الناس - الذين لا يعرفهم كيلر - إليه وهو يشق طريقه نحو الأمير؛ ليسألوه عما حدث. وكان الناس يتبادلون الأحاديث بأصوات مرتفعة، ويهزون رؤوسهم، بل ويتضاحكون. ولم ينصرف أحد منهم من الكنيسة، ذلك أنهم جميعًا كانوا ينتظرون ليروا

كيف سيتلقى العريس هذه الأنباء؟ وتلقاها بوجه شاحب، ولكن في هدوء، ثم غمغم قائلاً بصوت لا يكاد يسمع: «هذا ما كنت أخشى، ولكن لم يخطر ببالى أنه سيحدث...».

وبعد برهة قصيرة من الصمت أردف قائلاً: «ومع ذلك فإن هذا قد يكون منتظراً وهي في تلك الحالة العقلية» وقد قال كيللر فيما بعد معلقاً على هذا القول: «إن تعليق الأمير على الحادث كان قطعة فلسفية لا مثيل لها». وغادر الأمير الكنيسة وهو يبدو أمام الجميع هادئاً مستبشراً، أو هكذا قال بعض الذين رأوه، فيما بعد. وكان يلوح عليه أنه شديد الرغبة في العودة إلى البيت بأسرع وقت ممكن، حيث يُترك منفرداً. ولكنهم لم يسمحوا له بهذا، ذلك أن بعض الضيوف المدعوين تبعوه إلى الغرفة، وكان بينهم بيتسين وجانيا والطبيب الذي بدا أنه غير راغب في العودة إلى بيته أيضاً. وكان البيت عدا المقيمين فيه، محاصراً بجمع حاشد من المتسكعين الفضوليين. وسمع الأمير وهو لا يزال في الشرفة مشادة عنيفة قامت بين كيللر وليبيديف وبين عدد من الناس ينم مظهرهم عن الاحترام البالغ، وعن أنهم غرباء. وكانوا يصرون على دخول الشرفة، فذهب الأمير إليهم بعد أن أزاح من طريقه ليبيديف وكيللر، وخاطب بلباقة سيّداً متين الأسر، أشيب الشعر، كان واقفاً عند درجات الشرفة على رأس عدد قليل من الرجال الراغبين في الدخول. ودعاه الأمير بصوت مهذب ليشرفه بالزيارة وغمر الارتباك السيد الغريب، ولكنه مع هذا تقدم يتبعه اثنان آخران ثم إذا سبعة أو ثمانية أشخاص يشقون طريقهم بين الجمع ودخلوا عن طريق الشرفة أيضاً وهم يتظاهرون بأن الأمر لا يهمهم في كثير أو قليل. ولكن لم يستطع أحد أن يدخل بعد ذلك؛ لأن كثيراً من المحتشدين أخذوا ينتقدون تصرفات الذين شقوا طريقهم إلى

البيت بلا دعوة. أما الذين دخلوا فقد طلب إليهم أن يجلسوا. ولم تلبث المحادثة بين الجميع أن دارت، وقدم الشاي. وقد تم هذا كله في تلطف وترحيب مما أدهش المقتحمين الدخلاء... وقد بُذِلت بطبيعة الحال بعض المحاولات لإنعاش المحادثة وتحويلها إلى «أهم وأعجب حدث» في ذلك اليوم. وأُلقيت بعض الأسئلة «الفضولية» وقيلت بعض الملاحظات «التي لها دلالتها». وأجاب الأمير على كل شخص ببساطة ولباقة، وفي نفس الوقت، بشيء كبير من الوقار والثقة البالغة في آداب سلوك الضيوف مما جعل الأسئلة الفضولية الهوجاء تبدو غير ذات موضوع. ومن ثم اتخذت المناقشة تدريجيًا اتجاهًا جادًا وإذا أحد السادة وقد أثارت إحدى ملاحظات بعض الموجودين يقسم في عنف واستنكار أنه لن يبيع ضيعته، مهما حدث، وإنما سوف ينتظر ويرى لأنه في الواقع جد واثق بأن الأمور ستتحول في النهاية إلى صالحه، وأن تلك «الخطة أفضل من المال، وهكذا أيها السيد العزيز تعرف أسلوبِي إذا شئت أن تعرف» ولما كان موجهاً الحديث إلى الأمير، فقد أخذ هذا يمتدحه بحرارة، وذلك رغم أن لبيديف ظل يهمس في أذنه أن ذلك السيد بالذات لا يملك بيتًا ولا ضيعة من أي نوع. وانقضت ساعة تقريبًا على هذا النحو، وفرغ الجميع من الشاي، وبعد ذلك خجل الضيوف من البقاء أكثر من هذا. ومن ثم صافح الطبيب والرجل ذو الشعر الأشيب الأمير بحرارة ثم انصرفا في شيء من الجلبة الناشئة من حرارة الوداع، وأعرب الكثيرون عن طيب تمنياتهم، وتطايرت في جو الغرفة التعليقات والملاحظات التي مؤداها «أنه لا فائدة من البكاء على ما فات» و«عسى أن تكرر هو شيئًا وهو خير لكم» وما إلى هذا. وقد حاول بعضهم طبعًا أن يغروا الأمير بتقديم الشمبانيا، ولكن الضيوف الأكبر سنًا أفسدوا هذه المحاولة.

ولما انصرف الجميع، انحنى كيللر على لبيديف وقال له: «لو كان ما حدث يخصني أو يخلصك لأثرنا ضجة هائلة، واشتبكنا في عراك عنيف. وفضحنا أنفسنا وانتهى بنا الأمر إلى مخفر الشرطة، أما هو فقد اكتسب أصدقاء جددًا، وأي أصدقاء! إنني أعرفهم».

وهنا تنهد لبيديف الذي كان «مذهولًا» وقال متمثلًا بآية في الإنجيل: «لقد أخفيت هذه الأشياء عن العقلاء والحكماء، وكشفت عنها للأطفال» هذا ما قلته عنه من قبل. وأقول الآن إن الرب قد حفظ الطفل نفسه وأنقذه من الهاوية.. الرب وكل أوليائه الصالحين.

وأخيرًا ترك الأمير بمفرده في نحو الساعة العاشرة والنصف، وكان يشعر بوجع في رأسه. وكان كوليّا آخر من انصرف، إذ ساعده في خلع ملابسه وارتداء ثياب البيت. ثم انصرف بعد أن حياه بمودة وحرارة، ودون أن ينطق طيلة الوقت بكلمة واحدة عما حدث، وإنما وعد بالحضور مبكرًا في اليوم التالي. وكان هو الذي شهد بعد ذلك بأن الأمير لم يقل له - عند انصرافه - أي شيء عما ينوي أن يفعل، أي أنه أخفى مقاصده حتى عنه. وما هي غير لحظات حتى لم يبق أحد تقريبًا في البيت كله. ذلك أن بوردوفسكي كان قد ذهب للمبيت في مسكن إيبوليت، ومضى كيللر ولبيديف إلى مكان ما. ومكثت فيرا لبيديف فقط في جناح الأمير حتى رتبت كل شيء في موضعه المعتاد بسرعة، ثم ألقت نظرة على غرفة الأمير قبل أن تنصرف. وهناك وجدته جالسًا إلى المائدة معتمدًا عليها بمرفقيه وطمأن رأسه بين يديه فمضت إليه برفق، ولمست كتفه، فنظر إليها في ارتباك، وبدأ عليه لمدة دقيقة تقريبًا أنه يحاول أن يتذكر شيئًا. ثم إذا هو - بعد أن تذكر وأدرك ما حدث - ينفعل بشدة. ولكنه على أية حال لم يفعل شيئًا أكثر من أن رجا

فيرا في إلحاح لكي تنقر على باب غرفته في الساعة صباحًا حتى يتمكن من ركوب أول قطار إلى المدينة. ولما وعدته فيرا بذلك، بدأ يرجوها بنفس الإلحاح ألا تخبر أحدًا بهذا الأمر، ووعدته مرة أخرى، ولما ذهبت أخيرًا إلى الباب لتصرف، أوقفها الأمير للمرة الثالثة، وتناول يديها وقبلهما، وقبل منها الجبين، ثم قال لها في لهجة خاصة: «حتى الصباح» أو هذا على الأقل ما قالته فيرا فيما بعد. ثم انصرفت وهي أشد ما تكون قلقًا عليه. ولكن حالتها النفسية تحسنت بعض الشيء في الصباح عندما ذهبت - بمجرد أن بلغت الساعة السابعة - لتنقر على باب غرفة الأمير حسب الاتفاق، وتخبره أن قطار بطرسبرج سيتحرك من المحطة في خلال ربع ساعة، وبدا لها أنه حين فتح لها الباب - كان مستبشرًا، بل وقد ابتسم لها أيضًا، ولاحظت أنه لم يخلع ثيابه المنزلية، ولكنه استغرق كما بدا لها في النوم. وأخبرها أنه قد يعود - كما يعتقد - في المساء. ومن ثم يلوح أنه رأى من الضروري أن يخبرها وحدها في تلك اللحظة أنه ذاهب إلى بطرسبرج.



الفصل الحادي عشر

وبعد ساعة كان قد وصل فعلاً إلى بطرسبرج، وفي الساعة العاشرة صباحاً كان يدق جرس باب المنزل الذي يمتلكه روجوجين. وكان قد دخل عن طريق الباب الأمامي، ولكن مضت فترة طويلة دون أن يجيب عليه أحد، وأخيراً فتح باب شقة والدته روجوجين، وظهرت فيه خادمة عجوز بشوشة الوجه، وقالت له:

- إن المستر روجوجين، غير موجود يا سيدي؟ من الذي تريد؟

- بارفين روجوجين.

- إنه ليس بالبيت يا سيدي.

وفيما كانت الخادمة تفحص الأمير بنظراتها في إمعان، قال هو:

- أيمكن أن تخبريني على الأقل هل قضى ليلته هنا، وهل جاء أمس

بمفرده؟

وظلت الخادمة تحملق فيه دون أن تجيب عليه، وعندئذ قال متلعثماً:

- ألم تكن - ناستاسيا فيليوفنا - معه أمس.. أعني هنا أمس مساء!

- هل أستطيع يا سيدي أن أسال من تكون أنت؟

- الأمير ليو نيكولا يفتش ميشكين، إنني صديق حميم لروججين.
- فأغضبت الخادمة بنظراتها وقالت:
- آسفة يا سيدي، إنه ليس بالبيت.
- وناستاسيا فيليبوفنا.
- إنني لا أعرف أي شيء عن هذا يا سيدي.
- انتظري لحظة. متى سيعود؟
- ولا أعرف هذا أيضًا يا سيدي.
- وأغلقت الباب. وقرر الأمير أن يعود بعد ساعة. ولكنه حين التقى في
الفناء بخفير المنزل سأله قائلاً:
- هل المستر بارفين روججين بالبيت؟
- نعم يا سيدي.
- إذن لماذا قيل لي الآن فقط إنه ليس بالبيت؟
- هل قال لك هذا خادمه الخاص؟
- لا، بل خادمة أمه، لقد دققت جرس باب شقته، ولكن لم يجبني أحد.
- حسنًا يا سيدي، لعله إذن قد خرج، إنه كما ترى يا سيدي لا يخبر
أحدًا، وهو في بعض الأحيان يأخذ معه المفتاح وتظل شقته مغلقة ثلاثة أيام.
- هل أنت واثق أنه كان بالبيت مساء أمس؟
- أجل يا سيدي، وذلك رغم أنه في بعض الأحيان يدخل من الباب
الرئيسي فلا أراه.

- هل كانت ناستاسيا فيليبونا معه؟

- أخشى أنني لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال يا سيدي. فهي لا تأتي إلى هنا كثيرًا. وأظن لو أنها جاءت أمس لعرفت بالأمر.

وانصرف الأمير، وظل فترة من الوقت وهو يروح ويجيء على الطوار في تفكير عميق. وكانت نوافذ الشقة التي يقيم فيها روجوجين، مغلقة كلها. هذا بينما كانت نوافذ شقة أمه مفتوحة كلها تقريبًا. وكان اليوم حارًا مشمسًا، وهكذا انتقل الأمير إلى الجانب الآخر من الشارع وراح يتطلع مرة أخرى إلى النوافذ فوجدها ليست مغلقة فحسب، بل والستائر الداخلية البيضاء مسدلة عليها كلها.

وظل واقفًا في مكانه ذاك لحظة، ثم إذا به - للعجب - يخيل إليه فجأة أن جانب إحدى الستائر قد ارتفع وظهر فيه وجه روجوجين لمدة برهة خاطفة. ولكن ما كاد الأمير يلمحه حتى اختفى، وبعد أن انتظر لحظة أخرى، رأى أن يعود إلى البيت ويدق الجرس، ولكنه غير رأيه وأرجأ الأمر نحو ساعة وهو يقول لنفسه: «من يدري، لعل ما رأيت كان وهمًا...».

وكان أشد ما يتوق إلى عمله في تلك اللحظة، أن يمضي في أسرع وقت ممكن إلى الشقة التي كانت ناستاسيا فيليبونا تقيم فيها أخيرًا. وكان يعرف مكانها لأنها حين تركت بافلوفسك بناء على رجائه منذ ثلاثة أسابيع، جاءت إلى بطرسبرج وأقامت مع صديقة قديمة لها، هي أرملة ناظر مدرسة، وكانت هذه سيدة محترمة وربة أسرة، وكانت تكتسب رزقها بتأجير غرفات فاخرة مفروشة بالقرب من ثكنات إزميلوفسكي. وكانت ناستاسيا فيليبونا تحتفظ بهذه الغرفات المستأجرة لحسابها، ومن ثم فمن

المحتمل - على الأقل - أن تكون قد أمضت الليل في هذه الغرفات التي جاء بها إليها روجوجين طبعاً في الليلة الماضية. واستقل الأمير مركبة، وخطر له في الطريق أنه كان ينبغي عليه أن يذهب إلى مسكن ناستاسيا قبل ذهابه إلى بيت روجوجين؛ لأنه لم يكن من المحتمل أبداً أن تذهب ناستاسيا معه إلى البيت ليلاً. وتذكر أيضاً كلمات خفير المنزل الذي قال إن ناستاسيا لم تكن تذهب إلى بيت روجوجين كثيراً؛ لأنه لم يكن من عاداتها أن تذهب إلى هناك كثيراً، فليس ثمة ما يدعوها إلى الإقامة في بيت روجوجين الآن. وبمثل هذه الأفكار المريحة المنعشة، وصل الأمير أخيراً إلى ثكنات إزميلوفسكي وهو - بسبب الإرهاق - أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

ولكن كم كانت دهشته عندما علم أن أحداً في مسكن الأرملة لم يسمع أو يعرف شيئاً عن ناستاسيا سواء في ذلك اليوم أو اليوم السابق، ولكنهم جميعاً خرجوا لينظروا إليه وكأنه حيوان غريب. لقد خرجت أسرة الأرملة كلها - كل بناتها الثمانية - ابتداء من سن السابعة إلى الخامسة عشرة - وتحلقن حوله، وأخذن يحملقن فيه بأفواه مفعورة. ثم أقبلت بعدهن عمتهن وكانت سيدة طويلة نحيلة تعصب رأسها بمنديل أسود، ثم تبعتها جدتهن وكانت عجوزاً تضع النظارات على عينيها. وطلبت الأرملة من الأمير أن يدخل المسكن ويجلس، ففعل. ثم أدرك فوراً أنهم يعلمون تمام العلم من هو، وأنهم يدركون أن زواجه قد تم بالأمس، ومن ثم يمتن شوقاً ليسألته عن الزواج، وعن السبب العجيب الغريب الذي يدعو له لأن يسأل أين السيدة التي كان ينبغي أن تكون معه في تلك اللحظة في بافلوفسك. ولكنهم كن أكثر أدباً من أن يوجهن إليه مثل هذا السؤال. وقد أرضى فضولهن عن موضوع

الزواج في كلمات قليلة. وقد كانت صبيحات دهشتن وحزنهن صادقة نابعة من القلوب بحيث اضطر لأن يخبرهن بكل شيء - في إيجاز طبعاً. وأخيراً استقر رأي هؤلاء السيدات العاقلات المتأثرات على أنه ينبغي أولاً أن يرغم روجوجين بأية وسيلة على أن يفضي إليه بالحقيقة الكاملة. فإذا لم يكن في بيته «ويجب التأكد من هذا» أو إذا أبى أن يفضي إليه بشيء، فيجب على الأمير أن يذهب إلى ثكنات سيميونوفسكي لمقابلة سيدة ألمانية - هي صديقة لناستاسيا فيليبوفنا حيث تقيم مع أمها، فلعل ناستاسيا في حالة اضطرابها ورغبتها الشديدة للاختفاء، قد أمضت الليل معهما. ونهض الأمير وهو في حالة انهيار تام، وقد قالت السيدات فيما بعد إنه كان يبدو شاحباً جداً، وإن ساقيه في الواقع كادت أن تخذلانه. واستطاع أخيراً أن يفهم من همهمة أصواتهن المختلطة أنهن يردن منه أن يسمح لهن بالتعاون معه، وأن يترك لهن عنوانه، ولمّا لم يكن له محل إقامة، فقد نصحنه بالنزول في فندق ما. وبعد برهة من التفكير، أعطاهن الأمير عنوان الفندق الذي سبق أن نزل فيه، والذي فاجأته نوبة الصرع فيه قبل ذلك بخمسة أسابيع. ثم عاد مرة أخرى إلى بيت روجوجين. وفي هذه المرة لم يجب عليه أحد، لا من شقة روجوجين، ولا من شقة أمه. وهبط الأمير لبحث عن خفير المنزل، وقد عثر عليه بعد مشقة في الفناء. ولكن الخفير كان مشغولاً إلى حد أنه لم يكن يجد الوقت الكافي للإجابة عن أسئلة الأمير أو مجرد النظر إليه. إلا أنه على كل حال قال مؤكداً إن روجوجين غادر البيت في بكور الصباح، وأنه ذهب إلى بافلوفسك، وأنه لن يعود في يومه ذاك.

- لسوف أنتظر.. فربما يأتي في المساء.

- إنه قد لا يأتي لمدة أسبوع كامل يا سيدي! فأنا غير واثق تمامًا
يا سيدي!

- إذن فقد أمضى ليله هنا. أليس كذلك؟

- أجل يا سيدي، أمضى ليله هنا، وكل شيء.

ورأى الأمير أن هذا كله مثير للشك وعدم الاطمئنان. ذلك أنه كان من
المحتمل أن يكون الخفير قد تلقى تعليمات جديدة في تلك الآونة. فقد
كان من قبل كثير الحديث، ثرثارًا، أما الآن فهو يكتفي بإدارة ظهره للأمير.
إلا أن هذا قرر أن يعود مرة أخرى بعد ساعتين، بل وأن يراقب المنزل
إذا لزم الأمر. ولم يبق الآن غير الأمل في أنه قد يجد ناستاسيا فيليبونا
بمسكن السيدة الألمانية، ومن ثم استقل مركبة في الطريق إلى ثكنات
سميونوفسكي.

ولكن السيدة الألمانية وأمها لم تفهما حتى ماذا يريد؟ إلا أنه استطاع
أن يدرك - من كلمات معينة ندت عنها - أن هذه السيدة الألمانية الجميلة
تشاجرت مع ناستاسيا - قبل أسبوعين - مشاجرة عنيفة، ومن ثم لم تعد
تسمع عنها شيئًا طيلة هذه المدة، وأنها تحاول بقدر إمكانها أن تجعله يفهم
أنها غير مهتمة على الإطلاق بأن تسمع أي شيء عن ناستاسيا حتى لو أنها
تزوجت جميع الأمراء في العالم. وبادر الأمير إلى الانصراف مسرعًا. ثم
خطر له أنها - أي ناستاسيا - قد تكون سافرت إلى موسكو كما فعلت من
قبل، وأن روججين بلا شك قد ذهب وراءها أو معها. وقال لنفسه: «أرجو
على الأقل أن أعثر على أثر لها» ثم تذكر أن عليه أن ينزل في فندق ما،
فأسرع إلى شارع ليتيانا. وهناك استأجر غرفة فورًا. ولما سأل النادل إذا

كان يريد أن يأكل، أجاب شارد الذهن أنه يريد، ثم غضب على نفسه بعنف حين تنبه إلى أن الطعام سوف يعطله نصف ساعة. ثم أدرك فيما بعد أنه لم يكن بحاجة إلى ذلك الطعام الذي قُدم إليه. وفيما هو يمر بالدلهيز المظلم غمره إحساس عجيب كان يريد أن يتحول إلى فكرة ما، ولكنه لم يستطع أن يحدد هذه الفكرة الخادعة المراوغة، ومن ثم غادر الفندق أخيرًا وهو في حالة ذهول تام، وأخذ رأسه يدور ويدور.. ولكن.. إلى أين هو ذاهب الآن؟ واندفع مرة أخرى في الطريق إلى بيت روجوجين.

ووجد أن روجوجين لم يعد بعد، ولم يجب أحد على رنين جرس باب مسكن روجوجين، ولما صلصل جرس باب مسكن أم روجوجين، فتحت الخادمة وقالت له إن روجوجين غير موجود، وأنه قد لا يأتي لمدة ثلاثة أيام، ولكن الشيء الذي أثار قلق الأمير - كما حدث من قبل - هو أن الخادمة راحت تنظر إليه بفضول شديد. وفي هذه المرة لم يستطع أن يعثر على خفير المنزل إطلاقًا. وأخيرًا عبر الشارع إلى الطوار المقابل ونظر إلى النوافذ، وراح يذرع المكان جيئة وذهابًا نحو نصف ساعة في الحر الخانق. وفي هذه المرة لم يتحرك شيء. إذ ظلت النوافذ مغلقة، والستائر في أماكنها لا تريم. وانتهى به الرأي إلى أن ما رآه في المرة السابقة كان وهمًا؛ لأن النوافذ كانت تبدو قدرة وكأنما مضى عليها وقت طويل دون تنظيف، وحتى لو أن أحدًا نظر من ورائها لكان من العسير جدًا أن يرى شيئًا. وبعد أن اطمأن إلى هذا الرأي، عاد بالمركبة إلى أرملة ناظر المدرسة في حي ثكنات إزميلوفسكي.

وهناك وجدته في انتظاره، وقد عرف أن الأرملة ذهبت إلى ثلاثة أو أربعة أماكن، منها بيت روجوجين، ولكنها لم تعثر على أثر لناستاسيا

فيليبوفنا! وأنصت الأمير في سكون، ثم دخل الغرفة، وجلس على إحدى الأرائك، وراح يحملق فيهن وكأنما لا يستطيع أن يفهم شيئاً مما قلن. فما أعجب هذا! إنه في لحظة يبدو قوي الملاحظة، ثم إذا هو في اللحظة التالية، يبدو شارد الذهن فجأة إلى حد غريب. وقد أعلنت الأسرة كلها فيما بعد أنه كان في ذلك اليوم شخصاً «عجيباً جداً» وأن «من المحتمل جداً أن جميع أعراض النوبة كانت تتجمع فعلاً» وأخيراً نهض وطلب أن يدخل الجانب الخاص بناستاسيا فيليبوفنا في المسكن، وكان ذلك الجانب الخاص مكوناً من غرفتين واسعتين يغمرهما الضوء، ويزينهما أثاث جميل مما جعل أجر الإقامة فيهما عالياً بلا شك. وذكرت السيدات فيما بعد أن الأمير فحص كل شيء في الغرفتين وأنه رأى على النضد الصغير كتاباً مفتوحاً، هو رواية «مدام بوفاري» الفرنسية وقد انطوى طرف إحدى صفحاتها. وطلب أن يأذن له بأخذه، وقبل أن ينصت إلى اعتراضاتهن بأن الكتاب معار من دار الكتب العامة، أخذه ووضع في جيبه، ثم جلس إلى النافذة. ولما لمح مائدة لعب عليها علامات بالطباشير، سأل عن اللاعبين، ف قيل له إن ناستاسيا اعتادت أن تلعب كل ليلة مع روجوجين كل أنواع لعب الورق المعروفة، وأنهما بدأ اللعب أخيراً، أي عقب عودتهما من بافلوفسك إلى بطرسبرج؛ لأن ناستاسيا كانت تشكو دائماً من الوحدة، وأن روجوجين لم يكن ينطق بكلمة واحدة طيلة تلك الأمسية الأولى لأنه لا يعرف كيف يتحدث عن أي شيء، وكانت تبكي في أحيان كثيرة، وفي مساء اليوم التالي أخرج روجوجين فجأة مجموعة ورق اللعب فضحكت ناستاسيا، وشرعا يلعبان. وسأل الأمير عن المكان الذي وضع فيه ورق اللعب، ولكن السيدات لم يستطعن العثور عليه. وقد قلن إن روجوجين كان يحضر معه دائماً مجموعة جديدة من

ورق اللعب في كل مرة، ثم يأخذها معه عند الانصراف.

ونصحته السيدات بالذهاب لرؤية روجوجين مرة أخرى، ولكن يحسن به هذه المرة أن يطرق على الباب بقوة وعنف. وألا يذهب إلا في المساء «لأنه قد يكون هناك عندئذ» وتطوعت الأرملة للذهاب إلى بافلوفسك قبل حلول المساء لكي تتحدث مع داريا ألكسينا، إذ عسى أن تعرف منها شيئاً. ثم طلبن من الأمير أن يعود إليهن في العاشرة مساء - أيًا كان الأمر - لكي يتم الاتفاق على ما ينبغي عمله في اليوم التالي. ورغم عباراتهن المطمئنة، والآمال التي لوحن بها له، فقد ركن الأمير إلى اليأس التام. وهكذا عاد إلى الفندق وهو في حالة لا توصف من الألم. وكان صيف بطرسبرج الحار الخانق قد ضاعف من سوء حاله، وكان في أثناء ذهابه إلى الفندق يحتك برجال قبيحي المنظر، سكارى، وكان يحملق في وجوه المارة بلا هدف، ولعله كان يسير بسرعة أكثر من اللازم. وكان المساء قد أوشك أن يحل عندما وصل إلى غرفته بالفندق. وقرر أن يستريح قليلاً قبل أن يمضي إلى منزل روجوجين كما قيل له. وجلس على المتكأ، واعتمد بمرفقيه على المائدة، واستغرق في تفكير عميق.

ولا يعرف أحد غير الله كم مضى عليه من الوقت وهو في هذه الحالة، أو ما هي الأفكار التي راودته. لقد كان خائفاً من أشياء كثيرة، بل إن شعوره بالخوف كان مريراً مثيراً لأشد الألم والعذاب. ثم إذا هو يفكر فجأة في فيرا لبيديف، وخطر بباله أن لبيديف ربما عرف شيئاً عن هذا الأمر، وإذا لم يكن، ففي مقدوره أن يعرف بأسرع وأسهل مما يستطيع هو. ثم تذكر إيوليت، إن روجوجين تعود أن يزوره. ثم تذكر روجوجين نفسه كما رآه أخيراً في أثناء مراسم جناز الجنرال إيفولجين، ثم عندما رآه في الحديقة

العامة، ثم عندما رآه هنا، في هذا الفندق مختبئاً في ركن من الدهليز، ومنتظراً والسكين في يده، وأن الأمير ليستطيع الآن أن يتذكر عينيه، عينيه اللتين كانتا تحدجانه في الظلام وانتفض الأمير وقد عادت إليه فجأة تلك الفكرة التي سبق أن راوغته وسخرت منه.

ورأى من ناحية ما أن روجوجين، إذا كان في بطرسبرج، وحتى لو كان مختفياً الآن، فإن الأمر سينتهي به في الوقت المناسب إلى الحضور لزيارته سواء عن قصد سيئ أو حسن، كما حدث من قبل. وأياً كان الأمر، فإذا أراد روجوجين أن يراه لسبب أو لآخر، فسوف يحضر إلى الفندق.. إلى الدهليز مرة أخرى. إنه - أي روجوجين - لا يعرف للأمير عنواناً، ومن ثم فسوف يفترض أنه سينزل في نفس الفندق الذي سبق أن نزل فيه. أو سوف يحاول - على الأقل - أن يبحث عنه فيه؛ إذا كان يريد مقابلته لأمر مهم. ومن يدري؟ فلعله يريد أن يقابله لأمر مهم فعلاً.

هكذا فكر الأمير، وقد رأى لسبب ما أن هذه الفكرة معقولة جداً. ولو أنه حاول أن يحلل هذه الفكرة، لما استطاع بالتأكيد أن يعرف لماذا - مثلاً - يكون ذا أهمية كبرى لروجوجين؟ أو لماذا يستحيل ألا يلتقيا مرة أخرى؟ ومع ذلك فقد استبدت هذه الفكرة به، فراح يقول لنفسه: «إذا كان سعيداً فهو لن يأتي، ولكن الاحتمال كبير في أنه سيأتي إذا كان بائساً. ولا شك في أنه بائس».

وكان ينبغي عليه بطبيعة الحال - وهو على هذا اليقين - أن ينتظر روجوجين في الفندق. ولكن يبدو أنه لم يستطع احتمال فكرته هذه الجديدة، فوثب واقفاً، واختطف قبعته، واندفع خارج غرفته. وكان الظلام

قد أوشك أن ينتشر تمامًا في الدهليز، ومن ثم ومضت هذه الفكرة في ذهن الأمير حين وصل إلى الركن الذي اختبأ فيه روجوجين من قبل «ماذا لو أنه برز لي الآن وأوقفني عند السلم» ولكن لم يبرز إليه أحد. وصل إلى باب الفندق، وسار على الطوار، وتعجب لازدحام المارة الذين كانوا يخرجون إلى الشوارع أفواجًا عند المساء «كما هو الشأن دائمًا في موسم الإجازات في أثناء الصيف ببطرسبرج» وسار في اتجاه شارع جورخوفايا، وعلى مسيرة خمسين ياردة من الفندق، وعند أول مفترق للطرق، لمس أحد المارة ذراعه فجأة وهمس قائلاً في أذنه:

- ليو نيكولايفيتش، تعال معي، أيها الصديق، فإني أريدك.

وكان المتحدث روجوجين.

ومن أعجب العجائب أن الأمير بلغت به الفرحة بحيث راح فجأة يتحدث بسرعة بالغة عن كيف كان يتوقع أن يراه منذ لحظة في دهليز الفندق.

ففاجأه روجوجين بهذه الإجابة:

- لقد كنت هناك. تعال.

ودهش الأمير لهذه الإجابة، ولكنه لم يشعر بهذه الدهشة إلا بعد دقيقتين على الأقل، أي بعد أن أدرك معناها الحقيقي. ولما أدركه، أحس بالخوف وراح ينظر باهتمام إلى روجوجين الذي كان يسير أمامه على مسافة نصف ياردة، متجهًا بنظراته إلى الأمام، دون أن يلتفت إلى المارة الذين كان يشق طريقه بينهم في حذر آلي.

وسأله الأمير فجأة:

- لماذا إذن لم تسأل عني إذا كنت في الفندق؟

وتوقف روجوجين، ونظر إليه، وفكر برهة كأنما لم يفهم السؤال، ثم قال:

- اسمع يا صديقي، عليك أن تذهب إلى هناك.. إلى البيت كما تعرف،
أليس كذلك؟ وسأسير أنا في الجانب الآخر من الشارع، وعليك أن تحافظ
على المسافة لكي نصل إلى البيت معًا.

ثم عبر الشارع إلى الطوار الآخر، وهناك تلفت ليرى هل يسير الأمير
في طريقه؟ فلما رآه متمسراً في مكانه يحملق فيه، لوح له بيده مشيراً إلى
شارع جورخوفايا، ثم سار وهو يتلفت بين لحظة وأخرى ليرى الأمير
وليلوح له بالمضي في السير. ويبدو أنه استراح عندما رأى الأمير يفهمه،
فلم يحاول أن يعبر الشارع لينضم إليه، وخطر ببال الأمير أن روجوجين
كان متلهفًا للبحث عن شخص ما لا يريد أن يفقده في الطريق، ولهذا عبر
الشارع إلى الطوار الآخر. «ولكن لماذا لم يخبرني إذن عن ذلك الشخص
الذي يبحث عنه؟» وهكذا سار الاثنان نحو خمسمائة ياردة، ثم بدأ الأمير
يرتعد لسبب ما، وكان روجوجين يلتفت إليه ولكن باعتدال. ولم يستطع
الأمير أن يحتمل المزيد، فأشار إلى روجوجين ليأتي إليه، فأسرع هذا
نحوه، وعندئذ سأله الأمير قائلاً:

- إن ناستاسيا فيليبوفنا ليست في بيتك، أليس كذلك؟

- بل إنها فيه!

- وقد كنت أنت الذي نظرت إليّ من وراء الستارة هذا الصباح، أليس
كذلك؟

- أجل... -

- ولكن كيف أمكنك؟ -

ولم يدر الأمير ماذا يسأل أكثر من هذا، ولا كيف ينتهي من أسئلته؟ وعدا هذا فقد بلغ من اشتداد خفقان قلبه أنه وجد من العسير الاستمرار في الحديث. وظل روجوجين صامتا أيضًا، وراح ينظر إليه كالمعتاد من قبل، أي نظرات حاملة.

وفجأة قال روجوجين وهو يستعد لعبور الشارع مرة أخرى:

- حسنًا! الأفضل أن أمضي، وما عليك إلا أن تتبعني.. إذ لا يجب أن يرانا أحد في الشارع معًا.. فهذا أفضل.. كل منا في جانب، كما تعلم.

ولما انعطفا أخيرًا في الجانبين المقابلين بشارع جورخوفايا، وشرعا يقتربان من بيت روجوجين، بدأت ساقا الأمير تتخاذلان تحته مرة أخرى بحيث أمسى لا يكاد يستطيع السير. وكانت الساعة قد بلغت العاشرة مساء. وكانت نوافذ مسكن المسز روجوجين «الأم» مفتوحة كشأنها من قبل، وكذلك بقيت نوافذ مسكن روجوجين مغلقة كما هي، وقد بدت ستائرها البيضاء أكثر وضوحًا واقترب الأمير نحو البيت من الطوار المقابل، بينما دخله روجوجين من الطوار القريب وراح يصعد الدرجات الأمامية وهو يلوح بذراعه إليه. وانضم الأمير إليه عند الباب.

وقال روجوجين بصوت هامس وهو يتسم في مكر ورضى عن النفس:

- حتى خفير المنزل لا يعرف أنني عدت.. فقد أخبرته أنني ذاهب إلى بافلوفسك وقلت هذا أيضًا لمن في مسكن أُمي. لسوف تدخل دون أن يشعر بنا أحد.

وكان المفتاح في يده. وقد استدار وهو يصعد الدرجات نحو الأمير وهز أصبعه ليطلب منه أن يكون أكثر حذرًا وهدوءًا في صعوده، ثم فتح باب مسكنه وسمح للأمير بالدخول، ثم تبعه في حذر، وأغلق الباب من الداخل، ووضع المفتاح في جيبه وقال هامسًا:

- هلم.

وكان منذ التقيا في شارع ليتنيانا لا يتحدث إلا هامسًا. ورغم هدوئه الظاهري، كان في الواقع يعاني أشد الاضطراب والاهتياج في أعماق نفسه. ولما دخلا غرفة الاستقبال الكبرى وأوشكا أن يصلا إلى باب غرفة المكتب، سار نحو النافذة وأومأ للأمير إيماء خفيفة لكي يقترب، ثم قال له:

- أترى! عندما دققت الجرس في الصباح، استتجت فورًا أن الطارق أنت لا أحد غيرك. وذهبت إلى الباب في هدوء، على أطراف أصابعي، وسمعتك تتحدث مع خادمة أُمي، وكنت كما ترى قد حذرتها في بكور الصباح وأصدرت إليها تعليمات حازمة تقضي بأنه إذا طرقت أنت الباب، أو أي شخص آخر، أي شخص على الإطلاق، وجب عليها - مهما تكن الظروف - أن تقول إنني غير موجود لا سيما إذا كنت أنت الطارق السائل عني. وذكرت لها اسمك. وبعد أن انصرفت قلت لنفسي: «أعتقد أنه سيقف في الشارع ليتنظر أو ليراقب المنزل» ومن ثم جئت إلى هذه النافذة ورفعت طرف الستارة، وإذا بي أراك تواجهني بنظراتك.. هكذا حدث الأمر.

واستطاع الأمير أن يقول أخيرًا بأنفاس لاهثة:

- ولكن أين.. أين ناستاسيا فيليوفنا؟

فقال روجوجين ببطء وكأنما تعتمد أن يمسك عن الإجابة لحظة:

- إنها.. هنا.

- أين؟

رفع روجوجين عينيه إلى الأمير ونظر إليه، ثم قال:

- تعال.

وكان لا يزال يتحدث في همس، وبلا تسرع، وفي ببطء كما كان يفعل من قبل - أي بنفس اللهجة العجيبة الحالمة. وحتى عندما حدثه عن الستارة، كان يبدو عليه أنه يريد أن يحدثه عن شيء آخر، وذلك رغم الطلاقة التي كان يحدثه بها.

ودخلا معاً إلى غرفة المكتب، ولاحظ الأمير أن ثمة تغييراً طرأ على الغرفة منذ أن كان بها آخر مرة. فثمة ستارة من الحرير الأخضر امتدت عبر الغرفة كلها، ويمكن إزاحتها جانباً عند الطلب، وقد قسمت هذه الستارة الغرفة إلى قسمين: المكتب والمخدع، الذي يضم سرير روجوجين. وكانت الستارة مرفوعة من الجانبين، ولكن الظلام كان منتشرًا في الغرفة؛ لأن ليالي صيف بطرسبرج «البيضاء» قد بدأت تظلم، ولولا القمر الذي كان بدرًا، لأمسى من العسير جدًّا أن يتبين الإنسان أي شيء في مسكن روجوجين ذي الستائر المسدلة. ولكن كلاً منهما كان يستطيع أن يرى وجه الآخر، وإن لم يكن بوضوح تام. وكان وجه روجوجين شاحبًا كالمعتاد وهو يركز نظراته على الأمير بعينيه المتوهجتين.

وسأله الأمير قائلاً:

- لماذا لا تضيء الشمعدان؟

فقال روجوجين وهو يمسك بيد الأمير ويجلسه على مقعد:

- لا، لا أظن أنني سأفعل هذا.

ثم جلس قبالة بعد أن قرب كرسيه بحيث أوشكت ركبهما أن تتلامسا.
وكانت بينهما منضدة مستديرة صغيرة. وعاد روجوجين يقول كأنما يريد أن
يقنع الأمير بالبقاء حيث هو:

- اجلس. هلم نجلس هنا برهة.

وبعد لحظة صمت أردف روجوجين قائلاً في لهجة الذين يبدأون
الحديث أحياناً بموضوع تافه لا علاقة له بالموضوع الرئيسي:

- كنت أعرف أنك تقيم بالفندق. وبمجرد أن وصلت إلى الدهليز،
قلت لنفسني: أظن أنه جالس الآن في انتظاري كما أنا في انتظاره في هذه
اللحظة. هل ذهبت لزيارة أرملة الناظر؟

وقال الأمير وهو ينتزع الكلمات من فمه لفرط خفقان قلبه:

- أجل.

- لقد فكرت في هذا أيضاً. وفكرت أيضاً في أننا لا بد أن نتبادل
الحديث، ومن ثم رأيت أنه يحسن أن آتي بك هنا الليلة حتى يمكننا أن
نقضي الليلة معاً مثل..

فهمس الأمير فجأة وهو ينهض وكل جسمه يرتعد:

- روجوجين! أين ناستاسيا فيليوفنا؟

فنهض روجوجين وأشار إلى الستارة همساً قائلاً:

- هناك.

- نائمة؟

ومرة أخرى ركز روجو جين نظراته على الأمير بإمعان وقال هامساً:
- أعتقد أنه يحسن أن تأتي وترى.. ولكن كن على.. حسناً.. هلم.
ورفع طرف الستارة، وتوقف، ثم استدار إلى الأمير مرة أخرى ثم أوماً
برأسه وقال يدعوه للدخول أولاً:

- ادخل.

ودخل الأمير ثم قال:

- إن الظلام شديد هنا.

فغمغم روجو جين قائلاً:

- ألا ترى؟

- أرى الفراش بصعوبة.

فاقترح روجو جين عليه بصوت رقيق:

- إذن اقرب.

وخطا الأمير خطوة، ثم أخرى، ثم تسمر في مكانه. تسمر في مكانه لا
يريم وراح يحملق فيما أمامه لحظة أو لحظتين، ولم ينطق أحدهما بكلمة
وهما واقفان بجوار الفراش. وكان قلب الأمير يخفق بعنف بحيث بدا له
أنه يستطيع سماع نبضاته في الغرفة.. في سكونها المطلق. وكانت عيناه قد
تعودتا على الظلام، فأمسى في مقدوره أن يرى السرير بأجمعه. وقد رأى
شخصاً ما راقداً عليه، مستغرقاً في النوم لا يريم بحيث لم يكن يسمع عنه
أية حركة أو أقل نائمة تنفس، وكان النائم مغطى من القدمين إلى الرأس

بغطاء أبيض، ولكن الأطراف كانت على نحو ما، واضحة تحته. وكانت هذه الأطراف والسمت الخارجي العام هي المعالم التي أمكن بها معرفة أن الراقد تحت الغطاء مخلوق بشري. وقد رأى الأمير أيضًا ملابس الزفاف الحريرية البيضاء والزهور والشرائط مبعثرة في كل مكان: على السرير، وعلى المقعد المجاور له، بل وعلى الأرض. ورأى أيضًا على منضدة صغيرة مستديرة بجانب رأس السرير حليًا ماسية كانت قد أُلقيت عليها، فبقيت في مكانها تتألق. وعند قاعدة السرير كان ثمة ملابس من الوشي الرقيق متراكمة في كومة صغيرة، وفوق هذا الوشي الأبيض برز طرف قدم عارية من تحت الغطاء وقد بدا عليها أنها نحتت من الرخام، كما كانت ساكنة بشكل يثير الفزع. وأخذ الأمير ينظر، وكلما طال به النظر، ازداد إحساسًا بما يخيم على الغرفة من سكون شبيه بسكون الموت. وفجأة استيقظت ذبابة من نومها، فراحت تطن، وبعد أن طارت فوق السرير حطت رحالها عند رأسه. وانتفض الأمير في وقفته.

وقال روجوجين وهو يلمس ذراعه:

- هلم نعد.

وعاد الاثنان إلى مقعديهما وإلى مواجهة أحدهما الآخر مرة أخرى. وكانت رعدة الأمير تزداد قوة لحظة بعد أخرى، كما لم يكن في مقدوره أن يحول عينيه عن وجه روجوجين الذي قال أخيرًا:

- ألاحظ أنك ترتعد يا صديقي، نفس الرعدة - تقريبًا - التي كانت تعتريك عندما تصاب بنوبة من نوباتك - أتذكر! لقد اعترتك إحداها في موسكو أو كالتى كانت تعتريك قبل النوبة مباشرة. وأنا لا أستطيع أن أفكر

فيما سأفعله بك الآن...

- أأنت فعلت هذا؟

فهمس روجوجين قائلاً وهو يغضي عينيه:

- أجل.. أنا.

وخيم الصمت عليهما نحو خمس دقائق.

وفجأة استطرد روجوجين قائلاً وكأنما لم يتوقف لحظة عن الحديث:

- لأنك، كما ترى، لو مرضت الآن وأصبت بنوبة صرع وبدأت في الصراخ، فإن بعض الناس قد يسمعونك في الشارع أو في الفناء، ويستنتجون أن بعض الأشخاص يقضون الليل في المسكن، وعندئذ سيبدأون في الطرق على الباب، ويدخلون؛ لأنهم، كما ترى، يظنون أنني غير موجود بالمسكن. وأنا لم أوقد شمعة واحدة حتى لا يظن أحد أنني مقيم الليلة في المسكن. والمعتاد أنني حين أرحل عن المسكن، أحرص على أخذ المفاتيح معي، ومن ثم فإن أحداً لا يدخله لتنظيفه أو ترتيبه عندما أكون في الخارج لمدة ثلاثة أو أربعة أيام. هذه هي أوامري. وأعني بهذا أنني أريد التأكد من أن أحداً لا يعرف أننا قضينا الليلة هنا...

فقال الأمير:

- مهلاً.. لقد سألت خفير المنزل وخادمة والدتك في الصباح هل أمضت ناستاسيا فيليبوفنا الليلة هنا؟ وعلى هذا فلا بد أنهما يعرفان كما أظن.

- أنا أعرف أنك سألتهما، وقد قلت للخادمة إن ناستاسيا فيليبوفنا

جاءت أمس هنا ثم رحلت إلى بافلوفسك في نفس الليلة، وأنها لم تمكث هنا إلا عشر دقائق فقط. وهما لا يعرفان أنها أمضت الليلة هنا- لا أحد يعرف. لقد دخلت معها بهدوء تام في الليلة الماضية، كما فعلت معك الآن. وكنت أظن ونحن في الطريق إلى هنا أنها لن تقبل الدخول معي أبدًا- ولكن، إنها لم تمنع لحظة، بل سارت على أصابع قدميها، وجمعت أطراف ثوبها حولها وأمسكت بها- حتى لا يصدر عنها أي حسيس- ووضعت أصبعها على شفتيها ونحن نصعد السلم. وكانت خائفة منك أنت بالذات، بل كاد الخوف منك أن يقتلها في القطار، وكانت هي التي اقترحت قضاء الليلة هنا. وقد فكرت في بادئ الأمر أن أمضي بها إلى مسكنها في بيت أرملة الناظر- ولكن، يا للسماء- لقد قالت «لا.. إنه سيجدني هنا في الصباح. ولكن عليك أن تخبئي، وفي الصباح سنرحل إلى موسكو في أول قطار» وكانت تريد أن تذهب إلى أوريول، وقد ظلت تردد قولها، عندما آوت إلى فراشها، إننا سنذهب إلى أوريول.

- مهلاً! وماذا تنوي أن تفعل الآن يا بارفين؟ ماذا تريد أن تفعل؟

- حسنًا! إنني كما ترى لست أدري على وجه اليقين ماذا أفعل بك؟ فأنت لا تكف عن الارتعاد. ولهذا أرى أنني قد أتخذ من وسادتي الأريكتين فراشًا بجوار الستارة لي ولك. أترى؟ وهكذا نبقي معًا؛ ذلك لأنهم إذا جاءوا وشرعوا في البحث والتفتيش، فسوف يرونها فورًا يأخذونها. ثم يبدؤون في استجوابي، وعندئذ أقول لهم إنني الذي فعلت هذا. وعندئذ يأخذونني فورًا. وعلى هذا فلندعها ترقد هنا بجوارنا.. بجوارك وجواري...

فوافق الأمير قائلًا بحماسة:

- أجل.. أجل..

- وعلى هذا فلن نعترف ولن ندعهم يأخذونها منا.

فقال الأمير بحزم:

- لا، لن يأخذوها بأي ثمن.. لا، لا، لا.

- أجل. لقد قررت ألا يأخذوها بأي ثمن يا صديقي.. كما لن يأخذها أحد غيرهم! لسوف نقضي الليلة هنا بسكون. وأنا لم أغادر المسكن إلا ساعة واحدة في الصباح، أما بقية الوقت فقد مكثته معها هنا. ثم ذهبت للبحث عنك في المساء. والشيء الوحيد الذي أخشاه هو أن المسكن صغير وخانق ومن المحتمل أن تفوح الرائحة سريعاً.. هل تشم أية آثار لرائحة؟

- ربما.. فأنا لا أدري، ولكن سوف تفوح الرائحة غداً بالتأكيد.

- لقد غطيتها بقماش أمريكي.. قماش أمريكي جيد، وفوقه غطاء، ووضعت أربع زجاجات مفتوحة فيها مطهر ماركة زدانوف.. إنها معها الآن.

- تمامًا كما يفعلون هناك.. في موسكو!

- لأن المشكلة يا صديقي كما ترى، هذه الرائحة.. وأنت تعرف الطريقة الراقدة بها هناك... لسوف نلقي عليها نظرة في الصباح.. عندما تشرق الشمس. ماذا بك؟ ألا تستطيع أن تتحرك من مقعدك..؟

قال روجوجين هذا في قلق ودهشة بعد أن لاحظ أن الأمير يرتعد بشدة ولا يستطيع النهوض.

وغمغم الأمير قائلاً:

- إن ساقى تأبيان أن تتحركا. وهذا من الخوف، كما أعلم.. وعندما يزول الخوف سأنهض.

- انتظر حتى أعد الفراش، ثم يمكنك بعد ذلك أن ترقد- وسوف أرقد بجوارك.. وسوف ننصت؛ لأنني كما ترى يا صديقي لا أعرف بعد.. لا أعرف كل شيء بعد.. وأنا أقول لك هذا في الوقت المناسب؛ لكي تعرف كل شيء عنه في الوقت المناسب أيضاً.

وبعد أن غمغم بهذه الكلمات الغامضة، بدأ روجوجين في إعداد الفراش، وكان من الواضح أنه فكر في هذا الفراش منذ الصباح. وكان في الليلة السابقة قد رقد على الأريكة. ولكن لم يكن ثمة مجال لاثنتين عليها، ومن ثم قرر أن يناما جنباً إلى جنب، وكان ذلك هو السبب في أنه أخذ يجر كل أنواع الوسائد والحشايا بجهد كبير من الأريكتين عبر الغرفة ويضع بعضها بجوار بعض بالقرب من الستارة. وهكذا استطاع على نحو ما أن يعد فراشاً. ثم مضى إلى الأمير وتناول ذراعه في رفق وحنان وأنهضه وسار به إلى الفراش، ولكن بدا أن الأمير استطاع أن يسير بمفرده، ومعنى هذا أن «خوفه» كان في طريق الزوال. ومع ذلك ظل يرتعد.

وبعد أن أرقد الأمير على الوسادة اليسرى، الأحسن، وبعد أن رقد هو على اليمين دون أن يخلع ملابسه، وبعد أن عقد يديه تحت رأسه، قال فجأة:

- لأن الجو كما ترى يا صديقي حار الآن، ولا بد أن تفوح الرائحة كما تعلم. وأنا أخشى أن أفتح النوافذ. ولكن لأمي أصص زهور مليئة بها، وهي جميلة زكية الرائحة. وقد فكرت في إحضارها، ولكنني خشيت أن

تظن خادمته العجوز شيئاً، لا سيما أنها فضولية بطبعها.

فوافق الأمير قائلاً:

- إنها كذلك.

- كان في مقدورنا أن نشترى كمية منها طبعاً، وأن نضع الباقات والأكاليل في كل مكان حولها، ولكن ألا ترى يا صديقي أن وجود الأزهار حولها وفوقها سيجعلنا نشعر بالبؤس والشقاء!

فقال الأمير وكأنما اختلطت عليه الأمور تماماً، أو كأنما يحاول أن يفكر فيما سيقول، ولكنه ينسى بسرعة:

- اسمع. بماذا قتلتها؟ بسكين، بنفس السكين.

- أجل.. بنفس السكين.

- انتظر لحظة! أريد أن أسألك عن شيء آخر يا بارفين. لسوف أضطر لأن ألقى عليك أسئلة كثيرة عن.. عن كل شيء. ولكن يحسن أن تخبرني أولاً- وقبل كل شيء، وذلك لكي أعرف- هل كنت تنوي أن تقتلها قبل الزواج، قبل أن تدخل الكنيسة.. عند بابها.. بنفس السكين.. هل كنت تنوي هذا أم لا؟

فقال روجوجين بجفاء وكأنما دهش لهذا السؤال ولم يستوعبه تماماً:

- إنني لا أدري هل انتويت هذا أم لا.

- إنك لم تأخذ السكين معك إلى بافلوفسك. أليس كذلك؟

- لا.. لم أخذها. وهذا ما أستطيع أن أذكره لك بشأن السكين أيها

الصديق.

ثم أردف قائلاً بعد برهة صمت:

- لقد تناولتها من درج مغلق في هذا الصباح - لأن.. لأن هذا كله قد حدث في الصباح، في نحو الساعة الرابعة صباحاً. وكنت أحتفظ بها في كتاب كل هذا الوقت ثم.. ثم كان هناك شيء آخر طريف.. لقد غاص نصل السكين ثلاث أو أربع بوصات تحت الثدي الأيسر، ومع ذلك لم ينبثق من دمها على القميص إلا ملء ملعقة طعام.. ولا قطرة أخرى.

فانتصب الأمير جالساً في احتياج شديد وقال:

- إن هذا.. إن هذا.. إن هذا ما أعرفه.. ما قرأت عنه.. إنه يسمى النزيف الداخلي.. وفي بعض الأحيان لا تنبثق إلى الخارج قطرة دم واحدة، إذا كانت الطعنة في القلب مباشرة...

فقاطعه روجوجين وهو يجلس فجأة على الوسادة وقد تملكه الرعب:

- انتظر!! أسمع! أسمع!

فأجاب الأمير بسرعة وخوف وهو ينظر إلى روجوجين:

- لا.

- وقع أقدام! أسمع؟ في غرفة الجلوس.

وأخذ الاثنان يرهفان السمع. ثم قال الأمير هامساً:

- إني أسمع.

- وقع أقدام!

- أجل.

- هل نغلق الباب أم لا؟

- هلم نغلقه.

وأغلقا الباب، ثم رقدا جنباً إلى جنب مرة أخرى، ومرت فترة طويلة دون أن ينطق أحدهما بكلمة.

وفجأة صاح الأمير بصوت هامس سريع منفعل وقد جلس في الفراش وكأنما خطرت له مرة أخرى فكرة ويخشى أن تفلت منه:

- أوه، نعم. كنت أنوي أن أسألك عن.. عن أوراق اللعب تلك..
أوراق اللعب. لقد قيل لي إنك اعتدت أن تلعب الورق معها.

فقال روجوجين بعد برهة صمت:

- أجل.

- وأين.. أين أوراق اللعب؟

فقال روجوجين بعد أن صمت برهة أطول:

- هنا.. إنها هنا.

ثم تناول من جيبه مجموعة ورق لعب قديمة، مغلفة بقطعة ورق، وقدمها للأمير، فأخذها هذا ولكن كأنما لا يدري ماذا يفعل بها؟ وعندئذ جثم على قلبه إحساس جديد من الحزن والوحشة. ثم أدرك فجأة في تلك اللحظة أنه في وقت ما فيما مضى، لم يكن يقول ما كان يريد أن يقول، وكان يفعل ما لا ينبغي أن يفعل. وإن أوراق اللعب هذه التي يمسك بها، والتي كان يسره الحصول عليها، لم تعد ذات فائدة الآن - لم تعد ذات فائدة على الإطلاق - ونهض، ورفع يديه في حزن وسخط. وظل روجوجين راقداً في

سكون دون أن يبدو عليه أنه يرى أو يسمع شيئاً، ولكن عينيه كانتا تبرقان في الظلام وهو يرسل منهما نظرات ثابتة. وجلس الأمير على مقعد وبدأ ينظر إليه في رعب. وبعد أن مر نصف ساعة، إذا روجوجين يرسل فجأة صرخة عالية ثم يبدأ في الضحك بأعلى صوته وكأنما نسي أن عليه أن يتحدث همساً.

وقال بصوته المرتفع:

- الضابط.. ذلك الضابط. أتذكر كيف ضربت ذلك الضابط بالسوط! أتذكر.. ها، ها، ها.. ثم الجندي.. ذلك الجندي الذي اندفع إلى..

ووثب الأمير من مقعده وقد استبد به رعب جديد. حتى إذا هدأ روجوجين، «وقد هدأ فجأة» انحنى الأمير عليه برفق، وجلس بجواره، وبدأ يمعن النظر إليه وقلبه يخفق بعنف شديد، وأنفاسه تلهث. ولم يلتفت روجوجين برأسه نحوه، بل لقد لاح عليه في الواقع أنه نسي كل شيء عنه، وأخذ الأمير ينظر وينتظر وبدأ الوقت يمر، والضوء ينتشر، وبين الحين والآخر كان روجوجين يرسل فجأة دمدمة وغمغمة غير مفهومة وبصوت أجش مرتفع. وكان يبدأ هذه الغمغمة بالصراخ والضحك. ولم يكن في وسع الأمير إلا أن يمد يده المرتعدة ويلمس جبينه وشعره ويمس عليهما ويربت خديه، ولا شيء غير هذا. وبدأ هو يرتعد مرة أخرى، ولاح أن ساقيه سوف تتخللانه فجأة مرة أخرى. وكان ثمة إحساس جديد يجثم على صدره، ويشير في قلبه الألم المرير. وانتشر ضوء الصباح أخيراً، فرقد الأمير على الوسادة وكأنما هو أشد ما يكون إرهاقاً وبأساً. ثم ضغط بوجهه على وجه روجوجين الساكن الشاحب، وفاضت الدموع من عينيه على خدي روجوجين، ولكن

لعله لم يكن هو يشعر بدموعه هذه، بل ولا يعرف عنها شيئاً.

وأياً كان الأمر، فعندما فتح الباب بعد ساعات طوال وأقبل الناس، وجدوا القاتل مغشياً عليه وفي حالة هذيان من فرط الحمى. وكان الأمير جالساً في سكون تام بجانبه، وكلما انفجر المريض في الصراخ والهذيان، أسرع الأمير ومد يده المرتعدة ومسح بها على شعره ووجنتيه، وكأنما يهدئ من روعه ويخفف عنه. إلا أنه لم يعد يستطيع أن يفهم الأسئلة الموجهة إليه، ولم يعد يعرف أحداً من الذين دخلوا الغرفة وتحلقوا حوله. ولو أن شنيدر نفسه قد جاء من سويسرا الآن، وألقى نظرة على تلميذه ومريضه السابق، متذكراً الحالة التي كان الأمير يبدو فيها في أثناء العلاج في السنة الأولى بسويسرا، لطوح بيده في يأس، ولقال، كما قال يومذاك: «أبله تماماً».



الفصل الثاني عشر

الخاتمة

عندما وصلت أرملة الناظر إلى بافلوفسك، ذهبت مباشرة لزيارة داريا ألكسينا التي حزنت أشد الحزن لما حدث في اليوم السابق وحدثتها بكل ما عرفت، وأثارت في نفسها أشد الفزع. وقررت السيدتان فوراً أن تتصلا بليبيديف الذي كان بدوره مضطرباً إلى حد كبير بصفته صديقاً للسكان عنده والمؤجر المسكن له. وحدثتهما فيرا ليبيديف بكل ما تعلم. وبناء على نصيحة ليبيديف قرر الثلاثة وجوب الذهاب إلى بطرسبرج لإنقاذ - في أسرع وقت ممكن - «ما يمكن إنقاذه». وهكذا فتح مسكن روجوجين في صباح اليوم التالي، في نحو الساعة الحادية عشرة، وفي حضور رجال الشرطة، وفي حضور ليبيديف والسيدتين، وسيميون روجوجين الذي كان يقيم في جناح بالمنزل. وكان التوفيق في البحث والتحري يرجع إلى حد كبير إلى خفير المنزل الذي قال إنه رأى روجوجين في الليلة السابقة يدخل البيت من الباب الأمامي مع صديق بطريقة مثيرة للشك. ولم يتردد رجال الشرطة بعد ذلك في تحطيم الباب وفتحه بعد أن دقوا الجرس مدة طويلة بلا جدوى.

واستطاع روجوجين أن ينجو من إصابته بالتهاب المخ الذي استمر معه شهرين. ولما استرد صحته قُدم للتحقيق ثم المحاكمة، ولما اعترف بكل صغيرة وكبيرة اعترافاً صريحاً واضحاً مرضياً، حفظت القضية بالنسبة للأمير منذ بدء التحقيق. وفي أثناء المحاكمة لم يحاول روجوجين أن يتكلم، ولم يعارض محاميه البارع البليغ الذي أثبت بطريقة واضحة منطقية أن الجريمة كانت نتيجة الحمى المخية التي أصابته قبل ارتكاب الجريمة بوقت طويل، والتي تسببت عن الحزن العميق الذي عاناه المتهم. ولكن روجوجين لم يضيف من لدنه شيئاً ليؤكد هذا الرأي، ذلك لأنه في أثناء التحقيقات الأولية كان قد اعترف بكل شيء اعترافاً دقيقاً صريحاً، وتذكر كل صغيرة وكبيرة من تفاصيل الجريمة. وقد حكم عليه - نظراً لهذه الظروف المخففة - بالأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً في سيبيريا. وسمع الحكم في جهامة وسكون و«سمت حالم» وكانت ثروته الضخمة قد آلت كلها - فيما عدا الجزء القليل نسبياً الذي ضاع في أثناء الشهور الأولى القليلة من لهوه وإسرافه - إلى أخيه سيميون الذي امتلأ قلبه سعادة ورضا بها. أما أمه العجوز، أم روجوجين، فلا تزال على قيد الحياة، ويبدو عليها أنها أحياناً تتذكر ابنها الحبيب بارفين، ولكن في شيء من الغموض. لقد أراح الله عقلها وقلبها من إدراك حقيقة الكارثة التي أصابت بيتها المفعم بالأحزان.

ولا يزال لبيديف وكيلر وجانيا وبيتسين وغيرهم من شخصيات قصتنا يعيشون حياتهم المعتادة من قبل، مع تغيير بسيط - ولم يعد لدينا تقريباً ما نقوله عنهم. ومات إيبوليت وهو في حالة احتياج شديد، وقبل الموعد الذي كان يتوقعه بقليل - بعد موت ناستاسيا فيليبوفنا بأسبوعين. وكان وقع هذه الأحداث كلها على كوليا عنيفاً.. ومن ثم راحت علاقته بأمه تزداد قوة

وعمقاً. وكانت أمه - من جانبها - شديدة القلق عليه وهي تراه أعمق تفكيراً مما يتفق مع سنه. ومن المحتمل جداً أن ينمو ليصبح رجلاً واقعياً من رجال الأعمال. ويرجع الفضل إلى جهوده - بهذه المناسبة - في تأمين مستقبل الأمير. ذلك أنه اختار إيفيني بافلوفيتش - دون جميع الذين يعرفهم - ليتخذ منه صديقاً يعتمد عليه. ومن ثم بادر بالذهاب إليه أولاً وأخبره بكل ما يعرف من تفاصيل الأحداث الأخيرة، وبما يعرفه عن حالة الأمير. ولم يخب ظنه في إيفيني بافلوفيتش الذي اهتم أشد الاهتمام بمصير «الأبله» البائس. وكانت نتيجة جهوده ومساعدته أن وجد الأمير نفسه مرة أخرى في مصحة شنيدر السويسرية. وكان إيفيني الذي سافر إلى الخارج ليمضي في أوروبا وقتاً طويلاً، والذي كان يقول عن نفسه بصراحة إنه «رجل تافه تمامًا في روسيا» يزور صديقه المريض في مصحة شنيدر كثيرًا أو على الأقل - مرة كل بضعة أشهر - إلا أن شنيدر كان يتجهم ويهز رأسه ويلمح بأن مريضه يعاني من حالة انهيار عقلي تام. إنه لا يقول على وجه اليقين إن مرض الأمير لا علاج له. ولكنه يذكر فقط أسوأ الاحتمالات. وأحزنت هذه الحالة قلب إيفيني بافلوفيتش، وإن له قلباً، والدليل عليه أنه لا يزال يتلقى الرسائل من كوليا، بل ويحجب عليها بين الحين والآخر. ولكن، بجانب هذا، برز جانب آخر عجيب من جوانب شخصيته، نذكره هنا بسرعة: ذلك أنه كان بعد كل زيارة لمصحة شنيدر، يرسل خطاباً إلى كوليا، وخطاباً آخر إلى شخصية ما في بطرسبرج يشرح فيه لها كل التفاصيل عن حالة الأمير في ذلك الحين. وكانت هذه الخطابات تحتوي - عدا عبارات الولاء والاحترام - على شيء كثير من وجهات نظره، وتأملاته، ومشاعره - وعلى الجملة، شيء يمكن أن يكون بداية لصداقة ومشاعر ودية. هذه الشخصية التي كان يرسلها «وإن

كانت المراسلة بينهما لم تكن منتظمة» والتي ظفرت منه بكل هذا الاهتمام والاحترام، هي فيرا الليبيديف ونحن لم نستطع أبداً أن نعرف على وجه اليقين كيف أمكن أن تقوم مثل هذه العلاقة بينهما. لقد قامت، طبعاً، نتيجة لما أصاب الأمير من سوء الحظ الذي جعل فيرا تمرض من فرط الأسى والحزن. ولكننا لا نعرف كيف تحولت معرفة أحدهما بالآخر إلى صداقة. وقد ذكرنا أمر هذه الرسائل خاصة لأنها تحتوي أبناء آل إيبانشين، لا سيما أجلايا إيبانشين. لقد كتب إيفيني عنها من باريس خطاباً مطولاً بعض الشيء، قال فيه إنها بعد علاقة قصيرة عجيبة بلاجئ بولندي يحمل لقب كونت، عقدت زواجها عليه فجأة ضد رغبة أهلها الذين اضطروا في النهاية إلى إعلان موافقتهم حتى يتجنبوا فضيحة مدوية. وبعد ستة أشهر كتب إيفيني لفيرا خطاباً آخر مطولاً ذكر فيه أنه التقى في أثناء زيارته الأخيرة للأمير في مصحة شنيدر بأسرة إيبانشين كلها «فيما عدا طبعاً الجنرال إيبانشين الذي أقعدته شواغله في بطرسبرج» ومعها الأمير «س». وكان اجتماع الشمل عجبياً. وقد حيا الجميع إيفيني في ابتهاج شديد، بل وأعربت كل من أدليدا وألكسندرا عن عرفانهما بحميله «لما بذله من رعاية ملائكية للأمير المسكين» وبكت المسز إيبانشين بمرارة حين رأت الأمير في حالته المرضية المهيئة. وكان من الواضح أنهم غفروا له كل شيء. وعرف الأمير «س» كيف يلطف الجو ببعض النوادر الفكهة الطريفة. ولم يسع إيفيني بافلوفيتش إلا الشعور بأنه أي الأمير «س» وأدليدا لم يصبحا بعد صديقين حميمين. ولكن بدا له أنه لا مندوحة في المستقبل من أن تسلم أدليدا عن طواعية، وبحكم طبيعتها المندفعة، قيادها لخبرة الأمير «س» ونضجه الثقافي. وعدا هذا، فإن الدروس التي تلقتهما الأسرة، لا سيما الدرس التي تلقته في موضوع أجلايا

مع الكونت اللاجئ، وهو درس ترك في نفوس أفراد الأسرة أكبر التأثير. ذلك أن كل شيء كانت الأسرة تخشاه من موافقتها على زواج أجلايا من الكونت قد تحقق في خلال ستة أشهر، بالإضافة إلى تطورات عجيبة لم تكن الأسرة تحلم بها. فقد ظهر أن ذلك «الكونت» لم يكن «كونتًا» على الإطلاق، وإذا كان لاجئًا حقًا، فإنما بسبب ما مظلم مشير للشكوك. لقد فتن أجلايا بتصرفاته الروحية النبيلة العجيبة، وبتعبيره البالغ عن آلامه وأحزانه على وطنه المهيبض، وقد بلغ من افتتانها به أنها أصبحت - حتى قبل الزواج - عضوًا في جمعية دولية لاسترداد بولندا، وأكثر من هذا وجدت نفسها في حفل اعترافات دينية كاثوليكية برئاسة كاهن مشهور استطاع أن يسيطر على عقلها إلى حد التعصب الجنوني. وثبت أن ثروة الكونت الضخمة التي قدم عنها للأمير «س» والمسز إيبانشين أدلة حاسمة، لا وجود لها. وأكثر من هذا استطاع الكونت وصديقه الكاهن المشهور أن يثيرا - خلال ستة أشهر بعد الزواج - خصومة عنيفة بين أجلايا وبين أسرتهما مما جعل أفرادها لا يرون أجلايا مدة شهور عديدة. وعلى الجملة كانت الأقوال كثيرة جدًا. ولكن بلغت صدمة المسز إيبانشين وابنتيها والأمير «س» من كل هذا «الفرع» أنهم كانوا يخشون حتى من الخوض في الحديث عن أشياء معينة مع إيفيني بافلوفيتش، وذلك مع علمهم التام بأن إيفيني يدري تمامًا آخر مزعجات أجلايا. وكانت المسز إيبانشين تهفو للعودة إلى روسيا، وكانت - بناء على أقوال إيفيني بافلوفيتش - تنتقد بمرارة وبلا إنصاف كل شيء خارج بلادها «إنهم لا يعرفون كيف يصنعون خبرًا طيبًا في أي مكان، وهم يتجمدون في أقيبتهم كالجرذان في الشتاء» ثم تضيف إلى قولها هذا مشيرة بانفعال إلى الأمير الذي لم يظهر أي دليل على معرفته لها «لسوف أثيرها على الأقل

ضجة روسية من أجل هذا المواطن المسكين . كفانا انسياً وراء حماسنا .
وقد آن الوقت لنستغفر ونتعقل . ثم إن كل هذا .. كل هذه الحياة في الخارج ..
كل قارتك الأوروبية هذه مجرد وهم .. ونحن جميعاً خارج بلادنا أوهام» .
ثم اختتمت حديثها فيما يقرب من الغضب وهي تودع إيفيني
بافلوفيتش ..

- فكر فيما أقول، وسوف ترى بنفسك .



تم الكتاب

